

نقد لا ينفك

الحياة الجديدة

الطبعة الأولى

أغسطس ١٩٣٦

مطبعة المجلة الجديدة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

أهدت « المجلة الجديدة » إلى كل مشترك من مشتركينها
هذا العام نسخة من هذا الكتاب

عنوان المؤلف
١٠٥ شارع روض الفرج بالقاهرة



صورة المؤلف

obeykandi.com

تقديم

في هذا الكتاب أكثر من ستين بحثاً ، ثلثها الأول بحوث عالمية ، وثالثها مسائل مصرية ،
والثلث الأخير دراسات أدبية وفنية مختلفة . وهي في مجملها تجمع كثيراً من هموم العصر الحاضر
التي تشغل اليوم أفكارنا ..

ولما كان من المحال حصر هموم العصر ومشاكله ، العالمية منها والمصرية ، في كتاب واحد
فقد اقتصرنا على ما يستطيع هذا الكتاب تحمله على أن أتبعه فيما بعد بكتب أخرى مختلفة الموضوعات
وكذلك لم يكن من المستطاع في جل هذه الأبحاث قصرها على مقال واحد مقتضب أو نبذة
واحدة بجملة ، إذ كان من الواجب أن ينفرد كل بحث منها بكتاب خاص يلهم أشقات الموضوع .
إلا أن هذه الدراسات الجملة إن لم تشبع محب البحث ، فهي على الأقل تشير في الكثيرين شوقاً إلى
التوسع والاستزادة من المراجع العالمية الأخرى ، وهي بذلك تكون هوامش ومقدمات لمن شاء
البحث والتعمق ..

وقد كتبت بحوث هذا الكتاب في فترات مختلفة لاختوتى الشبيبة المصرية الجديدة ، لتبادل
معاً شيئاً من الأفكار والآراء التي تهتم أهل هذا العصر . ولست أعتقد مطلقاً أنني أتيت بعمل
فني أو بتحفة أدبية ، ولكنني أعتقد أنني أدت جزءاً من الواجب المفروض أدائه على كل كاتب
وفي الكتاب بعض الأبحاث التي تبدو لأول وهلة قديمة ، كالبحث مثلاً في القوة الخالقة أو
الروح ، إلا أن مثل هذه البحوث مازالت على الرغم من قدمها جديدة وستظل جديدة في المستقبل .
ثم أن الحياة الجديدة لا تقتصر على أفكار خلقها العصر الجديد ، فثمة أسس قديمة مازالت تسند كل
جديد . ونحن انما نهيكى حياة جديدة مازالت مرتبطة بالماضي ومتطلعة نحو المستقبل ..

وفي بعض هذه البحوث تفكير هادئ ، وفي بعضها الآخر نقد حر وتعليم صريح ، ولكن
ليس فيها جميعاً كلمة واحدة تخالف ضميري ، ومبادئ ، فهي صادرة عن نفس مفعمة بالأخلاص والحب
لمصر أولاً ، وللإنسانية كلها ثانياً ..

ومجال النقد في هذا الكتاب فسيح ، وهو المجال الذي يصول فيه أعداء التجديد عندنا كل ساعة ،
وما أخذ النقد هذه لا أجعلها ولكن يشفع لي فيها هذا الاخلاص وهذا الحب . وأنا لم أسع إلى
إرضاء كل الناس أو كل النقاد قبل أن أسعى إلى إرضاء هذا الضمير الذي حثني على كتابتها ونشرها
وكفاني ما أحمل على رأسي من هموم الإنسانية كأنها همومي الخاصة ..

وسيجد القاريء انتقالاً مفاجئاً بين هذه البحوث فمن فلسفة في الحياة ، إلى نقد اجتماعي ، إلى

اقتصاديات ، إلى نظرات عامة في الآداب والفنون ، ومن أسلوب شعري إلى أسلوب الأرقام والاحصائيات . ولكن هذه سمعة عصرنا الجديد الذي لا يكتفى بالتأملات الفلسفية والأخيلة الشعرية فقط ، بل هو أيضا يسعى وراء الحقائق التي لا مفر من ذكرها ومعالجتها ، فنحن الى جانب تفكيرنا في الله والطبيعة لا نتعاضد من شقاء الملاح المصري وضعف عقبة الامم ، ونحن في دهوتنا الى التجديد في الأدب والموسيقى وغيرهما لا نستطيع أن نتجاهل مشكلة العاطلين وانتشار الأمية بمصر وتصلح الدول الأوروبية ..

وقد بدأت حياتي الأدبية أنظم الشعر وأثره وأقنع بما يكتنفني من أحلام ذهبية ، ونشرت في ذلك كتبها فيها سذاجة الحداثة ، ولكنني شبيت واتسعت أمامي دائرة الحياة ، فلم أستطع الجلوس في وحدتي أترنم وأحلم ، بينما اخوتي الناس يتخبطون في القوضى خارج بيتي ويهكون المظالم والفاقة والبطالة ، فكانت تصل إلى أذني أصوات شكواياتهم وأوجاعهم وهي تتصاعد نحو السماء وتعلأ نفسي بالأمسى والمرارة ، وتزيدني حماسة في طلب الإصلاح والتجديد ، وقد فعني إلى الخوض في هذا الزحام ، لعل أقوم بخدمة أو أضمد جرحا ..

إن إصلاح العالم وتجديده يحتاج إلى جهود الآلهة ولكن لو عمل كل فرد على أن يضع في حياته لبنة واحدة في صرح هذا الإصلاح ، كل في الناحية التي تتسق مع مواهبه ، لتغيرت الأرض في زمن وجيز ..

ومن لم يشأ أن يعمل مع المصلحين والمجددين فليؤمن بعبادتهم ، ومن لا يريد أن يعمل ولا يؤمن ، فليكنهم شره وليدعهم في سبيلهم يعملون ، ولا يتسرب في الظلام ليهدم ما يهيئون ..

وفي الكتاب بعض المواضيع التي قصد منها إلى الرياضة الذهنية أو الى الترفيه عن النفس سأم الدرس الجاف ، كما في الخواطر المذكورة في أواخر الكتاب ، وبه بعض المقطوعات الشعرية التي تعود إلى تلك السنوات التي اصطحبت فيها عرائس الشعر مع المؤلف ، كما جاء به بعض الساعات مع قليل من الشعراء لم يكن انتباههم دون غيرهم مقصودا ..

فيقول شبيب

obeykandi.com

مبادئ، جمهورية لعصر جديد

حياتنا الآن تختلف عن حياة أجدادنا، فقد تجددت العلوم والمعارف وتجددت أساليب العيش، وتجددت النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فنحن إذاً قارنا حياتنا اليوم بحياة الأجيال السالفة حتى أقربها إلينا لوجدنا البون واضحاً ولوصلنا إلى القول بأننا نحيا الآن حياة جديدة.. ولما كان لكل عصر مبادئه التي وصل إليها عن طريق ما بلغه من تقدم في نواحي النشاط البشري، فإن لعصرنا الجديد مبادئه بعضها جديد وبعضها لا يزال يتصل بنسب إلى مبادئ العصور القديمة كالفضائل الانسانية مثلاً..

والمبدأ الأول الذي يجب أن نولي عنايتنا في الدرس والبحث والذي يؤدي بنا إلى معرفة أنفسنا ومعرفة العالم الذي نعيش فيه، هو مبدأ التطور الذي يقول بنشوء الكائنات وارتقاها..

وإذا كان الكون وجميع ما فيه من حيوان ونبات وجماد يخضع لناموس التطور، وإذا كان الغرض من الوجود هو التدرج من حسن إلى أحسن، حتى نصل نحن ومن يأتي بعدنا إلى غاية عظمى لا يتصورها اليوم خيالنا، فأنسا إذاً نعيش كل يوم في جديد ونحن أنفسنا نتطور وتتجدد في كل حين..

ونحن لم نعط هذه الحياة عبثاً ومأهولة، بل لأنها هي فوق إدراكنا وما يصل إليه إدراكنا اليوم أننا خلقنا لترقى بنفوسنا وبمن حولنا إلى أسمى درجة نستطيعها..

وسموا المرء بنفسه وبمن حوله من اخوته الناس هو محور فلسفة يجب أن نحيا من أجلها ونحاول تطبيقها في حياتنا اليومية، وهذا النوع من الفلسفة يستدعي نوا من التضحية وكثيراً من المشاق لأن الصعود لا يخلو دائماً من تعب ومشقة..

ولسنا في قولنا بأن غاية الحياة هي السمو بعبتدين، لأن الارتقاء هو ناموس الكون وما فيه والمحور الذي تدور حوله العوالم كلها. فالكائنات حيها وجمادها تتدرج من البسيط إلى المركب وتتطور من الأدنى إلى الأعلى. وهذا الناموس الذي يسرى على الجماد والنبات والحيوان منذ الأبد هو الذي يحث الانسان على الرقي العقلي والنفساني ويدفع بالانسانية الى الامام..

ولذا فأننا يجب أن نتفاهل بمصير البشرية ونعتقد أنها تمتاز محناً وتجارب لترقى وتقدم، وأننا نسير إلى الامام على الرغم مما نخوضه من أحوال ومستنقعات ودليلنا على ذلك ما بلغناه اليوم من تقدم في العلوم والاكتشافات والمبادئ، بالنسبة إلى العصور السالفة..

ونحن على الرغم من امتزاجنا بالحاضر، لا نستطيع هدم الماضي الذي يعيش فينا وحولنا كما

لا نستطيع أن نسبق عصرنا كثيراً ونعيش في المستقبل الذي نتخيل أحياناً بعضاً من صوره . وكل ما في مقدورنا هو أن نسير مع القافلة لئلا نضل الطريق ، متطلعين دائماً إلى الأمام لا إلى الوراء . .

والقرن العشرين الذي نعيش فيه أن هو إلا استمرار وتكملة وتطور ، وليس هو بالوحدة الزمنية القائمة بذاتها . ورجل القرن العشرين هو الإنسان المتطور وليس بالفرد الخلق . خلقاً جديداً . . وفي الماضي صور جميلة وصور قبيحة . وفي عصرنا الحاضر صور أجمل وكذا صور أقبح ولكن ذلك لا يدفعنا إلى الاهتمام الشديد بالماضي الميت لأن الحاضر على الرغم من نقائصه أعظم وأجمل من الأمس . ونحن كما يقول ولز أسعد حالا من أسلافنا من الوجهة العامة . ولأن مسائل عصرنا ومشاكله تمس حياتنا وتؤثر فينا وتستدعي بذل الجهود في سبيل درسها وتذليل صعوباتها . عالمين أن نقائص العصر وعيوبه إنما ترجع إلى عصر الكثيرين عن الانتفاع بثمار التطور وتخلفهم عن دراسة الجديد وخوفهم من كل جديد . .

وقد يكون التغنى بالماضي جميلاً من بعض النواحي ، إلا أن التغنى بمجد المستقبل أجمل وأكثر نفعاً ، وكثيراً ما يكون التعلق بالماضي وهما يصطدم بالواقع الجديد ويسبب للبشرية شتى المتاعب . وفي رأى هافلوك اليس : « إذا أردنا أن نكون على وفاق مع العالم وجب أن نكون على خلاف مع أنفسنا القديمة » وذلك لأن الرجل الذي يتعلق بآرائه الماضية ولا يغيرها إنما يتعلق بشيء ليس له به علاقة . .

فالذين ينساقون اليوم مثلاً بأفكار الامبراطورية الرومانية ويحلمون بعودة سطوتها وسلطانها لا يجارون الحاضر الجديد المتطور ولا يتطلعون إلى مستقبل جديد يقول بتوحيد الشعوب وتعاونها على أساس الحرية والمساواة حتى تستطيع تحقيق مبادئ العالمية الجديدة . فهم ولا يخلقون بأوهامهم الرجعية حزازات ومشاكل وحروب هي في مقدمة نقائص العهد الجديد . .

والذين يقولون مثلاً بالروابط الدينية التي تجمع بين الشعوب هم بين المتخلفين الذي لا يشعرون بما دخل العقائد والأديان من تطور دفعها إلى معارف صوفية لا تربط اليوم شعباً بآخر بل تربط النفس البشرية بخالفها وحده . .

والذين يترفعون بالمحافظة على التقاليد ومجارات السلف في عاداتهم وكتاباتهم ولباسهم وعقائدهم هم أبعد الناس عن دراسة الحياة الحاضرة المتطورة وما وراءها من مستقبل جديد له تقاليده وأساليبه ومبادئه . .

والذين يتغنون بأبهة الغزوات وأفكار الحروب والفتوحات ، ويعجبون بالقوة المسلحة ، هم

الذين لم تخلص نفوسهم من شوائب الحمجية القديمة ، ولا يدينون بالولاء للعالم ، وبمعجبة السلام العام . ولا بد أن يسمو المستقبل القريب أو البعيد بهذه القرائن الوحشية الموروثة التي تتلذذ بمراى الدماء وتخريب البلاد . ويومذاك نخجل من ذكر الحروب ونحتقر أسماء الفاتحين والغزاة . .

وهكذا فإن التطور الذي سما بالإنسان الغابات إلى إنسان اليوم والذي انتقل بالمعصر الحجري إلى عصر اللاسلكي قد ارتقى أيضاً بالتفكير البشرى وأتى بمبادئ بعضها جديد وبعضها قديم في دور التحقيق . وهذه المبادئ الجديدة يجب أن نكون منها براجمنا ويجب أن يوليها كل كاتب وكل مفكر عنايته ويجهل منها الحاكم المصلح غايته . .

وبهذا يمكن الحكم على عقلية كل كاتب أو مصلح من مبلغ اهتمامه برقي المجتمع ومسايرته لروح العصر المتطور . فإذا طاد أحدنا إلى القديم فالسكى يصور لنا جهالا نقتده وحسناً يمكن الرجوع اليه ، وبذلك تكون دراستنا للقدماء من أجل المقارنة بين عصورهم وعصرنا للعبرة واقتباس النافع وليس لتعويض في تلك الأجواء القديمة واجترار عقائد الاقدمين وميولهم وتقديس فعالمهم وتقليد أقوالهم وأشعارهم . .

وكل اصلاح وكل نهضة وكل ثورة انما هي وليدة المبدأ . . والمبادئ العظيمة وليدة التفكير المنطقي الحر . وكلما ارتقت النفس ورغبت في خير الانسانية وخدمتها كلما جاءت المبادئ علوية ملهمة . .

ونحن أراء المبادئ نخدم وطنين لهما هلينا حقوق وواجبات . إذ لكل منا وطنان ، وطن أصغر محصور بين حدود جغرافية معينة ، ووطن أعظم يشمل السكون كله هو تراث الانسانية كلها الذي يجعل من البشر جميعا أخوة مرتبطين المصالح . .

* * *

ومصر هي وطننا الأصغر الذي نشأنا تحت سمائه وكل مصري أو مصرية مكلف بوضع لبنة في صرح مجده ونهضته ، ولو بتضحية مصلحته الشخصية بل بتضحية حياته في سبيل المجموع ، وليس من الخير الاتسكال على غيره من العاملين ، والتفرج بنشاط الآخرين . وفي سبيل اسعاد هذا الوطن متسع للجميع إذ نواحي الاصلاح متعددة غير محصورة . وأول مبدأ يجب أن نعمل على تحقيقه بشتى الوسائل السامية هو تحريره السياسى والاقتصادى والفكرى . فقد آن الوقت الذى تستقل فيه مصر وبقية الشعوب الناهضة عن حكم القوى ، ليمير كل شعب على قدميه وحده . وهذا الاستقلال الذى يعيد للشعوب كرامتها وحريتها في العمل سيكون مقدمة للاتحاد العالمى الذى يتحدث به مفكرو العصر الحاضر إذ لا يمكن أن تتآخى الأمم وتتعاون في وحدة هامة والقوى مازال مستبدأ بالضعيف . .

وسيحقق استقلال مصر السياسى مبادئ عديدة ، مثل إلغاء الحزبية التى تمزق شمل الوطن والمحسوبية التى يوضح منها الجميع ، ومثل إلغاء الامتيازات الأجنبية والاختصاص القنصلى والمحاكم المحتلة ، وسريان التشريع المصرى على الأجانب ، والتفريغ بعد ذلك النضال السياسى الطويل الذى شغل البلاد وكتابها ومفكرها إلى تحقيق مسائل حيوية هامة تبدأ بالقضاء على الأمية والجهل الخيمين على بلادنا فنستطيع أن ننشر التعليم اجباريا ومجانا ، ونؤسس بضعة ألوف من المدارس الابتدائية والثانوية والصناعية والزراعية وغيرها . ونضع المناهج الثابتة والنظم المدرسية المستقرة ونصل بنسبة المتعلمين بالتدريج من العشرين فى المائة الحالية إلى مائة فى المائة كغيرنا من الأمم المتحضرة . .

ولتحقيق استقلالنا الاقتصادى علينا بإنشاء عشرات الشركات المصرية الكبرى على نسق شركات بنك مصر ، واكتتاب المصريين فى تكوين رؤوس أموالها واقتبالهم على أسسها . وعلينا بتحسين الانتاج الزراعى وزيادة غلة الأرض وادخال الأساليب الزراعية الحديثة فى كل نواحي القطر . واستخدام الآلات الميكانيكية والقضاء على الآفات الزراعية ، وإيجاد أسواق جديدة لبيع المحصولات المصرية مع تحسين أنواعها . .

ثم نحل مشكلة الديون المصرية العامة التى تورطت فيها البلاد فأثقلت كاهلها . وكذا مشكلة الديون العقارية التى تعمل على نزع ملكية الاراضى وانتقالها إلى أيدي الأجانب ومصارفهم المالية . إذ يجب أن يكون كل ملاك الأرض المصرية من المصريين مع توزيع الثروة بين الأفراد بالعدل . كما يجب أن تترك المصارف التى استغلت حاجة المزارعين جزءاً من تلك الديون العقارية وأن تمتد آجالها إلى عشرات السنين . .

ولننشىء أسطولا تجاريا مصرية ينقل حاصلاتنا ومتاجرنا إلى مختلف الأقطار . ولنعمل على تحسين المواصلات فى بلادنا فنعبد الطرق ونحسن مجرى النيل ليكون صالحا للملاحة طول العام وننظم الملاحة الجوية . . ولنكثّر من المعارض الدورية والمعارض الدائمة فى جميع عواصم المديرىات . ولنشيد مئات المصانع فى أنحاء القطر لسد حاجات البلاد من المنسوجات والملابس والورق والزجاج والأسمدة والأغذية وغيرها . . وننشط فى استغلال المهاجر المصرية ومناجمها المعدنية المهمة ، وننشر الروح التعاونى بين الصناع المصريين لأن زمن الانفرادية قد انقضى ولأن أسواق اليوم لا تعرف غير الانتاج التعاونى القائم على جهود الجماعات . .

وعلىنا نحو العامل المصرى واجبات أهمها إنشاء مصلحة حكومية خاصة بالعمل والعمال تلحق بوزارة التجارة والصناعة لتشرف على تنظيم نقابات العمال لمختلف المهن والصناعات وصيانتها ومراقبتها ،

ولتجمل مشكلة العمال العاطلين وتشغيل الأحداث والنساء ، وتنظر في تحسين حالتهم المالية والأدبية وفي توفير الشروط الصحية في أماكن العمل . وتضمن العامل أجره وعيشه . وتحدد له ساعات العمل وأيام الراحة أسبوعية وسنوية ، فلا يكون العبوة في يد صاحب العمل ويجوز تنقيته في عمله . وتقف في وجه استيراد العمال الأجانب من الخارج . وبالجملة تهدد القوانين واللوائح لنظام الحركة العمالية بمصر وصلتها بمكتب العمل الدولي . .

أما الفلاح المصري فله في أعناقنا حقوق هضمتها أجيال الظلام . فهو كما نعلم جميعاً أمي جاهل يعيش في عزلة عن العالم وعن أحواله الاقتصادية . وهو فقير مدم يسكن الزرائب مع بهائم . وهو مبتلى بصنوف الأمراض المعروفة وباستبداد الملاك وبحيل السماسرة والمرابين . .

ولنذكر أن أكثر من عشرة ملايين من سكان هذا القطر لا يملكون شيئاً أو يملكون دون الخمسة أفدنة وإن متوسط الدخل للواحد من سكان مصر اثنتي عشر جنيهاً في السنة . وأن ما يتناوله الفلاح الأجير ثلاثة قروش في اليوم . فنحن في فقر مدقع نحن العائشين في جنسنا مزروعة يسقيها النيل ١ .

فاذا أنصفنا أغانا الفلاح فأنما ننصف البلاد المصرية كلها ، وعليها واجب تعليمه ، كأن ننشر ونصلح التعليم الإلزامي ، والتعليم الإقليمي الذي يعني بتلقين أبنائه تلك المواد التي تتفق مع إقليمهم وما يشتهر به من غلات . وعليها أن تؤسس الوف القرى على نسق قرية بهتيم النموذجية . . وإن ننشر الدعاية الصحية للقضاء على ويلات الريف . ونوفر للفلاح الماء الصالح للشرب والأنارة ، وننشئ في القرى عيادات طبية مجانية ومتاحف زراعية وصحية صغيرة ، ونعمم بها الإذاعة اللاسلكية . . ونعالج مشكلة هجرة أبناء الريف إلى المدن هرباً من الجوع . ونعمم الجمعيات التعاونية وهناديق التعاون في كل القرى . ونصلح الأراضي البور التي تشغل عدة ملايين من الأفدنة في نواحي القطر ونوزعها على الفلاحين المعدمين . وننهض بمشروعات الري ونحول ري الحياض في الصعيد إلى ري هيفي . .

يبقى لدينا كثير من الواجبات الوطنية يتحتم علينا القيام بها بتضافر الجهود كل في الناحية التي تخصه ، مادامنا نضع المصلحة العامة نصب أعيننا . فثمة الجيش المصري في حاجة إلى الخلق والتجديد مادام مبدأ السلام لم يعم بعد هذا العالم الذي يستبد به نفر من الساسة والرأسماليين . وثمة حاجتنا إلى مصنع مصري كبير يخرج لنا مئات الطائرات . . وأمامنا مشكلة ازدياد السكان بالقطر وإيقاف تيار الهجرة الأجنبية إلى مصر ، وفتح أبواب السودان المصري في وجه المهاجرين والصناع والزراع المصريين . وثمة توثيق عرى الصلات الاقتصادية والأدبية مع جاراتنا الشرقيات كالحبشة وسوريا

وفلسطين والعراق وإيران والحجاز واليمن . . وثمة مسألة تجميل المدن وتنسيقها على نمط عصري صحي، وتزيينها بالحدائق والتماثيل والنافورات والأشجار البديعة المنظر، وتشبيد المتاحف والمكتاتب العامة، والمعارض الدائمة في عواصم المديرية والمدن الكبرى . . وعلينا اهتمام الحاضرة الأوروبية والانتفاع بالاختراعات والمكتشفات الحديثة لاسيما ما تعيننا على ترقية صناعتنا وزراعتنا وشعواننا الصحية والمدرسية . .

وأمامنا مسألة المرأة المصرية وتعليمها ومساواتها بأخيهما الرجل في الحقوق، وإنشاء الأندية الرياضية والأندية لها . . وثمة تجديد الأدب والنهوض باللغة ونشر المطبوعات النافعة وتجديد الموسيقى الشرقية وسائر الفنون الجميلة . .



أما وطننا الأكبر الذي تستوطنه امنا الانسانية ففي خيره خيرنا، لأن كل وطن صغير بمثابة عضو في جسم العالم وما يصيب الجسم يؤثر في سائر الأعضاء . وقد مضى الزمن الذي كانت تعيش فيه الأمم في عزلة وغربة لا تبالى بما يصيب جيرانها . وليس هناك ما يمنع من اتحاد الشعوب تدريجياً تحت لواء واحد . . والعالمية هي المبدأ الانساني الخطير الذي يتحقق به السلام ورفعة البشرية . . وهي مسألة المستقبل التي سيحققها التقدم العلمي تدريجياً بعد أن يهدأ هذا الاضطراب الذي أثارته الحرب العظمى ومعاهداتها، ويزيد طينه بلة نفر من العسكريين والساسة والرأسماليين وذوى المصالح وأى مبدأ أسمى وأجمل من وحدة الأمم وتعاونها وارتباطها كما ترتبط أعضاء الأسرة الواحدة تشرف عليها حكومة عالمية واحدة مثل عصبة الأمم ! يوم يصبح هذا الكوكب الصغير وطناً واحداً للانسانية واحدة تسعى نحو الأعلى التي ينشدها التطور !

وأى حلم أبعد من تصور هذا الكوكب يتفاهم شعوبه بلغة عالمية مشتركة وقد زالت من العيون غشاوة التعصب الجنسي واللغوي والديني، وعمل الجسيم على توحيد العملة والأسعار والمقاييس والتقويم والأزياء والأعياد ويوم الراحة والتعريفات الجركية والدوق الموسيقى والأدب ! وحبنا للانسانية ورغبتنا في خيرها وارتقاءها يدفعنا إلى اعتبار بقية الدول شقيقات لنا، ما يقع لاحداها يؤثر فينا، ولهذا كان من أسمى المبادئ كراهة الحرب تشب بين أولئك الشقيقات . . وموضوع الحرب والسلم يجب أن يشغل رؤوس أهل هذا العصر . وعلينا أن نعد السلام ديناً جديداً له أتباعه والداعون إليه . .

ولذا وجب علينا درس أسباب الحروب وتسليحها . والوسائل العملية التي تؤدي إلى زوالها . وضمان فض المنازعات الدولية بالتحكيم والمؤتمرات، والطرق الموصلة إلى نزع السلاح وهدم

الحصون . وفي سبيل السلم علينا أن نستبعد من كتب التاريخ التي يدرسها أبنائنا كل إشادة بمجد الفتح والغزو ، ووصف الطعان والنزال ، وكل تقديس لأبطال الحروب وقواد المعارك ، وأن نتجنب تلقينهم تلك القصائد التي تطنب في مدح السيوف ومن يصلح بها في حومة الوغى لتطويح الجاهل وشق الرؤوس ! مما تكتظ به أدبيات الشعوب ولغاتها ..

فإن شئنا أن ننشئ للجيل الجديد رجالا ينزعون إلى السلم ويعتقون المجازر الحربية وكل من يثيرها وكل من يغتم ويحقق مصلحة الخاصة من وراءها ، علينا أن نكف عن تلك الأساليب القديمة التي ترضى غرائز الصغار ، وإن شئنا أمثلة للبطولة فإن التاريخ نفسه مليء بأسماء اخنايون واديسون وباستور وولسون وفاندي وعشرات غيرهم من خدام الانسانية وأبطالها ..

بل علينا أن نغير ذلك الأسلوب العتيق في دراسة التاريخ ، ذلك الأسلوب الذي يسرد أسماء الملوك والقواد وحروبهم وهزيمتهم وانتصاراتهم ، بأن يكون التاريخ تقريراً عن حالة الشعوب الاجتماعية والاقتصادية وغيرها .. بل لقد آن الوقت الذي يكون فيه التاريخ شاملاً لحالة الانسانية وتطورها كما فعل ولز في كتابه تاريخ العالم ..

وفي سبيل تلك المبادئ السامية علينا أن نفكر في تعديل معاهدة فرساي وما تلاها من معاهدات مؤسسة على المصلحة الخاصة لا العامة ، وعلى املاء القوى الظافر الذي لا يفكر في المساواة مما دفع هتلر إلى القول بلسان شعبه : « لا أعتقد أنه يمكن أن يكون سلم في العالم مادامت الشعوب لا تعامل على أساس المساواة وأنا مؤمن بالسلم ولكي لا أدري كيف يمكن إقامة النظام في العالم إذا كانت السياسة تضطر الشعب المظلوم إلى التفكير دائماً في الانتقام » ..

وخريطة العالم السياسية الحاضرة في حاجة إلى تبديل وتنقيح في سبيل السلام أيضا ، فثمة أمم عديدة رسم لها القوى حدودها الجغرافية دون النظر إلى مصالح تلك الامم كما حدث للنمسا والمجر والمانيا وغيرها . وثمة أمم من حقها الاستقلال بنفسها عن انتداب أو حكم غيرها كهمر وسودانها وسوريا ولبنانها ، وكالهند ، وجاوه وغيرها . وثمة أمم قفل في وجهها باب الاستعمار فهاجمت غيرها من الدول المستقلة . وما فتئ ضمير العالم نائرا ساخطا على اعتداء اليابان على جارتها الصين وهجوم ايطاليا الغريب على الحبشة ، وهذا الضمير الذي تطور في العصر الحاضر لن يرضى عن اعتداءات جديدة من دول تعتر بقوتها الحربية على دول أقل منها قوة عسكرية ..

وهنا يجدر بالساسة وعصبة الامم أن يحلوا مشكلة الاستعمار وتوزيع المستعمرات بطريقة أخرى تتفق مع روح العدل والسلم وتوزيع الخمامات .. ونظرة واحدة إلى خريطة العالم ترينا تلك القوضى في توزيع المستعمرات على قليل من الدول وحرمان الاكثرية من مستعمرات مثلها ..

فإذا ما استراح العالم القلق من ذلك الموضوع الأبدي موضوع التسليح والحرب والسلام أمكنه السير شيئاً فهو تحقيق غايات أخرى كثيرة . فنعين مازلنا نلهو على شاطئه الوجود وأماننا ذلك المحيط اللانهائي يعج بالأسرار والعجائب ، وللعلم أن يكشف عن خفايا الكون في جو هادئ مطمئن فيه تتعاون الشعوب معاً في البحث ، وتبادل الثقافة وتشترك في الانتفاع بالكتشفات والاخترعات . ونحن لم نخلق على هذه الأرض لتتجارب وتتسلح ونضرب البلاد الآمنة بالهزات وتبادل الكراهة والسباب والمقاطعة وفرض العقوبات . بل خلقنا لترتقي ونسمر بأنفسنا وبمن حولنا من أخوتنا البشر ..

ولم تبلغ البشرية بعد سن الرشد كما يقول ولز . وأماننا كثير لنؤديه . . « ولا يمكن الإنسان أن يؤدي أعمال الآلهة — كما يقول ولسون — ولكنني أخدم شأنًا لا أبالي بعده ما سوف يحدث لشخصي » ..

والإيمان بالتطور يثبت فينا التفاؤل بمصير البشرية ، ويرينا أننا نسير إلى الامام رغم ما يعترضنا من صعاب ، وعلينا أن نخدم التطور بالإيمان بما يأتيه من مبادئ واكتشافات .. وهنا نستريح من شر الحروب العسكرية ونفرغ للقضاء على الحرب الاقتصادية التي تشب اليوم في العالم وتفسد في نظامه الاجتماعي وتنتشر الفقر والبطالة والازمات المالية .. ومن التدابير اللازمة لمعالجة المشكلات الاقتصادية والمالية إقامة عيار نقدي دولي على أساس ثابت فنقضي بذلك على الاضطراب في العملة وتقلبات سعر النقد . وفي سبيل تغير السياسة الاقتصادية الحاضرة يجب إزالة الحواجز والصعوبات الجمركية التي تقف في وجه التجارة ، والعمل على توزيع المواد الخام توزيعاً عادلاً ، وتدير الكميات الهائلة من الحاصلات الزراعية والمواد الأولية المخزونة في العالم ولا تزال تتراكم وتزداد إلى درجة التخلص من كثيرها بالحرق والاتلاف بينا هناك الملايين من الجائعين ..

ثم نقدم على حل مشكلة العمال العاطلين في العالم الذين يقدرهم اليوم مكتب العمل الدولي بأكثر من ثلاثين مليوناً وأى مثل أغرب من وجود تسعة ملايين من العاطلين في الولايات المتحدة التي تملك نصف فحم العالم وخمس الحديد ونصف الذهب الموجود في العالم كله ! وحل تلك المشاكل في مقدور كبار الاقتصاديين في الأمم الحاضرة ولكنه ضعف روح التفاهم والانصاف وهي الحزازات القومية وغيرها تحول بينهم وبين الإصلاح المنشود ..

ثم تأتي مسألة المهاجرة إلى البقاع الخالية والأراضي البائرة المسيحة المحتاجة إلى تعمير كما نرى في استراليا وكندا وأفريقيا وشمال آسيا وغيرها ، فإن الانصاف يقضي بالتعجيل في حل ذلك لشكل الذي تعرقه أصابع السياسة ..

وبين تلك المبادئ الجديدة ما هو انساني نبيل مثل كراهية الرق والعمل على النساء في كل الأرض ، ومثل انصاف المنبوذين بالهند ، والغاء البغاء ، وابطال التسول والتشرد ومحاربة الاجرام والفقر والمخدرات ، ومقت الاستبداد والديكتاتورية وارسقراطية المال ، ونشر مبادئ الديمقراطية في العالم والغاء الألقاب والرتب ماعدا الألقاب العلمية . والاقتناع بعد التجارب العلمية التي قام بها العلماء بان أجناس البشر على اختلاف ألوانها من اسود واصفر وأحمر وابيض متساوية في العقلية متائلة في الحواس ، وأن الرأي القائل بتفوق الجنس الأبيض لا يقوم على أساس علمي . .

وكذا اعتناق التسامح ومقت التعصب لغير الحق والعدل . ودراسة أديان البشر المختلفة دراسة توصلنا إلى أن كل الأديان متشابهة في الجوهر متصلة في المصدر « وانه ان اختلفت الطرق المؤدية الى المثل الاعلى فان المثل يبقى واحدا » . ونزيد الصلة بين الدين والعلم . ونعمل على الاستغناء عن الشعوذة والطقوس الشاذة والعقائد الخرافية . ونبطل نظام الرهبنة والاقطاع عن الناس لكي ينزل الجميع الى ميدان الخدمة العامة . .

وتتطور رأفتنا بالطير والحيوان إلى الكف عن تسخيرها وابداها بالآلات ، ثم الكف عن ذبحها وأكلها باكتشاف أغذية تغنيها عن تلك القسوة الدموية البشعة . .

و تتكاثف في درس مسألة زيادة سكان العالم المطردة ، وما يتبعها من دراسة الوجودية وما يتعلق بها من تحسين النسل وتحديدته وتعقيم غير الصالحين للتوليد في سبيل اصلاح النوع البشري . وبذا ننصرف عن العدد الى الجودة وعن الكم الى الكيف . وقد قطع بنا التطور في هذه النظريات شوطا حسنا حين صدر في المانيا قانون يقضى بالتعقيم الاجباري لخير المجتمع يمنع كل مريض بمرض يمكن توريثه من التناسل . .

ولنروض نفوسنا على محبة الآخرين وتعلم أن أ كبر انتصار للنفس هو حينما تتسع لمحبة الناس كلهم كاخوة ، فنسحق في نفوسنا كل مقت وكره ، ونحب الناس كبيرهم وصغيرهم ولا نميز بين أمير وعامل فقير ، ولا بين الزنجي والفرنسي ، واليهودي والمسيحي ، والآري والسامي . كلهم أخوتنا وكلنا فروع في شجرة الانسانية المغروسة في ارض الله . .
ولنحس بفقر المعدمين ومجاعة اليتامى والعاطلين ، ولا نقصر همومنا على ذواتنا فلا نفكر إلا في أنفسنا . .

ولنبتدع علومنا جديدة مثل علم الخرافات يبحث في أسبابها وتاريخها وطرق الوقاية منها ، ومثل علم المستقبل الذي يبحث في مستقبل البشر على ضوء التطور والتقدم العلمي ، ومثل علم الجمال الذي يجعل من الجمال فائتنا ويزيد في الحياة بهجة . .

الخوف من الجديد

وكرهه المجددين

من الألفاظ المتداولة بين كتاب الغرب لفظة « ميسونيزم » المشتقة من كلمتين اغريقيتين بمعنى « كراهة الجديد » . ولعلنا أخرج منهم الى اشاعة هذه اللفظة بيننا فهي تشير الى تلك الظاهرة الغريزية التي تصيب نفوس الأفراد والجماعات فتجعلها على مقاومة المبادئ والنظريات الجديدة مهما أثبتت الأدلة صحتها بل كثيراً ما تحملها على مناوأة الجديد قبل بحثه وتمحيصه وفي سبيل تلك المقاومة كثيراً ما يحدث الاستشهاد والاضطهاد وتشب الثورات بل والحروب . ثم ينتهي الصدام بانتصار الحق ولو بعد قرون . .

وانتصار المبادئ الحقة والنظريات الصحيحة هو انتصار لناموس الكون الذي يعمل على تطور الاحياء والجماد والرقى بها الى درجات أعلى . وعلى ذلك فنحن اليوم غيرنا بالأمس وسنسكون غيرنا في الغد . وقد ارتقينا كثيراً عن أسلافنا وحققنا أحلامهم وسيرقى أحفادنا ويحققون ما نراد اليوم أحلاماً . والفضل عائد في ذلك إلى الباحثين وراء الجديد ، أولئك السائرين وفق ناموس الوجود . .

والحياة التي من طبيعتها الارتقاء من دأبها أيضاً التغلب على الجمود غير مبالية بما يعترضها من عقبات وما يذهب من ضحايا وما يمر من أزمان . مثلها مثل النور الذي يحرق أمامه ما يعترضه من صماب ويتخطى ما يلاقيه من صخور وتضاريس ليصل الى غايته . .

وعلى ذلك فالحقائق الجديدة تكتسح أمامها الحقائق القديمة التي تتنافى مع سنة الارتقاء . وهذا الاكساح لا يخلو عادة من صدام أظهره ما يحدث بين أفصار الجديد وأفصار القديم أي بين التطور والجمود . .

ومع أن الجمود وأصحابه يعوقون الحياة في مسيرها إلا أن العجب أن هذه الحياة في تطورها كثيراً ما تستفيد من الجمود . بل هي تستفيد من الموت بل ليس ثمة شر يخلو من بعض الخير ولا قوة إيجابية إلا وتسندها قوة سلبية . .

وجهود الجماعات هو القوة السالبة الضرورية في حفظ التوازن الذي به تصير تلك الجماعات بخطى بطيئة ثابتة تدريجية فتثبت أقدامها في طريق الارتقاء أكثر مما لو سارت بخطوات فجائية مضطربة وقد يعجب الانسان لأول وهلة لماذا يكره البعض المبادئ الجديدة مع ما يظهر لها غالباً من

المحاسن وما يجتمع لها من براهين . بل أن طفل اليوم لا يصدق أن مبدأ عاديا مثل دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد سبب للقائلين به شتى الاضطرابات والتعذيب . ولكن لكرهه الجديد « سيكولوجية » لا تخلو أيضا من عجب وأسباب تلذذ دراستها ..

وللإلمام بتلك الأسباب يجب البدء بدراسة فلسفة « العادة » وتكوينها وقوتها في علم النفس . وبما يقوله الأستاذ بتس في كتاب « العقل وتربيته » : ان الانسان ماهو إلا مجموعة أو هو حزمة متحركة من العادات التي كونها جهازه العصبي . وكل عادة حفرت لها مجرى شبيه بمجرى النهر من الصعب أن تحيد عنه ، وقد قيل إن العادة رباط يصعب قطعه ، وما حياة كل منا إلا دورة يومية من النشاط تسيرها عاداتنا في هذا الطريق أو في ذلك .. فنحن ننام ونأكل ونتكلم ونمشي على النمط الذي اعتدنا عليه في تأدية هذه الحركات والأعمال . بل نحن نفكر بالطريقة التي كونتها عادة التفكير فينا . بل وتلوصلواتنا ونمارس حركات عبادتنا عن طريق العادة . ونحن في كلامنا خاضعون لنمط اتوماتيكي .. ونحن في اتباعنا مجرى العادة نحس بالسهولة والسرور ونوفر المجهود والزمن ، ولكننا اذا عرجنا عن هذا المجري وبدأنا طريقا جديدا شعرنا بالصعوبة والازعاج وعلى ذلك فأغلب الناس يفضلون متابعة ما درجوا عليه طويلا والاستمرار فيما ألفوه من القراءة والتفكير والاعتقاد لأنهم يشعرون أن طريقتهم هي الأحسن ولكن لأن اتباعها أسهل لهم من تبديلها وبذلك تستقر جموعنا على سهل منبسط من التوسط والاعتدال وتتعلم كيف تعمل أشياء متوسطة في جودتها ولا تفكر في تحسين أساليب عملها ..

ويقول وليم جيمس في هذا المعنى : إن فضائلنا وذنائبنا مجموعة من العادات . ويعتقد « أننا خاضعون لقانون العادة مادامت لنا أجسام ، ومادامت حياتنا مجموعة عادات فنحن مقلدون وناقلون عن سبقنا »

فاستئامة الناس الى ما ألفوه من العادات ونفورهم الفطري مما يتطلب جهدا وكسلاهم الذهني كلها تفسر لنا سبب كراهتنا للبدع الجديدة التي تصدمنا بشذوذها عن مجرى العادة ومقاومتنا لكل جديد ولكل مجدد مهما شفع بدعته بالبراهين المعقولة ..

والشيوخ حتى العلماء منهم أكثر جموداً وتعلقاً بالقديم وكراهة للبدع الجديدة من الشباب لان طغيان العادة يكون بحر السنين أقوى فعلا في نفوسهم ولأن العقل الواعي كالجسم يفقد مرونته وتقل قابليته للتكيف بتقدم العمر وتوالي السنين فيسمى الشيخ أكثر عنادا وتعصبا لأرائه وتمسكا بعباداته . وبذلك قلما تثمر البدع ولا الآراء الجديدة في صفوف الشيخوخة وهذا ما يدفع المجددون الى الغرس في حقول الشباب . وعلى أكتاف الشباب تقوم دائما دعائم النهضة والانقلابات وتذيع المعارف والأديان والآراء الجديدة ..

وإذا كان الانسان مطبوعا على النفور مما يهتك فكره والأطمئنان إلى ما ألفه من الآراء ، وما استقر في ذهنه من النظريات فإن الجهل يزيد نفوره وتعصبه ويدفعه إلى محاربة كل جديد . وهذا ينسر تعصب العقليات الأمية لأديانها ومذاهبها وآرائها ، ويدفعها إلى اضطهاد الانبياء والمصلحين والمجددين . إذ أن الجهل يضع على العيون غشاوة . ويزيد الآراء تعصبا وعنادا . وقد قيل من جهل شيئا عاداه . وهذا الجهل هو الذي يضع حول القديم المؤلف هالة من القداسة قيري الجاهل في المجهودات الجديدة كنفراً وفي المخترعات بدعا وفي الآراء الجديدة تخريفا . وهذا الجهل هو الذي أثار الكثيرين من الافغان على مليسكهم أمان الله خان حينما فاجأهم بادخال الأساليب الاوربية في بلاده . . وهو ماسبب المقاومة التي لقيها كمال أتانورك في دعوته الى استبدال الطربوش بالقبعة حتى ألفها الناس فلم تعد بدعة . . وهذا الجهل هو مادفع الصيدين في عديد الاجيال الى الاعتقاد بنجاسة المخترعات الغربية واحتقار كل ما هو أجنبي حتى الطيارات . ولعلهم يندمون اليوم على ذلك الرأي بعد اعتداء اليابان على بلادهم فأخذوا اليوم يشقرون مئات الطيارات ويصطنعون الحضارة الاوربية بحماسة عظيمة .

* * *

وقد تصطدم المصلحة المالية مع تبديل العادات المؤلفه فتريد أرباب تلك المصلحة تشبنا بذلك المؤلف كما يشاهد في مناوأة الرأسمالين لنظريات الاشتراكية وما شابهها من النظريات الاقتصادية أو في محاربة أرباب المصانع لاختراع جديد فيه بوار تجارتهم . كان الرق مباحاً في معظم الولايات المتحدة الامريكية لاسيما الجنوبية الزراعية منها حيث كانت الحاجة ماسة إلى الارقاء الذين يفلحون الارض فظهرت فكرة السانية جديدة في القرن التاسع عشر تدعو إلى إلغاء الرق . وتزعم هذا المبدأ أهل الجهات الشمالية الصناعية حيث كانت الحاجة الى الرقيق تكاد تكون معدومة . فثارت المناقشات العنيفة وانقسمت تلك البلاد إلى حزين عظيمين أحدهما يبيع الاسترقاق والآخر يعاديه . وتشعبت من مسألة الرقيق خلاقات أخرى أدت عام ١٨٦١ الى حرب أهلية بين أهل الشمال والجنوب استغرقت أربع سنين وتسكبت فيها البلاد من القتل والجرحى نحو مليون من الرجال وانتهت بفوز المبدأ الانساني والقضاء الرق وانهزام أرباب المصلحة المالية . .

هذه المصلحة المالية كثيراً ما ترتدى مسوح الدين فترمي الداعين إلى مبدأ من المبادئ بتهمة الاتحاد أو الكفر أو الاباحية أو ما شابهها من الالفاظ التي يظهر أثرها السريع في نفوس العامة وصغار الاحلام . وكثيرا ما تنكر بأسماء أخرى طنانة كالشيوعية أو القوضوية أو الرجعية وما شاكلها فيكون لها الاثر البين في العقليات الأمية السريعة الانخداع . .

وقد تحول الظوف بين الذهن وتحريره من الاوهام فيزيد التعصب لاسيما الديني، فالعامة الذين كانوا يمشون بطلع الآلهة أو غضب المعبودات أو لعنة الأولياء ثم الذين قاوموا بوذا في الهند وصلبوا المسيح في فلسطين واضطهدوا محمد في مكة وشنقوا بهاء الله في فارس وقتلوا الحلاج والسهروردي لبعوفيتهم... وهم الذين يقومون اليوم في وجه فاندى حينما يدعوهم إلى تحرير المنبوذين الأنجاس !

لنا أن نعجب اليوم كيف استعرت الحروب الصليبية وقوات نحو مائتي سنة قتل فيها الألوف من بني الانسان وخرب فيها كثير من البلاد بسبب اختلاف بسيط بين دينين من أديان البشر. بل لنا أن ندهش لتلك الحروب والمذابح التي لوئت وجه أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الكاثوليك والبروتستانت، وهما مذهبان من مذاهب المسيحية ونعجب لتلك الفظائع التي كانت ترتكبها محاكم التفتيش والتي ارتكبها الغوغاء في باريس في عيد برتوليو يوم ذبحوا من البروتستانت أكثر من عشرين ألفا !

يحدث هذا منذ فجر الخليقة وحين بدأ الانسان في عصوره الهمجية يخشى ضغط القوى المستترة . وحدث هذا حينما ظهر أخناتون مجدد في الدين والقرن يوم كان المصريون القدماء يخضعون للكهنة الذين اتخذوا من الدين وسيلة إلى امتلاك الأراضي الواسعة والالقاء السامية وبسط النفوذ على الشعب والحكومة وبلاط الملك..

ظهر عصر حوالى سنة ١٣٧٥ ق . م ابان مجد الرب آمون وسلطان كهنة طيبة شاب مجدد هو الفرعون اخناتون الذي هداه تفكيره إلى مبادئ جديدة بالنسبة لعصره مما دعا الكثيرين اليوم إلى اعتباره أول الأنبياء فقد ثار على التقاليد الدينية التي لم يكن أحد حتى الملوك أمثاله ليجرأ على الثورة عليها لما للكهنة من سطوة وللشعب من خوف الجديد ولكنه ثابر حتى موته على الدعوة إلى مدم الاوثان ونبد الآلهة وأنصاف الآلهة والشعوذة والغموض ، والعودة إلى عبادة اله واحد هو الروح الخالق غير المنظور الذي يرمز إلى قوته بالشمس مصدر الحياة . وأخذ الشاب يبشر بمبادئ الحب والسلام ونبد التوسع الاستعماري والحروب والرجوع إلى الصراحة والبساطة في الدين والفن والحياة . وشيد له حاصمة جديدة بقل العمارنة لتكون مركزا لدينه الجديد إلا أن هذه المبادئ السامية ماتت بموته لأنه تقدم عصره ، ولم يكن الشعب رغم حبه للمليك مستعدا لقبول هذه الدعوة الجديدة لما للخوف من الآلهة وكهنتها من سلطان على النفوس

وفي القرن الخامس ق . م ظهر حكيم إغريقي اسمه أناجزاغوراس وكان يبحث في المادة الاولى التي يتكون منها الكون ويعلم تلاميذه أن الشمس قطعة من النار وأن في القمر جبال فرماه رجال الدين بالكفر وحبسوه ثم نفوه !

وقام بعده بوضع سنين حكميم آخر هو بروتاجوراس فكفر بالآلهة ورأى أن توجبه اتهامنا الى تحسين العالم ودراسة الانعام بدلا من أن تنفق العمر القصير في البحث عن وجود الآلهة العديدة فقبضوا عليه وحاكموه !

وجاء سقراط فدحا الى توحيد الآلهة في اله واحد غير منظور وإلى حرية الفكر وخالود النفس فعقدوا له مجلسا مؤلفا من خمسمائة قاض لحاكمته على كفره وعلى إفساد عقول الشباب بتعاليمه فدافع في تلك المحاكمة المشهورة عن حرية التفكير ورد عن نفسه تهمة الكفر . فرأى المجلس أن يعفو عنه بشرط أن يكف عن تعاليمه فلم يقبل مخالفة ضميره لحكم عليه القضاة بتجرع السم !

وحدث مثل هذا مع المسيح حينما ظهر بمباديء جديدة أثارت عليه شيوخ اليهود وعوامهم وقصة اضطهادهم ومحاكمته مشهورة ولم يسلم تلاميذه وأتباعه من اضطهادات اليهود والرومان لهم من أجل تلك المبادئ ، تلك الاضطهادات الدموية التي تضيق عن ذكرها الوف الصفحات ..

ومما يثير العجب في أمر هذا « الميسونيزم » هو اضطهاد الكتبة من العلماء ومقاومتهم بل وقتلهم أو حرقهم من أجل آراء علمية نقر اليوم بصحتها ونزاهها من البداهة والبساطة بحيث لم يكن ثمة داع لتلك الاضطهادات حتى من جانب رجال الدين الذين كان يدفعهم خوفهم على مراكزهم ومصالحهم إلى الاخذ بحرفية ما جاء في العهد القديم من التوراة حتى الرمزي والشعري منه ..

كان القائل بكونية الأرض أو بدورانها يلاقى عنقا وعداء شديدا وكذلك ظهر للقائلين بنظرية « الانتيبود » أي بوجود أناس في الجهة المقابلة من الأرض معارضون وفلاسفة يدحضونها ، ولما أراد خرستوف كولمبوس أن يعبر المحيط إلى الهند جادله علماء اسبانيا وأنكروا وجود أرض وراء المحيط ولم يمتنع العلماء بكونية الأرض حتى ساح ماجلان عام ١٥١٩ وأثبت لهم كرويتها ووجود أناس في الجهة المقابلة منها ..

وفي عام ١٥٠٠ قام كوبرنيكوس يقول أن الشمس لا تدور حول الأرض كما كان الناس يعتقدون بل أن الأرض وبقية السيارات هي التي تدور حول الشمس ، وألف كتابه « حركات الاجرام السماوية » لكنه لم يجرأ على نشر كتابه وأخذ يبحث عن مدينة يأمن فيها سخط رجال الدين ثم طبع الكتاب ومات قبل أن تصل اليه أيدي الاضطهاد ورغم ذلك فقد لقبوه بالثأفون وبالكافر ، ومنعوا تداول الكتاب ولم يجرأ أحد أن يعلن اعتقاده بذلك الرأي مدة سبعين سنة حتى جاء غاليليو عام ١٦١٦ فأخذ يثبت بالرصد صحة تلك النظرية فعادوا إلى معادرة كتاب كوبرنيكوس وأخذت المسارح تسخر بالرجل وآرائه !

ولما كشف منظار غاليليو عن أقمار المشتري قالوا إن النظر في « التلمكوب » كفر وخيالات

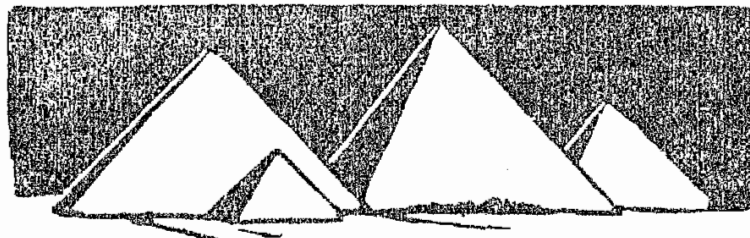
شيطانية ولا أثبت وجود البقاع الشمسية وأن الشمس تدور حول شحورها وأن في القمر جبال ووديان وبأساتذة الجامعات يعادونه ويسكفرونه وقبضت محكمة التفتيش على فاليليو وسجنته ثم أجبرته على الاعتراف بأن الأرض لا تدور ومات الرجل محترقا مردولا !

وجاء كبيلر بنظرياته الفلكية فوبخ وسجن متهما بالخيلالات الفاسدة . وفي عام ١٨٢٠ قرر مجمع وزراء الناتيكان المقدس أن نظرية كوبرنيكوس حق ثابت فتنصر الحق بسد ثلثمائة سنة من المقاومة والعداء !

أما دارون فقد لقي من السخرية والعداء شيئا كثيرا ولم يكن أهداؤه من الجهة أو رجال الدين فقط بل كانوا أيضا من العلماء والمؤلفين ورجال الصحف في كل قارات الأرض . وظهر عدد كبير من الكتب ونشرت مئات المقالات وألقيت الوف المواعظ في تسفيه آرائه !

ولما نادى بأراء دارون بمصر منذ عهد قريب العالم شبلي شميل قامت في وجهه عاصفة شبيهة بتلك التي قامت في وجه قاسم أمين حين نادى بتحرير المرأة . ثم هدأت العاصفة واستقرت نظرية الفشوء والارتقاء ونسيت تلك الألوف من الصفحات التي رمتها بالكفر والجنون وأوسعتها شتما وتحقيرا ..

إن أهداء الجديد مازالوا هائشين وسيظلوا دائما بالمرصاد لكل مجدد ، حتى يأتي ذلك اليوم ولا ندري متى يكون حين تسيطر دولة العلم وتخف وطأة الفرائز وتصبح الأرض طوبى لا مكان فيها للتعصب والحماقة .



فقه الحياة

كيف نمارسه ومدى استمتاعنا به

من منا إذا ساقته الأقدار إلى مدينة وفيرة المحاسن كثيرة الغرائب ، على أن يشاركها بعد حين قصير فراقاً لا لقاء بعده ، استعاض هن استجلاء مشاهدتها والاستمتاع بمحاسنها بالجلوس طيلة الوقت سيجينا بين جدران مقفلة ، ثم رحل عن تلك المدينة مقتنعا برؤيتها شائداً بوصف جمالها ؟ أن ما نراه في كل وقت لأدهى من ذلك وأعجب . فان غلبة البشر يهبطون هذا العالم الواسع ويقضون فيه عشرات السنين ثم يبارحونه غرباء عنه لا يعامون عنه شيئاً ولم يتزودوا منه بغير ألقه الذكريات . وها تلك البثور والحظائر التي لا تعرف ضوء الشمس وتلك المقاهي المرمومة على قوارع الطرق تكتظ أبدأً بربات الناس الذين يقتلون فيها أوقاتهم ويستنزفون سني حياتهم في ركود هو أتعس من الفناء ! . أفليس أولئك أشباء الأحياء غرباء عن هذه الحياة لأنهم يجهلون كيف يعيشون فيها ولأنهم يغلقون حواسهم وبصائرهم عن الانتباه إلى مظهرها ومخبرها ؟ وإن كنا نلتمس العذر لأولئك المساكين الذين قيدتهم الحياة بأصناد الجهل والامية وضعف العقل لأن أذهانهم لا تستطيع الخروج بهم عن المحيط الضيق الذي رمتهم فيه المصادفات فيعيشون كالبهائم يأكلون ويتناسلون ثم يذهبون من حيث أتوا ضائعين مغمورين ، فما عذر أولئك الذين نالوا من التعليم ولو ذلك القسط الزهيد الذي نبههم إلى أن وراء الدائرة المادية المحدودة التي تسكن نفوسهم كوناً رائعاً مشحوناً بعجائب المعقولات والمحسوسات ؟ ومع ذلك فهم يقبرون ذواتهم في لحود لا ينفذ إليها جلال الحياة ولا تدور مع عجلة الزمن ! فهم أحياء لأن القدر شاء أن يدفعهم إلى وجود هم ليسوا أهلاً له ، وهو الذي سيدفعهم إلى فناء لا يفرق هن وجودهم . .

ألا نرى هنا أن الحياة فن جميل هو مصدر الفنون كلها . وكما أن كل فرد لا يستطيع استجلاء غوامض فن كالموسيقى أو التصوير مثلاً إلا إذا وهب بصيرة نافذة وحساسية فائضة وتدريباً طويلاً كذلك فن الحياة لا يقدر الحى أن يفهمه ويمارسه إلا متى تدود بمثل تلك المواهب وكيف يقضى الإنسان حياته متطلعاً إلى التراب حاصراً انتباهه الارادى وغير الارادى في مجموعة من القشور والسناسف وحوله هذا الكون اللانهائى الأزل ، الذى هو متحف عجيب يعج بالمظاهر الطبيعية ويسير بحركات البناء والتجديد والفناء والانعدام ، لا تكفى ألوف السنين لامتاع

النفس بشيء من محتوياته ؟ بل أن الحواس البشرية مهما ارتقت إلى كمالها لا تقدر أن تحس وترى إلا أثراً ممثلاً من هذا السكون الذي في كل ذرة من ذراته وفي كل حشرة من حشرات عالمنا آخر يقف أمامه العقل حائراً . والانسان نفسه متحف آخر لا يقل غرابة وروعة عن متحف السكون . فكم منا من ينتهز فرصة المشول أمام هذه المعروضات ويقف في بعض الأحيان متأملاً دارساً ؟ كم منا من يقف أمام قطرة الماء الحتمرة عالماً أن فيها من السكهرباء ما تكفي قوتها مائتي حصان تعمل مدى عام كامل ؟ كم منا من يرفع عينيه في بعض الليالى إلى قبة السماء المنقوشة بملايين النجوم والشموس والاقمار فتسمو نفسه لحظة فوق هذا التراب الذي يجذبنا اليه ، ويجول بين تلك السدم التي كانت بداية عالمنا قبل أن تتطور من الخلايا الملقاة على الشواطئ . ويتمتع بهذا المهرجان السماوى المزين بالمصابيح الهائلة المعلقة في فضاء مظلم هامت ؟

كم منا من يتمتع نفسه مرة في السنة بمنظر شروق الشمس من آفاق الحقول ، أو غروبها وراء البحار ، أو يرى الشفق وهو يضرم في الأفق لهيباً أرجوانياً ويزين السحب بألوان قوس قزح أو بمشهد مليك الليل وهو يختال في مهمه السماء . أو يقضى في كل شهر يوماً من أيام عطلته بين أحضان الطبيعة متمتعاً بمراىي الأشجار المتباينة الانواع ، وبالأزهار ، وموسيقى العيون التي « لم يلبس سليمان في كل مجده كواحدة منها » ، أو بالطيور المتحركة على الغصون تتناغى وتتغازل وتستقبل الصباح بترايل والمساء بأهازيج وترانيم ، أو بالنحل النشيط وهو يدمدم فوق الرياحين ليحني منها العسل وينقل إليها اللقاح ، أو بمجاري الماء وهي تنساب بين المروج كالشرابين ؟

كم منا من توقظه من سباته الذهني المطمئن تغيرات الفصول وما وراءها من مظاهر وهور ، فينصت في الخريف أو الشتاء إلى صفير العواصف وقصف الرعود وحفيف الأوراق ويتلهى برؤية وميض البرق وتساقط المطر والبرد والتلج . ويتأمل في الصيف في صمت الكون واضطرام الفضاء وزفير الهواء ونعاس الشجر ، ويتهيج في الربيع بشباب الطبيعة وازدهار الارض وفروح الكائنات ؟

من ذا الذي يقف بهمة متخيلاً ثورة الطبيعة وهياج العناصر فيعجب من فعل الزلازل وهي تهز الجبال ، ومن ثوران البراكين وهي تطوح بالحمم المنصهرة وتنثف البخار ، ومن القوارات الحارة وهي تقذف بمائها الساخن إلى وجه السماء ، ومن الامواج المصطخبة وهي تسمو في المحيطات الى علو التلال ، ومن التلاجات الزاحفة على سفوح الهضاب ، والسيول الجارفة أمامها أعمال البشر ؟

كم منا من ينتفع بما في خفايا النفس من قوى فيسخر الفكر والارادة والوجدان في اكتشاف

أمرار الوجود ويوجد في الخيال وسيلة عجيبة تؤدي إلى جنات الاحلام فيطير به تارة إلى ما وراء الكون ، وأخرى إلى أقاصى الارض فيري أنواع البشر وحياتهم وما حولهم من بيئات وما يشهده من أمم ومجتمعات ؟

كم منا من يلج أبواب الحياة من منافذ بصيرته وحواسه ، فيتمتع بكل ما تهبود عليه الحواس الخمس من محسوس ومعتول ؟ كم منا من يستخر العواطف في جلب السعادة ويتاحس وراء الانفعالات اكتشافات جديدة ؟

كم منا من يتمتع بالنتائج التي وصلت اليها الانسانية بعد تجارب آلاف السنين في العلم والحضارة ؟ إن ثمار هذا التقدم العلمى والتقنى حق شائع للجميع فلا معنى لأن يعيش انسان القرن العشرين متخلفا إلى العصور السالفة المظلمة لا يصطنع حضارته ، ولا يساير تقدمه ، ولا يتخذ لنفسه ما يراه صالحا ومنسجما مع ميوله وحاجاته . لقد وصل الادراك البشرى بعد تجارب الاجيال إلى مكتشفات ومخترعات لاعداد لها في سبيل تخفيف أعباء الحياة وترفيه العيش واقتصاد الوقت فعلى أن نلتفت في حياتنا اليومية بنتائج هذه الحضارة ونتمتع بثمارها كحق من حقوقنا . .



إن ازدراء الحياة ولذاتها ازدراء أهل الزهد أمثال السكبيين والرواقين بالأمس ورهبان الصوامع ونسك الأديار اليوم لا يعود على أصحابه بغير الحرمان والموت الأدبى ، وخير من ذلك الحرمان ذلك الازدراء المبني على اللذة السلبية أو الإيجابية المعتدلة ، والاستمتاع بذلك الخير الذى ذهب إليه أمثال أبيقور وأرسطيب ، الخير الذى يؤثر اللذة على الأذى بشرط ألا تستعبد النفس للذة بل تستعبد اللذة للنفس دون أن تضهى النفس في سبيلها بكرامتها وانسانيتها . .

وماذا ينتظر الفرد فلا يتمتع بوجوده ، وأيامه معدودة تنسلخ أحداها وراء الأخرى ولا تعود وحياته على الأرض فرصة سانحة لن تتكرر . . أليس متوسط العمر البشرى ستين عاما يقضيها الفرد ضيفا على هذا العالم الكبير فيقضى ثلثها نائما ، وثلثها ساعيا وراء الرزق ولا يتبقى أمامه غير الثلث الأخير الذى تقضيه الأغلبية مهمومة بسفاسف العيش حاملة أثقل الأعباء على كاهلها . .

وما كانت الحياة لتقاس بالطول والعرض بل بالعمق والقيمة فكم من شيخ معمر مات في طفولة حياته وكم من شاب مات شيخا في تجاربه . فالساعة التى يعرف المرء كيف يعيشها وكيف ينتفع بها فى ترقية روحه وجسمه تضارع عمرا كاملا من تلك الأعمار الرخيصة التى يقطعها جل الناس فى خمود وركود . .

إن الحياة تسير إلى الامام متطورة نشطة فتدوس كل متخلف متقاعد فعلى أن نسير ونتطور

منها وننتفع بكل ما يأتيه التطور من علوم وفنون كما ننتفع بكل لحظة تمر علينا فيكون الوقت عندنا فاسقة لما قيمتها ..

ولنشد الجال في كل لحظة من حياتنا فان شئنا كان هذا العالم جميلا وان شئنا كان قبيحا ، إذ هو ليس بالجميل ولا بالقبيح بل هو مرآة لنفوسنا .. إنه يمكن لكل فرد أن يكتشف في كل زمان ومكان صورا للجمال تسترعى الانتباه وتمحيى موات القلب . والسعيد من قضى حياته ساعيا وراء الجمال ، فانه يؤدي خير واجب نحو حياته التي لا يملك غيرها ولن يعود إليها .. والجمال معروض أمامنا ميسور لم يخفق لمسرة العيون ولا لمتعة الحواس لكنه يبذل نفسه فداء لعشاقه ويتعري أمام البصائر النيرة ويروح بأسراره للغائيبين القادرين الذي يسبرون خوره ويبعثون عن كنوزه في مجاهله ..

ليكن لنا الجمال ديننا له ملقوسه وشعائره فنغمربها حياتنا لان الجمال هو الخير وهو الحق وهو محور هذا العالم وغير هذا العالم .. ليكن لنا الجمال غاية حياتنا ، وأنا لنستطيع أن نجعل من كل ما حولنا من الاشياء الجميلة غايات ولو كانت في أصلها وسائل .. لنطبع نفوسنا على حب الجمال ولنهذب أذواقنا بالفنون حتى نري في كل ماحولنا صورا لأخيلتنا وبصائرنا . ولنسمع في كل شيء نفحات رخيمة مستترة ، ولئن وجدنا حولنا نقصا فان خيالنا حق تكملته وتجميله ..

لنعلم كل منا فنا جميلا فكلها اليوم في متناول الجميع . وان لم نستطع أن نجعل من الفن غاية فلننخذ من الفن وسيلة لتهديب الذوق وترقية الخلق وقطع أوقات الفراغ في النافع .. لنأو في مساكن جميلة ذات أثاث ساذج جميل لا يخلو من باقة من الازهار النضرة أو من مجموعة من الصور الفنية . وليكن هندامنا أنيقا ، وكلامنا رقيقا ، وخلقنا راقيا ، ولنتأنق في اختيار من نصاحب وما نقرأ وما نأكل ..

كثيرون هم الذين ينفقون أيامهم في الشقاء الموهوم لأنهم يحميون للأثرة ولا يدركون للابثار معنى ، يحميون للبغضاء ولا يعرفون للمحبة مغزى . قد صدق ذلك الفيلسوف القائل « إن كنت غير سعيد فالذنب ذنبك لأن الله خلق كل الناس ليكونوا سعداء » فلم لالتقى عنا تلك الاصفاد الثقيلة التي تقيد قلوبنا بالسكره والمقت والأثرة وسوء الظن بالناس والتشاؤم من كل ماحولنا ولنقض حياتنا في محبة شاملة ..

لنحب كل ما في هذا الوجود وليكن حبنا شاملا ولنكن أسخياء القلب في هذا الحب فن
لا يعرف المحبة يعيش ضائعا غريبا..

إن المحبة تقرب روحاني يصل بيننا وبين كل الكائنات ..

لنحب الله فتصوف كفكرة للخير المطلق ، وكهدى للحقائق الاولى ، وكخزى للأبوة العامة
سواء أوصل ادراكنا إلى الايمان به أو الشك فيه ..

لنحب أمنا الطبيعة التي دفعت بنا إلى هذا الوجود . فكلنا أغصان في شجرتها وكلنا منها وهي
منا . حتى تراب الأرض وحجارتها فلنحب .. لنخاطب الطبيعة بلسان القديس فرنسيس الذي يرى
في الطير والسماك أخوة له . ولندرس نظريات الارتقاء لنرى من نحن وكيف أتينا .. لنحب الأرض
مع دستوفسكي ، ولنعبد الطبيعة مع تاجور ، ولنقدس الجبال مع صكيتر ، ولنعشق المخلوقات مع
وردسورث . لنحب أنواع الحيوان والطيور والنبات ففيها تنبض الحياة والمشاعر ولا يخلو أحداها
من جمال وروعة ..

لنحب الانسانية كظهور للحقيقة الخالدة . ولنعلم أن كل بشري لا يخلو من فضيلة أو فكرة
أو جمال . ولنعرف أن هذا الكون كله لا يساوي فضيلة بشرية أو فكرة إنسانية .. وهذه الجموع
البشرية المسكينة المغرورة والمتعطشة إلى المثل العليا تستحق كل عطف وحب .. البشرية طفلة
جميلة ساذجة تميل إلى المشاكسة وتنزع إلى الشر . ولكن من ذا الذي ينقم على طفلة جميلة مهما
بلغ شرها .. إنها مقيدة بقيود الأنظمة والتقاليد وأغلال الجهل والألم ، وليست هي المذنبة لأن
النفوس البشرية طيبة في جوهرها ، إنما هو المجتمع وما ابتكره من قيود وأنظمة ما أفسدها ..

فلنعهي متخذين كل بني البشر لنا أخوة مهما فرقت بيننا البيئات والاجناس والمذاهب والمظاهر
ولنعجبهم ولو أساءوا إلينا . لأن النفوس السخية لا تعرف الكراهية والحقد .. لنأمل في ماتعانيه
البشرية من أوجاع ومصائب وماتزح تحت نيره من شرور وفوضى . لنراها كما هي قطيعا ضالا
متفرقا يتشوق إلى الراحة والطمأنينة فلا يلتقي لها سبيلا .. لتسامح مع كل العقائد والاديان
والآراء فالعقل البشري مافتى يتخبط في تجارب وتخيلات والانسانية لم تبلغ بعد سن الرشد
نعم لنحب الحياة كلها رغم ما يحاصر حلوها من مرارة لأن هذه المحبة الشاملة ينبوعا عذبا يغمر
أيامنا بالسعادة والعزاء ويرفع نفوسنا من حضيض الحيوانية إلى مطار الآلهة .

النسائية بين الحرب والسلام

لم يتعظ الكثيرون بما أصاب العالم وما زال يصيبه من كوارث بسبب الحرب العظمى ، فعادوا ينفنون بأجساد الحرب ويهجون إلى قصف المدافع ومسيل الدماء . وبين أولئك الكثيرين نفر من الكتاب والصحفيين ، ورجال السياسة وأرباب الاموال ، وكلهم متضافرين في الدعاية للحرب لتهيئة الشباب لموقعة فاصلة تطمح فيها كل دولة في كسب أكبر غنيمة مستطاعة على حساب غيرها ..

وقد نجح أولئك المفرضون في دعاتهم فاققلب العالم المتحدن إلى معسكر رهيب مدجج بأحدث الآلات الحربية ، وأخذ السلام العالمي في الاحتضار ووقعت عصبة الأمم في حيرة ..

والعجب في أمر رسل الحرب أنهم يسترون أطماعهم وراء نظريات اجتماعية تثير العاطفة . ونحن هنا نريد أن نناقش بعضها من تلك النظريات لنرى أيهما أضمن لمعاداة العالم : الحرب أم السلم

فالمعروف أن المجتمع البشري يكون وقت السلم في حالته الطبيعية التي يسيرها التطور بهدوء كما يكون الجسم في حالة الصحة . وما الحرب إلا طاريء ينزل بالمجتمع كما ينزل المرض بالجسم . وقد يكون للمرض فوائد كما يكون المرض طارئاً لاقدرة لنا أحياناً على دفعه ، ولكننا لانغنى بذلك أن المرض خير للجسم من الصحة ، ولا أن الحرب خير للمجتمع من السلم ..

فالحرب نتيجة سيئة لأسباب إذا زالت لم يبق لها أي مبرر ويمكن إجمال هذه الأسباب فيما يأتي :

أولاً - رغبة بعض الدول القوية في التوسع والاستعمار على حساب الشعوب الضعيفة

ثانياً - الحسد الذي تثيره المنافسة التجارية والتفوق المادي بين الدول القوية

ثالثاً - سعى أصحاب الاموال ومصانم الذخيرة في ترويع بضائعهم واستثمار أموالهم وإذا كان

السياسة هم أصل البلاء فانهم أقل قوة من مقرضى المال الاغنياء وصانعي الاسلحة الذين يبذلون كل وسيلة في إثارة الحروب حتى تتضاعف موارد أرباحهم

رابعاً - رغبة بعض الرؤساء والحكام في توجيه الرأي العام إلى ناحية تكون موطدة لعروشهم

ومراكزهم فتكون الحرب ملهاة له عن التفكير في غيرها

خامساً - المطامع الوطنية والرغبة في ثأر قديم وهنا تسهل إثارة الجماعة باسم الوطنية ، لأن الجماعة

كما يقول علماء الاجتماع والنفس : « كائن ساذج تتلاشى إرادته في ارادة قادته لأنه يتأثر بالقوة

ولا يحترم إلا الأقوياء وتأثره لاتنفع فيه حجة وهو سريع الانفعال والتعجل بالغضب قلما يحكم

العقل على العاطفة »

سادساً - دعاية بعض الصحف الكبيرة للحرب لأن بضاعتها لاتروج إلا في تلك الفترة المشؤومة

حتى تضعف مساعيها ويزداد نفوذها فهي بذلك تؤثر مصلحتها الخاصة على المصلحة العامة

والنظرية الأولى التي يدعو إليها البعض مثل جستاف لوبون إلى ترهكية الحروب أنها الطريق لبقاء الأصالح بين الأمم ، إذ هي تنفي عن البشر تلك الامم الضعيفة التي لاتعتمد أمام القوية . ويقولون إن الكراهة الكامنة بين سلالات البشر المختلفة التي تمنعها من الاختلاط الجنسي إنما هي برهان على أن الطبيعة قد قصدت إليها لمصلحة الانتخاب الطبيعي بين الشعوب . ويقولون أيضا إن الحضارة قد تخفف الغريزة الطبيعية التي تقود الأقوياء إلى القضاء على الضعفاء ولكنها لاتقدر على تقليل النفور العميق بين الشعوب المختلفة ، هذا النفور الذي يؤدي إلى الحروب وكان نيتشه قد أخذ نظرية بقاء الأصالح عن افلاطون ولكنه تعالى بها حتى قال إن الرحمة والصدقة ببقيان على الضعيف الذي يجب إبادته ، ولذا وجب في رأيه القضاء على الشفقة والاحسان وعلى الديانات التي تقول بالرحمة والبر والمساواة وللدرد على هذه النظرية نقول :

أولا - إذا سلمنا بالمبدأ الطبيعي فلا يجب أن نبحث المبدأ الانساني فالانسان في طوره الطبيعي ينقاد إلى غرائزه الحيوانية فيسير مع الطبيعة بغير ذاتية ولا مسئولية . ولكنه حينما يرتقى ويتمدين ينتصر على همجية الطبيعة ليسمو بنفسه فوقها ويتحرر من عبوديتها ولا يعود يرتضى نواميسها الخشنة فهو يبتدع الحكومة والمحاكم والقوانين ، ويشيد المستشفيات والملاجئ ويخترع الادوية ويؤمن بالعلم والحق والعدل . وهو في صعوده هذه الدرجات يفتصف للضعيف من القوى ، ولا يهين للتنازع تلك الفرص السانحة في الغاية . كما أنه ينتصر للمبدأ الانساني من المبدأ الطبيعي والحياة تساعد على هذا الانتصار لأنها وجدت وفي صميمها ناموس التطور والرقى الذي سيرفع مخلوق الغاية إلى الانسان المتفوق « المبرمان »

ثانيا - ان الانسان في ارتقائه سيهتدى إلى بقاء الأصالح لا بالحرب والقسوة بل بالتعقيم مثلا فيمكن لكل أمة أن تمنع تناسل ضعاف الأجسام والعقول وتفصره على سواهم ونحن نقرأ اليوم في الصحف أن حكومة المانيا جادة في هذا التعقيم اعتقاداً منها بأنه خير وسيلة لتحسين الذرية وقد قرأنا أيضاً أن مجلس الولايات المتحدة الأعلى قد حكم بأن التعقيم موافق لما في القانون الاساسي على شرط أن يكون مبنياً على أساس معقول وبرئاً من التطرف ..

ثالثا - إن الرأي القائل بأن الحرب تقضي على الضعاف وتبقى على الأقوياء ربما كان ينطبق على الحروب القديمة التي كانت تعتمد على قوة العضل . أما اليوم والحرب حرب الآلات والغازات فانها

لا تميز بين قوي وضعيف بل ان الحرب تنعكس الآتية فتسكون انتخبا للأضعف وقضاء على الأقوى ، إذ لا يجند غير الشبان الأصحاء فيدفع بهم في أتون الحرب فيهلك من يهلك ، وتعود البقية معطوبة وقد بليت بكل صنوف العاهات الجسدية والخلقية . هؤلاء يعودون إلى جانب من أهملهم التجنيد من شيوخ ومرضى فيكونون الأمة بعد الحرب . . وحتى في وقت السلم حينها يجند عدد عظيم من أشداء الأمة وأصحاءها فانهم يبقون تحت السلاح عرضة للفساد الادبي والعاهات ويحرمون من الزواج ، وقد لا يتسنى لأغليتهم أن يتزوج إلا بعد فوات السن المناسبة لاتساج النسل الصالح . أضف إلى ذلك أن أطفالهم تحرم حظا ثرية القوية . كل هذا يؤول إلى بقاء الأضعف وانتخاب الأردأ بين الافراد الذين منهم تتكون الأمة . .

رابعاً - إن الانسان غير مكلف بأن يثير الحرب ليقتل من لا يستحق البقاء من نوع أخيه الانسان فتكون النتيجة ما رأيناه بعد الحرب العظمى حين خرج الغالب والمغلوب في حالة يرثى لها . ولم نر تطبيقاً عملياً لتلك النظريات . .

* * *

ويقول أهل الحرب إن الانسان ميال بطبيعته إلى الشر أكثر منه إلى الخير ولذا فلا مفر من الحروب . وهذا اعتراف منهم بأن الحرب بنت الشيطان ولكن إذا كانت في النفس البشرية نزعة إلى الشر فانها لا تخلو من فضيلة انسانية تحتاج إلى تعهد فتزدهر . والنظم الاجتماعية مسئولة عن هذا الميل إلى الشر . ونحن في ارتقائنا ننسى كثيراً من عاداتنا الطمعية القديمة . فقد بتنا اليوم نشمئز من المبارزة وعراك الوحوش وصراع النيران وأصبح الرفق بالحيوان عادة وفضيلة ولا بد أن يأتي اليوم الذي نرى فيه الرفق بالانسان فضيلة فنمقت الحرب ونمحو سيرها من كتب أبنائنا . .

في هذا المعنى يقولون أيضاً أن الاحقاد والضغائن بين الامم من أكبر الأسباب المثيرة للحروب وما دام الحقد وحب الانتقام يحزان في صدور الامم فلا أمل في السلم . . وهذا رأى كان يصح القول به يوم كانت إرادة الشعوب هي إرادة حاكمها الأمر الناهي . أما اليوم فالشعوب إرادة والامم تعرف أن المصلحة العامة هي المحور الذي تدور حوله علاقات الدول وهذه المصالح المشتركة تقول بالسلم والتعاون بل بالعالمية أيضاً . .

ويقولون إن رغبة الانسان في حياته هي التنازع من أجل السيطرة والسيادة والسلطة فحب السيطرة هو رغبة الفرد وبالتالي رغبة الأمة التي هي مجموع الأفراد ، والتاريخ مليء بأسماء الفاتحين المغزاة الذين دفعهم حب السيادة إلى الفتح . .

والحقيقة إن حب الامتلاك والسيطرة غريزة من غرائز الطبيعة الجامحة الوحشية ، طبيعة القهر

السكامة تظهرها القوة ويخفيها الضعف ، وتبدو هذه الغريزة واذبحه في الاطفال والهيج . ولهذه الغريزة كما لغيرها نواح تقسأى اليها فيمكن صاحبها أن يمارسها لا بالحرب والظن والنزال بل بالمعرفة التي هي ضرب من السيادة . فالعالم يسود الدنيا بعقله ، والمكتشف يغزو سجاها السكون بمجهوده ، والباحث يكشف عن أسرار الطبيعة بمعارفه والقوى من يسيطر على غرائزه وميوله أما إذا طمعنا في السيطرة والسيادة على بلد الجار فأنما نعمل ضد المصلحة العامة وضد أنفسنا لأنه من مصلحة العالم ألا يشل عضو منه ويقوى الآخر فيكون هذا عالة على ذلك ..

* * *

ويقولون إن الحرب تعمل على تقدم الصناعة لا سيما صناعة المعادن كما تعمل على زيادة المخترعات لأن المباحث التي أتت بها الحرب لا تقان الأسلحة أكتسبت الصناعة مالا عهد لها به من دقة علمية وإقدام فني

ولهذه الفكرة رغم بريقها وروتقها ردود :

فأولا — إذا قيل ان الحرب قد عملت على ترقية المخترعات والآلات فلم لا نقول إن المخترعات هي التي رقت الحرب وجددتها بشكل أفظع وأقوي من أشكالها القديمة وذلك بطريقتين أولاهما ان الحرب تستعير المخترعات والتقدم الصناعي وتسخره في وسائل الدمار . ففي القديم لم تجد الحرب أمامها غير الرمح والسهم فلما اخترعت الطيارات وارتقت الآلات استعارتها الحرب وسخرتها في تقوية أساليب القتال . وثانيتهما : أن الاختراعات الجديدة والكثيرة أدت إلى أنظمة جديدة وهذه الأنظمة خلقت تنافسا شديدا في تنازع الثروة والاستعمار لتوسيع دائرة الرزق للعمال ودائرة الربح لأصحاب رؤوس المال . ولذلك أخذت الدول القوية تغزو والضعيفة وتعمل على المحافظة على مستعمراتها بتقوية أسلحتها وتجديد أساليبها الحربية الفتاكة

ثانيا — فالاختراعات التي عملت على ترقية وسائل العمران عملت أيضا على ترقية وسائل الخراب . ولأننا نلوم هنا المخترعات بل نلوم ذلك النظام الاحتكاري القديم الذي جعل من المال قوة يتحكم بها صاحبها في مصادر الثروة ولو كان في ذلك بؤس بعض الشعوب وعدم انتفاعهم باستثمار تلك الاختراعات الجديدة المتكثرة

ثانيا — إن جميع المخترعات والاكتشافات العلمية التي تسعين بها الحروب الحديثة هي وليدة السلم والبحث العلمي الهادىء في جو يتعاون فيه علماء الدول المختلفة . ثم تتناولها يد الحرب فتستعمرها أحيانا على التقدم ولكن البشرية تدفع في سبيل هذا الحث ثمننا غالبا من الخراب والهدم والاستبداد وقتل الأبرياء . وأيهما أجدى على البشرية أن تسير الاختراعات سيرها الطبيعي

المنسجم مع تطور الحضارة أم تندفع بها دون أن يستعد لها الناس ؟

ثالثا — وإذا سلمنا بأن الحرب تعمل على تقدم الاختراعات بسرعة وعجلة فإن تقدمها بأسرع مما تتطور الأخلاق يفاجيء الناس بفراغ لم يستعدوا له فيقعوا في البطالة والتشرد . نعم إن الفراغ يخلق لدى المستعدين له فنونا وآدابا ولكن أغلبية الجماهير لم تتعلم بعد كيف تفرغ . والبشرية في حالتها الحاضرة المضطربة لم تستعد لذلك الفراغ العظيم الذي تخلفه الآلات في تقدمها المطرد . . .

رابعا — أن تقدم الآلات السريع يدفع بالعمال إلى البطالة والفاقة والثورة لأن الآلات تشغل مكانهم وتعمل بأقل عدد منهم

* * *

ويقولون إن الحرب تقلل النسل وتمنع ازدهام السكان . لأن زيادة السكان عن الغلات تسبب المجاعات وترغم الأمة على المهاجرة أو الحرب للاستعمار . والسكان في رأيهم يزدادون بنسبة هندسية هي ١ — ٢ — ٤ — ٨ بينما الأرض لا تعطى من الغلات إلا بنسبة ١ — ٢ — ٣ — ٤

فأولا — الحقيقة أن الحرب لا تقلل النسل كما يظن بل هي تقلل الأصحاء لأنها تقتل الشبان الأشداء وترك الضعاف والمشوهين . وقد أثبت علم الأحياء « البيولوجيا » أن جودة الفرع تتوقف على جودة الأصل وأن مستقبل الأمم موقوف على صحة أبنائها الذين يخلفون نسلًا قويًا . وإصلاح النوع يتوقف على اختيار الأصل الصالح لإنتاج النسل الصالح . فإذا أخذت الأمة زهرة شبابها وأقوى رجالها وجندتهم فانها تمنع أكرثيتهم من الزواج ، وتقتل الأصحاء وتشوه الباقين ، وترك الضعاف . وهذا ما حدث في الدولة الرومانية حينما توسعت في الغزوات وأكثرت من الحروب واستخدمت رجالها الأقوياء ، فحلت منهم رومة وترك الضعاف والعجزة للأجيال القادمة . فكان ذلك من أهم أسباب انحطاط تلك الامبراطورية . وبالعكس قضت اليابان أجيالا طويلة في سلم فأبقت على أشدائها الذين تعزبهم اليوم

وها هي الحرب العظمى الأخيرة التي وقفت رحاها منذ ثمانية عشر عاما ومازال العالم يشكو من كوارثها إلى اليوم فقد قتلت ثلاثة عشر مليونا من الجنود عرفت أسماؤهم ، ومثل هذا العدد من القتلى المجبولين ، وترك عشرين مليونا من الجرحى وتسعة ملايين من الأيتام وخمسة ملايين من الأرمال ، وعشرة ملايين من الهاربين والتائبين

وبذا قضت تلك الحرب على ملايين الأصحاء وترك وراءها ملايين المعطوبين والمشوهين والمجانين وذوي العاهات الذين تسكتظ بهم ملاجئ أوروبا خاصة وهوارها . أولئك هم آباء الغد وأولئك هم الذين دفعوا بملايين النساء إلى العمل في أحقر المهن وأوضعها .

ثانياً — إن الحضارة تعالج نفسها وقت السلم من مشكل ازدياد السكان وأتمنح علاج لهذا التقليل هو تحديد النسل وضبط التناسل ، بحيث لا يزيد السكان على الوطن الذي يعيشون فيه والمعروف اليوم أن قلة المواليد لا تؤذي الأمة لأن العناية تزداد بالتقليل فيعيشون أمهات مهذبين . وليست العبرة بكثرة العدد كما هي الحال في الهند والصين

ثالثاً — لا بد في وقت السلم من درس غلات العالم ونسبة الزيادة فيه إلى مساحة الأرض حتى يتوقى الناس شر الحرب . . والسلم والمؤتمرات تهيبء للعلماء فرصة الدرس والاحصاء ونشر مبدأ ضبط التناسل والاتفاق على المهاجرة الى المستعمرات بروح التعاون

رابعاً — أن العوامل الطبيعية كالزلازل والابوثة والفيضانات والحوادث التي لا حصر لها تقضي البشرية الآن عن فائدة الحرب من هذه الناحية..

ويرددون القول ان الحرب تبث الروح العسكرية ، فالشبان يجردون في الجيش مالم في حاجة إليه من النظام والتضامن وضبط النفس وغيرها من الفضائل . وبين المتحمسين لهذه التربية العسكرية جوستاف لوبون وهو في كل ما كتبه عن الحرب أملاه عليه الروح الفرانسي الوطني الذي يتخيل شبح التمردى الالماني أمامه . فهو معذور حينما يتهم على المتعلمين لكرههم الحرب ويسمى خريجه الجامعات « بالجيش العاطل المضطرب الخجل » ويسمى محبي البشرية بالمسخفاء ويقترح ألا يصل أحد الى مناصب الدولة مهما تكن إلا اذا أمضى في خدمة الجيش خمس سنين برتبة صف ضابط ا

أولاً — الحقيقة أن تلك الفضائل التي يقول بها أهل الحرب ليست أعظم من الفضائل التي تبدو في السلم . فالشجاعة الادبية أعظم من الشجاعة الوحشية . والاقدام على الاعمال الكبيرة التي تنفع الانسانية أحسن من الاقدام على استعمال البندقية والمدفع . وأيهما أنفع للعالم : أولئك الرواد الذين يقدمون على اكتشاف المجاهل وحل أسرار الطبيعة في هدوء البحث العلمي ومعامل الاختبار أم أولئك التسور التي تنقض على المدائن للتخريب وقتل الرجال والنساء والاطفال ، وهل انتفع العالم بمحروب تيمورلنك و نابليون أكثر مما انتفع بأعمال اديسون وباستور ؟

ثانياً — إذا كانت هناك فضائل للتربية العسكرية فإن لها أساليب سلبية لا تقل عنها نفعا . فانتشار الكشافة والاندية الرياضية وجمعيات العمال والشبان والقيام بالرحلات وغيرها تبث فضائل الرجولة من اقدام وتعاون وشهامة وغيرها

ثالثاً — إذا كان للتربية العسكرية منافع ففنافعها مقصورة على أيام السلم أما في أثناء الحرب فقل على الرجولة والشهامة والاخلاق السلام . فليس في الحرب إلا كل فساد يستدره ذلك الزهو العسكري :

ا - فطرة نلقمها على ما جنته الحرب الاخيرة وما زالت تجنبه على الاخلاق من اباحية واستهتار بالنظام

ب - ان قتل ملايين الرجال دفع بملايين النساء الى الفاقة والبغاء والحانات
ج - الاستهتار بالاديان وشيوع المجانة وعدم الاكتراث بالقوانين الادبية بعد أن ساقطت الحرب تلك النزعة المادية الايجابية

د - ان الاستهتار بالحياة ابان الحرب حمل الجنود والناس على التماس المتع بجنون في حياة غير مضمونة

هـ - احتقار رجال الدين وتعاليمهم لانهم أرغموا على الدعوة الى الحرب وهم رجال السلم فزهّد الناس في المعابد واتخذوا المال لهم ربا..

وثمة من يعتقد أن هذه الازمة المالية التي خيمت فوق العالم في هذه السنين الاخيرة لا دواء لها غير حرب أخرى عظيمة

فأولا - ان هذه الازمة المالية من أكبر تبعات الحرب الماضية ، واذا فرض وخففت وطأتها حرب أخرى فانما لتعود بعدها إلى أشدها . ولو كانت الدول تحسب لهذه النتائج الاقتصادية حسابا لتفادت الحرب ورضيت بكل تضحية في سبيل السلم . فقد كان من نتائج الحرب أن تزعزع النظام الدولي وتدهور معه النظام الاقتصادي في العالم كله ، فاضطربت دوائر العمل وهبطت العملة وانتشرت البطالة والعطالة بين عشرات الملايين من العمال

ثانيا - في حالة الحرب تضطرب بورصات الدول التجارية ، ويعتمد الرعب إلى بورصات العالم كله ، ويسود القلق الدوائر والأسواق المالية ، ويسحب الناس أموالهم من البنوك خوفا عليها وتسعى الدول في خزن الذهب في مصارفها خشية المفاجآت وبذا تزول الثقة المالية في العالم كما نرى اليوم ثالثا - ان النفقات الحربية تنقل كاهل الدول بالديون ، والديون تولد الفقر والازمات . وقد رأينا بعد الحرب أن الديون وما زاد عليها من عقاب التعويضات الذي فرضته الدول الغالبة على المغلوبة قد دفعت الدول إلى تخفيض نفقدها للتخلص من أكثر ديونها الداخلية والخارجية وعجزت ألمانيا وغيرها عن تسديد الاقساط مما أثار الأحقاد وقضى على المعاهدات

رابعا - أن زيادة التسلح توجب زيادة الضرائب على الاهالي وهذا يزيد في فقرهم خامسا - أن الصناعة والتجارة لا تزدهران إلا في زمن السلم حين يستتب نظام النقد . وازدهارها

ينقذ من الحرب لأنه يكسب الدولة مناعة يخشاه أعداؤها ويحول بين الهال وبين الثورات

« * »

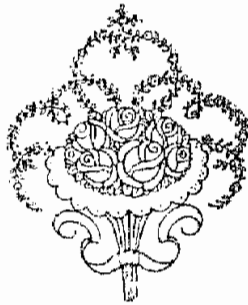
وأخيرا يذكرون ان الحرب تمنح الشعوب روحا قومية ، وأنها تولد تلك الروح عند النصر وتزيدها قوة عند الهزيمة

فأولا - أن الوطنية لا تقول باعتداء أمة على جارتها ولا تقول بتسخير الشباب واستئجارهم في محاربة الآخرين بل تقول بمحاربة الجهل والانتصار على الامراض وتخفيف المصائب عن كاهل الشعب وهي تقول بترقية الوطن واصلاح مرافق الحياة والتعاون مع باقي الدول واحترام سلامة الجار ثانيا - إذا عملت الحرب على الوحدة الوطنية فيكون عملها مؤقتا يعقبه أسوأ النتائج كما نرى في فرنسا وغيرها من الدول التي تقسمت الى أحزاب متعادية

ثالثا - أن الحرب تثير الأحقاد بين الامم وذلك يؤخر التعاون الدولي وماوراءه من فوائد مشتركة رابعا - اذا كانت الحرب تشعل نار الوطنية فانما يكون ذلك لنفع أمة واحدة لا لفائدة العالم الذي يقول اليوم مفكره بالانحد والمهاونة والسير نحو الوحدة العالمية ولا يمكن لأمة أن تعيش في غنى عن غيرها

« * * »

والخلاصة أن الحرب مهما نسب اليها عشاقها من محاسن ومنافع فان شرها أعظم من نفعها وغرمها أكبر من غنمها . وان هي إلا همجية متخلفة من العهد القديم . أما نحن أبناء الحياة الجديدة فعلينا أن نجاهر بمقمتها ونحتقر كل من يدعو اليها ، ونغرس في قلوب أبنائنا كراهتها ، ونمحو من كتبنا أنباءها وسير رجالها حتى يصبح السلم في نفوسنا عقيدة .



بين الحق والقوة

طغى الحديث عن الحرب والسلام على كل حديث سواه ، فشغل أذهان البشر وأعمدة الصحف ومنابر الخطابة . وبات كل طائر للطريق لا يعنى بغير الغارات الجوية وشراء الكمادات وما تقول إليه حرب تعد لها الأمم معداتها منذ سنين ..

ولم يكن الحديث عن الحرب والسلام منذ ظهور الانسان على الارض بالموضوع الجديد الذى تنور ثائرته بهذا الشكل قبل أن تنشب الحرب . ولكن الجديد فى قصة اليوم أن العالم كله يتحرك ويتكلم من جهات الارض الأربع كأسرة واحدة أغضبها مرأى الظلم يقع من أحد أعضائها على أخيه فنحن نرى اليوم أمامنا دولة تعتر بقوتها الحربية تمد سلطانها على أختها الحبشة ممثلة معها قصة الذئب والحمل . ورأينا كيف أبى ضمير العالم أن يسكت عن هذا الاعتداء ، فنار حنق الكتاب فى مصر والارجنتين والسويد ، وقامت المظاهرات فى اليابان والولايات المتحدة ، وتطوع الالوف من الايرلنديين والروس وأهالى الكونغو والبرازيل ، راغبين فى الدفاع عن المظلوم ، ورفضت اليمن بيع الماء لجنود المعتدى ، وأضرب عمال جنوب افريقيا عن ارسال اللحم . ولم يبق على سطح الارض دولة ولا مستعمرة لم تقتحم غمار العاصفة . وكان الدافع لهذا الغضب شعور انساني نبيل ينتصر للحق على القوة والعدل على الظلم دون النظر إلى أية مصلحة مادية ..

وكان عهدنا بالفاتحين والغزاة قبل اليوم يكتسحون البلاد ويستعبدون الناس ويسبون النساء ، فلا يهتز العالم ولا تبالى بهم الشعوب البعيدة عن مظالمهم ! وكان عهدنا بأمثال قيصر و نابليون تقام لهم التماثيل وينظر اليهم بعين الاعجاب والتقديس !

فهذه الظاهرة الجديدة تحملنا حتى فى وسط العاصفة على التماؤل بمصير البشرية ، وعلى الاعتقاد بأننا نسير الى الأمام رغم ما نخوضه من مستنقعات . وأن ضمير الانسانية قد تيقظ . وأن مبادئ العالمية أخذت تنفث فى أركان الأرض . وخير ما تمخضت عنه هذه الأزمة السياسية أن أنظار الأمم اتجهت كلها نحو عصبة الأمم ، وقام مندوبو الدول ووزراء خارجيتها يؤيدون مبادئها ويطلبون تطبيق العقوبات المدونة فى قانونها على المعتدى ، وكان الناس إلى عهد قريب يسخرون بالعصبة ويرون فيها طائلا ضعيفا ، فاذا بها وقد عادت اليها الحياة ، واذا بها تشعر الجميع أنها ضرورة من ضروريات العصر الحاضر ..

والحق أن كل من يؤمن بالتطور لا بد أن يرى العالم يسير من حسن إلى أحسن . وأن ما نراه اليوم من ازلمات وانقلابات وتأهب للحرب ، ماهى إلا محن لم يخل منها عصر من عصور التاريخ . وكلها

تجارب لا بد أن يجتازها الانسانية لتسترد بها في صعودها نحو القمة المرجوة . و يقينى أنه إذا نشبت اليوم حرب عالمية تصب ويلاتها على البشر وتقتل عشرات الملايين من الضحايا فستكون الحريق الذى به تتطهر البشرية من تلك النزعة الخربية القديمة ، وتكون الدرس القاسى الأخير الذى يحجب السلم إلى الناس ويدفعهم إلى الالتفاف حول عصبة الأمم والمناداة بالتعاون العالمى والتفرغ إلى ترقية العلوم وأنظمة الحكم ، وحل المشاكل الحيوية الجديدة بتحكيم العقل على العاطفة . .

فنحن إن كنا اليوم غيرنا بالأمس ، فسنكون غيرنا فى الغد . وهذا الغد هو المستقبل المثير الذى تكافح الانسانية وتتعذب فى سبيل الوصول إليه . ونحن جميعا لم نعط هذه الحياة القصيرة بالنسبة إلى الفرد واللا نهائية بالنسبة إلى المجموع لتتطاحن ونعتدى بعضنا على البعض الآخر بل نتعاون لنتقى وتتطور ، ونحقق غاية الحياة ، وليست للحياة غاية غير التطور . ونظرة إلى الوراء ترىنا جليلا كيف تطورنا ، ونظرة إلى الأمام تنبؤنا على ضوء العلم أننا سنصل إلى غاية لم نحلم بها . . والخلاصة أن هذا الاضطراب الدولى وهذا التسابق الجذرى فى التسليح وهذه الأزمات المختلفة لا تحمل وراءها نهاية العالم كما ينادى البعض ، ولا ينتظر منها القضاء على الحضارة ، وإن هى إلا زوبعة وقتية يثيرها على الأحياء عدد من الساسة والمستبدين وأعداء الديموقراطية . وستهدأ الزوبعة وسيظل موكب البشرية سائرا إلى الأمام . .

وكان المنتظر أن يتعظ الساسة والحكام بما أصاب البشر فى الحرب العالمية الأخيرة ، ولكنهم دون تفكير فى العواقب ، ولا نظر إلى المستقبل اجتمعوا فى فرساي ، وفى نشوة النصر أخذ الحلفاء الظافرون يقتسمون الغنيمة ويبدلون فى خريطة العالم رضيت الشعوب أم لم ترض . وفض المؤتمر وافترقت الدول فى طريقين . أما الظافرون بالغنائم فخشوا على نصيبهم ، وأخذوا يطوقونه بالحصون والجيوش . وأما الساخطون فبدأوا يعدون أنفسهم للانتقام واسترداد ما يرونه حقا لهم . وبذلك بدأ التأهب لحرب أعظم وأفظع منذ معاهدة فرساي . وتنافس الجميع سرا وجهرا فى ابتداع أحدث آلات الدمار . وسخروا العلم والعلماء ، وأكثروا من المعامل الكيماوية والبكتريولوجية فى استنباط مواد جديدة للحرب ، وإذا بنا وقد انقلب العالم إلى معسكر مدجج بالسلاح ينتظر الساعة المرقوبة . .

ويبدو لنا أن مامن سبيل لمنع مثل تلك الحرب العالمية وما من سبيل لاستتباب السلم وتهدئة الخواطر فى وقتنا الحاضر بغير تعديل معاهدة فرساي بروح العدل والتعاون . فتتحرر الشعوب المستعبدة وتتوزع المستعمرات بالعدل . ونظرة واحدة إلى خريطة الدنيا ترىنا أن المانيا مثلا لم تعد تمتلك شيئا خارج بلادها فقد نزع من كل مستعمراتها وقصت أجنحتها فى أوروبا ، وضاعت

منها الاراس والاورين الغنية بالحديد ، وأخذت منها بلجيكا جهات مالميدي وروين الغنية بالغابات ، ورفع كل اشراف اقتصادي لها عن الكسبرج ، واستردت منها بولندة أرضها القديمة بعد أن فصلت بين بروسيا الشرقية وبقية المانيا ، وأصبح ميناء دزنيغ الألماني ميناء حراً تشرف عليه عصبة الأمم ، وضم ميل إلى لتوانيا . . وهكذا ترى أن ألمانيا لن تسكت طويلا على ضياع أراضيها ولا سيما المستعمرات ..

أما النمسا فقد نالها غبن كبير وكانت قبل الحرب تكون مع المجر وحدة طبيعية تامة وبأنحلال تلك الامبراطورية ظهرت مشكلات كبرى في أواسط أوروبا لأن النمسا أرض جبلية في حاجة إلى الحاصلات الزراعية وكانت المجر مورداً عاماً لتلك الحاصلات ، فكان التبادل بين أجزاء الامبراطورية القديمة ضرورياً وميسوراً أما اليوم فقد فصلت النمسا عن المجر وحل بها الفقر وحرمت كلاهما من ميناء بحري لا بد منه للتجارة . وفوق ذلك فقد فقدت النمسا جل صناعاتها لأن تلك الصناعات كانت قائمة في بوهيميا الغنية بالفحم والحديد ، وكذلك فقدت المجر مناطقها الصناعية التي ضمت إلى رومانيا وتشيكوسلوفاكيا . وهنا اضطرت النمسا إلى التطلع نحو المانيا لتنقذها من ورطتها وخشيت الدول انضمامها إلى المانيا لأن في ذلك تقوية للعنصر الجرمانى في وسط أوروبا ولو كان فيه إنقاذ للنمسا المسكينة التي لا تزيد مساحتها اليوم عن مساحة اسكتلندة ولا يزيد عدد سكانها عن سبعة ملايين .. وقد دخلت ايطاليا الحرب العظمى في جانب الحلفاء بعد أن كانت حليفة للنمسا لأنها كانت تطمح في امتلاك التيرول وترى إلى الأشراف على سواحل الادرياتيک الشرقية ليصير بحيرة ايطالية وقد تم لايطاليا امتلاك ميناء تريسته رغم أنه المنفذ البحري الوحيد لتجارة المجر وامتلاك فيومى وهى أيضا المنفذ الوحيد لتجارة يوغوسلافيا وكذا أعطيت الجزء الأعلى والأوسط من نهر الأديج وفي هذا الجزء نحو ربع مليون نمساوى أصبحوا تحت الحكم الايطالى . أما في المستعمرات فلم تسكب ايطاليا شيئاً ولم يكن لها في أفريقيا غير ثلاث مستعمرات صحراوية هى ليبيا والارتريا والصومال ولا تزيد مساحة مستعمراتها عن ستمائة الف ميل مربع يسكنها نحو مليون ونصف مليون نسمة وهى أقل من ممتلكات البرتغال أو هولندة أو بلجيكا . وهذا سبب تدمير ايطاليا ورغبتها في استعمار الحبشة وغيرها . .

ولست حدود تشيكوسلوفاكيا ، الجمهورية التي تكونت بعد الحرب ، بحدود قومية لأنها تضم عدداً كبيراً من الألمان والمجريين . ففي مقاطعتي بوهيميا ومنرافيا نحو ثلاثة ملايين من الألمان أو ربع عدد سكانهما تقريباً . وكذا تبلغ نسبة المجريين في سلوفاكيا وروثينيا نحو ربع سكانهما وعلى ذلك ففي هذه الجمهورية ثلاث عناصر غير متحدة وغير متشابهة في المدنية والثقافة .

ولبعد هذه الجمهورية عن البحار باتت تحت رحمة المانيا التي تمتلك ميناء هامبرج وهي المنفذ البحري الوحيد لتشكوساوفا كيا . .

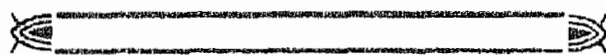
أما رومانيا فقد كسبت بعد الحرب ولاية ترانسلفانيا وفي هذه الولاية من الهيريين والألمان واليهود ما يجعل الأقليات الأجنبية فيها أكثر في مجموعها من الغنصر الروماني نفسه . وقد اتسعت حدود رومانيا بعد الحرب وتضاعف عدد سكانها فصار ١٨ مليوناً منهم ثلاثة ملايين لا ينتمون إلى القومية الرومانية ولكن هذه الحدود الجديدة معرضة من جميع الجهات للغزوات الأجنبية لعدم وجود جبال تحمي تلك الحدود . .

تلك أمثلة قليلة مقتضبة تدل على ما ينطوي عليه الروح الأوروبي من تدمير يزيده ذلك النمط الشاذ الذي توزعت به المستعمرات في أنحاء الأرض وإذا ضربنا أمثلة قليلة لذلك نرى أن إنجلترا مثلاً وسكانها خمسون مليوناً تسيطر على خمسمائة مليون نسمة أي ربع البشر ومساحة إنجلترا نحو ١٢١ ميلاً مربعاً وهي تستولى على نحو ١٢ مليوناً ونصف مليون من الأميال المربعة من مساحة الأرض . وفرنسا التي يبلغ عدد سكانها نحو أربعين مليوناً ومساحتها نحو ألف ميل مربع فإنها تمتلك من المستعمرات ما مساحته خمسة ملايين من الأميال المربعة تقريباً بها نحو ٤٥ مليوناً من السكان وهو لنده التي تبلغ مساحتها نحو ١٢ ألف ميل مربع وسكانها نحو سبعة ملايين فإنها تمتلك ما تبلغ مساحته نحو ثمانمائة ألف ميل مربع به أربعون مليوناً من السكان .

وبلجيكا التي تبلغ مساحتها نحو أحد عشر ألف ميل مربع تسيطر على ما يقرب من المليون من الأميال المربعة — والبرتغال التي تبلغ مساحتها نحو ٣٥ ألف ميل مربع تمتلك أكثر من ثمانمائة ألف ميل مربع . أما ألمانيا والنمسا والمجر وبولنده وغيرها فلا تمتلك شيئاً . وبالجملة يمكن القول إن ثلاثة أرباع العالم مقسم بين تسع وحدات سياسية وللخمس من أمة الباقية الربع الباقي .

وتدل تلك الأمثلة السريعة على أن توزيع المستعمرات سيسبب دائماً مشاكل وحروباً وثورات أقربها مارايناه من استيلاء اليابان على منشوريا واعتداء إيطاليا على الحبشة واستعداد المانيا الحربي ، ورغبة الكثير من البلدان الخاضعة للانتداب في الاستقلال .

كما أنها تدل على أن القوة مابحت تقتصر في مقادير الشعوب رغم نقطة الضمير العالمي ولن تستطيع هذه الأرض أن تطمئن وتهدأ حتى ترجح كفة الحق .



في الوحدة العالمية

العالمية مبدأ يقول باتحاد الأمم وإلغاء الشعوب بحيث يصبح العالم وطناً واحداً لجميع البشر ، بدلاً من أن تمتأثر كل جماعة بقطعة محدودة من الأرض تنعصب لها وحدها ، وتحوطها بالجيوش وتشد بذكرها باسم الوطنية أو القومية . .

ولست هذه الوحدة العالمية ، أو الوطنية البشرية العامة ، بالحلم المستحيل تحقيقه أو هو بدعة جديدة سرعان ما تؤدي تهربتها إلى الفشل ، إنما هو مبدأ منطقي مؤسس على دعائم العلم تأخذ الأيام على عاتقها تحقيقه تدريجياً بعد تدليل العقبات التي تعترض سبيله . وقد بدت اليوم بشائره لا سيما في رؤوس المفكرين والعقلاء وفي مجهوداتهم العملية . فهي بذلك مسألة المستقبل التي يتوقف عليها السلام العام . .

ولعلها دورة من دورات الزمن حتى يتحقق ما ندعوه اليوم بالحلم الجليل كما تحققت أحلام الأقدمين . وما هي إلا أن يصبح هذا الكوكب الأرضي الصغير ذو الأمم المتنافرة ، وطناً واحداً للجميع له حكومة مركزية واحدة ونظام مستتب ولغة يفهمها الجميع ، ودين علمي يعترف باله واحد لا يميز بين الناس ، وعلم مشترك يرفرف على أخوة بشرية عامة . .

فالعقل البشري المتطور الذي استطاع أن يوحد بين القبائل المتفرقة والمدن المتناحرة ويجمعها تحت راية الأخاء في وطن واحد ، لا يصعب عليه في ارتقائه أن يجمع الدول في ظل حكومة عالمية حيث تتعاون معاً وتتآخى . .

وإنه لمن للعبث ذكر الفوائد التي تعود على الإنسانية كلها من وراء هذا الاتحاد الشامل ، إذ لا يعود يومئذ داع إلى الحزازات القومية والسياسية والدينية ، ولا إلى التعصب الجنسي واللغوي ، والاحتكار الاقتصادي ، تلك الاختلافات الواهية التي تخلق بين آونة وأخرى خصومات وحروباً تواق فيها الدماء أنهاراً . .

والأمم من أجل النعرة الوطنية يخشى بعضها البعض . فهي في عداة خفي مستمر . وهي لذلك تنافس في الاكثار من آلات الدمار ومعدات القتال وأنواع الغازات السامة . وفي التفنن في تحسينها واختراع الجديد من وسائلها . ولا يمر يوم إلا ونسمع ببدعة جديدة في معدات الخراب تمخضت عنها المعامل الكيماوية والبكتريولوجية والأوساط الميكانيكية رغم أن الدول أمست بعد الحرب العالمية الأخيرة تحرص شديد الحرص على كتمان أسرار معدات الحرب الجديدة ومقدارها لتستأثر بأساليب المفاجأة . ولا يخفى ما تتطلبه تلك الاستعدادات الحربية من نفقات طائلة تضحي بها

الأمم فتهرق ميزانياتها وتزيد في أزماتها المالية ، وفي يؤس العمال وبطانتهم مما يدفع بهم إلى الثورات وهدم الأنظمة . ولنتصور حال الانسانية لو كانت تلك الأموال تنفق على ترقية الشعوب صحياً واجتماعياً وفكرياً بدلاً من أن تنفق على ادخار معدات الخراب وتأخير تطور الحضارة والرقى الأدبي الذي يسير بالإنسان الحيواني إلى إنسان المستقبل المتفوق . .

وأقرب مثل لنروأند اتحاد الشعوب هو مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، فانها قد قطعت بفضل اتحاد ولاياتها شوطاً بعيداً في طريق التقدم والرخاء والقوة . فهي لا يفصل بين ولاياتها وهي نحو الخمسين عمداً ، حصون جبركية ولا منافسات تجارية ولا تحتاج كل ولاية إلى جيوش وحصون تهرس حدودها . بينما في أوروبا ، تلك القارة الصغيرة التي تعادل الصين في المساحة ، نحو سبع وعشرين دولة مستقلة لها سبعة وعشرون جيشاً مسلحاً . ويبلغ طول حدودها نحواً من عشرين ألف ميل هي أسوار مرصوفة بالقلاع والجنود والحواجز الجبركية !

لقد قضت سنة التطور على ذلك العهد القديم الذي كانت تعيش فيه كل أمة في بيئة خاصة لا تعلم في عزلتها عما وراء حدودها شيئاً ولا تبالى بغير مصالحها الخاصة . فنحن اليوم في عصر تشبك فيه مصالح الأمم بعضها ببعض بحيث أن ما يصيب أحداها يؤثر على الأخرى . وما تهمس به داخل الغرف في أقصى الشمال تسمعه في الحال آذان الراديو في الجنوب . وليس ثمة اليوم أمة تستطيع الاستغناء عن بقية الأمم لأن مبادلة الغلات والمصنوعات أصبح أمراً حيوياً لكل شعب . كما أن تشعب المواصلات الجوية والبحرية والبحرية . وانتشار روابط البريد والراديو جعلت الحدود الجغرافية خطوطاً وهمية لا قيمة لها . .

مثل تلك الأسباب تجعل العالمية أعظم مسائل الحياة الجديدة التي يجوز تحقيقها بعد تذليل العقبات والمصاعب القائمة اليوم في وجهها . نستدل على ذلك من البشائر التي نراها الآن كمقدمات لتحقيق الفكرة . .

أما أول تلك البشائر وأجلها فهي عصبة الأمم بجنييف . وهي التي نعدها بحق انتصاراً للقرن العشرين ونعجد ذكرى الدكتور ولسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي وقف في مؤتمر الصلح بباريس يوم ٢٨ ابريل سنة ١٩١٩ واقترح انشاءها ثم سعى حينئذ حتى حققها . . وما عصبة الأمم غير نواة الحكومة العالمية المستقبلية . وكانت في القديم فكرة تخيلها عند من الساسة والكتاب والملوك وما فتئت تختمر حتى كان يوم ٢٨ يونية سنة ١٩١٩ حين وقعت ٣٢ دولة عهداً خاصاً بالشائها وهي اليوم تمثل من الدول ما يربو رعاياها على ثلاثة أرباع سكان الارض . والامل قوى في انضمام الولايات المتحدة الأمريكية ومصر وبقية الأمم اليها ، ورجوع الدول التي خرجت منها الى حظيرتها . .

ولهذه العصبية اليوم عيوب، تؤاخذ عليها مثل خضوعها لنفوذ الدول الكبرى، واعتبارها عصبية حكومات أكثر منها عصبية شعوب ثم، ضمنها الحربى أزاء الدول المسلحة المعتدية. ولكن سنة التطور والارتقاء التى تسيطر على الكون لا بد أن تأخذ بناصرتها يوماً لا سيما حين تبدأ شعلة النمرات الوطنية المتطرفة.

فاذا أدرك ساسة الشعوب تلك المسئولية العظمى الملقاة على عواتقهم فى توجيه بلادهم نحو الرقى والسلم بالمعاونة وتوثيق الروابط الاقتصادية والادبية بينها وبين الشعوب الأخرى، وفى حماية بلادهم وجيرانهم من أهوال الحروب، فإنهم لا بد أن يصلوا إلى الإيمان بأن عصبية الأمم هى أفضل أداة لفائدة الجنس البشرى من أجل صيانة السلم الدولى. وهم لا بد عاملون على علاج النقائص وأوجه الضعف التى بدت فى العصبية بسبب الوطنية المتطرفة وتهور الساسة. وهم لا بد مقدرون فائدة البوليس الدولى، لأنه إذا كانت كل دولة تحرص على نظام شئونها الداخلية بمعاونة بوليس وطنى فلماذا لا يكون ثمة بوليس دولى يقف فى وجه الدولة التى تحاول الاعتداء على أختها؟

ورغم ضعف العصبية وعجزها عن حماية الصين والحبشة من اعتداء المستعمرين فإنها استطاعت يوماً إيقاف عدة حروب ومخاضات بين الدول. كما أنها عملت على انقاذ آلاف المرضى وضحايا الأوبئة فى جهات مختلفة. وهى تراقب الاتجار بالمخدرات والأسلحة والرقيق الأسود والأبيض. وتسعى فى منع المعاهدات السرية. ولها « مكتب دولى للعمال » يحافظ على حقوق عمال الأمم، ويعقد مؤتمرات سنوياً يحضره مندوبو العمال من أنحاء الأرض، ويجمع الإحصاءات الخاصة بحالة أولئك العمال ويعمل على منع الصغار من الاشتغال فى المصانع وعلى انقاص ساعات العمل.

ولعصبية الأمم أيضاً شقيقة فى مدينة لهاي حيث تقوم « محكمة العدل الدوليه » مقام القاضى الذى يفصل فى المخاضات والمنازعات بين الدول وليس لحكمه نقض.

وفى عام ١٩٢١ وافق مجلس عصبية الأمم على إنشاء « اللجنة الدولية للتعاون الفكرى » لتعمل على توثيق عرى التبادل الفكرى بين الشعوب المختلفة والمعاونة على ترقية العلوم والآداب، وتوحيد الجهود التى تبذلها هيئات دولية مختلفة مثل مكتب حقوق التأليف واتحاد الأكاديميات ومعهد الحقوق الدولى وغيرها..

ومن بشائر الاتحاد العام أيضاً الفكرة الداعية إلى اتحاد أوروبا وتكوين ولايات متحدة أوربية. واتحاد أوروبا لأجل السلام والتضامن خطوة هامة فى سبيل الوحدة العالمية. لأن الدول الأوربية أكثر الدول تنافساً وتنازعاً. وكانت أوروبا وما زالت المسرح الأكبر الذى تمثل عليه.

أفطع الحروب وأكبر المذابح . .

وفكرة الولايات المتحدة الاوربية قديمة أيضا ولا تزال في دور الاختبار . وكان يقوم بالدعاية لها المسيو بريان وزير خارجية فرنسا الأسبق فلاقت تهيئة لدى كثير من المفكرين لاسيما في هذه السنين التي تعاني فيها اوربا الكساد والازمات وتمزيق الشمل . .

وقد قدم المسيو بريان إلى عصبة الأمم ترسيما لذلك المشروع اقترح فيه إنشاء هيئة مستقبلية من الدول الاوربية تنظر في شئون أوروبا كوحدة جغرافية ويكون لهذه الهيئة لجنة دائمة لتنفيذ قراراتها مباشرة . ولم يقصد الداعون إلى هذا المشروع تكوين عصبة أوربية خارج عصبة الأمم بل كان غرضهم أن تدير مصالح أوروبا الخاصة في وفاق تحت رقابة عصبة الأمم ووفق روحها ، إذ هناك من المسائل ماله اليوم من أهمية أوربية خاصة يهم أوروبا رغبة في السلم أن تتخذ فيها قرارات منفصلة تنفذ بسرعة وقد لا تطبق القرارات على سائر أمم العالم . .

واقترح المسيو بريان أيضا إيجاد رقابة عامة على اتحاد الصناعات واحتكاراتها في أوروبا ، وانقاص الضرائب الجمركية ، واشترائك جميع الأمم في ترع الملاحة وطرق السيارات ، وإنشاء إدارة عامة للبريد والسكك الحديدية والمواصلات الجوية واللاسلكية ، وكذا اشتراكها في التعاون الدولي والإداري لمكافحة الأمراض ، وتوثيق الصلات بين الجامعات . .

وقد رأى رجل مفكر آخر هو الدكتور « بنس » وزير خارجية تشيكوسلوفاكيا أن لا نجاة لحضارة أوروبا من الفناء إلا بتنفيذ هذه الفكرة ، وهو يعتقد أن أوروبا متجهة في هذا السبيل منذ الآن وأنه لا تنقضي خمسون سنة حتى تصبح أوروبا مجموعة ولايات متحدة لأن هناك من العوامل ما يساعد على تحقيق هذا المشروع . فعصبة الأمم والتقدم المادي واتساع نطاق المعاملات التجارية ، وتشعب وسائل المواصلات ما جعل الحواجز الجغرافية أمراً لا أهمية له . أضف إلى ذلك رغبة الشعوب في نشر السلام وتقرير مبادئ المساواة والأخاء والديموقراطية والاشتراكية ، وخوف أوروبا من أن المدنية الأمريكية المادية تهدد المدنية الاوربية وتسعى بوحدها ورخائها إلى أن تكون مركزاً لحضارة العالم . .

وفي ناحية أخرى فكرة تقبل اليوم باتحاد جمهوريات أمريكا الشمالية والجنوبية . وقد عقدوا المؤتمرات والجمعيات لمحو أسباب الخلاف بين تلك الجمهوريات ، ولاتحاد عملها لأجل توحيد نظام العمل ، والسعى وراء توثيق العلاقات المالية والتجارية ، وكذلك لتوحيد العملة ، والغاء الضرائب المفروضة على التجار بين أمريكا الشمالية والجنوبية . و أبرام معاهدة للتحكيم في كل خلاف يقع بين إحدى الجمهوريات الأمريكية وأخواتها ، وتوحيد رسوم البريد ، وتسهيل طرق المواصلات بين تلك

الجمهوريات . إلا أن العقبة التي تقوم اليوم في سبيل هذه الوحدة الأمريكية هي خوفه الجمهوريات الصغيرة من سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية وامتداد نفوذها على سائر أرجاء القارة . فإذا ثبت ضمن نية الولايات المتحدة سارت تلك الشعوب المتفرقة المتنازعة نحو الاتحاد والسلام . .

واليوم وقد استيقظت الشعوب الشرقية من سباتها فقد شعرت بم حاجتها إلى الاتحاد فثمة الهند . مثلاً تسعى في لم شعنها وإزالة أسباب النزاع بين طوائفها وأديانها ، وهناك الصين تسعى في توحيد كلمتها وضم صفوفها ، وهنا الشعوب العربية تتحدث بروابط الأخاء وتشيد بمآثر الوحدة والتعاون والتبادل الثقافي . .

وكل هذه المساعي المتجهة نحو أفق الاتحاد إنما هي مقدمات وتمهيد لطريق الوحدة العالمية المنشودة وفجر نهار مشرق سعيد . .

تلك بعض جهود الأمم وإلى جانبها جهود أخرى لجانعات تعمل اليوم على تحقيق فكرة العالمية والدماية لها ، منها « البهائية » التي تبشر منذ قرن باتحاد الأديان والمذاهب والأجناس ، وتدعو إلى أخاء البشر وإزالة التعصب . وقد أخذت مبادئ البهائية وتعاليمها تنتشر اليوم في مختلف بقاع الأرض حتى لقد شيدوا في شيكاغو معبداً فخماً اسمه « مشرق الأذكار » يحج إليه كل الناس على اختلاف أديانهم وجنسياتهم ويعبدون فيه إليها واحداً هو رب الجميع . وانتشار هذا المذهب دليل على أن الناس يشعرون بالحاجة إلى التقرب والتفاهم وجمع الشمل . .

وكذلك قل عن المحافل الماسونية التي تنادي بالأخاء البشري العام بلا تفريق بين الأديان والأجناس وغيرهما . .

والراديو يساعد اليوم على محو أسباب التفرق والتعصب بين مختلف الأمم إذ يمكن للصيني مثلاً أن يسمع صوت الفرنسي وهو في داره فتتقرب القلوب من القلوب ويحس الجميع بذلك الشعور الخفي النبيل الذي يوحى بأن الإنسانية أسرة واحدة مشتته . أضف إلى ذلك أن الراديو يعمل على توحيد الذوق الموسيقي في مختلف الأمم . .

كذلك تعمل الألعاب الأولمبية والمؤتمرات العلمية والفنية والاقتصادية التي تعقد من حين لآخر في بلدان مختلفة ، ويحضر إليها مندوبو الأمم للبحث في الصالح العام . .

وكذلك تعمل جائزة نوبل التي تمنح للنوابغ الذين يخدمون الإنسانية مهما كانت جنسياتهم أو لغاتهم أو أديانهم . .

أما أكبر العوامل التي تبشر بالأخاء العام فهو العلم . إذ متى سيطرت دولة العلم على الجميع فتفتحت الأذهان واستنارت ، وأمكنها تضحية العاطفة على مذبح العقل والعقيدة على مذبح المعرفة

حتى أصبح الناس جميعاً من رعايا دولة العلم ولم يعودوا يتطلعون إلى الوراء بل إلى المستقبل : يومئذ تندمج الوحدات في المجموع لتكون انسانية واحدة . .



ولحسن حظ الانسانية يقوم اليوم عدد كبير من عقلاء الأمم بالدعاية للعالمية . وفي التقديم قام الأنبياء يبشرون باخاء البشر . وكانت الأديان تجمع مختلف الشعوب تحت لوائها إلا أن الجهل والتعصب كانا يعميان الناس عن التطلع إلى الجوهر فيتمسكون بالقشور ويخلقون بجهلهم حروباً طاحنة تراق فيها الدماء باسم الدين وتُداس فيها تعاليم الأنبياء جهاراً . .

ومنذ نحو قرن ظهر في إيران ميرزا علي محمد الملقب بالباب يدعو الناس إلى الأخاء العام فقتلوه سنة ١٨٥٠ . وخلفه ميرزا حسين علي الملقب ببهاء الله (١٨١٧ - ١٨٩٢) ومن أقواله : « أي ضرر في أن يتحد العالم على عقيدة واحدة وأن يكون الجميع اخواناً وأن تستحكم روابط المحبة والاتحاد بين بني البشر ، وأن تزول الاختلافات الدينية وتمحى الاختلافات الجنسية . . . ويكون جميع الناس جنساً واحداً وأسرة واحدة فلا يفتخر الإنسان أنه يحب وطنه بل يكون فخره أنه يحب جنسه الانساني »

وخلفه ابنه عباس عبد البهاء (١٨٤٤ - ١٩٢١) منظم البهائية ، وكان من أعظم المبشرين بالعالمية والمنادين بإزالة التعصب القومي والديني واتخاذ العالم وطناً إذ ليست الأرض كما يقول ملكاً للأفراد ولا للأمم ، بل هي ملك لله وحده ولم يكن البشر سوى مستأجرين لها . وقد دعا عبد البهاء كما دعا أبوه إلى إنشاء محكمة دولية للفصل في المنازعات بين الدول وإلى إنشاء عصبة الأمم وإلى نزع السلاح وغيرها من المبادئ النبيلة التي تحقق بعضها . .

وكان تولستوي يبشر في ناحية أخرى بالأخاء والتعاون ويقول : « لا تفرق بين مواطنيك والغرباء لأن جميع الناس من مصدر واحد »

وكان المرحوم الدكتور ولسن يسعى لتنظيم العالم على قواعد العدل والحرية ويرجع إلى مبادئه وتقوذه الفضل في إنشاء عصبة الأمم . .

وللمعز بينات فضل في تقرب الشرق من الغرب ، إذ كانت تفتح الغربيين على دراسة الثقافة الهندوكية والروحانيات الشرقية . وقد درست أديان الهند وآمنت بجميع الأديان وأوصت بالتسامح . . ويؤمن رابندرانات تاجور بالعالمية ويحب العالم كله كوطنه . ويعد كثير من أشعاره بشارة لهذه الفكرة السامية . ويحلم برناردشو بالإنسان المتفوق « السبرمان » الذي لن يظهر حتى يعم الأخاء والعالمية كل الأرض وبمثل هذا يقول رومان رولان . .

أما . هـ . ج . ولز فيعد اليوم من أعظم الداعين إلى العالمية . وقد وضع كتاباً اسمه « التاريخ العام » اعتبر فيه الأرض كلها وطناً واحداً يجب أن يكون له تاريخ إنساني واحد . وفي كتابه « يوتوبيا الجديدة » يتخيل ولز المنزل الأعلى لهذا الوطن العالمي الكبير . . ومن أقواله :

« أنى أمقت الوطنيته لأنها حليفة الانقسام والحروب بين الأمم » ويقول « أن السلام العالمي يتطلب تغييراً جوهرياً في جميع مرافق الحياة كالغاء مبادئ الوطنية والامبراطورية وإيجاد حكومة مركزية عالمية تدير العالم كله كوحدة اقتصادية وتمنع الازدياد الفاحش في السكان بالطرق الحديثة لضبط التناسل »

* * *

هناك فئة تتخال « الجنس » أقوى دواعي الانفصال بين الشعوب ، ولكن هذا سبب غير مدعم بالأدلة العلمية والنظريات التاريخية التي تعود بالإنسان إلى أصل واحد ، بل ان نظرية التطور التي يؤمن بها اليوم جل المفكرين تثبت أن الإنسان والحيوان والنبات تشترك جميعاً في بذرة الحياة الأولى . وكان الإنسان في البدء أسرة واحدة تفرعت إلى مختلف النواحي كما تتفرع الفصون من شجرة واحدة . وإذا بالبيئة والمناخ يخلقان تنوع الأجناس تنوعاً يمس لون البشرة والقامة وشكل الوجه والرأس ولا يمس الجوهر النفساني ولا العقل الباطن ولا أعماق الحياة التي لا تختلف بالنسبة لمختلف الشعوب . .

يقول بعض العلماء الطبيعيين إن الإنسان الأول نشأ في جنوب آسيا الشرقي ثم تناسل وكثرت ذريته فأخذ يرحل من بيئته الأولى إلى القارات الخمس وأخذت العوامل الجغرافية تشكل الأجناس وتلون البشرات ، فظهر منها الجنس المغولي وسيطر على معظم آسيا لاسيما الصين واليابان وماهى إلا أن تفرع منه التتر والمغول الشماليون كالاسكيمو والأتراك والقوزاق وظهر إلى اليوم في شمالي أوروبا والمجر وأرخييل الملايو ومدغشقر وغيرها . .

وتفرع الجنس الآلي من المغول التتر وانتشر في شمال إيران وآسيا الصغرى والبلقان وجبال أوروبا الجنوبية . أما معظم الأوربيين فمن الجنس القفقاسي الذي كان موطنه الأصلي في الجنوب الغربي لآسيا ثم انتشر حول البحر الأبيض المتوسط وتفرع منه الجنس الأبيض الشمالي . .

أما المصريون القدماء وبقاياهم اليوم الاقباط وكذا البجة والصومال والداقيل والنوبيون ، فسكانهم من الحاميين الشرقيين الذين هم من أصل اسويى ومتفرعون من جنس البحر الأبيض ، ومنهم أيضاً الاجناس التي نشأت من اختلاط الجنس الحامى بالعرب . .

وتثبت تلك الامثلة القليلة التي يشرحها علم الاجناس بأسباب ، أن كل أمة تشترك مع عشرات

الامم الاخرى في جنس واحد . وكل أجناس الارض متصلة الحلقات متشابهة الجوهر ترجع الى أصل واحد هو انسان الغابات . .

أما اللغة التي يظنها البعض من أسباب التفرق فأوهى تلك الاسباب وأقلها قيمة . فأهل سويسرا مثلاً ينقسمون إلى أربعة طوائف تتكلم كل منها بلغة مختلفة ، ومع ذلك تجمعهم رابطة واحدة . كما أن في الهند نحو مائتي لغة وعجمة ومع ذلك يضمهم قطر واحد ، ولكل امرئ أن يتصور حال الطنود وعددهم نيف وثلثمائة مليون لو كانوا يتكلمون بلغة واحدة ويدينون بدين واحد ويندعجون في وحدة واحدة . .

إن على كوكبنا الارضى الصغير شعوبا تتخاطب بنحو ثلاثة آلاف لغة مختلفة لكنها تعود كلها إلى أصل واحد حينما بدأ انسان الغابات يقلد أصوات الطبيعة ، ويتفاهم بها ، فلما ضرب البشر في مناكب الارض سعياً وراء الرزق أخذت لغاتهم تتعدد وتباین بالنسبة إلى مدرجاتهم وبيئاتهم وليس هنا المجال المتسع لسرد مجمل من علوم اللغات وأصولها ولكننا نذكر على سبيل المثال أن اللغة السريانية مشتقة من السكدانية وهذه مشتقة من الارامية أو البابلية ، وثمة بين المصرية القديمة والعبرية قرابة إلا أنهما انفصلتا وتطورتا وبقيت اللغة المصرية عشرات القرون حتى دخلها التحريف فصارت اللغة القبطية . ويثبت بعض علماء الآثار المصرية ومنهم المرحوم أحمد كمال باشا أن اللغة العربية مشتقة من المصرية القديمة . . وقد اشتقت الإيطالية عن اللاتينية ، أما اللغة الفرنسية فهي اللغة اللاتينية التي نقلتها أمة المغول وحورتها . . واللغة الهندستانية وهي أهم لغات الهند مشتقة من الفارسية والعربية . .

والخلاصة أن كل لغات الارض ذات قرابة ونسب وقد خلقت اللغة للتعبير عن المدركات الذهنية والمعاني النفسانية وكل لغة تعنى بهذا الغرض كافية . .

وقد أخذ بعض العالمين يضعون وينشرون لغة تتفاهم بها كل الشعوب وأطلقوا عليها اسم « الاسبرانتو » وضعوا لها فعلاً المعاجم وألفوا بها الكتب إلا أنها لم تنتشر الانتشار المنشود لأنها في طور الحداثة . .

وكذا الحال في الدين فانه لا يقف في وجه الوحدة العالمية وهو الذي لا يقف اليوم في وجه القومية . إذ أن الأديان كلها تعود الى منبع واحد حينما لفتت المظاهر الطبيعية نظر البشر الاول فعلموها بالسحر والكهانة ، ثم تدرج السحر إلى الوثنية وتعدد الآلهة ، وتدرج الدين من الوثنية إلى التوحيد واهتدى أخيراً إلى الله . وكما اشتقت اللغات بعضها من بعض ، كذلك اشتقت الأديان فاليهودية مثلاً مشتقة من ديانة السكدانيين ثم اختلطت بمعتقدات الآريين ومن الديانة

الموسوية والمصرية القديمة خرجت الديانتان المسيحية والإسلامية بعد تطور . .
وتتفق كل أديان العالم في تعاليمها ووصاياها وحتمها على الخير والتقوى ولا تكاد تختلف في غير
الحوادث المادية والتفسير والتقاليد مما يراه الفكر الحر أمورا ثانوية . .
أما سبب التعصب الديني لدى العقلات الآمية والذي يقاوم أحيانا فكرة توحيد الأديان فهو
القوة الجارفة التي تولدها العقيدة الشخصية . وقد ذكر جستاف لوبوف في كتابه « الآراء
والمعتقدات » سبب التمسك بالعقيدة والاستشهاد في سبيلها ومن ذلك قوله « إن المعتقد هو
إيمان لا يتطلب لاثباته أدلة وكثيراً ما لا يتحقق بالأدلة . ولو قام الإيمان على الدليل العقلي وحده
لسكان عدد المعتقدات التي ظهرت على مر الأجيال قليلة . . »

* * *

وكذا الفن كالعلم والأدب لا وطن له ولا لغة لأنه ينبثق من النفس البشرية ويعود إليها . وقد
خرج الفن في البدء من السحر الذي اقتضى لممارسته صنع التماثيل . كما خرج الغناء والموسيقى من
تقليد أصوات الطبيعة . ثم اشتقت الفنون بعضها من بعض حتى تطورت في مصر وكلدانيا وآشور
منذ ثمانين قرناً ومنها نقلها الفنيقيون إلى اليونان ومن الفن الاغريقي استقى الرومانى الذى تأثر
أيضاً بالفن الشرقى فخرج منه الفن البيزنطى ثم الفوطى . ونقلت أمة الفرس فنونها عن مصر
وبابل وجاء العرب فقلدوا الفن البيزنطى أثناء فتوحاتهم ثم حوروه وهكذا . .
وما يقال فى الفن يقال أيضاً فى الآداب والعلوم فكلها تراث الانسانية وليس لقوم أن
يدعوها لأنفسهم وحدهم . .

ونرى مما سبق أن أجناس البشر ولغاتهم وأديانهم وفنونهم وتفصيلاتهم ذات قرابة ونسب ، وليس
على الأرض أمة مستقلة أو أمة تستغنى عن سواها . فإذا عادت الشعوب واندسجت تحت راية العالمية
فقد عادت المياه إلى مجاريها والانسانية إلى فردوسها الضائع وفيه متسع للجميع . .
والعلم هو الوسيلة العظمى لربط أشتات العالمين ، والعقل هو الأساس الذى سيشيد عليه صرح
تلك الوحدة بعد أن تخمد نيران التعصب ، ويستغنى الانسان عن بعض غرائزه الحيوانية . .
وستربط المواصلات السريعة أجزاء الأرض فيمكن لكل انسان مهما توغل فى أغوارها أن
يتنقل على هذا الكوكب الصغير كما تنتقل الطيور فى أرجاء الفضاء . .
يومئذ تحمل الساعة التى لا يتناحر فيها الانسان مع أخيه الانسان بأثرة وكبرياء بل يتطلع إلى
المثل العليا التى سترفعه إلى « المبرمان » وإلى تحقيق الغاية من هذا الوجود .

عمدة النجاح في العصر الحديث

قد يكون النجاح ماديا كأن يبلغ الانسان درجة من الثراء والجاه تؤهله إلى العيش الوفير .
وقد يكون معنويا كأن يفوز بحظ وافر من الثقافة والمعرفة ومتانة الخلق يؤهله لأن يكون عالما
رفيع المنزلة أو أديبا عظيم الشأن أو رجلا سامي الخلق . .

وليس من السهل المفاضلة بين هذين النوعين من النجاح إذا اتخذ الناجح من أحدهما
وسيلة نبيلة لتحقيق الغرض الأسمى من الوجود . وهذا الغرض هو السمو بنفسه وعن حوله
من بني الانسان . .

إلا أن النجاح المادي وحده يكون أحيانا غاية منقوصة إذا مال بالهمة إلى الفتور وبالارادة إلى
الضعف ، وأضاع الاهتمام بكل شيء لأن المال الكثير الذي يسهل لصاحبه ما يبتغى ويحقق له كل
ما يشتهى ، كثيرا ما يقعد به عن العمل ، ويضعف فيه الامل وتذوق الحياة السعيدة الحلوة بأمانها
وآمالها فينقلب ذلك النجاح المادي إلى فشل معنوي بل ومادي أحيانا . وهنا يصدق قول أفلاطون
« إن الثروة جزيلة النفع لا لكل إنسان بل لصالحى القلوب »

كما أن الجمع بين تحقيق النجاح المادي والنجاح الادبي يكون غاية أعظم إذا اتخذ منها حائزها
وسيلة مزدوجة إلى الخدمة العامة . .

فإذا استثنينا من بحثنا ناحية الحظ أو المصادفات السعيدة أو المواهب الشاذة النادرة التي كثيرا
ما أدت إلى العبقرية والنجاح لأنها من شواذ القواعد التي لا يقاس عليها . وكذلك إذا استثنينا
اولئك الفائزين بالنجاح المادي بالطرق المكيفالية والوسائل التي تتخطى الأخلاق ولا تعترف
بالفضائل ، لأن هذا الضرب من النجاح الوقتي إنما هو في الحقيقة فشل خلقي متكرر . إذا استثنينا كل
ذلك أمكننا أن نرسم مثلما مليئا بالمباديء المعتبرة لاندحة لعالم النجاح في هذا العصر من وضعه
نصب عينيه واتخاذها إن شاء شعارا له ، أما أضلاعه الثلاثة فهي :

أ - معرفته نفسه خاصة وإذا كه خفايا النفس البشرية طامة

ب - فهمه بيئته وميزاتها ومؤثراتها

ج - شعوره بوحى هذا العصر وإمامه بروحه المتطور .

أ - معرفته نفسه

كان طاليس يقول : « ليس أصعب على الانسان من معرفته حقيقة نفسه » وقيل إنه كتب على

لوحة علقها في هيكل الشمس : « هل أنت أيها الانسان تعرف حقيقة نفسك ؟ » وفي ذلك يقول الإمام علي « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

ومعرفة الانسان نفسه تسكون عن طريقين :

أولاهما — تأمله في ذات نفسه وفهمه ليوطنها ورغباتها وعاداتها وبالجملة ادراكه فضائلها وتقائصها وثانيتهما — إلمامه بعلم النفس الحديث وما أتى به علماء هذا العصر من نظريات جديدة يمكن تطبيقها عمليا على حياة الفرد فتكشف عن دغائل النفس وبواطن العقل ، وتبين مظاهرها ، وتهدى الباحث إلى نواح نفسانية كان يجهلها فيزداد بنفسه معرفة ..

وهنا يتكشف له استعداداته وتُسفر له نقط الضعف المحتاجة إلى علاج ، ومواضع القوي الدفينة المحتاجة إلى بعث . ويرى « الغاية » التي يؤهلها استعداداته وميله إلى تحقيقها ..

فاذا عرف طالب النجاح تلك الناحية التي يجب أن يتوجه إليها ، والغاية الوحيدة التي ينصرف إليها ويتخصص لها ، فقد خطا الخطوة الاولى نحو النجاح ..

إن لكل نفس هوية خاصة تنحو بها إلى ناحية معينة والتخصص اليوم أكثر ضرورة للنجاح من كل عصر سالف لأن تطور العلوم والمعارف والتساع نطاقها وتشعب نواحي الحياة ، واشتباك أغراضها قد جعل لكل مطلب شعبا عدة . والنفس التي تميل إلى العلم مثلا ترى أمامها عشرات الفروع التي تتشعب بدورها إلى فروع أخرى ، وهكذا الحال في الصناعات والمهن وغيرها ، وليس في مقدور تلك النفس ذات القوة البشرية المحدودة الأجل الأرضي القصير ، أن تتعلق بعدد الشعب وتفوز بها جميعا أو بعدد منها ..

يرى أفلاطون في جمهوريته « أن كل اثنين غيران ، وكل واحد يختلف عن غيره موهبة ، ففي الواحد من الناس استعداد خاص لنوع من الأعمال وفي غيره استعداد لعمل آخر . وليس النجاح في توزيع قوتي الفرد العقلية على أعمال عديدة بل حصرها في موضوع واحد »

حتى المواهب الطبيعية إذا لم تتجه نحو غاية معينة تنسجم معها لم تثمر . والإنسان بلا غرض كسفينة ضالة في عرض البحر تعبت بها الرياح . ومن يتجه نحو عدة غايات متباينة ويوزع عليها جهوده يشتت نشاطه ويدع إرادته تتنازع ذهنه ويكون من تصادمها ضعفها .. وضعيف الإرادة لا يستطيع المثابرة وتحقيق ما يرمى إليه ..

وقد أجمع علماء النفس على أن تاريخ الناجحين هو تاريخ أقوياء الإرادة الذين سار كل منهم وفق طبعه ووضع تجاه نظره غاية واحدة أتمها في وقتها الخاص ، غير مبال بالمشغلات ، وغير متشاغل عنها إلى ما عداها من غايات أخرى تتوزع عليها جهوده ..

وإذا كانت معرفة الغاية التي يجب أن يقصد نحوها طالب النجاح هي حيز الزاوية في صرح الارتقاء الفردي بل والاجتماعي ، فإن معرفة الوسيلة التي تؤدي إلى تحقيق تلك الغاية هي التي تقيم ذلك الصرح وتخلقه، فهي بذلك أهم من معرفة الغاية نفسها . وكثيرون هم طلاب النجاح الذين فشلوا في تحقيق الغايات بسبب جهلهم بالسبل والوسائل المؤدية إليها ..

ومعرفة تلك السبل المؤدية إلى تحقيق الغايات في حاجة أيضا إلى قوة الإرادة، أي إلى تلك القوة النفسية التي توفق ملكات الانسان وقواه، وتحولها إلى عمل منتج غير مبالية بما يعترضها من عقبات ولا بما يثنيها عن انصرافها إلى تحقيق غايتها الوحيدة ..

ويرى « بتس » في كتابه « العقل وتهذيبه » أننا قبل أن نحكم على الإرادة وقوتها علينا أن نضعها في بوتقة الاختبار حاسبين حساب العمل الايجابي للإرادة بقدر ما نحسب لعملها السلبي . فكثيرون هم الذين يحكمون على ارادتهم من عملها السلبي الذي يمنهم ويسكنهم عن اتيان شيء ما . وهو وان كان عمل له أهميته ، إلا أن عملها الايجابي أعظم خطراً ، فثمة رجال ونساء قادرون على مقاومة الشر ولكن قدرتهم على عمل الخير عاجزة . هم تنقصهم تلك المقدرة التي ترفعهم إلى مستوى أعلى وتنشلهم من دركة الانحطاط ..

مثل هذه الدراسة النفسانية تربه أيضا أن الإرادة القوية التي هي من أهم عدد النجاح قد تعثرها علل جديرة بالعلاج . فإذا بداله ضعفها وانقسامها فعليه بتحليل نفسه ليري أطماعها ويستعرض ميولها، وينتقي منها غاية يقتنع بأفضليتها فيقدمها على غيرها، ويصرف نحوها جهده خوفاً من تشتت ذهنه في عدة غايات .. وإذا ظهر له عجز إرادته عن متاومة الاهواء والشهوات التي تشغل قلبه وتعوق سبيله فعليه بتقوية جسمه بالرياضة البدنية ، وعقله بالأبحاث الجدية ، ليعتاد اقتحام الصعاب وممارسة المشاق والتغلب على تلك التزعات التي تتلاعب به ، ويتعرض على تنفيذ ما عزم عليه من عمل دون أن يدع تلك العزيمة تتلاشى بلا تنفيذ فتعتاد الفشل . والفشل قد يجر إلى فقدان الثقة بالنفس . وإذا ظهرت قوة إرادته ولكن في اتجاهها نحو الشر كما يحدث لأغلبية المجرمين الذين لا يحجمون عن تنفيذ ما أرادوا من شرور ، فعليه تلقين نفسه مبادئ الخير والتروى، وتعريفها ما بين نتائج العمل الطيب والعمل السيء من فرق عظيم ..

وهو في تحقيق غايته عليه أن يتعلم كيف يعتمد على نفسه ويثق بها، كما يتعلم الاستقلال بالنظر وعدم التورط في التقليد الاعمي . وعليه كما يرى أمرسون في مقاله « الاعتماد على النفس » أن يكتشف ويراقب ذلك الشعاع النوراني الذي يسطع في عقله من الداخل أكثر مما يسطع بريق أجواء الشعراء والحكماء ، فلا يطرد فكرته بلا وعى لا شيء سوى أنها فكرته هو .

إنه يستطيع بتلك الثقة بالنفس والاعتماد بها والاعتماد عليها ، وتركه التقليد الاعشى ، أن يكون ذا شخصية مستقلة بارزة تكفيح ما حوّلها من شخصيات ضمنية تستقيم إلى التواكل ، وبذا تقف في بيئتها موقف الزمامة ..

وهو يستطيع باستقلاله بالنظر أن يسبب لنفسه سبلا ميسورة للنجاح كثيرا ما تخفى عن عيون المقلدين والمتكئين على سوائهم ويمكنه الابتداع والابتكار ..

وهو بذلك يخرج من زمرة الزناير التي تعيش من كد النحل وجده ، تلك الزناير التي تستكظ بها خلايا المجتمع وتتمثل في أولئك الأصحاء الذين يكرهون العمل ويهزغون للصعاب ، ويعيشون حالة على ذويهم ، أو يتمرنون على أعتاب الوظائف الحكومية احتقارا منهم للأعمال الحرة والمهن المستقلة ، أو يترقبون الميراث الذي يأتيهم لقمة سائغة ليغنيهم عن مشاق العمل . أو يسعون وراء الزواج النفعي ليبقوا عيالا على ثروات زوجاتهم ..

إنما المرء يسود بالعمل على قول لويس الرابع عشر : « عبادة العمل رغم ما تكسبه من اعتبار وتهيؤه للرقى ، فانها تملأ نفس صاحبها بالارتياح والغبطة كما تملأ فراغ أيامه بالنافع ..

يفخر اللورد أفبري في كتابه « مسرات الحياة » بقوله « اذا كنا معشر الانجليز قد نجحنا وصرنا شعبا حيا فالفضل لاجتهادنا ومحبتنا للعمل »

ولم يبالغ هذا الانجليزى في فخره فان الزائر لبلاد الانجليز يرى جليا أن تلك الغريزة التي خلقتها البيئة والوراثة والتربية الاستقلالية وتبدو في تعلق الانجليز بالعمل حتى في أوقات الفراغ ، هي أهم أسباب نجاحهم وبسطة سلطانهم . وقد بسط كل من الدكتور حافظ هفنى باشا في كتابه « الانجليز في بلادهم » وأدمون ديمولان في كتابه « مر تقديم الانجليز » هذا الرأى وأفاض فيه ..

فعبادة العمل لذاته والاقدام على المتاعب بجهد ومثابرة وتناول من عدد النجاح ، بل من الواجبات التي تفرضها الأديان وأسفار الأخلاق . فقد حث القرآن الكريم على العمل : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » وجاء في التوراة « بعرق جبينك تأكل خبزك » وفي أمثال سليمان الحكيم : « أنظر إلى النسلة أيها السكسلان .. » وجاء في أمثال القدماء « ان الشيطان ليجد عملا لأهل البطالة » وفي أشعار العرب « ومن طلب العلا سهر الليالى » ..

ولا ندع باب معرفة الإنسان نفسه قبل أن نذكر أن تلك المعرفة قد تنقذه من خطر تنساق إليه نفسه عن طريق ما يسميه علم النفس « بمركب النقص » . فقد يشعر في دخيلة نفسه أنه ناقص في ناحية من النواحي المادية أو المعنوية ، فيحاول بلا وعى أن يستعوض عن ذلك النقص ، ويعمر الآخرين بتهرقه في نواح أخرى ، فيجد في بلوغ النجاح والرقى ، وهنا قد يبلغ ما يطمح

اليه ويحقق ما أملة في النبوغ . ولكنه قد يصطدم بالمعوقات أو يتوهم الضباب فيلجأ إلى سبل ميسورة يرسمها له عقله الباطن هروبا من الواقع ، فيقع في تخیلات وأحلام بعيدة عن الحقيقة . وقد تجرّه تلك الأحلام إلى طلب العزلة والرضى بالحنول والاستكانة ، أو تسوقه إلى أنواع شتى من الجنون أو تملؤه بالزهو والغرور أو تنحرف به إلى الاجرام والتورط في الشرور . فدراسته لنفسه وإطلاعه على علم النفس الحديث قد تنبئه إلى ذلك الانحراف ، وتهديه إلى الطريق الذي يستكمل به النقص ويؤدي به إلى التفوق ..

وكذلك تطلعه تلك المعرفة على مافى نفسه من عادات مذمومة تموقه عن طلب النجاح ، فكثيراً ما تسيطر على النفس بعض عادات سيئة تغلبها على أمرها ، ولا يتدارك الإنسان خطرها إلا بعد فوات الفرصة . وثمة عادات تصبغ طباع ثانية وتورث الصلابة وتعلأ النفس بالخوف من الجديد وبكراهة المجددين ، ولو أن الحياة تتجدد وتبدو كل ساعة بمظهر جديد .. .
وهي تعلمه السيطرة على عقله وممارسة حصر الانقباض في الأمر الذي يشغله حتى في تلك الاوقات الفارغة التي تمر عليه عبثاً ، وبذلك يجعل عقله سلس القياد مطواعاً ، لا يقط به عن سبيل الغاية التي ييسم بوجهها شطرها ..

ب — البيئة

أما معرفته بيئته وميزاتها ومؤثراتها فأنها تكشف له عن كثير مما يعينه على ادراك النجاح ، كما تعلمه فن المعيشة والممكن المنظم .. .
ولا يكفي طالب النجاح استقلال شخصيته وحدها سواء أكان أدبياً أم اقتصادياً أم عالماً ، إذ لا بد له من فهم بيئته التي يعيش فيها وما تشتمل عليه من حي وجماد ونفط وركود ، وما ينتمى اليه من جنس ، ولا بد له من تفهم عقلية قومه وعاداتهم وتقاليدهم ، وما بلغته بيئته من تقدم بالنسبة إلى غيرها . وما لهذه البيئة من مؤثرات تكيف بها تفهمه وعقله وجمعه ، ومهرضات تؤثر في طباعه وخلقه .. .
وهنا يمكنه الامام بنفسية الجماهير التي تحوط به ، والتي كثيراً ما استغلها الرعماء والقادة في الوصول إلى تحقيق غايتهم .. .

وهذه الملاحظة لما حوله تكسبه كثيراً من التجارب التي تستمد من الحياة وحقائقها أكثر مما تستمد من النظريات والكتب .. .

وقد يماهد بحيط خاص على النجاح أكثر مما يساعد وسط غيره ، لتوفر شروط خاصة . وقد يقين له ما للصناخ والاضاءة من أثر في زيادة الكفاية ومضاعفة الانتاج ، أو في فتور الهمة وضعف المجهود . ولعله بذلك يتغلب على مؤثرات الجو كأن يتهز أنسب الشهور وساعات النهار للممل

فيضعف فيها جهده أو يمدد إلى تسكين جوف غرفته أو مكان عمله بجو يلائمه ويزيد في نشاطه . .
وقد تبين له حاجة بيئته إلى نواح من النشاط لم يطرأ عليها غيره أو طرأ عليها القليلون ، فهذه بيئة
تحتاج إلى مناعة خاصة أو متعبر خاص أو إلى استقلبات ذرع معين ، أو هي تقتقر إلى مشروع
اقتصادي أو شركة أو تأليف كتاب يهتما موضوعه أو غير ذلك . .

وهو إذا أدرك ما للبيئة من أثر في نفس ساكنها وعقله ومزاجه ، عمد إلى تنظيم معيشته وعرف
ما لقن المعيشة ونظام السكن من أثر بين في نجاح الرجل . لأن البيت المنظم الحسن الترتيب والشامل
للراحة والهدوء ، يزيد ساكنه شعورا بعزته واستقلاله وكرامته وهو متى أحس بكرامته عمل على
الحفاظة عليها . ثم هي توحى إليه روح النظام والترتيب والذوق السليم والخلق الحسن . وتزيده حبا
في التجميل والعيشة الراضية المكتنفة بصور الجمال ، وتحبب إليه زيادة الدخل والتماس سبل النجاح
حبا في ترقية هذه المعيشة . .

وفي ذلك يقول الكاتب الفرنسي ادمون ديملان في كتابه « سرتقدم الانجليز السكسونيين » :
« ان طريقة المعيشة المنزلية تساعد على نجاح الانجليز » وبعد أن يفيض في اثبات رأيه بالأدلة
وعديد الأمثلة يقول : « كان كلينفلند رئيس الولايات المتحدة صبيا عند أحد البدالين ، وكان
اللورد جلاسكو صبي نوتي في أحد المراكب وكان فرا نكلين عاملا بسيطا ، وليس في ارتقائهم
ما يستوجب العجب ولكن العجب هو كثرة العصاميين الذين لم يترك أصلهم الوضع أثرا
من الآثار التي نراها في قومنا الذين يرتقون . وأنا أحج كل انسان يعملها بغير طريقة
الانجليز في مسكنه »

ورب معترض يقول أن عددا من الناجحين والنوابغ نشأوا في بيئة منحطة لا أثر للنظام فيها
ولكن هؤلاء القلائل وان شذوا عن القاعدة فإن لهم من عدد النجاح الأخرى ما جعلهم يسمون
فوق بيئاتهم ويحتازون الصعاب بارادتهم .

ج - الشهور بروح العصر

ولرجل القرن العشرين الذي يطلب اليوم النجاح أن يعرف عصره حق المعرفة ، ويشعر بوحيه
ويدرس روحه المتطور المتجدد وإلا عاش فيه مغمورا غريبا .
فهو يعيش اليوم في عصر جديد . . جديد بعلومه وفنونه وبأكتشافاته ومخترعاته ، وبأنظمته
وتقاليده . . عصر يتسم بحضور خاصة ذات عادات ومبادئ لا بد له من درسها وتحصيلها ثم
اعتناقها ، ليسير وفق روح العصر المتطور ، ولا يقف حجرة عثرة في سبيل الناموس العام الذي لا يعرف
الركود ولا يبالي بالجمود . .

وعليه أن يدرك أنه مهما حن الى الماضي وتعلق بأهداب القديم فإنه ينساق مع الجوع زغما عنه إلى الامام ويمتزج بالحاضر . وأن من تلكأ عن مجارة الحاضر جرفه تيار التطور الذي لا يقف وأن يشعر بروح هذا العصر الملىء بالحياة والحركة والصخب والتنازع الشديد على البقاء . عصر تسود فيه الحضارة الصناعية وتسيطر دولة العلم . وتقوم هنا وهناك التجارب الجريئة في مضمار الاجتماع وأنظمة الدول والاقتصاد والآداب والفنون . عصر تشعبت مبادئه وكثرت مطالبه وسكانه وزاد تراجمهم على العيش وامتلأت حياته تعقيدا وتركيبا وظهرت فيه الأزمات السياسية والاقتصادية ، وأصبحت السكاليات التي كان السلف لا يعرفونها أو لا يبالون بها تعد اليوم من ضرورات الحياة اليومية ..

وقد باتت مسائل العصر ومشاكله تمس حياة كل فرد وتؤثر في كل هيئة اجتماعية وتستدعى بذل الجهود في سبيل درسها وتذليل صعابها ..

فرجل القرن العشرين الذي يرمى الى النجاح في حياته لا بد له من التزود من ذلك العلم العصري الذي يسير بخطى واسعة يكشف كل يوم عن جديد ويسخر الطبيعة والجماد لخدمة الناس ، ويكشف عن أسرار الوجود ويستخدمها في مختلف مرافق الحياة ، ويستنبط كل يوم مخترعا جديدا يغير مجرى المألوف ..

وعليه أن يشترك في ذلك التراحم الشريف في الحياة بأذلا جهده في الانتصار على العقبات ، ذلك التراحم الذي يتمخض اليوم بفعل الازمات الاقتصادية والسياسية عن ثلاثين مليوناً من العاطلين في مختلف الأمم ..

وأن يؤمن بالمنافسة في مضمار كثير الحركة والزحام ، ويملاً قلبه بالطموح ، لا بالاستكانة والتواكل والخنول ..

وفي سبيل الكفاح في مثل هذا المحيط المضطرب يجب أن يتزود اليوم بأعصاب سليمة وحواس قوية ، وقوى حيوية وافرة . وهذه الميزات الجسدية لا تتوفر إلا في جسد قوى البنية قادرا على تحمل المشاق ، ومن أجل صحة الجسم التي فيها سلامة الدهن وقوة الغدد الصماء ، والمقدرة على مقاومة المرض والوهن والاضجر يجب العناية بالرياضة البدنية التي لها اليوم شأن عظيم ، والاهتمام بالشروط الصحية التي تحفظ للجسد حيويته ..

وأن يعتقد « بفلسفة الوقت » ويقول بقيمته وتقديره . وإن كان طالب النجاح في كل عصر ملزما بتقدير الوقت واستغلاله في النافع ، وإذا كان الاقدمون يحثون معاصريهم على تقديس الوقت فيقول الامام علي في ذلك « من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد بناء ، أو حمد

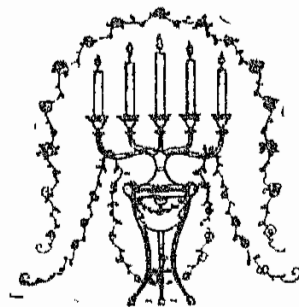
حصله أو غير أسسه أو علم اقتبسه فقد عقى يومه « ، فإن هذا العصر الذى اتصلت فيه أجزاء الأرض ، وكانت للسرعة فيه شأن ، قد زاد من قيمة الوقت حتى صار اعتبار الوقت من أخطر عدد النجاح لرجل العصر . .

فالحياة قصيرة محدودة ، والزمن يمر على الإنسان ولا يعود . . والصبا يعقبه شباب فشيخوخة ، وللوقت أجنحة تهبنا نؤمن أن الاقتصاد فى الوقت أهم من الاقتصاد فى المال . وفى أمثال اليوم أن الوقت هو المال بل أئمن من المال . .

يقول أرنولد بنيت فى رسالته الطريفة « كيف تعيش أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم » : « إنك تنهض فى الصباح فأنظر ما جمعتك مليئة بطريقة سحرية بأربع وعشرين ساعة من المادة الخام لكيانك . أنها لك ، وهى أئمن ما تمتلك وأنها أعظم الهبات التى تهبط عليك بحالة هى أغرب وأعجب من الهبة نفسها »

وهذه الحياة القصيرة يضيع ثلثها فى النوم وثلثها فى تحصيل الرزق ولا يتبقى غير الثلث الذى تقضيه الأغلبية فى خمول وسأم . وهذا الثالث دخل يستطيع أن يصنع منه صاحبه حياة طيبة أو حياة خاملة . .

وإذا عين الإنسان خايته فانه يساعد على الاقتصاد فى الوقت . وعلى رجل العصر أن يتعلم كيف يستغل وقته ويستخدمه فى النافى ، ويحدد لكل واجب زمنه ، وينظم أوقات عمله ويستفيد من أوقات راحته ، فيكون قادراً على العمل قادراً على الراحة ، وأن يعرف كيف يعمل أكثر ما يمكن فى أقل زمن ممكن ، وأن يؤدى كل عمل فى وقته ولا يتعلم التسويف والتأجيل . وينتهاز الفرص السانحة ، ويتعلم المواظبة والدقة فى المواعيد ، ولا يتعمد على أوقات مخصصة لأعمال أخرى .



مستقبل العالم في نظر العالم

كل خفي مستور يثير حب الاستطلاع الفريزي في النفس ، والمستقبل بحجابه واجهاته يثير هذا الشوق ويدعو إلى الرجوع بالغيب ، ويدفع بالكثيرين إلى التنجيم والتنبؤ والتخيل ، كما يدفع بعض المتألمين الأذكاء إلى استغلال سذاجة الجبهة فيستدرون الأموال وسط معصب البخور والتماويذ وادعاء الاتصال بالأرواح والجان . وقاما تخلو مدينة على الأرض من أولئك الدجالين الكاشفين عن المستقبل بمختلف الأساليب . .

ولكن المعروف لدى كل ذهن مستنير أن التنبؤ بالممكنات المستقبلية من غير طريق الاستنتاج العلمي هو محض خداع أو تخيل . أما نبؤات كبار الأنبياء فخارجة عن هذا البحث . .

ويجب أن يكون هذا الاستنتاج العلمي وليد بحث دقيق في الماضي والحاضر ولذا فهو يستدعي المأما بعلوم النفس والمنطق والتاريخ والاقتصاد وغيرها . وبذلك فقد ظهرت حاجتنا إلى أساتذة يدرسون المستقبل في ضوء العلم وينشئون علما جديداً يسمى « الاستقبالية » مثلا . .

وبه يمكننا مثلا أن نحكم على شعب معاصر بالانقراض أو التفوق إذا درمنا طريق سيره الحاضر واستعداده لقبول الحضارة . كما يمكننا أن تنبأ بخراب مدينة لأنها تقع في منطقة موبوءة أو معرضة للزلازل أو لغارة حريرة وهكذا . .

واليوم وقد تعقدت أحوال العالم فقد حاول كثير من العلماء أن يضعوا تصميما لحال المجتمع في مستقبل حياته ، والفت في ذلك عشرات الكتب والقصاص ، وهم في هذا التصميم يستنبطون من مجرى الحوادث الجارية مادتهم ، وقد يشتغل بعضهم في الخيال كما فعل ه . ج . ولز في كتابه « آلة الوقت » الذي تخيل فيه حالة المجتمع بعد ثمانمائة ألف سنة . ومثل المستر ملداين الأمريكي الذي كتب قصة عن حالة العالم بعد ٢٥ مليون سنة .

ومنذ بضع سنوات وضع جيمس فيرجيف الأستاذ بجامعة لندن كتابا قيما هو نوع من التفسير الاقتصادي للتاريخ أسماه « الجغرافية وقوة العالم » أثبت فيه مالمعوامل الجغرافية من الأثر في قيام المدن والأديان ، وماله من أيد في القوى السياسية والصناعية والاجتماعية . وقد ختم كتابه بفصل تنبأ فيه بما سنحدثه العوامل الاقتصادية من آثار في الاجتماع والتاريخ ، ويمكن تلخيص هذا الفصل فيما يلي كنوع من تلك النبؤات العلمية النافعة التي تبنى عليها دراسة المستقبل . .

هناك موارد للطاقة لم تستعمل في الماضي ومن الممكن الانتفاع بها . والأقاليم الوعرة الاجتياز

قد تذلل وعورتها ، ولعل الانسان يستخدم في الغذاء كميات من الطاقة في اقاليم لم يكن من اليسر الانتفاع بها فيه . وعلى ذلك فان التغيرات التي تتأني من استخدام تلك القوى الجديدة سوف تزيد في أهمية أماكن جديدة ، ولذا فستظل الجغرافية مؤثرة في تهيئ التاريخ بل هي ستعكسه عن طريق آخر مختلف ..

وثمة منبع مهم لابد أن ينفد يوما بالاستهلاك وهو الفحم الذي تنقص كمياته بالاستعمال دون أن يسد هذا النقص . وهناك كميات محدودة من الفحم إذا ما استهلك لا نجد خيرا . وقد كان الوجود منه عظيما بحيث كان من الممكن استنفاده في عصور طويلة ، ولكن الواقع غير ذلك لأن مناطق الفحم على الأرض كلها اليوم مكتشفة ومسوحة . فإذا استمرت الزيادة في استهلاك الفحم على معدلها الحاضر ، فإن الموجود منه في بريطانيا والمانيا والولايات المتحدة مثلا سينفذ على القياس الحال المتزايد في قرن ونصف ..

وعلى فرض أن الانسان سيسخر كل ما في العالم من الفحم في أعمال نافعة ، فمن المؤكد ان يحل به قسط بعد مدة وان كانت طويلة إذا ما قيس بالمقاييس العادية ، فانها تكون قصيرة إذا ما قيس بالزمن الذي ندعوه تاريخا ..

فإذا فرغت مناجم الفحم في بعض الأقطار قلت أهمية تلك البلاد بينما يكون لمناجم الصين الواسعة شأن كبير في مستقبل الأيام ..

وكذا الحال في زيت البترول فان الكمية الكلية التي يمكن استخراجها لا تقاس بكمية الفحم الموجودة ، وهي سوف تستهلك في زمن أقرب . ففي الولايات الشرقية للولايات المتحدة تتناقص مقادير البترول سريعا بينما المقدار الذي يتزايد في ولايات غرب المسيسي سيستهلك في قرن واحد ، أما إذا استمر المعدل في الازدياد فسينفذ في عصرنا هذا ..

ومنذ أكثر من ألف سنة يسخر سكان شمال غربي أوروبا قوتي المد والجزر مرتين في اليوم في حمل السفن إلى داخل البلاد ، وفي مقدورنا الانتفاع بهذه القوة التي تضع سدى . إلا أن قوة المد هذه لا يمكن فيما عدا بقع قليلة أن تنافس الفحم لما تستلزمه من نفقات عظيمة ..

أما قوتا الرياح والشلالات فليستا كالفحم لأنهما تتجددان دائما وفي حالة تصاد الفحم يمكن للقوة التي تولدها الشلالات أن تحمل مكانه . وفي الولايات المتحدة يمكن للقوة المائية أن تنتج ٦٦ مليوناً من قوة الحصان . ولكن هذه القوة إذا استخدمت وانتفع بها فهي أقل من نصف القوة المولدة من الفحم المحزون في مناجم الولايات المتحدة بينما تحتاج قوة الرياح إلى نفقات باهظة .. ويمكن للقوى المائية في العالم أن تنتج نحو مائتي مليون قوة حصان وهي أقل بكثير من

ملاقة الفحم في يومنا هذا . وعلى ذلك فلا يمكن لتلك القوة أن تسد حاجتنا في غيبة الفحم ، ولو أنها عظيمة الفائدة وأكثر اقتصادا من قوتي الرياح والمد . وليس من المستبعد أن تتخذ بعض الأقاليم المطيرة مكانة هامة في العالم . .

وقد نكشف عن مواد خاصة على شاكلة الراديوم فيها قوى نافعة في الصناعة . وقد ننتفع بحرارة الأرض الباطنة أو بأشعة الشمس . .

ونحن اليوم نعمل على الاقتصاد في القوة باستخدام أحسن الآلات وبتنظيم العمل ، ونجد في الحصول على أجود المحصولات وذلك نتيجة للأبحاث العلمية في مختلف المسائل . .

فبدراسة علم الوراثة تربي الحبوب المقاومة للمرض والسريعة النمو والتي تعطينا خبزا أجود من خبزنا الحالي . وبدراسة البكتريا التي تعيش في التربة وفي غيرها وجدت وسائل تزال بها تلك العضويات من التربة التي تقتل البكتريا . وبدراسة الارتفاع البارومتري وسقوط المطر في بلاد منعزلة مثل جنوب أمريكا وشاطئ أفريقيا الشرق أمكننا القيام بحساب علمي وأمكننا إعطاء فلاحى الهند بيانا عن مقدار المطر الذى نجا به لهم الرياح الموسمية . . وكذلك استطعنا من وراء البحث أن تقوى التربة الزراعية وتقتصد في ضياع المحصول . إلا أن التقدم الناشئ من استخدام الفحم يحجب الآن تلك النتائج العلمية في تقدم الزراعة . .

وهناك جهات كثيرة في ممالك مهمة ستفقد خصب أرضها في غيبة الفحم ، لأنها تبادل بفحمها وما ينتجه من صناعات ، بأسمدة كيمياوية وحيوانية تخصب أرضها ، وكذا بأغذية تستوردها لأطعام الماشية . .

أما الغابات الاستوائية فبقيت في معزل عن هذه الدراسات ولم يكن من المستطاع لأية حضارة سابقة أن تنشأ فيها . ولكن اليوم استطاع الناس بالتجربة والعلم أن يجدوا هناك منابع واسعة جديدة للطاقة . .

وبينما يحصل الناس في الجهات الشمالية على محصول واحد في السنة ، ونمو النباتات هناك بطيء ببطأ نسبيا إذا بالنماء في حوضي الامزون والكنغو وفي جزر الهند الشرقية سريع ومستمر لان هناك منبعا متجددا ودائما للقوة ومن المستطاع الانتفاع به . .

ان تلك الغابات الاستوائية تعد العالم بالمطاط ولكن المطاط مع أهميته مسألة ثانوية لانه ليس بمنبع للقوة بل هو في استخدامه اقتصاد في الطاقة فقط ، وما ننتظره من هذه الاقاليم الشاسعة هو أن تمدنا بالطاقة الموجودة فيها ، ولا نعنى بذلك أن تمدنا بالوقود أو الكحول المستقطر من بعض نباتها لان هذين أيضا لا يمان كثيرا . .

ثمة مبيان حالاً بين الرجل الأبيض القادر على التنظيم وبين استئلال تلك الأقاليم أولهما أن شروط المعيشة هناك تختلف كثيراً عما اعتاد عليه ذلك الإنسان الأبيض في أراضيه الشمالية وثانيهما أنه لا يميل إلى تطبيق تلك الشروط الحيوية على نفسه ، وبعبارة أخرى كان من الصعب الحصول على قوم يغيرون عاداتهم وأساليب معيشتهم .

أن أفريقيا وجنوب أمريكا كانتا معروفتين قبل اكتشاف الولايات المتحدة وكندا ، ولكن الناس استطاعوا العيش في الأرضين الأخيرتين بطرق لا تختلف كثيراً عما اعتادوا عليه ، بينما كان كل شيء في أفريقيا وجنوب أمريكا غريباً لديهم ، وبينما وجب أن تخط الحياة على رسوم مختلفة . بل كان هناك بعض الخطر على حياتهم ، فلاعجب أن كان التقدم ضعيفاً في تلك الأنحاء . وليس من شك أن هناك أمراضاً مجهولة لدى سكان الأقاليم الباردة تهاجمهم في الأقاليم الشديدة الحرارة ، ولكن مثل هذه الأمراض قد وضعت أيضاً على بساط البحث ، بدراسة عادات الحشرات المختلفة الأنواع وبجمعها وفحصها تحت المكبرات . فثبت أن هناك أمراضاً تنتقل من شخص إلى آخر بسبب تلك الحشرات لاسيما البعوض . وقد خفت وطأة تلك الأمراض أو انقرضت في جهات عديدة بعد إبادة تلك الحشرات التي تنقلها ..

ففي عام ١٨٩٨ مات بالحمى الصفراء بريدو يمانير و ١٠٧٨ شخصاً ولم يمض منهم في عام ١٩٠٨ سوى أربعة .. وكان معدل الوفاة السنوي بتلك الحمى في هاوانا بين عامي ١٨٥٣ و ١٩٠٠ هو ٧٥٤ شخصاً ولكن ما جاءت سنة ١٩٠٧ حتى كان الموت بها فرد واحد ..

وفي عام ١٨٨٧ مات في إيطاليا بالمalaria نحو ٢١ ألف نفس فنزل الرقم في عام ١٩٠٧ إلى نحو أربعة آلاف . ومات بها في الاسماعيلية عام ١٩٠٢ ألفاً شخصاً وبعد ثلاث سنوات لم يمض بها أحد . وكذلك نظمت بورسعيد من malaria . وفي سنة ١٩٠٣ كلفت الملايا شركة قناة السويس نحو ٣٨ ألف فرنك ثم نزل المصروف عام ١٩٠٨ إلى نصف هذا المبلغ . وأصبح إنشاء قناة بنما مستطاعاً باكتشاف الوسائل الضرورية لمحاربة المرض ، فأيدت الحمى الصفراء والطاعون ، وقلت malaria ونزل معدل وفيات الموظفين من أربعين في الألف عام ١٩٠٦ إلى عشرة ونصف في الألف عام ١٩٠٩ وهي نسبة أقل مما يوجد في مدينة متمدنة ..

لقد قيل إن مناخ الأقاليم الاستوائية ليس مضرراً في ذاته وكل ما يجلبه هو ضربة الشمس إذا خرج الإنسان في حمارة القميص بلا غطاء مناسب للرأس .. ولا توجد في تلك الجهات أمراض مثل الروماتزم والأقفلونزا ، فإذا تجنب المرء ذباب تسي تسي فلا يصاب بمرض النوم ، وإذا حذر من البعوض لا يصاب بالمalaria ، وإذا أبعد عنه الفيران لا يصابه الطاعون . أعني أنه بالوقاية والانتباه

تصبح الحياة في الاقاليم المدارية أقل أمراضاً مما في بلدنا المعتدل

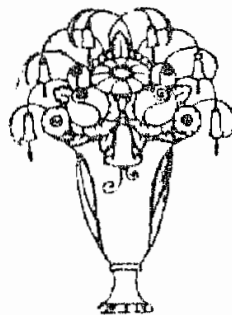
وهذه النتيجة قد يصعب اليوم اقباعها ، ولكن إذا أمكن للجُمُوع أن يجمعوها وتنتفع بثمار معلومات أخرى فسيصبح في مقدور الانسان أن يستخدم منابع واسعة للطاقة في الاقاليم الاستوائية البكر . .

وكذلك في الصحاري الحارة المديعة المطر والنبات ، وذات السماء الصافية والشمس الساطعة والتي لا يستعمرها الانسان ، فانه إذا أمكن استخدام قوة أشعة الشمس الفائضة باستمرار من الشروق حتى الغروب فان هذه البقاع الخالية ستستوعب لسكان كثيرين وتصبح ذات أهمية . فان قطعة من الصحراء تعادل مساحتها مساحة لندن ، تنتفع سنوياً بقوة الأشعة بما يعادل ما يستهلك من فحم انجلترا في السنة . .

وقد صنعت التجارب بالآلات تعطي طاقة حرارية ولكن من التسرع القول بأنها الخطوات الأولى في الانتفاع بأشعة الشمس وحرارتها . .

أننا كلما اقتربنا من خط الاستواء كلما عظم الاقتصاد في الطاقة . هناك توجد مقادير القوة التي سنستمد منها بعد نفاد الفحم ، وفي القريب أو في البعيد ستستخدم هذه المنابع وبها سيحدث انقلاب عظيم في توزيع البشرية وعادات الحياة وفي كل ما يؤثر أثراً هقيقاً في مجرى التاريخ . .

تلك نبؤات عالم اقتصادي ومنها نرى أنه متفائل بمصير البشرية . والمتفائلون بالمستقبل هم المؤمنون بالتطور ، لأن التطور يدفع بالبشرية إلى الأمام . ونحن مثل كل ما في الكون نخضع لسنة الارتقاء الذي مهد بانسان الغابات القديم بعض درجات فكشف عن كثير من أسرار الوجود واستطاع أن يطير بأثقاله في الهواء ، ويأتى بالعجائب بقوة الكهرباء . وهو الذي سيرقى به حتى نهاية السلم فيصبح الانسان على رأى نيتشة « سوبرمانا » .



طوبى عصرية

هذا كتاب أو هو حلم رآه ه . ج . وز في شبابه منذ ثلاثين سنة وأسماء « يوتوبيا عصرية »
ولكن البشرية لم تكن أكثر احتياجا لمثل هذا الحلم حاجتها اليه اليوم وهي تعاني الأزمات
الاقتصادية والخلقية، وتتوقع حربا تغير وجه الأرض، فإذا نبشنا عنه اليوم وأعدناه ذكراه وذكري
غيره من « الطوبيات » فلأن نفوسنا نحن إلى تحقيقه ، ولو كان تحقيقه في هذا العصر المضطرب
ضربا من المحال . .

ويوتوبيا هذه مشتقة من « أتوبوس » وهي لفظة يونانية ذات مقطعين هما « او » بمعنى لا
النافية و « توبوس » أى مكان . فالمعنى الحرفى للكلمة « لا مكان » أما مغزاها الاصطلاحي فهو
مكان يتخيله أحد الادباء يرسم عليه تصميما للمجتمع هو في عرفه المثل الأعلى لما يجب أن يكون
عليه ذلك المجتمع . كما فعل افلاطون في جمهوريته ، والفارابى في المدينة الفاضلة ، وتوماس مور في
كتابه « يوتوبيا » . ويطلقون على الاديب الذى يتخيل هذه « الطوبى » رجلا طوبويا ومنها
اشتق مذهب « الاوتوبيزم » . .

وكان أول ظهور هذه الطوبى التى ألهاها وز عام ١٩٠٥ . وكان يومئذ شابا في التاسعة والثلاثين ،
لم يصل إلى ذلك المنسوج العقلى الذى وصل إليه في مؤلفاته الأخيرة . ولكن الملاحظ في معظم مؤلفاته
وقصصه وقد بلغت اليوم نحو خمسين كتابا وقصة ، أن الفلسفة الاجتماعية لاسيما تلك المختصة بتطور
الجنس البشرى وحضارته والانتفاع بثمار العلم والاختراع وارتقاء الانسان نحو الوحدة العالمية هي
في نظره أهم شطر من عمله الادبى . وقد صور وز في طوباه ما يجب أن يؤدي اليه التطور في الحضارة .
وقد طاش ورأى كثيرا من نبؤاته بتحقيق كما رأى كثيرا من أحلامه ينهار ويتلاشى . ثم اجتاز سن
الشباب وتطورت آراؤه وأفكاره فرأى أن يضع طوبى أخرى في قالب قصة علمية تتفق مع نضوجه
الذهنى فأخرج كتاب « أنس » كالألهة » هو التكملة لطوباه الاولى . .

ولم يكن وز أول ولن يكون آخر من ألف هذه « الطوبيات » مادام في الناس من يصسبو إلى
مثل أعلى للحياة الانسانية لا يلقاه فيما حوله من حياة مضطربة . .

هذه الامنية العذبة تطلبها النفس البشرية منذ أن بدأ الانسان يتخيل . وهذه الطوبى التى
صورتها مخيلة وز في القرن العشرين بعد الميلاد صورتها بشكل آخر مقارب تخيلات مصرية خصبة
حوالى القرن العشرين قبل الميلاد . ولكنها إذ يثبت يومذاك من تحقيقها على هذه الأرض ، فرضت
لها مسرحا وراء القبر أكثر أمنا وجمالا ودعته « سيخت حيتيت » أو حقول السلام والأمن حيث

يتمتع الإنسان بعد موته بالسعادة والخلود في « امنتت » العالم الخفي المستور . ومازلنا نرى تلك
الاحلام الهنيئة مصورة على جدران المقابر والهياكل المصرية ومدونة في « كتاب الموتى » ..
وفي القرن الخامس قبل الميلاد وضع أفلاطون جمهوريته أو طوباه التي يرأسها الحكماء ، وكان قد
سبق أفلاطون أديبان اغريقيان ألف كل منهما كتابا في المدينة الفاضلة .

وفي عام ١٥١٦ ظهرت « يوتوبيا » توماس مور الذي كان وزيراً لهنرى الثامن فصور فيها
حاجة المجتمع الى اصلاح القوانين واقترح بفضة السياسية حلا لمسائل العمال والتعليم والصحة والدين .
ولم يخل القرن السابع عشر من عدد من هذه « الطوبيات » أشهرها ما ألفه يوحنا اندريا الالماني
والهورد بيسكون الانجليزى وكامبانيلا الايطالى . وجاء القرن الثامن عشر بشوراته وانهالاته
فعادت مخيلات الادباء تحن الى الهروب من فوضى المجتمع . وأخذ أمثال روسو وشاتوبريان
وبرناردين سان بيير وغيرهم يدعون الى العودة الى بساطة الطبيعة وهدوئها . ولم يكن القرن التاسع
عشر أقل هدوءا واستقراراً من سابقه ، إذ كثرت فيه المخترعات وتطورت الصناعة وعمت الانقلابات
في نظم المجتمع وانتشرت مبادئ الاشتراكية . فظهر وسط ذلك الضجيج عدد كبير من الطوبيات
أكثرها اشتراكى النزعة مثل حلم شارل فورييه وطوبى روبرت اوين ، وصورة البلدة النموذجية
لجيمس بكنجهام ، و « ايسكاريه » لاتين كاييه . وكتاب ادوارد بلاى الذى تخيل فيه حال المجتمع
عام ٢٠٠٠ وموريس الذى نزع فى طوباه نزعة تقرب من الشيوعية وغيرهم ..

وليس هنا مجال الحديث عن تلك « الطوبيات » التى سبقت طوبى ولز أو التى جاءت بعدها مما
صوره الأدباء كل وفق مزاجه ومبادئه ، ولا هنا مجال المقارنة بينها وبين طوبى ولز هذه ولكننا
نقتصر فى باب هذه المقارنة أن نذكر أن « يوتوبيا » ولز تفضلها جميعاً لأنها لا تنطبق على مدينة
واحدة تهرب بفضائلها من شر العالم وتنزل عزلة الراهب الصالح عن سائر اخوته الناس ، بل هى طوبى
الانسانية جمعاء وقد نسيت الحزازات والفوارق المذهبية واللغوية متعاونة كلها على التقدم العلمى
والارتفاع بشمار الحضارة والثقافة ..

وبذلك بدلا من أن يطبق ولز مبادئه على جزيرة كما تخيل مور أو على قرية كما فعل افلاطون أو
على مدينة مسيحية كما رأى اندريا ، رأى أن المدينة الفاضلة يجب أن تشمل الارض كلها . فهى
طوبى الحياة الجديدة فى القرن العشرين وما يليه ، بعد أن قربت طرق المواصلات الحديثة الأبعاد
وقصرت المسافات ، وجعلت الحدود القديمة خطوطاً وهمية ، أو هى بعبارة أخرى تحقيق لحلم العالمية
الذى يتمناه كل مفكر ، والذي استشهد من أجله بهاء الله وبشر به تولستوى وعبد البهاء وهو الذى

يدعو اليه اليوم ولز في كثير من كتبه ومن أجله ألف أخيراً تاريخاً للعالم باعتباره وطنياً واحداً للجميع . .



فهناك وراء نجم سيرس بعيداً في أفضق الخيز يشع نجم كبير هو شمس اخري تدور حولها عدة سيارات بينها كوكب « يوتوريا » الوهمي الذي يشبه أرضنا تماماً في قاراته ومحيطاته وجزره بل قل هو خيالها في المرأة . فليست التضاريس الأرضية في حاجة الى تغيير وإنما هي أعمال الانسان التي تحتاج إلى تبديل وتحسين . .

وإذا باثنين منا قد انتقلا فجأة الى ذلك الكوكب ووجدوا ذاتيهما جالسين على ما يشبه احدى مرتفعات الالب بصويسرا . فهما لا يلاحظان أولاً تغيراً حتى في صور السحب ، فما ينهدران على سفح الجبل حتى يشعرا بالتدريج بتغير غير مألوف فيما حولهما ، لاسيما في الكيفية التي تجمعت بها المدن الصغيرة على سفح الجبل . وفي طريق جديد يصادفان انساناً يلبس ملابس غير مألوفة لهما ويتحدث بلغة غريبة على مسامعهما . .

وكلما سارا كلما ازداد شعورهما بهذه الدنيا الجديدة المتمدينة والتي لم تعد تشدق بالجنسية والوطنية فزالت بزواهما تلك الحصون القبيحة المنظر وتلك المعدات الحربية المنحطة . . وهما بدلا من تلك الحصون التي لا حاجة هنا اليها يجدان مجموعة عظيمة من المنازل الصغيرة الرشيق المشيدة على الجبل تذكر بمباني الجامعات إذ حينها يقبل الصيف وتذوب الثلوج يصعد أهل المدارس والمعلمون والأطباء وتابعوهم إلى تلك المصايف ، ثم يرجعون الى الوادي حينما تعود ثلوج الخريف . .

والعالم الطوبوي مفتوح كله في وجوه سكانه والاتصال بأطرافه سهل ميسور وآمن لكل عابر للسبيل ، إذ أن السلام العالمي هنا مستتب والأمن شامل . وفي كل ناحية ترى فندقاً جمع أسباب الرفاهية . . والسفر هنا مظهر من مجرى الحياة العامة يلتمس فيه المتعة وسط أجواء نقية ومناظر جديدة . وهو جزء ضروري في التجربة الحوية ، ومثابة لكل إنسان حتى لأصغر الناس شأنًا . ولدى «اليوتوبى » وسائل عدة للسفر ليس بينها قطارات تملأ الفضاء بدخانها الخناق ، بل ترى قطراً خاصة أنيقة تسير بالكهرباء في خطوط متشعبة تغطي وجه الأرض وتصل بين كل أنحائها ولا تقف في وجهها عقبة . فهي تخترق الجبال وتجري تحت البحار في نفق . وتتسلق الهضاب ، وبها يسافر اليوتوبى بسرعة مائتى أو ثلاثمائة ميل في الساعة . .

وهناقات ولز أن يتنبأ بذلك الدور الهائل الذي تمثله اليوم الطيارات والبالونات الذهبية بزبلن

في ربط أشتاء العالم في أقصر زمن وأعظم سرعة . ولعله في قلبه عن السرعة لم يكن يظن أن الأيام ستحقق نبؤته في سنوات قليلة بل لقد سجل الطيار الإيطالي إيجيو منذ عهد غير بعيد سرعة ٣٤٣ ميلا في الساعة ولا نظن أن هذا آخر انتصار لسرعة السيارات . وكذا سجل السير ماكولم كامبل في هذا العام رقما قياسياً في سرعة السيارات بلغ نحو ٢٧٨ ميلا في الساعة وهو يطمح إلى بلوغ الثلاثة في القريب . وبلغت سرعة بعض القطارات البخارية باصريكا ١٨٥ كيلومترا في الساعة وأما القطارات الكهربائية فتفوقها بالطبع سرعة . .

تلك القطر السريعة يسخرها الطوبوى إذا رغب في السفر البعيد ، أما إذا شاء التمتع فليدق فطر خفيفة يتساق بها سفوح الجبال ويحتار الثبات ، ويتغافل بين المراعى والمزارع . ولديه أيضا سبل بهيجة إذا رغب في المشى ، منها المعبد فوق قمم الجبال المعطرة بأريج الصنوبر ، ومنها الدروب المكنمة بالأزهار والرياحين ، والطرق المجاورة لجارى المياه التي تشق حقول القمح النسيعة ، ومنها الممرات المنسقة وسط الحدائق الزاهرة التي ثرت فيها المساكن . وفي أى مكان على هذا السكوكب ، في الطرق والسبل ، وفي البر والبحر يقضى اليوتويون مسامحاتهم السعيدة لا تنف في وجوههم حدود ولا حواجز . .

وأنى تجولنا فانا نلاحظ أن القطر والقناطر والقنوات المقبوة كلها أشياء جميلة ، فليس تمة في الآلات أو في السدود أو في السكك الحديدية أو في مختلف المنشآت الهندسية ما يجعلها قبيحة المنظر لأن الرجل المكاف بهندسة الطرق فنان مثقف وصانع ماهر لا يفرق في فنه عن السكائب المجيد أو المصور الموهوب ، إذ هو يعمل على تمثيل الكمال في بساطته ، كما يعمل المهندس الأول أعنى الطبيعة على صنع سيقان النبات وملامح الحيوان . .

ولسنا هنا أمام عوائق لغوية تميزنا في التفاهم مع إخوتنا الناس ، فلهذا العالم كله لغة مشتركة واحدة . وهل نكون حقاً في « يوتويا » إن كنا لانستطيع التخاطب مع أى إنسان ! وقد وفقنا إلى العثور على قطعة ذهبية من تقود يوتويا وعملتها مرسدة بالطبع . فلندخل إلى فندق ولشد ما نعجب حين نلاحظ خلوه من الخدم إذ هنا تقوم الآلات الدقيقة بواجبات الخدم . ثم ندخل غرفة النوم فنلقاها نظيفة بسيطة ليس بها موقد إنما بها مقياس للحرارة بجوار ست أزرار مثبتة في الحائط ، أحدها يدفئ أرض الغرفة المنسطة بمادة تشبه القماش المشمع اللين والثاني يدفئ الفراش ، والثالث يدفئ الجدران بدرجات مختلفة وهكذا . وليس بالغرفة نوافذ لأنهم استعاضوا عنها بمروحة في السقف تخرج الهواء بلا صوت وأنبوبة تدخل هواء نقياً غيره . وبغرفة الزينة حمام يدفئ مأواه في الأنابيب بالكهرباء . وإذا أدت يداً في الجدار خرجت اليك قطعة من الصابون وأخرى تخرج اليك منشفة من مكان خاص تعود إليه عقب استعمالها وتسير منه إلى الأسفل !

وليس بالترف أركان تتجمع فيها الأقدار إذ يمكن تنظيف الترف بمكنسة آلية تعمل وحدها .
وهكذا لا نجد عملاً يستغرق دقيقة من وقت الإنسان . .

وفي هذه الطوبى مدينة مثل لندن هي المدينة المركزية الأولى أو هي عاصمة هذا العالم فلنرحل إليها . .
وعليها أن نسير في حملة لوسرن بين غرف جميلة المنظر ذات مقاعد ورفوف للكتب . وإذا
بنا نخرج من باب عليه رقعة مكتوب عليها اسم لندن . فنرى القطار المسافر إليها مهياً للسفر ، وتقبل
أبواب القطار وحدها . وهذا القطار رحب متسع وهو في عرضه ضعف أخيه الأرضي المسكين .
وليس به نوافذ يكل النظر من التطلع خلالها في مثل تلك السرعة ، فقد استعاضوا عنها بنوافذ عليا
قليلة ، فأتسع المجال لممرات طويلة على جانبيها رفوف الكتب ، وكيف ينسى ولز الكتب ! وفي وسط
القطار مكتبة رحبة بها المقاعد الوثيرة والمضاجع المريحة يضيء فوق كل منها مصباح يستظل بغطاءه
أخضر والأرض مفروشة بأبسطة لينة . وبالقطار غرفة للصحف والأخبار وأخرى للتدخين وأخرى
للمسامرة وغيرها للبليارد وأخرى للطعام أو للنوم أو للاستحمام والزينة . . ويسير القطار بسرعة
مائتي ميل في الساعة دون أن يحس المسافر بمسيره . وإذا رغب المرء في رؤية المسكن الذي يمر به
القطار فلديه إطار بديع ذو لوح رصاصي تنعكس عليه صور القري والبحيرات وغيرها

ثم نستيقظ في لندن وبأهلها من مدينة طوبوية عظيمة . هي ملتقى الشعوب ومقر الحكومة
العالمية ومركز التبادل الثقافي والاجتماعي . وهنا نرى جامعة عظيمة مهيمية بها ألوف الأساتذة
وعشرات الألوف من الطلبة ، وهنا تصدر صحف الفكر وكتب ناضجة رائعة في العلم والحكمة .
وهنا منبع الأدبيات ومكان المكاتب الفخيمة والمتاحف العظيمة ، ومجلس إدارة العالم . والناس حول
تلك المراكز يزدهون ويأتون من كل فج كأيأتى الحجاج إلى حرم شريف . .

وتزين الفنون تلك المراكز العالمية كما يتوج الذهب رأس الحكمة ، ويتجلى الجمال في كل
ناحية ، ويكون للخيال نصيب في ابداع أرقى صنوف الشعر والنثر . .

قباب وأقواس من بلور تظل ساحات المدينة ، وسقوف عالية من معدن شفاف دبق الصنع
تظل الميادين وتكسب الجو نقاء وصفاء . وللشوارع العامة أرصفة بديعة متحركة تسير بمن عليها
من جموع وتؤدي إحداهما إلى ميدان فسيح مزين بالأشجار المزدهرة والتماثيل الفاتنة ، يخرج منه
طريق عظيم مخفوف بالأشجار والفنادق المتلاثة بالانوار يؤدي إلى النهر السائر إلى البحر ، وفي
هذا الميدان ترى أصراب الحسان والشبان ذاهبين إلى فصول الجامعة المشيدة في قصور فخمة ،
ونشاهد نساء رزينات ورجالا أقوياء سائرين جميعا إلى أعمالهم ، وأطفالا متجهين نحو مدارسهم
ولا تلقى غير قوم نظاف مبتهجين تبدو على وجوههم علائم الصحة ، وعلى ملابسهم أثر
الأناقة والظرف . .

أما هراء المدينة فساد نقي خال من الفبار ، لأن الطرق كلها مكمورة بسطوح نظيفة سليمة ، وليس بالبلدة فحم يعلأ الفضاء بالبخان ، وليس بها خيول ولا كلاب ولا أي مسبب للقذارة ، وقد شرب أهلها على أتم نمو وأكل غذاء وأحسن حال ، الكل يسير مستديلاً مشرق الوجه صافى العينين . والكل يعلم كيف يتقى أذى السموم المختلفة وفعلها في الجسمانية ، وقد تغلب الجميع على سنن الانحطاط ، وعاشوا فوق السبعين وإذا أتاها الأجل أتى سهلاً مريحاً . .

إن وراء هذه الظواهر إرادة مستترة تعمل على إظهار الجمال والنظام ، فللنازل الرشقة والأعمال الهندسية الدقيقة والأجسام السكاملة ، والمناظر الطبيعية الساحرة كلها تدل على ما وصل إليه هؤلاء الناس من جمال روحاني باطني . وذلك الترتيب يدل على حب النظام ومن وراء هذا النظام قوم يرغبون فيه لا ينفرد أحدهم في الاهتمام والرغبة في ذلك النظام دون الآخرين . .



وفي « يوتويا » أربع طبقات من الناس ، طبقة عاملة تتولى الحكم والادارة ، وطبقة رجال الفكر والأدب ، وطبقة البلداء الذين يحترفون الأعمال الوضيعة وطبقة المنحطين الذين تخشى عشرتهم فيبعدون إلى جزيرة ينعمون فيها برذائلهم التي تفنيهم . وفوق هذه الطبقات طبقة تسمى « السامرائي » ونظامها ليس ورائياً لأن أهلها متطوعون . فكل شاب تخطى الخامسة والعشرين وظهرت عليه أمارات الكفاية الذهنية والصحة الجسمية يمكنه أن يلتحق بهذه الفئة التي بيدها مقاليد المسؤوليات ومنها يخرج المعلمون والقضاة والأطباء والمشرعون والمحامون والهيئة التنفيذية . .

والقانون هنا ينتقى من الناس البلداء والمنحطين ليهيئ لهم العمل الذي يصلحون له . ويعمل في الوقت ذاته على غرس العادات الخلقية وعلى تنظيم الانفعالات وعلى مساعدة الناس إبان شدتهم ومرضهم وعلى بقاء « السامرائي » في حالة جيدة من الكفاية والصحة . وقد وضع مؤسسو الحكم انجيلاً جديداً دعوه « كتاب السامرائي » . وهو كتاب كبير في عدة مجلدات مافق منذ وضع عرضة للتنقيح والتهذيب حتى أصبح كتاباً كاملاً فيه إيضاح جميع المبادئ والعواطف النبيلة ، وكل الارشادات التي تتفق مع روح يوتويا . وعلى كل سامرائي أن يدرس ويلم بهذا الكتاب المأماً تاماً ، ويطبق ما فيه من مبادئ على نفسه فإذا خرج عن إحدى قواعده أخرج من فئة السامرائي . . فإذا سألت رجلاً من هذه الفئة عن المحرمات أجابك بأنهم يحرمون أشياء كثيرة ، فثمة كثير من المسرات التي لا تؤذى ولكن الخير في تجنبها خشية الانغماس . وهم يرون أن مقاومة المغريات خير لأخلاق الإنسان . والقانون التجاري هناك يمنع الربا كلية إذ أن اثره الفرد بطريق الكسل والحول وعلى حساب مدين محتاج رأي لا يستساغ في يوتويا ، والقانون هنا ينص على اشراك الدائن في

أرباح المدين ، وقد حرم على السامرائي المتاجرة لتلا يضطر إلى دفع الشئ وبخس القيمة في سبيل الربح ، وهذا ما ينافي واجبه الذي كرس من أجله حياته . وهو في غير حاجة إلى المتاجرة أيضا لأن الحكومة تكافئه إذا اخترع أو نظم أو حسن في صناعات جديدة . والثروة ليست نوعا من القوة إلا إذا جعلها الإنسان كذلك . وفي العالم الأرضي جعل الناس الفراغ والحركة والحرية بل والحياة نفسها تشري وتباع .

وليس للسامرائي أن يكون خادما أو مخدوما فعليه أن يحقق لنفسه وأن يخدم نفسه بل عليه ألا يضعف وقته في اللعب أمام الناس . وهذا ضريب من الرهبانية يفرضه ولو على هذه الفئة المختارة ولكن لا لخدمة الدين بل لخدمة الإنسانية ، فهم قوم كرسوا مواهبهم وحياتهم لرفع شأن المجتمع وخدمته مع التمسك بالمبادئ الخلقية والاعتدال والعفاف . .

ولديهم قانون للعفاف لا للعزوبة فقد وجدوا أن غرائز الإنسان وميوله الجسدية قوية وغريزته الطبيعية في المنع ضعيفة ورأوا أن الفرد غير المدرب يكون عرضة للاسراف في سكر الرغبات ، فيأكل ويشرب وينتفخ في الشهوات باسراف وتهور ولذا فقد نظم رجال الحكم جميع المسبات ، وعلموا الناس الكبرياء التي تصون النفس وتحفظ الجسد نظيفا سليما . ولم يرموا بذلك إلى خلق الشهوات وانخضاع الميول بل عنوا بضبط النفس بعد تقوية الإرادة . .

وليوتوبيا دين خاص هو المهور الذي يدور حوله النظام وضبط النفس والسيادة على الميول والشهوات . . ويبدأ هذا الدين عندهم بانكار مبدأ الخطيئة الأصلية ، فهم يعتقدون أن الإنسان في الأصل طيب من الوجهة العامة ، وأن له ضمير واء يمكن تقويتهما كما يتقوى السهم والنظر . وهذا الضمير يثبته إذا أخطأ ، والنفس تحس بالأسف يعقب المسرات . والفرد هنا ذو مصروفية دينية ، والدين عاطفة طبيعية في نفسه . وكما أن لغة يوتوبيا مركب واحد ، كذلك ألهاها مركب ذو صور عديدة متباينة لا يعبر عنه بلفظ أو بحالة ، والمرء منهم في جهاده نحو تنظيم العالم وتوطيد حكمومته وفي انكار ذاته ، وفي عمله العام وجهوده الشخصي ، إنما يعبد الله في كل ذلك . .

ولما كان ينبوع البراءات هادرا عن الحياة الانفرادية والتأملات الصامتة الهادئة ، فقد وجب على « السامرائي » أن يكرس في كل سنة سبعة أيام متتالية يقضيها وحده في مكان بعيد منزول . وعليه قبل رحلته أن يدرس الطريق ولا يصحب معه كتابا ولا سلاحا ولا مالا ولا نارا ، بل يأخذ طعامه الضروري ويساطا ينام عليه في العراء . وهناك في تلك الوحدة ينفرد ليتأمل بعيدا عن مشاغل الحياة ومتاعبها وعن المجادلات والرغبات ، فيبقى نفسه وحيدة في هذا العالم وتبدو

الدنيا لناظره صنيعة بعيدة . فيتأمل في ذاته وفي المكان الغير محدود وفي الخلود وكل ما يعنى الله وهنا يجد أمامه كثيرا مما يستدعى التأمل وينسى النفس قوافه الحياة . ثم يعود ثانية إلى العالم بنفس مطهرة وجسم نقي ويكون وقتئذ قد اقترب من الله ..

هذه الصورة التي رسمتها خيالة ولز العالم متمدين راق تحملنا على التأمل في حياتنا الجديدة الحاضرة لنوازن بينها وبين ذلك العالم الطوبوي السعيد ، لنرى ما عليه حياتنا من اضطراب ونقص ، وما تحتاج إليه من إصلاح وتنظيم ، على الرغم مما بلغناه بالنسبة للصناعات المتقدمة من التقدم العلمي والصناعي ، وما وصلنا إليه من الاكتشافات والاختراعات . .

ومع أن الله قد أسكننا سيارة جميلة ملآى بالصورة الطبيعية الفاتنة والمتجددة مع فصول السنة ، وهياً لنا فيها كل أسباب الحياة الرغيدة ، ومنحننا عقولا تميز بين الحق والباطل ، وبصائر تفرق بين الجميل والقبيح ، وميزنا عن كل مخاوفه الجميلة بذلك القبس من النور الإلهي الذي يسطع في نفوسنا ويعيننا على التطور والارتقاء ، مع هذا كله فقد تألفنا على تشويه هذا العالم الجميل وملئه بالنقائص والفوضى . .

فهذه الدنيا التي نسكنها طوبى في ذاتها . ولكن الانسان هو الذي عمى عنها وأضاعها وأضاع العمر في البحث عنها . .

وإصلاح الانسان هو الخطوة الأولى في استرداد فردوسه المفقود . فليبدأ كل منا بنفسه فيسمو بها ، وببيئته فيصلحها ويرقيها ، وليملأ قلبه بالولاء للعالم ومحبة الانسانية كلها ، وبالرغبة الصادقة في رقيها ، حتى يأتي اليوم الذي يصبح فيه كوكبنا الصغير طوبى تفوق ما تخيله ولز وغيره سعادة ونظاما ورقيا .

فلسفة التساؤم

وموقفها ازاء الحياة الجديدة

التساؤم حالة من حالات النفس قد تلبث فترة قصيرة من الزمن ثم تعود أو لا تعود. وقد تلازم النفس طويلا فلا يرى صاحبها من الوجود غير وجهه المظلم العابس فيخال أنوار النهار ضبابا متحاثا وأفراح الحياة مناحة رجونا. ويرى أن السمادة التي يصبح الناس بأصمها كل صبح ومساء، ويبذلون الأرواح رخيصة في سوقها إنما هي عاطفة خادعة مزيفة لأن أنفاس الشقاء تمارج عبقها ومرارة الحسرة تخالط عسلها ١.

وقد لا يمتك المتعائم الحياة بقدر ما يخافها لأنه يراها تسلبه باليسار ما تمنحه إياه باليمين، ويزعم أنها تسقيه الخمر ممزوجة بالسّم الرطاف، ويخال كل خطوة يخطوها تقر به فرسها من وحشة القبر، وكل يوم يقضيه يقربه دهرًا من ظلام الفناء ١.

ومن قطب الجبين مثله في وجه العالم وجد الكون عبوسا ورأى الطبيعة كثيبة، وبدأت له الحياة في صورة الجبار الشرير، وانقلبت وداعة الحقول حوله إلى صمت المسكر والخديعة، وارتدى كل ما أمامه بأثواب الحزن والانتقاض، وقد لا يعبأ بتلك الأصوات التي تدوى في سكينه الفضاء ولا بتلك الرؤى التي تتحرك أمامه وإذا به يتبرم مما كان يجد فيه لهما ومسرة. وأن هو استعرض مجد العالم في مخيلته لما اشتدت نفسه منه شيئا لأن نفسه زاهدة متقززة وحتى الموت لا يطفئ مرارتها. الأشعار الخالدة وكلمات الحكمة ووصايا الأديان تنقلب أمام نفسه المريضة إلى سطور جامدة. واصطخبا الأمواج وزفيف الريح تملأ قلبه بالارتياح والتمرد ١

وقد تهيم تلك النفس المتطيرة في الفلوات والبراري مرتاحة إلى اضطرام الطبيعة وعبوستها، منصبة إلى الطيور وقت عويلها ونحيبها، ولا تروق لها مرأى الشمس إلا في تأججها وحريقها، أو في كسوفها ومغيبها، ولا يحلو لها التأمل في رواء المروج إلا حينما تتجلبب بشباب النوم القاتمة، أو حينما تعطل وقت الظهيرة بسعير الرمضاء وزفير الهواء. ولا تأنس إلى النبات إلا في توحشه وهياجه، وإلى الحيوان إلا في تمرده وعصيانه ١. لأن نظراتها جنونية شذراء ترى العالم وراء منظار معوج قائم ..

ولتلك الحالة النفسانية الشاذة أسبابها كما لها نتائجها. أما أسبابها فقد ترجع إلى علل جسدية كاضطراب في الأعصاب أو خلل في الدورة الدموية، أو نتيجة للمزاج السوداوي العصبي المناقض

للمزاج المرح المتفائل . وقد ترجع إلى مؤثرات خارجية تسبب في النفس يأسا أو أملًا أو توقعا للخطر أو الفشل ..

أما الرابطة بين التشاؤم أو غيره من مظاهر النفس وبين الحالة الجسدية ، فإن علم النفس التجريبي يثبتها في ايضاحه لقوة العلة بين الحياة النفسانية والحياة العضوية إذ كل ما في العقل يعود في الأصل إلى الاحساس الذي هو نتيجة المؤثرات الخارجية في الجسم .. وغير خاف ما لحالة الجسم الصحية العامة لاسيما حالة الجهاز العصبي الذي هو العلة بين الجسم والعقل ، من أثر في العقل وفي نظرة الشخص إلى الحياة ، فالعقل وما يصدر عنه من آراء وتفكير في حاسة إلى دم وغذاء صاحبه تمدان الدماغ بالقوة والنشاط ..

أما المؤثرات الخارجية فكثيرا ما تكيف النفس بقوة فعلها فتخلق فيها تطيرا ويأسا أو تفاؤلا وأملًا، وكثيرا ما تبدد المصائب كل أمل ورجاء في الحياة ، وكثيرا ما يصبغ الألم والفشل صورة الوجود بألوان قاتمة تبعث في القلب اشمئزازا وكرهية ..

والعجب في أمر ذلك التشاؤم أنه يتسلط على نفوس العقلاء كما يتسلط على نفوس البسطاء، فيغير مجري فلسفتهم إلى نواح منمالة ويحول منطقهم إلى من الغارة على الحياة وما فيها ، حتى ليخال قارئه تلك الفلسفة أن الصديق ما يقولون وان « الكل باطل وقبض الريح » ، وتلك الفلسفة وبذلك المنطق يمثل التشاؤم دورا هاما في الفلسفة والأدب، لكنه في الواقع لا يفيد الانسانية شيئا بل هو يسرى في دماؤها سريان السم القاتل ! .

وقد ظهر التشاؤم في الأدب منذ أن بدأ الانسان يعبر عن خوالج نفسه . ولعل أقدم وأشهر ذلك النوع من الأدب، ما نراه مسطرا في قصة أيوب بشكل حوار بين فلسفة التشاؤم والتمرد بلسان أيوب، وفلسفة التفاؤل والأمل بالله باسان أصحابه . فإن أيوب لما ابتلى بالمصائب والآلام التي هوت به من مياه العز والنعم والثروة ، إلى حضيض الفاقة والتمس والمرض ، اعتلت نفسه وفاضت بالمرارة والتطير . فأخذ وهو رجل التقوى والصلاح يسب اليوم الذي ولد فيه ويتساءل قائلا : « لم يعط لي نور وحياة لمري النفس » ثم يتمرد على الحياة بل وعلى الله ويخاطبه بمرارة قائلا . « أحسن عندك أن تظلم ، أن ترذل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار ، ألك عينا بشر أم كنظر الانسان تنظر .. حتى تبعث عن ائمي وتفتش على خطيئي ؟ » . ويرى ايوب أنه لا يقل حكمة عن صحابه الذين يناقشونه ويعزونه . ولا يرى أنه أخطأ في ذم الحياة ولوم خالقه مادام يرى الخطاة والأشرار ينعمون في الحياة سعداء مطمئنين بينما الأتقياء والحكماء يلاقون الهوان ويدوقون

ألوان البلاء . وما دام يشاهد أن الله وهو القادر الحكيم « يهزم فلا يهزم » ويمنع المياه فتتيسر ويطلقها فتقلب الأرض ، يذل الغضاة والشرطاء ويضعف الأقوياء والأشياء ، يكثر الأمم ثم يبسدها ويوسع لها ثم يحلها .. » . وما دام يعتقد « أن الإنسان قليل الأيام وشبعان قريبا ، يفرج كالزهر ثم ينحسم ويبرح كالظل ولا يقف » .. وهكذا يناقش أيوب أربعة من أصحابه الحكماء ويورطهم بسؤاله « لماذا يحيا الأشرار ويشيخون ويتجبرون ، ويرون ذريتهم تسرح كالغنم ويحملون الدف والعود ويطربون بصوت المزمار ثم يموتون مطمئنين ساكنين أما الأبرار فيموتون جوعا بنفس مرة ، ويضطجع الجميع معاً في التراب والدود يفساهم ... فإذا ينفع الإنسان بكونه مرضياً عند الله ؟ »

ثم جاء سليمان الحكيم فألف كتابه « الجامعة » وبدأه بقوله « إن السكل باطل » ثم أخذ يتساءل قائلاً « ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذي يتعبه تحت الشمس ؟ وأخذ يفلسف قائلاً : « أنا الجامعة ، سكنت ملكاً على إسرائيل في أورشليم ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل عمل تحت السموات ، هو عناء رديء جعله الله لبنى البشر .. رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا السكل باطل وقبض الريح . » ١

ورأى سليمان أن في كثرة الحكمة كثرة الغم وأن الذي يزيد علماً يزيد حزناً .. ورأى ألا جديد تحت الشمس . وأنه لا معنى للفرح بل إن الضحك جنون . ولا منفعة تحت الشمس . وأدى به تشاؤمه إلى القول بعدم فائدة الحكمة والعمل ، وأن كل أيام الإنسان أحزان وعمله غم ، وأن ما يحدث للإنسان يحدث للبهيمة ، وموت هذا كهوت تلك ، إذ كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعودان ، فليس للإنسان مزية على البهيمة .. بل أدت به نظراته القائمة إلى الحياة إلى القول بأن الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة وأن الحزن خير من الضحك وأن المرأة أمر من الموت ، وهي شباك وقلبها أشراك ويدها قيود ١١ .

ثم ظهر الفيلسوف هيرقليطس في القرن الخامس قبل الميلاد فزاد في طنبور التطير نغمات شاذة غريبة إذ أخذ يبكي غيظاً على شرور الناس وازدراء لأفعالهم وأسفاً على غلظة قلوبهم . وكان يتوخى في تأليفه الصعوبة حتى لا يفهمه إلا أكبر العلماء وقد عبّروه قائلين « العجب كل العجب من تصور وجود عين ماء دائمة الفيضان تمد دموع هيرقليطس الدائم البكاء » ١

وقيل إن التشاؤم أدى بهذا الفيلسوف إلى البعد عن معايشرة الناس والتزام الصمت . ثم عكف على البكاء معتزلاً في القنار والجبال مقتاتاً بالحشائش ، حتى أفنى حياته التعمسة في النوح والاحتقار . ومهما كان مثل هذا الفيلسوف عبقرياً فلا يمكننا أن نبرئه من داء الجنون ، ولعل ذلك إلى ما

كان يقاسيه من سرخس الاستسقاء كان سببا في ذلك التطير الذي أبكاه وأضحك الناس !
ولئن بكى هيرقليطس من شر الناس ومن قبح الحياة ، فإن الفيلسوف ديقوريطس كان
يمبر عن تشاؤمه بالضحك الكثير على أفعال الناس ومهزلة الحياة ، فكان لا يري إلا وهو مغرق
في الضحك !

وكذلك كان الحال في الفيلسوف ميزون الذي كان يكره معاشره الناس ويلتمس الوحدة ليضحك
استهزاء بهم ورثاء لحالهم . وقيل إنه رؤي مرة منعزلا يغرق في الضحك فاقترب منه انسان وسأله عما
يضحكه ولا أحد بقربه فقال هذا سبب ضحكي !!

ومن المتشائمين أيضا طاليس الذي كان يعتقد أن الحياة والموت متساويان فسئل : « ولأى
سبب لم تقتل نفسك ؟ فأجاب « لما كان الموت والحياة مستويين فما يحملني على ايشار الموت
على الحياة » . ١

وهذه نظرة لا تخلو من الخطأ إذ أن الحياة في نظر العقل السليم أجمل من العدم ومن ظلمة القبر
وقيل إن ارسطو كان رغم حكمته واتساع عقله يتأوه دائما ويقول لأصحابه : « يا أجبائي لأحباب
في الدنيا » !

وقيل إن زينون كان سائرا مرة فصدمت أصبع قدمه وانكسرت ، فتشاهم من ذلك بالموت
القريب ، وضرب الأرض بيده وقال لها « أتطلبيني ، هاأنذا حاضر اليك غير متوان ! » ثم خنق
نفسه لساعته بسكون وطمأنينة . وقيل إن ابيقور وهو المحب للحياة وصاحب الفلسفة الابيقورية
المعروفة انتحر لمرضه في حمام حار . وان انكسغوراس لما كبر سنه وضاق ذات يده عزم على الانتحار
جوعا لو لم يدركه تلميذه العظيم بركليس

وفي ناحية أخرى من الشرق أبي الحكمة والشعر ، ظهر أبو العلاء المعري أحكم شعراء العربية ،
وأخذ يتطلع إلى العالم فيراه وهو الضمير الزاهد مظلمة يتنقل في فضاءاته الموت ويسمع في جنباته
نذير الشؤم فتناول قيثارته الحزينة النغم وأنشأ يقول في « الزوميات » :

« ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يمد لنا سبك »

كما طفق بنشد في « سقط الزند » قصيدته المشهورة « غير مجد في ملتي واعةقادي » ، وفيها
ينظر إلى الحياة بمنظار ملتبس فيرى أننا إذا نظرنا إلى حال الدنيا ومرعة زوالها وعدم الوثوق بأيامها
وجدنا أن نعي الميت والبشارة بالمولود سيان لأن مصير المولود إلى الموت ومصير البشارة أن
تنقلب نعيًا فالصوتان متشابهان . ورأى الشاعر أن قبور الموتى تملأ الأرض فأين قبور من ماتوا

في القديم . أنها زالت وحف أثرها وكنسا الى اندراس وغناء حتى يصبح أديم الأرض من أجسادنا البالية وحتى يعبر المكان الواحد قبرا لعدد من الأموات المختلفي النفوس والخلق ويتناوبون على قبر واحد ، والقبر يضحك من تزامهم وكلهم إلى فناء أما الدهر فطويل الأمد ..

ورأت فلسفة أبي العلاء أن الحياة كلها تعب وما العجب إلا ممن يرغب في ازديادها لأنه راغب في زيادة الغناء والتعب . وأن هذه الحياة زائلة ينحصر سرورها حزن الموت ، والواجب ألا نرغب فيها ولا نعتد بسرورها . إن كل شيء فان منقرض ، حتى زحل وهو أعلى الكواكب السيارة مكانا لن يسلم من الغناء والمريخ الأحمر اللون لا يأمن من الهلاك يطفىء أحراره ويفنى وجوده . ولا السبع كواكب المجتمعة في الثريا فانها معرضة لتشتيت الشمل . وكل بيت مصيره الهدم والزوال ، سواء أكان وكر حمامة ضعيفة أم قصر سيد رفيع العمد . والانسان راحل عن هذه الدنيا ولا يقيم بها طويلا ، والراحل المسافر يكفيه ظل شجرة تغنيه عن ضرب الخيام فضلا عن الأبنية وتشيد المنازل ..

و-نتم أبو العلاء تشاؤمه بأن أوصى أن يكتب على قبره « هذا جناه أبي علي ، وما جنيت على أحد » ..

ودارت الأيام وصرت القرون والانسانية لا تستريح من سماع تلك النغبات المحزنات ، ومن ذلك الضرب من الفلسفة التي تنغص عليها هناء العيش ، وتكدر عليها صفاء البسال ، حتى تمخض القرن الثامن عشر عن فيلسوف الألمان شوبنهاور الذي قامت شهرته على تشاؤمه . وأخذ ينشر على البشرية المحتاجة إلى العزاء والتفاؤل ، فلسفته المؤسسة على عبوس الفكر وانكار الحياة والعيب في خلقتها . فقال إن الانسان يزداد شعورا بالآلم كلما ازداد في الرقي وتقدم في السن ، ولذا فالنوابغ أكثر الناس تألما . ونعت الحب ، الذي يراه الكثيرون أجمل ما في العالم ، بأصل جل المصائب وأكبرها ، لأنه يسبب البغض والغيرة والخيانة والحجل والجنون والحروب ! وقال إن المطلق الذي خلق كل شيء بنون غاية وبلا سبب أو جد في الكائنات رغبة في الحياة ، إلا أن هذه الحياة كفاح وفي هذا الكفاح ألم ، وأن العالم الحاضر أقبح العوالم التي يمكن وجودها ! ويرى شوبنهاور أن في محور الرغبة في الحياة دواء لكل تلك الآلام ، وذلك بأن يندمج الانسان في الكون حسب تعاليم المذهب البوذي . فهو بذلك أقرب إلى الشعراء المتصوفين ولكنه جرى طموح يتغلغل في أعماق الحياة ويستعرض جواهرها ، ثم ينقدها نقد الفاحص الخبير الذي تأخذه الحمية وثورة الغضب حينما يعثر على تزيف أو نقص أو عيب . ولكنه ليس بالناثر على أنظمة عصره فقط مثل تولستوي ، بل هو ناثر على الحياة نفسها في أية صورة كانت ! .

وجاء ادوارد ده هارتمان يزيد وينقص من تشاؤم شوبنهاور . فرأى أن العالم ليس رديئاً ببجوهه . لكنه أضر من العدم ! ورأى الحياة البشرية تعلم في السعادة ولسكننا في مسعينا وراء تلك السعادة الموهومة لا نحصل على سعادة حقيقية . فالوثنيون يرون السعادة في تنمية قواها وتقويتها وهذا ضلال ، لأن حب الوطن والمجد والحب والتضحية كلها وهم وحنون ! والتعاليم الآلهية ترى السعادة في فردوس العالم الآخر ، ولا يؤمن هارتمان بالآخرة فيسكون هذا الرأي خيال باطل ، ويرى بعض المفكرين أن السعادة تكتسب برقي الفكر ، ولكن كلما ترقى الفكر كلما ازداد الإنسان فهماً فيشتد إحساسه بالألم وشعوره بالتماسة . . . والنتيجة في رأى هارتمان أن الواجب على الإنسان أن يكف عن السعي وراء مسرات الحياة ، ويسمى في تقصير حياته إلى أن يأتي يوم ينتهر فيه العالم بالتدريج !

وتنحصر القرن التاسع عشر عن شاعر فرنسي هو « ليكوت دي ليل » يبشر الطبيعة أيضاً بالنفور من همور الطبيعة والتعزز من الحياة المصرية ، فحمد في دواوينه الثلاثة : « أشعار محزنة » و « أشعار بربرية » و « أشعار عتيقة » قصائد همور فيها الطبيعة في أقم حللها لاسيما في المناطق الحارة ذات الألوان القاسية والشمس المحرقة والنبات الهائج والحايوان المتوحش فكان التشاؤم أهم مميزات شعره ، رغم روعة وصفه وموسيقى نظمه ودقة تهويله .

ونرى ذلك مثلاً في إحدى قصائده التي يصف فيها الظهيرة ويصورها بألوان كثيفة مرعشة فاذا بنا وقت الظهر « وقد نشر ملك الصيوف شعاعه فوق السهول فسقط كلاءة فضية من أطلال السماء ، وإذا الكل صامت والهواء يسطع ويحترق بلا زفير . والأرض ناعسة في ثوبها الناري ، والامتداد فسيح وليس للحقول ظل . ونبع الماء حيث تنهل قطعان الماشية جاف . والغابة النائية ذات السياج المظلم نائمة ساكنة وهدوءها عميق . وهناك وحده نما القمح الناضج كأنه بحر ذهبي يمتد إلى بعيد ولا يبالي بالوسن . ونبات الأرض المقدسة الهادئات يمتصن بلا خوف من كأس الشمس ، وقد تنهدن من نفوس تتلظى فيسمع من ذلك نغم ثقيل يثن . ويرى تموج عظيم بطيء يهب ثم يتبدد في الأفق المنعفر . وغير بعيد ترى بعض بقرات بياضات نائمة بين الأعشاب يسيل لعابها على جلدها المكرومش وتتطلع بعيون ناعمة كأنها تحلم حلم لا تفرغ منه . . . » ثم يختم الشاعر قصيدته بهذه العبارة « فيأبى الإنسان إن كان القلب ممتلئاً بالفرح أو بالمرارة ومررت وقت الظهر بالحقول المفروشة بالأشعة فاهرب لأن الطبيعة خالية والشمس تهلك وتلف ، ولا شيء هنالك فيه الحياة ، حتى ولا شيء حزين أو جذل » .

وقد أتى بعد هذا الشاعر من نسج على منواله مثل « جوزيه مارياديه هريديا » ، فترك في ديوانه « الانتصارات » شعراً مماثلاً لشعر أستاذه وصوراً تمثل حقيقة مؤثرة كثيفة بألوان قلما تنير في النفوس غير الحزن والنغم . .

والآن لنصمم العقل والمنطق ونرى ماذا استفادت الانسانية من مثل تلك الفلسفة ، و اى فضل عاد عليها من مثل أولئك الأدباء المتشاعين . ولنتصور حال البشرية إن هي امتنعت أمثال تلك المذاهب فرأت في السعادة سرا باخدا وفي المسرات أخيلة زائلة ، وفي الفرح جنونا ، وفي الحب معيبة ، وذهبت بأن الكل باطل وقبض الريح ! أكانت الانسانية في حاجة إلى تزيق الحزن وهي المكتنفة بالأوجاع المحتاجة إلى باسم العزاء ؟ .

ليس من المفيد انتشار هذا النوع من الادب ، لأن التشاؤم كما أسافنا نتيجة مباشرة لمرض جسدى أو اضطراب عصبي أو مزاج سوداوى أو ألم نفسانى يدفع بالاديب إلى التشنيع بالحياة ، وتشويه وجه الوجود وتكدير صفو المجتمع ، وهو المحتاج إلى التفاؤل والامل بالله والرضى والصبر على المسكاره وترقب مستقبل سعيد يرفل فيه بنو البشر فى حلل السلام والسعادة ..

وهل مما يفيد البشرية قراءة مثل تلك الفلسفة السالفة كما يفيدها قراءة قول ديوجينيس إذ كان يقول ضاحكا انه على الرغم مما لحقه من أنواع اللوم والالم ورغم حاجته إلى دار ومدينة ووطن ، فانه جلد على مقاومة الدهر وصروفه ، يقابل الفقر بالثبات والعفة ، والاحزان بالتدبر والعقل ؟ أو كما تنتفع بتعاليم « انتينيوس » الذى كان يحث تلاميذه على احتمال الشدائد وألا يتأثروا من سبب وذم يقال فيهم ، وقد كان هذا الفيلسوف يقاسى مرض السل ولكنه كان رغم ذلك يؤثر الحياة بهذا الداء على الموت السريع ! وكان متقشفا متعففا يري لذة الحياة فى الحكمة والعلوم الادبية . فكان لايدالى بالنوم على الارض أو بالاقتيات بتافه الطعام معتقداً أن أقرب الناس إلى الالهية أقلهم احتياجا إلى الماديات .. أو بآراء « ارستيب » المعاصر لافلاطون الذى كان لا يتكدر من شىء بل تستوى عنده كل الاشياء وكان لا يري الحرمان من ملذات الحياة على مختلف صنوفها ، فقطضى حياته ضاحكا لاهيا متنعما بكل المسرات ، قائلا بأن الترف والتنعم لا يخرجان الانسان عن حيز الكمال مادام لا يستعبد لها ..

وهل يستوى ذلك الأديب الذى يشرب من كأس المرارة ويرغم الآخرين على تذوقه مع أديب مثل دستوفسكى يعرف مافى الحياة من شقاوة وبؤس وإجرام ، ولكنه يحب إلينا الحياة بما فيها من قبس نور التفضيلة وخيال السعادة . بل إنه ليصور أحد أبطال قصصه منبطحا على الأرض يعانقها ويشتااق بحرقه إلى تقبيلها ، فيوسعها لثما وهو يبكى ولا يعلم لماذا يبكى ، وينهض وقد أفهم قلبه بحب الوجود والبشرية وكل مافى العالم ! . أو مع شاعر مثل تاجور يحثنا على حب العالم بجزئياته والاندماج فى الكون ، ويعلمنا أن نعيش فى الاخاء العام والحب الشامل عيشة روحية يغمرها الفرح ..

إنما نهمسى اليوم فى عصر كثر سكانه وعظم تراحمهم على العيش وتنازعهم على البقاء ، عصر كثير

الحروب والصخب والضوضاء ، عديد المآسي والتواجع ، فمن الجرم أن يقرأ أبناء مثل هذا العصر فلسفة التشاؤم وإنكار الحياة ، التي ترجع بالعالم إلى الوراء بدلاً من أن تشير به إلى الأمام . وأولادنا أحوج إلى أمثال مؤلفات اللورد أفيري السهلة الساذجة التي تهيب إليهم الحياة وما فيها من مسرات عديدة بريئة وتقص عليهم أنباء السعادة والسلام ومعنى الحياة ومحاسن الطبيعة وعجائب الكون . فيرون في الحياة هبة عظيمة وفي إسعاد الآخرين مسادة مكبرة وفي العمل لذة وفي كل صغيرة وكبيرة حسنة ومسرة ..

يرى تولستوى أن الفلاسفة الذين ينكرون الحياة وهم باقون فيها بدلاً من أن يتخلصوا منها ، فيهم كثير من الخطب وسوء النية ، ويفضل عليهم المنتهجرين الذين يحاولون المشكل بإخلاص وضمير طاهر ، بتركهم حياة لا يرون فيها غير الشر والألم ..

لقد أثبت جل الفلاسفة أن السعادة الشخصية وهم يتعذر وجوده ، ولكنه لا يدفع الإنسان إلى إنكار الحياة والتشاؤم منها ، لأن المحبة ترفع الذات الحيوانية ، التي تدفع الإنسان إلى الجري وراء السعادة الشخصية بأثرة وأنانية ، ولو كان في ذلك هلاك الآخرين ، إلى إيثار يدفع الإنسان إلى السعي وراء سعادة الآخرين وخدمتهم وسحبة العالم أجمع ..

وللأديب أن يبت آلامه ويصور نقائص الحياة وشعور الناس وفوضى المجتمع ورغبة في الإصلاح وحباً للمثل العليا ولكن ليس له أن يرمي الحياة عامة بالقبح ، والنفس البشرية بالشر ويصور الوجود بأقتم الألوان ، منسكراً من أجل شقائه الذاتي كل مافي العالم من جمال وفضائل ونعم ومسرات ..



القوة الخالقة

ومدى ادراكنا لها وصلتنا بها

يقول بعض المفكرين : « إذا لم يكن هناك إله فعلينا أن نخلقه » . وهم يعنون بذلك حاجة النفس البشرية في أحيان كثيرة إلى عزاء روحاني تركز اليه في ساعات شدتها وحيرتها ويأسها من المعونة البشرية . وهنا تجوز المقارنة بين نفسين أحدهما تسلم بوجود إله عادل رحيم ، والأخرى لا تستطيع ادراكه فتذهب بمخاط العالم بطريق المصادفة أو بطريق آخر يتنافى ووجود قوة خالقة مبهمة . فان الأولى تكون أكثر احتمالا للمحنة وأوسع أملا في الفرج . أما الثانية فتتطلع حوطلا فلا تلتقي إلا مادة صماء ومخلوقات تتنازع على المقام ، فتسد أبواب العزاء في وجهها وتبيت تنظر إلى العالم بمنظار ملتو قاتم ..

فالإنسان بحكم طبيعته البشرية الضعيفة الراضخة لأحكام الطبيعة ونواميس الكون وسلطان الموت المؤدى إلى عالم مجهول ، في حاجة إلى التسليم بوجود قوة مدركة خالقة مبهمة هي الأمل وهي العزاء وهي العطف الأبوى وهي الله ، اله المؤمنين السعداء بإيمانهم ..

لأن القلب يتطلب إلها يخفف عنه أحماله يوم يحس أنه وحيد ضعيف تائه ، يحتاج الى عشير وعضد ورجاء في الحياة والموت ، لا يلقاه في المادة ولا في أخيه الإنسان ..

ولأن البصيرة تدفعه الى الايمان بما قد يعجز العقل عن الايمان به ..

ولأن في كل انسان صوتا باطنا يؤنبه إذا أثم ، ويثنى عليه إذا أحسن ، هو صوت الضمير القاهر الذي يلزم النفس كظلها ويناديها باحترام القوانين الالهية شاءت أم لم تشأ ..

ولأن للوراثة صوتاً مستتراً يدوى في قرارة النفس ويمحها على المحافظة على عقائد من تحبهم وتجلهم من أسلاف مؤمنين ..

ولأن الإنسان ليس بمكائن واجب الوجود ، فلو ماتت أمه قبل أن يولد ما كان ليوجد ، ولأنه ليس بدائم ولا بلانهاى ، غير أنه يشمر أن هناك كائنا واجب الوجود ودائما ولا نهائيا ، كما يقول ديكارت وبسكال



إلا أن الإنسان مهما سما عقله وقويت بصيرته لا يستطيع أن يدرك ماهية تلك القوة الخالقة فيدفعه الغرور البشرى إلى تشبيه الله بالإنسان ، وهنا يصدق قول كزنافون « لو كان

للثيران أيد وقوة كالرجال لمنحت لها آلهة في شكل الثيران كما يصنع الرجال آلهتهم في شكل انسان» !

فترى السكثريين يتغليون الله مشغولاً في شيخ وقور له ما للناس من حواس خمس، وله ما لهم من خدم وجنود وحاشية بل وأصواق موسيقية، وملائكة لهم وجوه الحسن وأجنحة الطيور. بل لقد كان القدماء ينسبون لآلهتهم كل النقائص البشرية والشهوات الجسدية أيضاً..

وهذا التخيل لصورة الله صادر عن العقل الانساني المحدود، والمحدود لا يستطيع تصور غير المحدود، وكل ما يتخيله الانسان عن الله تصورات لاحالة ولا شبه بينها وبينه. ثم إن الله قوة روحانية والنفس - كما يقول بسكال - لا تدرك بالخيال إلا الأشياء المادية، أما الأشياء الروحانية فلا يمكن أن تصنع منها صوراً فلا يمكن للنفس أن تصورها..

إذاً فالخيال يعجز عن تصور القوة الخالقة..

وكذا الحواس لا يمكنها أن تدرك الله لأن الحواس لا تدرك إلا المحسوسات المادية. بل هي كثيراً ما تخطئ في ادراكها، وتضم تلك المحسوسات في قوالب مفارقة للواقع كما نرى مثلاً في أخطاء السمع والبصر..

والعقل البشري مهما اتسع وكبر يقف دائماً أمام تلك القوة معترفاً بالعجز والقصور. بل هو يقف أمام الزهرة الصغيرة حائراً لا يستطيع ادراك كنهها وسر تركيبها وعطرها. وإن هو أدركها على رأى تينيسون، لا أدرك ماهية الله. وكذا العقل يقف أمام ماهية الحياة أو السكرباء أو الاثير أو غيرها من ماهيات القوي الطبيعية خاشعاً معترفاً بالعجز.. والعلم والفلسفة يتفقان على استحالة ادراك الذات الالهية بل هما لا يستطيعان اثبات وجودها أو انكارها..

إذ كيف، على رأى عباس البهائي، يستطيع العقل البشري وهو محدود أن يدرك اللامحدود، وكيف يمكنه أن يحيط بالقوة المحيطة، وقطرة من محيط لا تقدر أن تحيط بالمحيط نفسه؟

* * *

غير أن قصور العقل البشري عن ادراك ماهية القوة الخالقة لا يعوقه عن البحث الفلسفي وراء تلك المسألة العظمى. وهنا تنشعب الآراء الى ثلاثة مذاهب. فن العقول ما تخرج بعد البحث قائلة « لا أدري » وهو مذهب اللا أدريه، ومنها ما تخرج مؤمنة ومنها ما تخرج منكورة.. أما اللا أدريون فتساوى لديهم براهين النفي والاثبات. وأما المؤمنون بوجوده فيأتون بمثل الأدلة الآتية :

أولاً - أن كثرة التراكيب في الاجسام الحية - كما أورد الفرد ولاس العالم الطبيعي -

تستلزم وجود قوة خالقة أولاً ، وعقل مدبر ثانياً ، ووجود غاية خلقت لأجلها الأحياء ثالثاً .
أما تلك الغاية من خلق الأحياء فهو غاية كل أعمال النشوء والأرتقاء في الكون . .

إذن لابد أن يكون هناك عنصر فعال هو الذي يرقى بالحياة من القدرات الحيوية إلى الإنسان وإلى ما هو أعلى من الإنسان ، وهذا العنصر هو ما نسميه بالقوة الخالقة . وهنا يقول الفرد ولاس :
« ان الماديين يتجاهلون القوة المدبرة الخفية ، التي تستطيع الخلية الحية بتأثيرها ، من المرور في سلسلة من التحولات ، يستحيل ايضاحها بأية طريقة كيميائية أو ميكانيكية »

ثانياً — يرى الإنسان أمامه كوناً هامئلاً يسير على نظام عجيب وترتيب مقصود ونسبة محفوظة .
فتمة مثلاً أقمار تدور حول سيارات وسيارات ، تدور حول شموس وحول نفسها ، كل ذلك في أوقات منظمة . فكيف تخرج المصادفة نظاماً سرمدياً ، وكيف ينتج العناء ترتيباً مقصوداً ، وكيف يخرج القصد من اللاقصد ، وكيف ترتب الجاذبية أو النسبية وحدهما مثل هذا الكون ومن الذي خلق الجاذبية أو النسبية وسخرها في ضبط حركات الوجود ؟

وإذا كانت أمامنا ساعة دقيقة الصنع تدور بنظام وأحكام ولا يرضى عقلنا أن يؤمن بأن هذه ساعة قد صنعت نفسها ودارت بدقة بطريق المصادفة ، فكيف يسلم هذا العقل بأن هذا الكون اللانهائي ، الرائع الترتيب ، الدقيق الصنع قد خلق نفسه ؟

وإذا قلنا « أنه لا يمكن خلق شيء من شيء ولا زوال شيء في شيء » كما يقول الماديون ، فكيف نعمل نظام الكون وأصل الحياة وكيفية التطور والنشوء ، ووجود العقل البشري الذي يعجب من هذه المظاهر والأسرار ؟

ثالثاً — يحس الإنسان في حياته بالقص وأنه ذو بدء ونهاية . ولم يأت هذا الإحساس البشري بالقص إلا شعوراً بوجود ما هو كامل بحيث يكون الإنسان بالنسبة إليه ذاتاً ناقصة . .

رابعاً — يقول مالبرانش : إني أقضي بأن الله موجود ، أي بأن الكائن الكامل كاملاً لانهائياً موجوداً ، لأنني أدركه والعدم لا يمكن أن يدرك . .

خامساً — إن عدم استطاعتنا إدراك ماهية الله لا ينكر وجوده ، لأننا نؤمن بوجود الكهرباء والاشير والجواهر الفردة والحياة والعقل والنفس وغيرها مع أننا لا نقدر على إدراك ماهيتها . وأن كانت القوة الخالقة مجهولة عنا ، فإن آثارها تعلن عنها في كل مكان

أما المنكرون لوجود القوة الخالقة فانهم يقولون إنهم إذا سلموا بوجود السبب الأول ، فإن العقل يود أن يقف أولاً على هذا السبب من أين أتى وكيف نشأ . وإذا كان لكل شيء خالق وأصل

فمن أوجد تلك القوة الخالقة ؟

ثانياً — إنه لا يمكن أن يخلق شيء من شيء ولا أن يزول شيء في لا شيء .

ثالثاً — إن في هذا العالم ترتيباً سببياً النواميس الطبيعية ولكن هناك أيضاً من آلام العالم ،

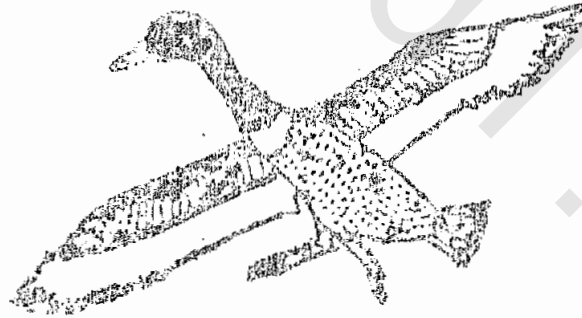
وغضب الطبيعة وفوضى الحياة ، وتحكم القوى في الضعيف وغيرها مما يدفع الى نفى وجود العدل والنظام .

ولعل حسن الختام هو قول داروين :

« إني أميل إلى التسليم إلى حد ما لحكم أولئك الكثيرين من الرجال العظماء الذين آمنوا

إيماناً تاماً بالله ولكنى لا أتمالك هنا من الاعتراف بأن هذه الحجة ضعيفة وخير النتائج التي تنتهي

إليها أن هذا الموضوع كله يعدو حدود الذهن البشري »



في مفاهيم الروح

هذا بحث، تبرم به الأغلبية التي تدور مع الأرض مسيرة غير قصيرة، لا ترفع أبصارها عن أديم الأرض ولا تسمو بمغيلاتها عن قشور الحياة . إذ ماذا يهم تلك الفئة أن يكون في الإنسان مؤثر اسمه الروح أو الشخصية العاقلة ، وأن يكون هذا الروح خالدا أو فانيا ، ومؤثرا على الجسم أو غير مؤثر . مادامت لا تكسب من وراء تلك الأحاديث مالا أو يعود عليها من ورائها أى مغنم . بل العجب أنها تنسب الهوس والشذوذ إلى من يغامر في هذه الأبحاث ..

مثل تلك الفئة التي تحقت التفكير في غير السطحيات تدب على هذه الأرض كغيرها من مخلوقات الله الحية، تولد وتأك كل وتناسل ثم ترحل من حيث جاءت مغمورة مستسلمة ، تتلاقفها في حياتها ومماتها موجة القدر . أما قبس الفكر الذي وهبته فلا شأن له لديها إلا في توجيه آلة الجسد بمنة ويسرة نحو الغايات المادية التافهة .

يقول إسكال . « لا يعمل الإنسان من الأكل والنوم كل يوم لأن الجوع والنعاس يعودان وألا كان يعمل منهما ، ولذلك يعمل من الشئون الروحية من لا يجوع اليها » .. ثم أن الكثرة الغالبة تحذر الخوض في هذا الحديث لأنه يذكرها بالموت ، وهو ما تبغض النفس ذكره ، ولو أن الحديث عن الروح وخلودها يعنى في الحقيقة الحياة الخالدة وينهى وجود الموت الذي يخافه ..

أما الذين لا يهربون من التفكير في شأن الروح وخلوده فنلات فئات : الروحانيون المعتقدون بوجود الروح وبخلودها بعد موت الجسد ، ومنهم فئة تذهب بتقمصها في أجسام أخرى . . و « اللا أدريون » الذين يخرجون بعد البحث قائلين « لا ندرى » . ثم الماديون الذين ينكرون وجودها ويرون أن الشخصية تفنى فناء أبدأ بموت الجسد ، إذ ليس الإنسان لديهم غير حيوان مادي تحركه الدورة الدموية التي تغذى الدماغ بالأكسوجين ، وتنقطع حياته بانقطاعها . فأين هنا تلك الروح التي لا تدركها الحواس ؟

أما « اللا أدريون » فقد أراحوا أنفسهم من أدلة النفي والاثبات . وأما المنكرون فبكثيرا ما تكون حججهم الغلبة ، إذ أن النفي في كل شيء أيسر من الإثبات . ويكفى لجاحد أمر الروح أن يتعلل بعدم ادراكه بحواسه ، وبأنه لا يقع تحت تجريبيه . بل نعمة نوع من فلسفة الانكار

تجسد وجود الحياة نفسها وتعاليك بأثبات وجودك إذ قد يكون هذا العالم وما فيه شيئاً خيالياً موهوماً أو حلماً ! .

والحق أن الحواس والخيال والعلوم المادية لا تستطيع إدراك وجود الروح أو خلوده بقدر ما يثبت الإدراك الذهني . فالحواس كثيراً ما تخطيء في إدراك المحسوس نفسه وفي الحكم على الماديات كالألوان والنور والطعوم . وأما منا من غلطات البصر والسمع مثلاً أمثلة كثيرة معروفة . ثم أن الحواس لا تختص إلا بالأشياء المحسوسة لا بالأشياء الروحية . وفي ذلك يقول الفيلسوف مالبرانش في كتابه « البحث عن الحقيقة » : « تدرك النفس بالحواس الأشياء المحسوسة الخشنة فقط كلما كانت حاضرة فآثرت في أعضاء الجسم الخارجية وتعدى هذا التأثير إلى الدماغ . أو كلما كانت غائبة وآثرت في المخ عن طريق الجهاز العصبي .. فعلينا ألا نحكم بوساطة الحواس عن ماهية الأشياء . بل عن نسبتها إلى جسدنا .. »

ويقول أوليفر لودج : « يجب أن نميز بين ما تحس به حواسنا وبين الاستنتاج الذي ندركه بأذهاننا . فبعضنا نعرف هذا الجسم الحى الذي ينمو ويتغذى ونسميه انساناً وهو مجموعة من ذرات المادة ، ولكن بالذهن ندرك أن في هذا الجسم شيئاً لا نعرف ماهيته يتسلط على هذا الجسم ويجعله حياً .. »

أما الخيال فليس من وظيفته إدراك الروح ، لأنه لا يدرك إلا الأشياء المادية يرسم منها صوراً مستعينا في رسمها بالمحسوسات أو الوجدانيات التي جمعتها تجارب الحياة في الذاكرة . أما الأشياء الروحية فلا يمكن أن يصنع منها صوراً وبذلك لا تستطيع النفس تخيلها . .

والعلوم المادية لا تحمل مثل هذه الألغاز التي لا تدخل في دائرة التجارب العامة أو لا تدخل في معامل الاختبار . ولكن العلوم الطبيعية إذا توسعنا بها أمكننا أن نصل بها إلى العالم الروحى المجهول والمنطق كثيراً ما تنفى أقيسته وقضاياه الواقع المحسوس نفسه بالتلاعب اللغظى والسفسطة وتقلب أحياناً الحقائق إلى عدم . وما تدركه البصيرة قلما تجيب عنه الأساليب الجدلية . ولكنه كان على الرغم من ذلك وسيلة سخرها الفلاسفة مثل افلاطون في اثبات خلود الروح . .

ولكن أليس فينا ، حتى بين الماديين الذين ينكرون أية قوة أو عقل خارج المادة ، من يؤمن بوجود القوة الخالقة الشاملة ، وغير المادية ، وهى الله ، معترفاً بقدرتها وخلودها وليس بيننا من يدركها بالحواس أو بالخيال أو بالعلوم المادية بل بالبصيرة والفراسة « فهو موجود لأننا ندركه والعدم لا يمكن أن يدرك » ..

وكلنا يؤمن بوجود تلك القوة المؤثرة التي نسميها بالكهرباء ، وكلنا يفتنح بها في حياته اليومية ولكن ليس ثمة عالم يعرف ماهية هذه القوة ولا كنهها ..

وكلنا يتحدث اليوم عن الجوهر الفرد وما يدور حوله من الكترونات كما تدور الكواكب حول الشمس ، ولكننا لا نعلم كنه ذلك الجوهر الفرد ..

ومنا من يتحدث عن الأثير الذي يملأ فضاء الكون وحوله في كل ذرة ولكننا لانستطيع أن ندرك هذا الأثير أو نكشف عن سره بما أوتينا من حراس وفطنة . ومع ذلك يقول لنا معاصر هو أوليفر لودج « ان علاقتنا بالمادة شيء ثانوي جدا إنما صلتنا بالأثير هي الصلة الأولى . اننا خلأق روحية وشغلنا بالمادة فعل غير مباشر .. »

وكلنا يكثّر من ذكر العقل والنفس والوجدان ويقرأ بعضنا آخر ما وصل اليه اليوم علماء النفس من اكتشافات عجيبة ، ولكننا لم نصل إلى إدراك ماهية تلك المسميات المعنوية الفعالة وكيفية اتصالها بالمادة وعلاقتها بالجسم والحياة ..

ذلك لأن ما نهمله من أسرار الوجود لا يقاس بما نعلمه منها ، بل نحن نكاد لانعلم شيئا عن هذا الكون المشحون بالاسرار على الرغم من ذلك التقدم العلمي الذي بلغه العالم اليوم . وفي كل ساعة نكشف عن سر غريب من أسرار الكون كنا نهمله ولا نعتقد بوجوده .

وكل يوم تناجأ باكتشاف جديد كان موجودا أمامنا ومؤثرا فينا ولم نعرفه فالكهرباء الكامنة حتى في أجسامنا لم نلتفت بها ونسخرها إلا منذ عهد قريب . وبالألمس فقط نكشف لنا عن أسرار الراديو ونشعة « اكس » وخفايا الذرة وعجائب العقل الباطن وغيرها مما كان فينا وحولنا وكنا عنه في عماء . ولم نعد نهمل أن أمامنا ملايين الأسرار المجهولة التي تمحوط بنا وتؤثر فينا ولا ندركها اليوم ، ولأننا أن نكشف عنها تدريجيا كما نكشف عن غيرها . وبين هذه الأسرار قوي روحانية مازالت فينا وحولنا ، وعليها أن نكشف عنها ونضعها تحت التجربة العامة لا الاختبار الشخصي فقط ، وعدم كشفها لا ينفي وجودها ..

فثمة أمور روحانية غريبة يتحدث بها رهط من العلماء ويقولون عنها الكتب ولنا أن نتأمل فيها ونفحصها ، لنصل إلى أسبابها وخفاياها بعد أن نميز بين الحقائق الروحانية وبين الهواجس والأوهام والتخيلات . وكذا يجب أن نفرق بين المباحث التي يعلوها الصدق وبين الخداع والشعوذة ..

فاذا قيل لنا اليوم لقد كان لقدماء المصريين والهنود علوم روحانية ذات أعماق وأسرار ، وأن ثمة غرائب خلفايات النفس والعقل الباطن ، وثة عجائب للتنويم والاستهواء وانتقال الأفكار وقراءتها وظهور الأرواح في أجساد أثيرية مجهولة . واتصال هذه الأرواح بالعائلة بالأحياء المتجسدين ، وامكان

تجرد العقل عن الجسد ، وأنا مساقون إلى حياة أخرى لا تعرف الفناء ، فلا يجب أن تقطع بالانكار والشفى بلا ترو ، بل علينا أن نقول على الأقل أننا مازلنا على عتبة اكتشاف الجہول وأن ماضيه من خفايا النفس لا يوازي شيئاً أمام ما نجهله منها . وليس ثمة غرور أكبر من الاستهزاء بما نجهل والتسرع بنفى ما لم ندرس . .

أعنى أن مسألة الروح هي أيضاً بين تلك الأسرار التي لم يصل تفكيرنا المحدود بعد إلى استجلاء غوامضها . وأن انكارنا للروح وبقائها مبنى على الجهل كما أنكر أسلافنا قوة الكهرباء أو استطاعتنا التصليق في الهواء . وأنه خير لنا أن نؤمن بالروح وخالودها معتمدين على البصيرة والادراك الذهني من أن ننكرها فنكون في إيماننا بها أكثر رجحاً منا في انكارها . مادام في ذلك الايمان عزاء لنا في هذه الحياة الكثيرة المحن . ولنا من تلك العقول الكبيرة التي آمنت بالروح بعد درس وبحيث وتجربة خير عزاء لنا في إيماننا . .

فاذا آمنا إيماناً علمياً أن ذواتنا ستبقى بعد موت الجسد ، وأن الجسد هو قفص العصفور المفرد أمكننا أن ندرس مسألة تطور النفس والغاية من وجودها .

فليست الغاية من الحياة الأرضية هي السعادة أو التمتع أو بقاء النوع ، بل أن الغاية من وجودنا هو الارتقاء والسمو والتدرج ، وأما السعادة والشقاء وما شابههما فصور مختلفة من التجارب والمحن التي لا بد لنا من اجتيازها لننصهر وتجاوز ونصعد درجات تفسانية أرقى وليس لهذا الرقي نهاية . . وأما أولئك الذين لا يسيرون وفق ناموس الكون فلا يتطورون ولا يرتقون بل قد يتدرجون إلى الأسفل وقد لا يكون لانحطاطهم وانحدارهم نهاية . وكذلك أولئك الذين يرتقون ببطء ولا تكفي الحياة الأرضية القصيرة لرفيقهم الروحي فإن النتيجة المنطقية تقول إن أمامهم المجال الواسع في حياة أخرى لا تخضع للزمان ولا للمكان ، حياة ترح فيها الروح في حرية وسلام وطهارة نينة . .

وقد اعترف بخلود الروح عدد عظيم من رجال الفكر منذ القديم . وقد بدأ الأفسان منذ العصر الحجري يشعر بغريزته بوجود قوى مستترة فعبد في سبيل ارضائها المظاهر الطبيعية ، ثم بدأ يخشى القوى الروحية ويقدس الموت . وهنا بدأ السحر والعرافة والكهانة تتدرج إلى نشوء الأديان وظهور فكرة الآلهة . .

وتطورت الحضارة في وادي النيل وأخذ الكهنة المصريون يبحثون في الروحانيات وما وراء الموت وآمنوا بوجود الروح وخالودها ، وكانوا يطلقون عليها اسم « كا » . وكان هذا الموضوع كما يبدو مما خلقوه من آثار ونقوش وكتب بردية شاغلهم الأكبر . ولا بد أن الكهنة عرفوا أيضاً استحضر الأرواح ومناجاتها كما يقول بها الكثيرون في هذا العصر . .

يقول هيرودوت « إن المصريين هم أول الشعوب الذين اعتقدوا بشأورد النفس » . وقد ورد في النصوص المنقوشة على الأهرام « أن الروح خالدة ولا تموت أبداً » وجاء في كتاب الموتى : ان الميت يقول : « أنا لا أموت مرة ثانية في العالم الثاني » .

ثم جاء دور اليونان وقيل إن طاليس كان أول من قال من فلاسفتهم بأن الأرواح غير قانية بل هي أزلية خالدة . وكان « ابيكتاتروس » يقول : « ان هذا الجسم هو المظهر القاني لذلك الجوهر الخالد » وقال يوريديس . « من يدري أن الحياة ليست موتاً وأن الموت ليس حياة » وفي خطاب سقراط قبل اعدامه يقول « . . ولكن إذا كان الموت كما يقولون رحلة وانتقالاً إلى مكان آخر يلتقي فيه كل من عاش ومات فأى شيء أعظم من ذلك أيها الاصدقاء وأيها القضاة ؟ »

وكان أفلاطون من المؤمنين بخلود الروح بعد أن طالج موضوعها طويلاً ومن قوله « إذا كان هناك من تعليل وتفسير لتصرفات الآلهة مع البشر فلا بد من تقدير حياة مستقبلية » . ووصل في كتابه « الوليمة » إلى أن الروح تبقى بوساطة عشقها للفضائل والمعلومات وبقرها من الله ، وأن الروح كالجسم في تغير مستمر . وتوصل في كتابه « فيدروس » إلى القول بأن الروح تسير إلى كل جهة في الكون وأن الأرواح مقسمة إلى طوائف مختلفة الطبائع تجول في أنحاء العالم . .

وأورد أفلاطون في كتابه « فيدون » عدة براهين على بقاء الروح ، بناها على الاستنتاج المنطقي . ومن رأيه أن هناك دوراناً في جميع الحوادث به تدور بين ضدين . فالأشياء تتحول من الازدياد إلى النقصان ، ومن النقصان إلى الزيادة ، وأن اليقظة تحدث بعد النوم والنوم بعد اليقظة . وذلك الحدوث أو الصيرورة هي حركة مستمرة . ولولم يوجد هذا الدوران لانهت جميع الحوادث إلى حالة واحدة . وهذا الدوران يستلزم حدوث الحى من الميت والميت من الحى . . ويرى أفلاطون انه اذا كان الموت نهاية كل شيء فانه يكون ذا فائدة كبيرة للظالم والشرير إذ به يستريحان من نفسيهما وجسديهما ومن عواقب الشر مرة واحدة، وهذا مالا يرتضيه العقل ولا العدل ولا وجود اله عادل » ويرى أيضاً ان النفس جوهر مسيطر قائم بذاته مجانس للمعاني حكمه مثل حكم المعاني في عدم قبولها للضد . فالعدل لا يقبل الظلم والفرد لا يكون زوجاً والنفس أصل الحياة فهى بذلك حية ولا تقبل نقيضها الموت . .

ولابن سينا في كتاب « النجاة » بحث جاء فيها ان النفس لا تموت بموت الجسم . وأنها لا تقبل الفساد، وأن الروح لم توجد قبل الجسد ، لأنها تحدث حينما يحدث البدن الصالح لاستعمالها آياه . أما بعدمفارقتها للجسد فان النفوس على قول ابن سينا قد وجدت كل واحدة منها ذاتاً منفردة باختلاف موادها التي كانت عليها وباختلاف أزمنة حدوثها واختلاف هيئاتها التي بحسب أبدانها المختلفة . ولابن سينا بحث في بطلان القول بتناسخ الأرواح . .

أما الفيلسوف « مالبرانش » فيقول : « ان الله هو العالم المعقول أو محل الأرواح ، كما أن العالم المادي هو محل الأجسام ، فمن قدرته تكيف الأرواح تكيفاتها كلها ، وفي حكمته تجدد فكراتها كلها ، وبمحبه تتحرك بجميع حركاتها المنظمة »

وجاء نفر عظيم من علماء هذا العصر فأمنوا بعد أبحاث علمية وتحقيقات نفسية بخلود الروح وبقدرتنا على استحضارها ومناجاتها بشقي الطرق ، منهم الدماء أوليفر لودج وكوثان دويل وفامريون والان كاردك وهكشيرون غيرهم . وقد وضع أوليفر لودج بعض المؤلفات والأبحاث في هذا الشأن وقال في إحدى مقالاته : « إذا تساءلنا أين تكون شخصية الانسان حين ينقطع اتصاله بالمادة ، هل تبقى هذه الشخصية أو تبقى ، فالجواب انه ليس ما يحملنا على الاعتقاد بنقاء الشخصية إذا انقطع اتصالها بالمادة ، لانها إذا كانت متصلة بالآثير من الأصل فان هذا الاتصال يستمر بعد الموت ولو كانت في شكل أو هيئة لا يمكننا تمييزها بمواسنا »

أما الأديان فكلاهما تنص على خلود الروح منفصلا عن الجسد ، ماعدا البوذية التي تذهب بتقصص الأرواح في أجساد أخرى ، وبذلك تخلد . .

فديانة قدماء المصريين تدور كلها حول بقاء الروح ومعيشتها في عالم آخر ولو أنهم كسوا هذه العقيدة بطلاء الشعر والخيال . ثم جاءت الديانة اليهودية فقالت ببقاء الروح وعذابها أو نعيمها في العالم الآخر . وجاء موضوع استحضار الأرواح في التوراة في سفر صموئيل الاول في الاصحاح الثامن والعشرين ، فان الملك شاول تنكر وذهب مع رجلين إلى وسيطة استحضرت له روح صموئيل فلما رآته المرأة صرخت وقالت لشاول لماذا خدعتني وأنت شاول فقال لها لا تخافي فإذا رأيت . قالت رأيت ألهما يصعد من الأرض فقال لها وما صورتها قالت شيخ صاعد مغطى بحبة فعلم شاول انه صموئيل وخر على وجهه ساجداً . فقال صموئيل لشاول لماذا أفلقتني بأصعادلك أيابي قال قد ضاق بي الامر جداً ، الفلسطينيون يحاربونني والرب فارقتني ولم يعد يحبيني لا بالانبياء ولا بالأحلام فدعوتك لكي تعلمني ماذا أصنع . .

وجاءت المسيحية تبحث على الايمان بخلود الروح وبجمال العالم الروحاني الآخر وبانكار الجسد وبأن محبة العالم عداوة لله لان بعد هذه الحياة الأرضية حياة روحانية يعيش فيها البشر كأبناء الله . .

ثم جاءت الديانة الإسلامية مبشرة أيضا بخلود الروح وبالعقاب أو الثواب الذي ستناله الروح في العالم الآخر . وجاء في القرآن الكريم « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » . .

واليوم يتحرك العالم نحو ذلك الايمان القديم فعاد منذ عهد غير بعيد مذهب الخلود الروحي المبني على القواعد العلمية ولنا أن نبحت في الامر ونهيه ولو قليلا من تفكيرنا . .

في التقاليد والحداثة

كلنا يعتمد في أكثر أعماله على غرائزه العديدة الموروثة ، التي تقوده من مهد إلى حده ، كأنها يد خفية تمتد من أعماق الأجيال ، فيسير بإرشادها في مرحلة حياته ، ويستعين بها في ملائمة بيئته وتكييف معيشته . . وبين هذه الغرائز ما يكون له الأثر الجلي في ارتقائه إن هو عرف كيف يسمو بغرائزه ويفتخ بها في تهذيب نفسه أو تكون سبباً لاختطاطه إن هو تركها بلا تشذيب فتعود به إلى الوحشية الأولى الكامنة في أعماق النفس . .

وفي مقدمة الغرائز الوثيقة الصلة بتربية الإنسان وتكييف حياته ، غريزتا التقليد والايحاء ، وهما إن اختلفتا في المعنى فأنهما متماثلان في النتيجة متصلان في الغرض ، لأن كلا منهما يرمي إلى مطابقة النموذج أو نقل فكرة خارجية . .

والإنسان مقلد منذ طفولته الباكرة فهو يحاكي غير مخير ، وينقل عن البيئة التي ينشأ فيها . وهو قبل أن يشب وتنمو فيه قوة التمييز يكون قد قلد كثيراً من الأمثلة المحيطة به . وسرعان ما يتحول تقليده إلى عادات تصبح جزءاً من أخلاقه وتصرفاته . وهنا خطورة النشأة الأولى ، فإن كانت اللغة الأولى التي سمعها مهيبة راقية نشأ رقيق الحديث ، وإن كانت حوشية منحطة شب وهو يتكلمها بلا وعى . وإن نشأ وهو لا يرى حوله غير النماذج الفظة والأمثلة الخشنة تطبعت نفسه بالخشونة والشراسة . وإن رأى الجمال والأناقة في محيطه تطبع بالدعابة وتزودت تخيلته بصور الجمال فإن شئنا أن يشب أبنائنا على حب النظام والجمال فنحيطهم بالنماذج التي سيجعلونها دون وعى . ولتكن بيوتنا نظيفة مرتبة فإنهم يجتهدون في نظافة أنفسهم وترتيب شئونها ليجدوا في ذلك انسجاماً مع بيئتهم . .

يقول العالم بتر : « إن المؤثرات التي تكيف حياتنا ليست بالشئ الصغير ، فالمالاس الحسنة والمنازل الأنيقة والصور الفنية والزخارف الجميلة ، والحداثات الجذابة والشوارع النظيفة ، والكتب الحسنة التغليف ، كلها ذات قيمة معنوية وتهذيبية . ومن الناحية الأخرى فإن سوء الترتيب والفوضى والقبح تبعث على الجهل والجريمة . .

ويقول أيضاً : « إن أسلوب المشي واللعب والتفكير والصلاة كلها نشأت عن التقليد ، وبالتقليد نتخذ قواعداً اجتماعية ومبادئنا السياسية وعقائدنا الدينية ، وأن نظراتنا إلى الحياة وقيمة ما نبلغه منها هي بالأكثر مسألة تقليد »

ونحن إن شئنا أن نهذب أذواق العامة ونحسبهم من حيث لا يشعرون على تقدير الجمال والنظام

والنظافة فلنجمال المدن والمساكن التي تكتنفهم ، وننظم الطرق ونرصعها ، ونعني بنظافتها وزينتها بالأشجار والحدايق الغناء والتماثيل الفنية لأن بذلك تستجيب النفوس لجمال الوسط ونظافة البيئة زرت مرة داراً للسينما في إحدى المدن الصغيرة فرأيت الدرجة الثالثة فيها مكتظة بالزراع الصاخبين وقد أحضروا معهم أعواد القصب يعمسونها وهم يصيحون ويتشاجرون فكانت الدار أشبه بسوق . وعدت صدفه إلى تلك الدار بعد عدة شهور فرأيت الدرجة الثالثة مكتظة كمادتها بالزراع ولكنهم كانوا في هذه المرة صامتين هادئين ، ذلك لأن هذه الدار كانت في المرة الأولى دمية المنظر مشوهة الجدران ، وإذا بها في المرة الثانية قد لبست حلة فاخرة . فالجدران مكسوة بالورق المزخرف ، والسقف مزين بثريات الكهرباء ، والأرض نظيفة لامعة ، ونبغات الموسيقى تتجاوب في أرجاء المكان ، فكان لهذه المناظر أثر بين في نفوس أولئك المساكن الذين لم يألوا غير الأوساط القذرة ، وهكذا استجابت للجمال نفوسهم . .

يروى أديب اسمه هوثرن في حكاية الوجه الحجري العظيم قصة غلام اسمه ارنت كان يصغى الى قصة عن رجل مقل عظيم سيأتي يوما ويحكم الوادي . فتغلغل أثر هذه القصة في قلب الصبي وبات يفكر ويحلم بذلك الحكيم المنتظر . وأخذ يقضى أيام صباه متطلعاً إلى الوادي ، ناظراً إلى سفح جبل بعيد ، حيث تكون من تضاريس هذا الجبل وصخوره ما يشبه وجهها بشرياً متميزاً بالنبل والطيبة . فأحب الصبي هذا الوجه وتأمله كشبهه لوجه الحكيم المنتظر . وبينما هو يتأمله في كر الأيام ويحلم به تأخذ الصور الجميلة التي يتصورها تنمو في حياته وتكيف خلقه ، فيشب وإذا هو نفسه قد أصبح الحكيم والعظيم المنتظر !

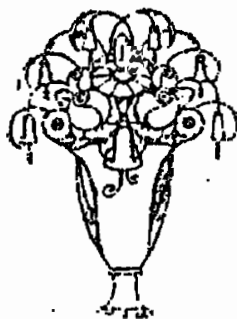
وكلنا يتأثر بالأحباء والتقليد إلا أننا نختلف في مقدار التقليد وكيفيته ، لأننا متباينون في الذاتية مختلفون في قوة الشخصية . فبينما يظل بعضنا مقلداً طول حياته إذا بالبعض الآخر يتخذ من التقليد وسيلة للتفنن والابتكار ، حتى ينتج أمثلة أرقى من الأمثلة الأصلية المقلدة ، وأولئك البعض هم الذين تدين لهم الإنسانية بفضل المخترعات والاكتشافات والابتكارات ، وهم قليل لأن الخيرين أقلية . .

أما الذين يظنون طيلة حياتهم مقلدين كالقردة ، فاهم في حاجة إلى قوة في التمييز والحكم والاستقلال الشخصي ، وهم عيال على المجتمع ينتفعون ولا ينفعون ، وهم ينساقون كقطيع من الخراف وراء كل نداء ، وهم يتأثرون بكل رأي ويندفعون بلا تبصر وراء كل عقيدة . ومنهم الرجعيون الذين يقتفون آثار أسلافهم ولو ضلوا السبيل ، ويتشبثون بالقديم الرث لأن تقليد هم الأعمى لمن سبقهم لم يدع لهم فرصة التمييز بين ما يصلح لزمان سابق وآخر لاحق . وأولئك القررة المحافظون هم حجرة عثرة في سبيل التطور والارتقاء وهم أعداء المجددين وأعداء عصرهم .

وبين أرباب التقليد الأعمى فئة تستشير الضمير وجولة واحدة في الطريق تقضيها في ملاحظة السابلة ترينا من أمر هذا الضرب من التقليد عجباً . فبهذه جماعة تمشى وتلبس وتتحدث بل تبسم وتلبس وتتصنع وتسكف لأن بعض الناس هكذا يفعلون . وهذه عجوز تقلد الفتيات في مشيتهن ولباسهن ومساحيقهن ، وهذا شيخ يتسابق ويشتال في مشيته وزينته كالفتيان ، وذلك شاب يتوكأ قبل الاوان على عصا غليظة ويتصنع الوقار والضعف كالشيوخ ، وهذا رجل شاء أن يقلد الفتيات في التثني والتأنث ، وهذا آخر قد أرسل شعره على أذنيه وعلق رباطا كبيرا أسود في رقبته زاعما انه يقلد الفنانين ، وذلك فقير يقلد الاغنياء في البذخ . .

والحق لقد أمتت طرقنا اليوم مسرحا للممثلين ومعرضا للادعياء . وقد قطع الكثيرون اليوم شوطا بعيداً في التصنع والمظاهر المتكلفة والمبادئ المزينة ، حتى حنت أخيلتنا إلى الحياة البسيطة والوسط الساذج لنحمر نفوسنا وأجسامنا من هذه القيود الثقيلة التي ترهقنا وتكاد تكتم أنفاسنا . .

إنه يمكننا أن ننفع بغريزتي التقليد والايحاء في ترقية نفوسنا وتهذيب طباعنا ، لا أن نجعل منها وسيلة تصيرنا أصناماً من أصنام الالاعيب . ففي الحياة وفي الكتب شخصيات عظيمة نبيلة يمكننا أن نحتذى بها إن شئنا محاكاة العظماء . وبين تلك الشخصيات أمثلة علينا تحمينا على الارتقاء وتوحي إلينا النبل . وكمن شخصية عالية كانت منارة ساطعة اهتدى بها الوف الناس فغيرت مجرى حياتهم . ولكن لنحتفظ أولاً بشخصياتنا ولا ننقاد انقيادا أعمى في المحاكاة فلكل عظيم هفواته ولكل شخصية نقائصها ، والكتب معجونة بألوف المشاهير الذين تستر بينهم أسوأ القدوات . وخير الشخصيات التي نتخذها أمثلة علينا هي شخصيات الأنبياء والحكماء وكبار المصلحين ونوابغ المخترعين والمفكرين المجددين ، أولئك الذين رصدوا حياتهم لخدمة البشرية ونفعها ، وأطاعوها على التطور والارتقاء . .



فى الأدب الجدى

مهمته وما يجب أن ىرى الیه

لأدیب هذا العصر أن ىعرف أن ناموس التطور الذى ىسرى على السكون ویمزئیاته لا بد أن ىسرى أیضاً على الأدب ، وهذا الناموس الذى یمجدد كل یوم فى الحیاة یمجب أن یمجدد أیضاً فى الأدب ، لأن الأدب ىستمد من الحیاة ویصورها . .

ولما كانت حیاتنا الیوم غیر حیاة أجدادنا ، وزماننا غیر زمانهم لزم أن ىكون أدبنا غیر أدبهم . . ولما كان العالم ىسیر إلى الأمام لا إلى الوراء لزم أن تكون حیاتنا خیراً من حیاتهم وأدبنا أرقى من أدبهم . . والأدب القدیم غنى بمغانیه وعواطفه وحكمه وأشعاره ولکنه لا یتجاوب مع نفس أدیب هذا العصر ولا ینغیه عن أدب جدید ىستمد من الحیاة الجدیة وروح العصر . .

فتعجن نعیش الیوم فى عصر یتسم بعیزات وخصائص أهمها التقدم العلمى وما كشفه عن مخبآت الطبیعة وأسرار الوجود . وعلى ذلك فالأدب الحدیث ینزع إلى العلم لیستمد منه القوة والوضوح والتعلیل . ولا منفر للأدیب العصرى من التزود بهذا العلم ، والاطلاع على ما وصلت الیه أبحاث العلماء من مكشفات وفطریات ومبادئ . فالأدیب الذى لا یتطلع على آراء فرود وبرجسون وغیرهما من علماء النفس لا ىستطیع أن ینفهم أسرار النفس وخفايا العقل على ضوء الاكتشفات الجدیة . والأدیب الذى لا یتطلع على آراء دارون ولا مارك وهكسل لا ینفهم الغایة من الحیاة وهى التطور والارتقاء . . وشكذا . .

ویخطئ البعض فى الظن أن العلم یقود إلى المادیة أو أن التزود بالعلوم ىضعف العواطف والوجدان لأن العلم أنما یوسع دائرة النظر إلى الحیاة ویكشف للانسان عن كثیر من خفايا النفس والطبیعة . .

وكبار أدباء العصر مثل ولز ورنارد شو ورولان وأدباء روسیا ىعتمدون كلهم على النظریات العلمیة فى بحوثهم وقصصهم ودراماتهم ویستمدون من روح عصرهم . .

إذ لا یمكن للأدب أن یقدم لمجتمع العصر الحاضر خدمات توازى ما یقدمه له العلم ، ولا یمكن أن ىسمى أدبا حقاً إلا إذا سار وفق الحاجة التى یتطلبها العصر الحاضر ویکمل شیئاً من النقص الذى یشعر به أبنائه . .

ونحن فميش اليوم في عصر كثير المطالب منشعب النواحي مكتظ بالسكان ، يتزاحم أفراد على الميش ، وينسكب علناؤه على الأبحاث العلمية يستغلون منها أسرار الوجود ويستخرجون عبارة الحياة في وقت قصير ، ويستنبطون وسائل جديدة تسهل علينا شئون الحياة وتقتنعنا بمختلف عناصرها ويستخرجون الطبيعة والجماد كخدمة البشر . .

وبذلك زادت قيمة الوقت وأصبحت له فلسفة خاصة وبات الاقتصاد في الوقت أهم من الاقتصاد في المال ، وظهرت فوائد السرعة في انجاز الأعمال ، وسخرت المكتشفات والمخترعات في سبيل هذه السرعة ، وتهافت الصغير والكبير على كسب الوقت لانفاقه في عديد النواحي ومختلف المطالب ، وشعر كل أديب بحاجة إلى أسرع الموارد وأقربها في تلمس البحوث وتناول الحقائق في معاجم مرتبة وموسوعات منسقة ، ومخصصات للعلوم وموجزات للفنون . .

ولم نعد اليوم في عصر الفراغ والعبث بالوقت نقتله ونسأمه ، فيخرج لنا الكتاب والشعراء مجلدات مسهبة ، ودواوين منظومة مطولة يقضون حياتهم في ترصيع جملها وزخرفة ألفاظها وتعقيد تراكيبها . ولم نعد نملك اليوم ذلك الوقت الرخيص ننفقه في حل الألغاز والمبهمات ، ومطالعة التشطير والتخميس والسجع والتورية ، والهجاء والمدح ، وقراءة السكنايات والمجازات والاستعارات مما اكتظ به الأدب التقليدي الجامد القديم ، لنصل بعد جهد وعناء إلى ذلك الغرض الذي يقصد اليه الكاتب أو الشاعر إن كان هناك غرض لمثل هؤلاء الكتاب . .

ولم نعد نملك ذلك الوقت الرخيص الذي أنفقه القدماء في نظم أو قراءة قصيدة ذات مائة بيت في مدح ناقة أو هجاء كلب أو وصف صنف من الطعام ، أو وصف مائة اسم للأسد ومائتين للجمل ! كان ذلك مستساغا لدي القدماء ولم يكن يشغلهم ما يشغلنا اليوم ، ولم تكن حياتهم كثيرة التركيب والتعقيد كما هي الحال في حياتنا الحاضرة . وقد بتنا نختلس اللحظات في قراءة ما يغذي عقولنا ويرقي نفوسنا ويسمو بأرواحنا ومحجب إلينا الحياة . بتنا ننشد تلك المطالعة التي ترقب فيها بترارك ما يؤنس في وحشته ويفرج كربته ويحدثه بأخبار العصور السالفة ويكاشفه بأسرار الطبيعة ويعلمه كيف يعيش وكيف يموت وكيف يكبح جماح أهوائه وي طرح عنه همومه . .

فلا معنى اليوم للاسهاب الطويل في موضوعات ثانوية لا تمس حياتنا ، ولا تغذي عقولنا وقلوبنا ، ولا إلى المقدمات المسهبة التي نستهل بها الموضوع ، ولا إلى الروايات المطولة ذات المجلدين والثلاثة التي نراها اليوم كما كنا نراها بالأمس ، والتي تزداد اليوم طولا بسبب اتساع وجوه الحياة فتراها تثرثر في تفاصيل الحوادث ووصف الطعام واللباس والعلاقات الجنسية وغيرها من المسائل المألوفة التافهة مما يزيد القصة ضعفاً وسأمة . .

وما كان الأدب ليقاس بالطول والعرض بل بالقيمة والعمق والاخلاص . وفي العالم قصص صغيرة خلد ذكرها بينما فيه مئات الألوف من قصص الثثرة طواها النسيان . وهناك من الأديباء والشعراء من خلد ذكرهم بمقطوعة أو قصيدة واحدة . فالشاعر توماس جراي مثلاً لم يخلف غير ديوان صغير لهله أصغر الدواوين لكنه بما تركه من قصائد قليلة رائعة قد حشر في عداد العظماء . .

فالحياة القصيرة المعقدة وتشعب نواحي التفكير والمكتشفات هي ما يدعو الناس اليوم إلى الاقبال على المختارات الشعرية القيمة لا على الدواوين المطولة المحشوة بالتافه ، وعلى المخصصات الكتب بل والقصص . وهي ما دفعت بعض الشركات الاوربية في هذا العصر إلى طبع الموسوعات المجلدة مثل « خلاصة أشهر الكتب » و « مجمل للفنون والآداب » و « أقوام كل الشعوب » و « لمحات إلى بلاد كثيرة » و « حيوانات كل الأمم » وغيرها من الموجزات . أضف إلى ذلك ما يقوم به بعض العلماء من نشر المعاجم المختصرة في تاريخ حياة العظماء وحوادث التاريخ ، ومن نشر الموسوعات المنسقة في مختلف العلوم والفنون والآداب . وكل تلك الجهود إنما تقصد إلى غرض واحد هو كسب أكبر فائدة ممكنة في أقصر وقت ممكن . وهذا ما يجب أن يكون شعار الأدب العصري أعني الموجز المفيد ذا الأسلوب « التلغرافي » . .



وإذا كان الوقت في عصرنا هذا من ذهب وكان الواجب الإيجاز في التعبير لنأني بالقليل المتقن لا بالمسهب المهمل ، فإن الوقت أيضاً ومقتضيات الزمن لا تتفق مع مطالعة كتابته من يظهر لنا براعته دون أن يعني بارشادنا وإفادتنا . .

فكل أديب حقيقى له طبيعة النبوة وعاليه واجب تثقيفنا وتمييزنا والسمو بنفوسنا من الحقير إلى النافع . وعلينا نحن في مقابل ذلك واجب تكريمه وتقديره . أما ذلك الأدب الذى يشبه القبر المزين بالنقوش وفي جوفه الرمم فإن خبره على القرطاس سم يميت ما فى النفس من حب الاطلاع والاستعداد للرقى . .

وإذا كان المعنى صادقاً فإنه يكون فى غنى عن كل تمويه وزخرف لانه جميل ببساطته . أما إذا كان تافهاً احتاج إلى زركشة اللفظ وزخرف الكنايات ليستران عيبه وقبحه وكلما كان المعنى أقرب إلى الطبيعة وأبعد عن الصنعة والتكلف كلما كان أكثر فائدة وأكثر اقتصاداً للوقت . .

ولم يعد الأدب الرومى فى مقدمة الآداب إلا لقربه من الصدق والاخلاص والحقيقة وأبعدهما عن الزخرف والتصنع والرياء ، فهو أدب علمى يحلل النفس البشرية ومظاهرها وأدائها ويعصور الحياة البشرية كما يراها فى سذاجتها وحقيقتها دون أن يكلف نفسه عناء التعقيد والتزييف والكذب فيجد كل عصر فيه حاجته . .

فاذا عدنا الى الادب العربي قديمه وحديثه رأيناه لا يزال في حاجة ماسة الى هجر اللغو اللغظي والخراف والكمالات القديمة المهجورة مما دفع قاسم أمين الى القول « ان الاوربي يقرأ لينهم أما نحن فنهم لكي نقرأ » . وكان الواجب على كتابنا أن يكتبوا بالأسلوب الذي يسهل فهمه وأن يساوا على تسوية بين اللغة الفصحى التي تحدث بها العرب وبين اللغة التي نتفاهم بها اليوم . وأن يلتفوا بالالفاظ الاوربية العالمية التي تفهمها نحن كما تفهمها كل الامم ، دون بذل الجهد في تعريبها والنبس عن الفاظ عتيقة تحمل مجملها . وأن يعلوا أن مهمة أديب هذا العصر إنما هي الهداية والارشاد والتثقيف والتصوير ، فيجملون الينا رسالة سامية تقربنا من روح هذا العصر وتزيدنا رغبة في تطور الانسانية ورقيا . .

ونحن في عصر شاعت فيه مبادئ الحرية والديموقراطية وليس لأدب هذا العصر أن يتقهقر نحو القرون الدارسة يوم كان الاديب عبداً يتملق الحكام والامراء ويمدح الخاصة وينادم العظماء لينال الحماية والحظوة ، يوم كان لكل ملك أو أمير شاعر مأجور يطريه ويتملقه . بل لأديب اليوم أن يبكيننا لأنه يحبنا ويرينا عيوبنا لتجنبها ويسخر من تقائصنا لنصلحها . عليه أن يقوم بمهمته بكل اخلاص واينار لا يقدم شهرته وبراعته فوق المبدأ الالهي الذي أرسل من أجله . .

وكان لأديب العصور السالفة العذر في التعصب لمذهبه وديانته وعشيرته لأن عقليات القوم يومذاك لم تصل الى درجة تؤهلهم الى فهم العالمية والاخاء العام ومحببة الانسانية كمشيرة واحدة ، أما أديب اليوم فانه ليرتكب جرماً إن هو سخر قلبه في الدعاية لمصلحته الخاصة أو مصالحة حزب خاص أو في مدح الحروب والتوسع والاستعمار وإنشاء الامبراطوريات على حساب الامم الضعيفة ولا بد له أن يعين لنفسه وجهة خاصة . إذ أن التخصص ضروري في كل الفنون والعلوم لأن الفروع كثيرة مشتبكة والمعلومات اليوم مترامية الاطراف واسعة النطاق ، فقد تشتمل دوحة الأدب على فروع القصة والشعر والتاريخ والنقد والفلسفة والاجتماع وغيرها . وعلى الأديب أن يعرف أولاً ميله الخاص نحو احداها فينتجه اليه بكل قواه ويتخصص في النوع الذي خلق له . فلسنا اليوم نظري امثال ليونارد دو دافنسي لأنه نبغ في التصوير والفلسفة والطب والهندسة بل نحن اليوم نقدر التخصص في الفروع مهما كانت صغيرة فتكافأ عبقرية الشاعر مع عبقرية المؤرخ وتساوى ملكتنا القصص والنقد وفوق ذلك فان فن الكتابة يتطلب خبرة واسعة ونظرة عميقة ثاقبة وثقافة عالمية يحصل عليها الاديب بمجوده الشخصية ودراسته الطويلة ، وقوة ملاحظته واندماجه في روح العصر حتى إذا ما نضجت في نفسه التجارب وآثر الدرس كرس مواهبه ومحصوله في الفرع الذي يليق به . .

وكذلك يجب على الأديب العصري أن يوجه انتباهه نحو المستقبل أكثر مما يوجهه نحو الماضي فلما مضى همومه ولنا هموم أخرى والمستقبل هو البناء الذي نضع اليوم أساسه

إن الشعراء والكتاب كثيراً ما يحنون إلى الماضي فيتطايرون في أجوائه متخيلين فيه الحياة السعيدة الآمنة ، وذلك لأن للماضي حرمة وقداسة ، وكلما بعد عن الحاضر كلما حاك الخيال حوله أثواباً منمقة زاهية ولو كان مظهرها قاسياً ، ولكن البشرية تزداد نفعاً لو وجه هذا الخيال نحو المستقبل فتبنى عليه الآمال المؤسسة على مبادئ للعالم الحديث

أننا وإن بجلنا آثار السلف فليس مهموماً علينا أن نتقيد بأرائهم وأعمالهم وتقاليدهم . لقد كان لهم حسنات كما كان لهم عيوب وفيما اليوم من يشيد بذكر هذه الحسنات ويلتبس العذر لتلك العيوب . بل فيما من يقلدهم حتى في الصناعة البدئية والتقيد بالزخارف وضخم الالفاظ ، وفيما من يستعمل أدبه في أغراض المعيشة البدوية ووصف مرافقتها وانتجاع كالأها واستمدار غيشتها ومنا من يتباهى مثلهم بكرم الأصل ، ويفخر بالانتماء على العدو ويهجو منافسه ويرثي أميراً لا يعرفه ويحس على الأخذ بالنار ويمدح الناقة ويعتذر ويستعطف ويتوسل ، ويبكى على الدمن والاطلال كل ذلك لأن القدماء كانوا يقولون ذلك ويفعلونه . .

ولنا أن ننادي اليوم في أدبنا بالمبادئ الجديدة في هذا العصر الجديد ويكون رائدنا الاخلاص . ويكون أدبنا سافراً يصور الحياة كما تراها ، أدباً حراً طليقاً محوره التفكير الحر الذي لا يخاف الرجعية ولا يهاب المستقبلين ولا يتملق الأقوياء .



يونان والجمهورية

أربعون ساعة تفصل بين الحضارتين العنليتين اللتين أشرقتا على العالم منذ القديم ، وما زالت أنوارها تفيض على الانسانية . .

الحضارة المصرية والحضارة اليونانية هما الأب والام اللذان اقترنا وامتزجا منذستين قرنا وخلفا ذرية الثقافة المنتشرة في الدنيا إلى اليوم . .

وليس لأديب أو حكيم أن يخرج برسائله إلى الناس قبل أن يحجج إلى مصر ويونان ، ويطوف بين هياكل الكرنك والاكروبول . وعليه قبل أن يحجج إلى تلك الاقداس أن يحمل معه مفاتيح الابواب السرية ، وهذه المفاتيح هي الاطلاع على بعض الكتب القديمة والحديثة التي تفسر له أسرار الحضارتين وتاريخهما ، وتكشف له عن أصل الحضارة وتطورها وآلا وجد نفسه أمام أنصاب وأحجار وألغاز .

هذا ما حدا بكثير من الامم إلى انشاء معاهد لها بائنا ترسل اليها عددا من أساتذتها الراغبين في التبحر في الفنون الاغريقية من نحت وهندسة معمارية وشعر وحكمة ، فيقضون بضع سنين هناك للتفقه في اللغة الاغريقية ودراسة محتويات المتاحف والتجول في المناطق الاثرية . وقد تطوف في قاعات المتحف الأهلى بأثينا ، أو بين أطلال أحد الهياكل النائية فتصادف واحدا من أولئك الطلاب وقد وقف أمام تمثال أو قطعة من الرخام وقفه العبادة يستلهم ذلك الاثر مالا يفهمه الا لوف غيره . وليس في أوروبا منذ النهضة إلى اليوم أديب أو شاعر أو مثال له شأن يذكر لم يبدأ حياته الفنية بمحاكاة الاغريق واقتفاء أثرهم لانهم وصلوا إلى درجة من الجلال والكمال لم يسبقهم إليها كثيرا . .

وكان لقرب هذين القطرين من بعضهما سبب في اتصال الثقافتين فنذ القديم كان حكام يونان يرحلون إلى مصر ويتصلون بالكهنة ويدرسون الحكمة المصرية الرائعة ، وعاد البطالمة فحماوا الى مصر ثقافة الاغريق وشيدوا المعابد المصرية في أنحاء البلاد ، وجعلوا من الاسكندرية منارة العلوم والآداب ، ولو لم تحرق مكتبة الاسكندرية لازداد انتفاع العالم بثمار امتزاج هاتين الحضارتين . .

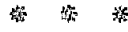
ولكن قدر هاتين المدينتين أن تكونا قبلة أطماع الفاتحين والناهبين الذين كانوا سببا في اندثارهما ، ومن يجول اليوم بين آثار الحضارتين يرى خرائب المدن واطلال الهياكل تحدث بالعدوان والسرقة ، حتى منسلات مصر الضخمة وأعمدة هياكل اليونان قد نقلوها إلى بلادهم . .

الخرائب وقطع المرمر المهشمة تغطي مساحات واسعة من أرض اليونان وقليل من الأعمدة التي ما برحت مغروسة في مسكنها تتعاقب عليها الاجيال هي الفضلات التي نجت من أيدي

الفاصلين ومن فعل الزلازل لتحدث الزائر عن منشآت بركليس وفن فدياس ومسارح صفوقليز ..
ولم تسترد اليونان استقلالها إلا منذ قرن واحد وهذا القرن هو منشئ يونان الجديدة . فكل
ما في البلاد اليوم جديد . وكل هذا الجديد وليد نهضة في كل مرافق الحياة ..

وكان أول ما حيرني عندما قضيت شهراً سائحاً في ربوع اليونان هو كيف استطاعت هذه البلاد
الفقيرة الموارد أن تنهض وتتقدم وهي لم تكد تستريح من حروب الاستقلال حتى ارغمت على
الدخول في حرب البلقان والحرب العظمى وحرب الاناضول ..

هذا ما يهمني في نهضتنا الحاضرة بحته فالحديث عن نهضات الأمم يحث على التقدم ، لاسيما وأن
مصر إذا قيست باليونان أو بتريكا تعتبر في ثراء وغنى . أما وصف الآثار ومشاهد البلاد
فلا يتسع لها مقال أو كتاب . وقد رأيت عدة مؤلفات عن هيكل واحد هو البارثنون أحد هياكل
اكروبول اينا ..



تبدو نهضة هذه البلاد للمسافر منذ خروجه من مصر فهو يسافر على احدي بواخر شركات خطوط
الملاحة اليونانية ، وهذه البواخر العديدة تحمل المسافرين والبضائع كل يوم بين موانئ البحر الابيض
ومنها ما يصل إلى أمريكا . كما أن هناك عددا من البواخر الصغيرة التي تربط مئآت الجزر اليونانية
ببحر ايجه . هذا عدا البواخر الحربية وبوارج الاسطول ..

وبعد عشرين ساعة من خروج الباخرة من الاسكندرية تظهر جزيرة كريت الجبلية مسقط
رأس فنريوس أحد الذين كرسوا حياتهم لنهضة بلادهم ، وهي الشهيرة بآثارها من عهد كنوسوس
وهذه الجزيرة على الرغم من أرضها الجبلية الوعرة وضيق مساحتها فقد شملت نهضة فأخذت تصدر
الصابون والنيذ والعسل والزيت والزيتون ..

ثم تسير الباخرة في بحر ايجه الهاديء المرصع بمئات الجزر الجبلية التي تنقل بينها أبطال هوميروس ،
وقد أصبحت هذه الجزر جنات صغيرة تنكسر هضابها أحراش الصنوبر والليمون والسكرام
وفي كثير منها مناطق أثرية مكتظة ببقايا الهياكل .. وقد استغلت يونان الحديثة هذه الجزر فزرعت
فيها التفواكه ، وحفرت فيها ينابيع المياه المعدنية ، وجعلت منها مصايف ومصحات . وشيدت
فيها الحمامات المعدنية والبحرية وأنشأت على شواطئها الفنادق والقصور فخدت اليها الوف
المصطافين من اليونانيين والاجانب ..

وترسو الباخرة في ميناء بيريس أو بيريه الذي كان مرفأ قاحلا في حكم الترك يسكنه ثلاث آلاف
نسمة فأصبح فيه اليوم من السكان أكثر من ربع مليون . وهنا تأخذ المسافر بحركة البواخر التجارية

وهي تدخل وتخرج من الميناء ، وكذا المصانع والمباني الحديثة والملاهي والمصارف وتورنيش « كاستلا » البديع المشرف من أعلى التل على خليج مارونيك ..

ويصل يبريه بأثينا قطار كهربائي أنيق يسير تارة تحت الأرض وأخرى فوقها ويقطع مسافة اثنا عشر كيلومترا في ربع ساعة ، كما تصلهما سيارات « الانوييس » ..
وفتحت الدليل فوقعت عيني على السطر الآتي : « يمكنك أن ترى أثينا في ثلاثة أيام ولستكن لدراسة أثينا لا تكفي ثلاث سنوات » ..

فاذا وصلت أثينا وجدتها رابضة في سهل فسيح مكتنف بالجبال ، يقرم وسطه مرتفع الاكروبول متوجاً بالهياكل ، ويقترأ السهل إلى شاطئ الخليج وتنصب الشمس عليه معظم السنة فتجعل من صيف أثينا نصف سنة وتجعل لشفق الغروب هناك منظرأ عجيباً ، وهذا الصيف الطويل وما وضعته الحكومة من نظام يحدد أوقات العمل ما دعا إلى الاكثار من المقاهي والمطاعم والمشارب في الميادين العامة ، وعلى شواطئ البحار وفوق سفوح الجبال فتمتلئ هذه القهوات بالشعب المغرم بقراءة الصحف واسترواح نسائم الليل وسماع الموسيقى ..

قرن واحد هو عمر هذه العاصمة الحديثة أما أثينا مسقط رأس سقراط وافلاطون وأرسطو ووصولون وهيرودوت ومئات الشخصيات التي تأثر بها العالم فلم يبق منها غير أطلال وخرائب تقوم اليوم مصلحة الآثار بصيانتها والتنقيب عن غيرها ..

وإذا بأثينا الجديدة بلدة أوروبية أنيقة ذات شوارع مستقيمة واسعة أكثرها مبلط بالرخام « المرمر » المقطوع من الجبال المجاورة ، وميادين مزينة بالحدايق والتماثيل ، تسرح فيها ألوف السيارات الكبيرة والصغيرة . وهذه السيارات تربط أثينا بكل ضواحيها ويصلها بالبلاد التي تبعد عنها نحو مائة ميل مثل لوتراكى وكورنثة وغيرها ، فيسير في طرق معبدة ومغطاة بالأسفلت تصعد على سفوح الجبال وتهبط في الوديان . أما البلاد البعيدة ومنها عواصم أوروبا فتربطها بأثينا المواصلات الجوية والسكك الحديدية والسيارات ..

ولأثينا ضواح بحرية وجبلية آخذة في التقدم وال عمران بخطوات واسعة ، ويمتد « كورنيش » الاثينك من أثينا مسافة ستين كيلو مترا تقطعه السيارة في ساعتين وعلى هذا الشاطئ تقوم اليوم حمامات بحرية و « كازينات » وفنادق و « فلات » رشيقة محوطة بالحدايق ..

وفي أثينا جامعة فيها عشرة آلاف طالب وطالبة ، وعدد كبير من المدارس والمعاهد ، ويطلع فيها عدد وافر من الصحف اليومية والأسبوعية وثمان الجريدة اليومية مليان ، ولا تخلو صحيفة يومية من برنامج للرحلات التي يقوم بها الشباب والشابات لزيارة الأقاليم والجزر الموجودة في مختلف البلاد الاغريقية ..

وفي يوم الأحد يخرج الشعب بأجمعه إلى الخلاء فيقتضون نهارهم تحت أشجار الصنوبر وعلى شواطئ البحار حتى تكاد تخلو المدن في هذا اليوم من ساكنيها . .

وفي أثينا عدد وافر من المتاحف . منها المتحف الأثيني للأثار الذي يجمع نقائس الفن الإغريقي القديم ويتبعه متحف الكتابات والنقوش القديمة ، والمتحف البيزنطي وفيه مسكنوز الكنائس البيزنطية تملأ خمس قاعات ، ومتحف النقود وبه أكثر من مائتي ألف قطعة منها ألقان من الذهب بينها نقود الاسكندر الأكبر والبطلمية ، ومتحف الصور والرسوم ، والمتحف الجيولوجي ، ومتحف علم الحيوان ، ومتحف الفن الزخرفي ، والمتحف التاريخي الوطني الذي يجمع آثار وصور الحروب اليونانية لا سيما حرب الاستقلال ، وبه قاعة خاصة بآثار ورسائل الشاعر يرون ، ومتحف الاكروبول ، وثلاث دور للكتب أهمها المكتبة الاهلية وبها نصف مليون كتاب ، ثم عدد من المتاحف الخاصة . . وفي كل مدينة متحف خاص بالآثار التي وجدت بها . . وتقوم اليوم الجمعيات الأثرية والتاريخية في ملء هذه المتاحف وتكبيرها . .

ومع أن اليونان قطر جبلي فقير الموارد يعتمد في حياته على أمطار الشتاء ، وأنهاره كالترع المصرية لكنها تحف معظم السنة حتى لا يكاد يحسبها السائر أنهاراً . إلا أنها على الرغم من ذلك تعمل على الاستفادة من كل ما منحه إياها الطبيعة . فن مراعيها تصدر اليوم مستخرجات الألبان والجلود وتصنع الأحذية ، ومن زيتونها تصدر أنواع الصابون والزيت ، ومن كرومها تفرق الاسواق بعشرين نوعاً من الخمر ، وفيها مصنع كبير للفخار والصيني أنشأته الشركة المساهمة للأواني الفخارية ، وبها مصانع لحريز دودة القز وتصنع من هذا الحرير أنواعاً من الأقمشة ، كما أنها تصنع من المنسوجات الأخرى ما يكفي سكانها من الملابس . .

هذا موجز ضئيل لنهضة بلاد لم تمنحها الطبيعة غير قسط زهيد من جودها ولنبحث في أسباب هذه النهضة . .



شعب مغامر مولع بالحرية ثار على المستعمرين وطربهم عدة سنين حتى استرد استقلاله السياسي كاملاً ، فكان الاستقلال الخطوة الأولى للنهضة . ثم بدأ يتملص من طاداته الشرقية ويقترب من أوروبا حتى أصبح منها . ولم يعد الزائر يميز اليوم بين الأثيني والألماني أو بين الأثينية والباريزية . . ووجد موارد بلاده محدودة فأخذ يتاجر مع الأمم ، وأنشأ السفن ورحل إلى أقاصي الأرض سعياً وراء الكسب والحياة الرغيدة حتى لم تعد تخلو مدينة في الأرض من جالية يونانية . وعندنا عصر واحدة منها بلغ بعض أفرادها شأواً من الثروة والنجاح مثل كوتسيكاس تاجر « السبرتو » الذي

شيدت بالإسكندرية قبيل وفاته مستشفى كلفه مائة ألف جنيه، وأنشأ نياحس الذي وخب بلدية الإسكندرية قصره وحديقته المشهورة، وبينما كيس الذي بنى ملجأ للأيتام، وسلفاجوس الذي بنى مدرسة للتجارة، وأفيروف الذي أسس كلية كبيرة بالشاطبي، وسكلاريديس، وغيرهم. نجح المغامرة في المشروعات العامة والأعمال الحرة هو الذي خلق في بلادهم عدداً من الصناعات فأنشأوا المعامل لقد حاجات البلاد وأملعوا ما لديهم من أراض زراعية، وقاموا بعدد من المشروعات الاقتصادية آخرها مشروع الارتفاع بالمياه المعدنية والدعاية لها حتى أصبح لقريتي لوترا كي وإيديسوس مستقبلاً ينافس فيشي وكارلسباد . .



ظاهرة أخرى تثير إعجاب الزائر لبلاد الإغريق هي معاونة الأغنياء وتبرعاتهم في سبيل نهضة بلادهم وسفوق هذا بعض الأمثلة المفصلة وفي النفس أمنية تطمح إلى تشبه أغنيائنا بأغنيائهم في هذه الناحية وكلنا يعلم أن بمصر عدداً وافراً من كبار الأغنياء الذين لا تنتفع بلادهم بثراتهم لأنهم لا يساهمون في بناء نهضتها . .

فالمتحف الأهلي تبرع ببنائه عام ١٨٧٤ مثر يوناني كان يقيم في روسيا اسمه برنار داكيس ولكن ازدياد الآثار دفعت الحكومة إلى توسيعه. أما محتويات المتحف فقد تبارت الجمعية التاريخية وأغنياء اليونان في جمعها وإهدائها إلى هذا المتحف حتى أصبح اليوم من أغنى متاحف العالم، وجاء اثنان من أغنيائهم بمصرهما ديمتريو وروستوفتر فأهديا إلى ذلك المتحف مجموعة قيمة من الآثار المصرية تملأ قاعة من قاعات المتحف منها موميات مصرية وتماثيل من المرمر والبرنز والخشب أهمها تمثال صغير من البرنز يمثل الأميرة المصرية تا كوتشيت من الأسرة الخامسة والعشرين ق. م لابسة ثوبا مطرزا، وتمثال صغير لازوريس ورؤوس تماثيل من عهد البطالمة وغيرها . .

والمتحف البيزنطي أسسه عام ١٩١٤ الأمير نقولا أحد أمراء اليونان يومذاك وقد امتلأت قاعات المتحف الخمس بهدايا الأغنياء والكنائس وجمعية الآثار المسيحية . .

ومتحف الصور المؤسس عام ١٩٠٠ وبه مجموعة ثمينة من الصور مهداة كلها من الأغنياء مثل أفيروف وسكولوديس وغيرها

ومتحف النقود تبرع بحمل مافيه المليون، وكرس أحدهم هو الأستاذ بوستولا كاس حياته في جمع النقود الأثرية حتى أصبح فريداً في بابه

والمتحف التاريخي القومي أسسه الجمعية التاريخية اليونانية وجمعت شوارده واقتنت الكتب والمستندات التي تختص بتاريخ البلاد لاسيما في ثورة الاستقلال

والأكاديمية شيدها البارون سنا أحمد أغنياء اليونان بقينا ، وقد كلفه بناؤها ثلاثة ملايين من الفرنكات ويمد بناؤها تحفة فنية فهي على نمط هيكل أغريقي مزين داخله بالصور الرائعة . ووقف على جانبي البناء عمودان جميلان نصب فوق أحدهما تمثال أبوللون وفوق الآخر تمثال أثينا وجلس عند المدخل تمثالا سقراط وأفلاطون

وكذلك المكتبة الأهلية فقد شيدها الأخوة «ليانوس» على نسق معبد قديم من الممرس . وشيد غنى اسمه سنجرس مستشفى للمعجزة . وآخر للأمراض الصدرية وبني آخر اسمه ماراسلى مدرسة للتجارة وآخر اسمه ارساكيس كلية كبيرة للبنات ومدرسة للمعاملات . وأنشأ ستورنارا مدرسة للفنون والصناعات . .

أما جورج أقيروف المثرى اليونانى الاسكندرى فقد شيّد باثينا مدرجا عظيما من الممرس للالعاب الرياضية « متاديوم » كلفه نحو مائة وستين الفا من الجنيهات وهو يتسع لستين ألف مشاهد ، كما أقيم مسرحنا وأنشأ جزءا من الأسطول اليونانى الحربى . .

وفى وسط أثينا متنزّه عظيم يدعوونه « زاييون » نسبته إلى الأخوة زاياس الذين أنشأوه وبنوا فى ناحية منه معرضاً مخصصاً للمنتوجات الزراعية والصناعية التى تنتجها البلاد وتكفيها حاجتها وقام غنى آخر اسمه سكيلتري فصنع تمثالا كبيرا من الممرس يمثل الشاعر بيرون تتوجه امرأة ترمز إلى اليونان اعترافا بفضلها على حركة الاستقلال وقد اقيم التمثال فى هذا المتنزّه الفصيم . . وغير هؤلاء كثيرون . .



وهكذا كان للأغنياء فضل عظيم فى نهضة بلادهم إذ ساهموا فى نشر التعليم والثقافة وتجميل المدن وقاموا بالمشروعات الاقتصادية مسخرين أموالهم لخدمة بنى وطنهم . .

ولم تقصر الحكومة رغم الازمات الاقتصادية التى عانتها ، والحروب التى واجهتها فى العناية بمصالح الشعب فعملت على حماية صناعاتها وتشجيع التصدير ، وحددت وقوت العمل لراحة العمال فأرغمت المدن على قفل أبوابها من الساعة الاولى بعد الظهر إلى الرابعة ثم تنتهى الأعمال كلها فى الثامنة مساء . أما يوم الأحد فمطلة عامة اجبارية . وقد رأيت مثل هذا فى تركيا أيضا إذ كانت تعطّل الأعمال يوم الجمعة بأمر الحكومة . .

وأمرت الحكومة أيضاً بتحديد أسعار البضائع صغيرها وكبيرها فلا يتلاعب البائع ولا يساوم الشارى ولا يلقى السائح الغريب عنتاً ، وقد تمر بمتجر للمقالة فتراه مكتظا بالأرقام ، ويمر بك البائع المتجول فتجد أثمان بضاعته مكتوبة على ألواح ظاهرة للعيان . .

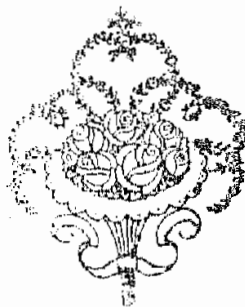
م عملت الحكومة على تجهيل المدن ، وهو خير ما تعمله الحكومات لتهديب الشعب لما يولده من إخماء للنظام والنظافة . فشمه جهود تبذل في تنسيق الطرق وغرس الحدائق وتجهيد طرق السيارات في أنحاء البلاد ، وتزيين المدن بالتماثيل المنحوتة من المرمر والبرنز تمثل عظماء البلاد وأدبائها ، وكل من أسدي إلى الشعب خدمة ولو كان أجنبياً مثل كاتنج وبيرون وغيرهما . وبينها عدد من التماثيل الرسومية التي تحت على القوة أو الشجاعة أو تذكر الشعب بماضيه ومجده . . .

ونحن في مصر ننتظر اليوم الذي نرى فيه تاريخ البلاد ممثلاً في طرقها وحدائقها ويكون ذلك اعترافاً منا بفضل من أسدي للبلاد خدمة اقتصادية أو فنية أو سياسية

هذه صفحة عن قطر مجاور بدأ رغم فقره يتجدد وينهض ويصطنع الحضارة الأوربية في كل مرافق الحياة . . .

ونحن أيضاً قد بدأنا نهض ونستيقظ بعد أن بهرت عيوننا أنوار المدنية الأوربية إلا أننا نسير نحو الرق ببطء الملحفة وقد سبقتنا أمم كانت أقل منا شأنًا . . .

ويعود السبب في هذا البطء بل هذا التلكؤ إلى وجود مؤثرات كثيرة منها وجود فئة عظيمة من المحافظين والرجعيين تعيش بيننا متشبثة بالماضي وتقاليده وفيها من لا يزال يحلم ويتغنى بحضارة بغداد بدلاً من التغنى بحضارة القرن العشرين . إلا أن تيار الحضارة الأوربية الذي يحرف اليوم كل العالم أمامه قد أخذ يغزونا وينقلنا إلى أوروبا رضىنا أم لم نرض . . ومنها قيام عدد من الحكومات المبروقراطية التي لم تعن بالأصلاح الاجتماعي وتحسين حال الفلاح وتوسيع موارد البلاد ومحاربة الأمية كما تفعل الحكومات الدستورية . ومنها أنانية أغنيائنا وخاصيتنا ومسالكة الأرض الذين لا يساهمون في تشييد صرح النهضة بالمنشآت العمرانية أو المشروعات الاقتصادية أو التبرعات المالية كما يفعل أغنياء الأمم المتقدمة لأن روح التضحية والبذل في سبيل المصلحة العامة لم تتشرب به نفوسهم وهم في عزلة عن الشعب الأسمى الفقير



تركيا الجديدة

في صيف ١٩٣٢ كنت أجول في بعض البلدان التركية فأخذني هذا الانقلاب الحديث الشبيه بالطغرة الذي حدث في المجتمع التركي ، بما ينسب الزائر لأول وهلة أنه في بلاد شرقية كانت منذ عهد قريب مسرح السلاطين والأمراء ، والجواري والاعوات ، ومقر غنود الحريم وتكاليا الدراويش ، لولا ما تقع العين عليه من مئات المآذن المنيفة والقصور القديمة وبعض الاسواق المحتفظة بشرقيتها ..

ففي كل نواحي الحياة الجديدة ترى ثورة على القديم ، بدأت بثورة على حكم السلاطين المطلق ، ثم تطورت إلى التحرر من التقاليد القديمة ومن العقلية الآسيوية ، واتجهت مهيولة نحو الغرب ونحو الحضارة الأوروبية في كافة نواحيها وأغراضها ومظاهرها مصطبغة بصبغة العقلية الأوروبية الحديثة ..

ولم تكن تركيا أول دولة شرقية تكتشف مر تأخرها فتندمج في الحضارة الغربية ، اذ سبقها اليابان إلى هذا الاكتشاف منذ نصف قرن فلم تتردد في الانسلاخ عن آسيا والتطبع بكل طباع الغرب حتى صارت في فترة قصيرة ما تراها عليه اليوم . بل سبقها اسماعيل باشا إلى هذا الاكتشاف فقال « بلادي لم تعد جزءا من افريقيا ، بل شطرا من أوروبا » وعمل على نشر الحضارة الأوروبية والعادات الغربية بمصر غير مبال في حماسه إلى الإصلاح بفلاس الخزينة والتورط في الديون . ثم سبقتها أيضا روسيا التي ثارت بل تغالت في الثورة على كل قديم ..

وكان كال اتاتورك ورجاله قد وازنوا قبيل هذه الثورة بين العقلية الآسيوية والعقلية الأوروبية ولم يترددوا في اتباع الثانية . ومهدوا السبيل إلى الانقلاب بنشر الدعوة أولا ثم بارغام المعارضين والرجعيين بالقوة على اتباع الأساليب الأوروبية . فتهافتت أغراضهم في زمن قصير ولسكنهم لم يجهلوا أن التجديد لا تثبت أقدامه إلا اذا تشربته عقول الناشئة الذين يتخذون منه عقيدة بلا ارغام ولا مراقبة . فعمدوا إلى انشاء الوف المدارس حيث تتحقق مبادئ الثورة إلى جانب التعليم ، ونشروا السكتب في الدعوة إلى التجديد وكان في مقدمة تلك المؤلفات « كتاب مصطفى كمال » الذي يعد انجيلا للثورة التركية ومرجعا لفلسفة الانقلاب التركي ..

وما هي إلا أن اتضح للشعبية التركية أن العقلية الآسيوية لا تلائم سنة الحياة المتطورة النشطة لانها لا تؤمن بالعلم وعلمه بقدر ما تؤمن بالتقاليد الموروثة ، تلك العقلية التي تطبق ما في كتب الدين وكتب التفاسير على كل مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتتدخل في نظام الاسرة

والحكومة وتحتجز على حرية التفكير وتحكم العقل ، فكانت النتيجة انتشار الفقر والفقراء والاستسلام للمقادير والعبودية للسكنة والملوك والأمراء وظهور الفوارق والطوائف واستغلال الحكام والراجوات ورؤساء الدين والدارايش لجهل الشعب وخوفه فعاثوا في بذر واستهتار وترفع ..

هذا بينما تتجه العقلية الاوربية نحو العلم والحضارة والرقى الصناعي والاجتماعي ، وتقديس حقوق الانسان والحرية الفردية والمساواة في الحقوق وبذلك ارتقت الدول الاوربية وسادت العالم كله وأخضعتة ..

واستتب الامر لرجال الجمهورية الذين ألغوا الخلافة وطردوا السلطان فأخذوا يصلحون مساويء الماضي ويبدأون حياة جديدة . وشرعوا يشيدون المصانع لسد حاجات الشعب واستقلال البلاد الاقتصادي وزيادة ثروتها . وأصبح لديهم اليوم نحو ألفي مصنع تقوم بصنع النسيج والسجاد والصابون والسكر وحفظ الفواكه والدقيق وغيرها وصار الخبز أيسر ما يشتره الفقير المعدم . وأخذت الحكومة على عاتقها هاية الصناعة المحلية وفرض الضرائب على الكماليات وتصديد الديون التي تورط فيها السلاطين ..

وشرعت تمتد الخطوط الحديدية والتلغرافية والتلفونية لربط أنحاء البلاد كلها بعضها ببعض ولربط تركيا بروسيا والعراق ، وايصال البحر الأسود بالخليج الفارسي بتلك الخطوط ، ثم أنشأت للطرق الزراعية وشيدت محطة لاسلكية كبيرة في أنقرة وأخرى باستنبول وجعلت من أنقرة عاصمة أوربية جديدة وغرست فيها الأشجار متغلبة على المصاعب الطبيعية وقلة الماء ..

ثم وزعت أملاك الدومين التي كانت تمتلكها الحكومة السابقة على الفلاحين وأقرضت الفلاح أموالا لشراء الآلات الحديثة والماشية وأنشأت المدارس والمختبرات الزراعية لزراعة الأرض على الأساليب العلمية الجديدة ..

ورمت الحكومة ما هدمته الحرب من المنازل وشيدت للمهاجرين منازل جديدة وبنيت لهم قرية أنموذجية تجلب إليها المياه بالقوة الكهربائية وأسست فيها مدرسة كبيرة ووزعت عليهم وعلى غيرهم من الفلاحين المحارث والمواشي وأقرضتهم الآلات الزراعية الحديثة وعلمتهم طرق استخدامهما . وأسس أتاتورك عزبة أنموذجية بالقرب من أنقرة لتعليم المزارعين طرق استغلال الأرض بالطرق العصرية ..

وعملت الحكومة على العناية بالصحة العامة فبنيت مستشفيات حديثة النظام ومستوصفات للفقراء في مدن الأناضول الصغيرة ووزعت ألوف الأطباء في أنحاء البلاد وأخذت تكافح الأمراض الفاشية كالملاريا وغيرها ..

واشتركت الحكومة والأفراد في إنشاء ألاف المدارس في المدن والقرى ، وجعلت التعليم الابتدائي مجانياً وإلزامياً ، وأنشأت عدداً من المدارس يتعلم فيها الذكور مع الإناث كتجربة يراد تميمها . وأحضرت الخبراء من أوروبا لأصلاح التعليم ، والعلماء للتدريس في الجامعة . وألغت التعليم الديني واستبدلت به تعليم الأخلاق ، وجعلت أساس التعليم حرية الفكر والتقدم العلمي وبث الروح القومية . وعمدت إلى اللغة التركية فنقتها من الألفاظ الأجنبية واستبدلت الخط اللاتيني بالخط العربي ، كما أرغمت التجار الأجانب على أن تكون حساباتهم وأعمالهم باللغة التركية . وأبطلت الموسيقى الشرقية ونشرت مكانها الموسيقى الأوربية . .

وألغت الحكومة نظام المحاكم الشرعية واصطنعت القانون الجنائي الإيطالي والقانون المدني الهولندي والإجراءات الجنائية الفرنسية . ثم فصلت الدين عن الدولة وأبطلت المعاهد الدينية والأربطة والتكاي والطرق الصوفية ونظام الدراويش والمحافل الماسونية والأحزاب ، وصفت الأوقاف وحرمت تعدد الزوجات وجعلت الأنثى تراث مثل الذكر وترجمت القرآن إلى اللغة التركية وأجازت لكل من بلغ سن الرشد أن يتغير الديانة التي تروق له كما أجازت للمرأة التركية أن تتزوج زواجاً مدنياً بمن تهاه من غير أبناء دينها ، ونشرت حرية العبادة والتفكير . .

وعمل رجال التجديد على توحيد الزي وارتداء الملابس الأفريقية واستبدال القبعة بالطربوش ورأوا في تغيير الملابس تقييداً للعقلية والعادات . وبطل الحجاب وخرج النساء سافرات يرتدين الملابس الأوربية العصرية ويشاركن الرجل في الحياة العامة وفي مختلف الأعمال وظهر منهن طائرات وقاضيات ومحاميات وطبيبات ووزيرات . .

فهناك تجديد في كل مكان ونهضة في كل مرافق الحياة . وهناك مشروعات إصلاحية تتوالى في كل يوم . والحكومة التي ترعى صالح الشعب وتود له الخير والنهوض ترقب تنفيذ أوامرها بشدة ولا تتهاون مع المخالفين حتى تصبح تلك الأوامر الأبوية عادات وخلق مألوفة . وقد اعتاد الشعب شيوخه وشبابه ونسائه ورجاله هذا التجديد الجريء وتطبعوا في قليل من السنين بالعادات والأفكار الأوربية فكسبوا بذلك إعجاب العالم المتعدين واحترامه وثقته ، وأمست تركيا اليوم دولة أوربية تتسابق الدول إلى محاقتها ومصادقتها . .

بين العرب واليهود فلسطين

كنت أتجول مرة في أنحاء فلسطين، وكان يحيل إلى أن تربتها الصلصالية قد اكتسبت هذه الحيرة من دماء الملايين الذين قتلوا فوق أرضها في مئات الحروب . إذ أن هذه الأرض التي تقدسها ثلاثة أديان كبرى ، والتي نشأ فيها عدد من الأنبياء والمسيحاء كانت أعظم مسرح مثلث عليه المذابح والمعارك في القديم وما زالت حتى الساعة ميداناً للخصومة ومشكلاً سياسياً معقداً . .

ففي فلسطين هذه التي لا تزيد مساحتها عن تسعة آلاف ميل مربع أو ضعف مساحة ويلس بانجلترا أو نحو أربعة أمثال مديرية الغربية ، والتي يزيد عدد سكانها قليلاً عن سكان القاهرة ، في هذا المستطيل الضيق الذي تشغل الصحراء والأراضي القاحلة أربعين في المائة من مساحته ، تصطدم اليوم فكرتان وتتصارع حضارتان ويتنازع على البقاء شعبان هما العرب واليهود . وأمام تنازعهما يقف العالم المتمدين في حيرة لأن للفريقين حججهمما والسياسة نصيبها في استغلال الخصومة . بينا تحرص الدول الأوروبية على ميراثها في مخلفات المسيحية وعلى ممتلكات كنائسها ومدارسها هناك . أما العرب فيقولون : لقد فتحنا هذه البلاد منذ ثلاثة عشر قرناً وصبغناها صبغة عربية ، ولنا فيها المسجد الأقصى والحرم ، ولنا مئات القري والمزارع التي خلفها لنا أسلافنا ، ونحن أغلبية السكان ، واللغة العربية هي السائدة اليوم بين عشرات اللغات المسموعة في هذا القطر ، وما الحركة الصهيونية التي ترمي إلى طردنا من بلادنا إلا حركة رجعية تتخذ من الدين مبدءاً قومياً ، وتعمل على إحياء اللغة العبرية الدارسة ، وهي حركة لا تتفق مع روح العصر ، القائل بتخفيف النعرة الوطنية تدريجياً أمام التعاون العالمي ، وهي تسمى بالاستعمار الانجليزي ذي الأغراض والمآرب ، ونحن إن جئنا اليوم عن بلادنا وحقوقنا ومتاجرنا فإلى أين المصير ؟

ويقول اليهود : إن فلسطين بلادنا منذ فجر التاريخ وهي مهد أنبيائنا ومكان هيكلنا ، ومسرح تاريخنا ومنبت ملوكنا . وما العرب إلا غزاة فتحوا البلاد كغيرهم من الفاتحين ، وقد آن لنا أن نسترد ملكنا ونستعيد استقلالنا وكرامتنا ، فنحنمى بوطننا الأول من اضطهادات الأمم وتشريدهم لنا في كل حين . وإن كنا نتخذ من الدين قومية فذاك لأن أوروبا المسيحية تذلتنا وأطردنا وتجاهل تبجسنا منذ القديم بجنسياتها وتتناسى خدماتنا لاختلافنا عنها في الدين . .

في القرن التاسع عشر قبل الميلاد هاجر جد اليهود الأول ابراهيم الخليل وأهله من أور السكندان ببلاد العراق إلى أرض كنعان ، وبعد حروب قليلة هي فاتحة المعارك اليهودية ، استقر بهم

المقام بفلسطين واتخذوا منها وطناً . وتوالت السنوات فكان منها عام قحط حين هاجرت أسرة يعقوب (إسرائيل) إلى مصر وكان عدد المهاجرين سبعين يهودياً وأقاموا بمديرية الشرقية نحو ٤٣٠ سنة ، فوصل عددهم إلى ما يقرب من المليون . وقد أثاروا سخط المصريين كما أثاروا سخط الشعوب الأخرى فيما بعد بعدم اندماجهم في الوسط الذي يعيشون فيه فيكونون قومية صغرى داخل قومية مكبرى فهم لا يتزوجون إلا من أبناء دينهم ، وهم يستقلون بمبادئهم وتقاليدهم وعصبيتهم عن حوّلهم . فنظر اليهم المصريون نظرتهم إلى الدخيل الأجنبي وأساءوا معاملتهم حتى اضطروا إلى الفرار جميعاً بقيادة زعيمهم العظيم موسى حوالى عام ١٢٠٠ ق . م وبقوا زناً معسكين في صحراء سيناء . وقد اتقموا لأنفسهم من المصريين بأن شنّوا بهم وشتّمواهم في كتبهم وأنزلوا عليهم اللعنات مما أساء طويلاً إلى سمعة مصر وباتت لفظة فرعون مرادفة للظلم والجبروت حتى جاء شمبليون وغيره وحلوا رموز الهيروغليفية ونهض علم الآثار المصرية نهضة رائعة فتغير رأي العالم وتبدل مجرى التاريخ المصرى القديم إلى ناحية منيرة جديدة . .

ثم أخذ بنو إسرائيل يزحفون نحو جنوب فلسطين « الأرض التى أقسم الرب لأبائهم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلمهم . . أرض تفيض لبناً وعسلاً . . » وتقول التوراة إنهم أرسلوا عيونهم ليتجسسوا أرض كنعان وقوة شعبها فعاد العيون وتحدّثوا عن قوة الشعب وعظمة المدن وحصونها ووفرة خيراتها . فزحفت الجموع وسارت بجوار البسحر الميت ، ثم حاربوا البلاد التى مروا بها وخربوها وكانت الحرب سجالاً ذبح فيها ألوف البشر . .

واحتل اليهود أرض كنعان ولم تنقطع الحروب بينهم وبين الفلسطينيين والسكنعانيين حتى كونوا لهم من فتوحاتهم دولة مستقلة حكمها قضاتهم ثم نصبوا عليهم أول ماوكم شاول فحكم أربعين سنة ثم خلفه داود النبي الشاعر صاحب المزامير فاستولى على أورشليم واتخذها عاصمة مملكته وأطلق عليها اسم مدينة داود وذلك عام ١٠٥٠ ق . م . .

وفى حكم داود بدأ العصر الذهبى لمملكة بني إسرائيل واتسعت أطرافها ووصل ذلك العصر إلى أوجه في عهد ابنه سليمان الحكيم وكان سياسياً فيلسوفاً ، فوطد السلم مع جيرانه وصاهر فرعون مصر وشيد هيكله المشهور الذى يبكى يهود اليوم ملكهم الضائع عند أسسه فى البراق . .

ثم توالى عدد من الملوك على إسرائيل أسهمت التوراة فى وصف حكمهم وحروبهم ولكن قدر لبنى إسرائيل ألا يعيشوا فى سلام . فانقضت عليهم مملكة بابل مرات أهمها عام ٥٨٦ ق . م حينما غزاهم نبختنصر وحاصر أورشليم وخرب هيكل سليمان وساق جموع اليهود أسرى إلى بلاده . ولكن حدث فى سنة ٥٣٨ ق . م أن غزا سيروس ملك القرس مملكة بابل واستولى عليها ، وسمح لليهود بالعودة إلى بلادهم . .

وفي عام ٣٣٢ ق. م استولى الاسكندر المقدوني على فلسطين وضمها إلى امبراطوريته الواسعة وكذلك في ١٦٨ ق. م دأب فلسطين ملك سوريا انطيوخوس تخرب اورشليم وأهانت اليهود في هيكلكم فثاروا وتمكنوا بعد أربع سنين من هزيمة الجيش السوري . ولكن أحد ملوك سوريا عاد اليهم سنة ١٣٥ ق. م واستولى على اورشليم ثانية . ثم جاءت فترة استقلال فيها اليهود في حكم الامراء المكابيين ورؤساء الكهنة ولكنهم لم يلبثوا أن حارب بعضهم بعضا . فداهم الرومان في حكم بومباي عام ٦٣ ق. م وخربوا بلادهم وقتلوا منهم بضعة آلاف ، وجعلوا فلسطين مستعمرة رومانية ..

وصرهم يوليوس قيصر في طريقه إلى مصر فنصب عليهم عنقيباتر واليا على اليهودية ، وابنه هيرودوس واليا على أرض الجليل . فثار اليهود وقتلوا الأول ولكن سرعان ما أخذ الرومان ثورتهم ونصبوا هيرودوس ملكا على اليهودية وذلك عام ٣٧ ق. م . وفي حكم هيرودوس تمتعت فلسطين قليلا بالهدوء فأخذ يمدد هيكل سليمان ويهيد الملاهي والقصور والأبراج حتى لقب بهيرودوس العظيم . وفي السنة الثالثة والثلاثين من حكمه ولد السيد المسيح في بيت لحم .. ولما مات هيرودوس خلفه ابنه أرخيلائوس ولكن الرومان خلعوه ونصبوا مكانه يلاطس البنطي حاكما على اليهود ..

إلا أن بني اسرائيل بقوا أثناء حكم الرومان متذمرين من الاستعمار حالمين بالاستقلال ، إلى أن ثاروا فأرسل اليهم نيرون قائده فسبا سيان فحاصره . ولكن موت نيرون أضطره إلى العودة إلى روما ليرتقي العرش ، ثم أرسل اليهم ابنه تيتوس فحاصر اورشليم حتى حلت بها مجاعة رهيبه ثم دخلها الرومان سنة ٧٠ فأمعنوا فيها قتلا وتدميرا ثم أشعلوا فيها النار حتى خربت وتشتت اليهود في أنحاء الأرض ..

وفي سنة ١٣٢ ثارت بقية من اليهود ثانية في وجه الرومان تخرب الرومان بلادهم وقتلوا منهم كثيرين ، واسدل الستار على وطن الاسرائيلين ولم تقم لهم بعدها قائمة ..

وظلت فلسطين مستعمرة رومانية نحو سبعة قرون رأى فيها اليهود من الولايات والذل ألوانا إلى أن تشتت شعبهم . وحدث في حكم هادريان أن شيدت اورشليم من جديد كمدينة مسيحية وهاجر اليها جموع المسيحيين . ولما صارت المسيحية ديانة الدولة الرومانية الرسمية في حكم الامبراطور قسطنطين سنة ٣٣٠ بدأوا يشيدون الكنائس ولكن لم يلبث أن جاء الامبراطور جوليان وكان يكره المسيحية فسمح لليهود بالعودة إلى بلادهم وبناء هيكلكم فعاد بعضهم ولم يتمموا الهيكل .. وفي عام ٤١٦ غزا الفرس اورشليم وخربوا الكنائس ونهبوا نقائسها وذبحوا عشرات الالوف

من النصارى فعاد الرومان في عام ٦٢٨ وهزموا الفرس وأمروا ملكهم ..

وفي سنة ٦٣٦ زحف العرب على فلسطين وهزموا الروم في موقعة أجنادين وحاصروا اورشليم أربعة شهور ، ثم حضر عمر بن الخطاب فتسلم المدينة وشيد مسجده الذي جددته فيما بعد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . وبذلك صارت فلسطين مستعمرة عربية منذ ذلك الوقت ..
وفي عام ٩٦٩ استولى الفاطميون على هذه البلاد ..

ولم تكد تلك الأراضي المقدسة تهدأ في حكم العرب حتى استعرت بسببها الحروب الصليبية التي قوالت نحو مائتي سنة قتل فيها الألوف من البشر وخربت فيها كثير من البلاد وتركزت تلك الحروب الدينية فلسطين مهد الأنبياء المبشرين بالسلام ، بحرأ من الدماء . وانتهت المعارك العديدة بمردة البلاد إلى صلاح الدين الأيوبي ثم إلى ملوك دولة المماليك البحرية ..

وفي ١٥١٧ جاء دور الترك ففتحها سليم الأول في طريقه إلى مصر ، وبقيت فلسطين ولاية قركية اسمها عربية فعلا إلى ديسمبر ١٩١٧ حينما احتلتها قوات اللورد اللنبي وما زالت إلى الساعة تحت حكم الانجليز وما زالت تستعربها نار الاضطرابات بعد ذلك التاريخ الطويل المضطرب ..

تشلت اليهود في أنحاء الأرض وساعدهم على هجرتهم ميلهم إلى التجارة والقيام بالأعمال المالية الراجعة . وقد تجنسوا بجنسيات الدول التي عاشوا فيها وظهر منهم في مختلف العصور عدد عظيم من النوابغ والعلماء والأغنياء مثل يوسفوس وكارل ماركس وماكس نورداو وذررايلي وروتشلد واينشتين وبرغسون وفروود وغيرهم ..

ولكنهم لم يسمعوا من اضطهاد الأمم التي كانت تسيء بهم الظن دائما . وكان هذا الاضطهاد حافظا لهم على الحرص والتفوق المالي من جهة ، وإلى المهاجرة من البلاد التي تضطهدهم . فرأى بعض زعمائهم أن يكونوا لليهود وطنا قوميا على شواطئ أفريقيا الغربية أو في الأرجنتين أو في فلسطين ولكنهم كان يضطهدون بالصعاب التي تارة تقيمها الحكومات في وجوههم وأخرى من جانب اليهود أنفسهم الذين حاروا كيف يهجرون أعمالهم ومصانعهم ومصارفهم ش مساقط رؤوسهم إلى بقاع نائية يجهلون بها

وأخيرا تمكن زعمائهم من اقناع سوادهم أن فلسطين هي أرض الميعاد وبيت داود وسليمان وطنهم القديم الذي سيظهر فيه مسيحهم المنتظر فيخاص شعب اسرائيل ويرد اليهم الملك والكرامة وكانت التوراة تزيدهم حينئذ إلى ارجاع ملكهم وبناء هيكلهم ..

ففي ١٨٥٣ اتفق بعض أغنيائهم على شراء الأراضي بفلسطين ، وفي عام ١٨٧٠ أسس الاتحاد

اليهودى مدرسة للزراعة بشرى يافا ، وفي ١٨٧٨ عمالوا على انشاء مستعمرة يهودية في طريق نابلس ويافا ليقيم بها يهود اورشليم . .

ثم وقعت لهم اضطهادات ومذابح في روسيا ، فعمدوا منذ عام ١٨٨١ على الهجرة إلى أراضهم المقدسة وشراء الأرض دون أن يتريدوا في اختيار الموقع الملائم ، فكانت النتيجة أن الجهل بالمكان واختلاف المناخ لم يشجعا أولئك المهاجرين المعتادين الطقس الأوروبي على تنفيذ مشروعاتهم فئات منهم كثيرون .

وهنا تدخل أحد أغنيائهم البارون ادموند روتشلد وأمدهم بالمال فكان لمعونته وتقوده أثر قوى في تثبيت أقدامهم وقد مات عام ١٩٢٤ بعد أن أنفق نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات في سبيل استعمار اليهود لفلسطين . .

وفي عام ١٩٠٠ تنازل روتشلد للجمعية « الاستثمار اليهودى لفلسطين » عن ادارة المستعمرات وبدأت تظهر لهم جمعيات عديدة مثل جمعية الاتحاد الاسرائيلى وغيرها فلم ترق هذه الحركة في نظر الباب العالى وأصدر أمراً بمنع الهجرة اليهودية ومنع بيع الأراضى لليهود . .

ولكن قوة المال تمخطى كل الصعاب فما جاءت سنة ١٩٠٢ حتى بلغ عدد المستعمرات أكثر من عشرين مستعمرة وكانت مباحثها أكثر من أربعين ألف فدان فيها نحو خمسة آلاف مستعمر . .

ورغمًا عن العتبات والضرائب ومقاومة روسيا وفرنسا أخذت مستعمرات اليهود بفلسطين في التقدم والاتساع لأن الأرض كانت صالحة للزراعة . فأخذ المستعمرون المجدون يحولون الأرض الجرداء إلى حقول للقمح وبساتين للفاكهة وأحراش للزيتون وكروم للعنب ثم شيدوا المنازل الصغيرة وخطوا الطرقات وأقاموا عددا من الصناعات لسد حاجات المستعمرات . .

وكل مستعمرة عبارة عن قرية نموذجية ذات منازل رشيقة محوطة بالحدايق ومنازة بالكهرباء ومزودة بالماء ، وحوطها الحقول التى يعمل فيها النساء والرجال بنشاط ومعهم مختلف الآلات الزراعية الحديثة . وقد رأيت الفتيات والنساء يلبسن سراويل الرجال القصيرة ويعملن فى الحقل مع أزواجهن ومنهن من كن يعزقن الأرض ويحرثنها فى حرارة الشمس . .

وقد بذل اليهود جهدهم قبل الحرب العظمى فى حمل الدولة العثمانية على الاعتراف بالوطن اليهودى ، فلم يفلحوا . ولكن ما أن شبت الحرب العالمية حتى كان لليهود بأوروبا وأمريكا من الأموال ومصانع السلاح ما يرجع كفة النصر إلى الناحية التى يعصدها . فبدأوا يوجهون بذهابهم إلى تركيا وحلفائها فى مقابل اعترافها بفلسطين وطناً قومياً إلا أن تركيا خشيت يومئذ انقلاب العالم الاسلامى عليها إن هى باعت فلسطين العربية لهم . فأنجبه اليهود شطر الحلفاء وماهى أن فازوا بوعدهم بفقور حتى كان

لأموالهم ومصانع الأسلحة التي يملكونها في أنحاء العالم شأن يذكر في انتصار الحائز وأفلاس
الامان . .

وكان لوعده بلفور أثر عظيم في تقدم الحركة الصهيونية، ولكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها
واستولى الانجليز على فلسطين رأوا أن تحقيق الوعد بلفوري سيخلق للانجليز أنفسهم متاعب
كانوا في غنى عنها . فمن الخصال طرد العرب من بلادهم وتكوين مملكة يهودية قوية بذهابها وعالمها
وتمدنها وسط دائرة من دول عربية اسلامية لاسيما الدول التي يرى الانجليز لهم فيها مصلحة كعصر
والعراق . وعلاوة على ذلك فقد أثار وعده بلفور الانجليزى سخط الشعوب العربية والاسلامية في
كل العالم . ولم يكن الخوف من سيطرة الصهيونية الغنية على فلسطين وحدها بل كان الخوف
أيضاً من سيطرتها الاقتصادية على الشرق العربى كله في مستقبل غير بعيد . .

ولما رأى الانجليز ذلك ندموا وباتوا في مركز لا تحسد لهم عليه أية دولة أخرى ، فعملوا على
اشغال روح العداء للصهيونية فانقلبت فلسطين إلى ساحة تنصارع فيها قوميتان وتنافس حضارتان . .
كل ذلك والصهيونية تتقدم في صمت وهدوء . فقد كان عدد اليهود بفلسطين قبل الحرب المظلمى
٦٥ ألفاً يملكون ١١٠ ألف فدان ولهم نخسون مستعمرة وليس لديهم أموال مستثمرة ، فصاروا عام
١٩٢٦ نحو ١٨٠ ألفاً يملكون ثلثمائة ألف فدان ولهم مائة مستعمرة وزادت أموالهم المستثمرة على
عشرة ملايين من الجنيهات . وقد أصبح عدد يهود فلسطين عام ١٩٣٥ حسب احصاءات الهجرة
٤٥٠ ألفاً بينما عدد المسلمين ٧٥٩ ألفاً والمسيحيين ١٠٣ آلاف . وما زالت وفود المهاجرين وروؤوس
الأموال تنهال على فلسطين من كل صوب . .

وإذا علمنا أن عدد اليهود في العالم يبلغ اليوم أكثر من ستة عشر مليوناً منهم نصف مليون
في ألمانيا التي تضطهدهم وثلاثة ملايين في رومانيا التي ثارت بهم غير مرة وعلمنا ما يملكه هؤلاء من
ذهب ومصارف ومصانع أسلحة ومعامل وعقارات أمكننا التنبؤ بمستقبل الهجرة اليهودية بفلسطين .
ولا يمكن للعرب أن يثبتوا أمامهم إلا إذا جاروهم في نشاطهم الصناعى وبادروا في اصطناع الحضارة
الغربية وأساليبها . .

ولم يقتصر يهود فلسطين على شراء الأراضى والمزارع وتحويلها إلى جنات تمون المصانع وتصدر
مختلف المنتوجات بل أنشأوا الجامعة العبرية والمدارس العديدة والمعامل ، وشرعوا في استثمار البحر
الميت وتعميد الطرق وتأليف شركات السيارات وغير ذلك من المشروعات الاقتصادية والعمرانية . .
ومنذ عهد قريب أصدرت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بفلسطين بياناً احتجت فيه على القرار
الذى أصدرته حكومة فلسطين وهو يقضى بمنح ٥٦٠٠ عامل فقط جوازات للهجرة في بحر ستة شهور

وأعقب احتجاجها مظاهرات عنيفة فهي تحتج على هجرة نحو ألف يهودي في الشهر الواحد وتطلب التصريح لعدد ٣٣٥٠ مهاجراً في الشهر الواحد لما حدث في زعمها من نقص في اليد العاملة لآسيا في البناء والبناء فزاد الطلب في العمال على العرض ، حتى تجاوزت أجرة العامل اليهودي في بعض الحرف الدقيقة جنينها في اليوم . و تقول الوكالة اليهودية في بيانها ان في فلسطين رؤوس أموال كثيرة يبحث أصحابها عن استغلالها استغلالاً يعود عليهم بالفائدة في الزراعة والصناعة والبناء . .

ويقول السر هيربرت صموئيل المندوب السامي السابق بفلسطين في مقال له : « هذه التأكيدات هي عندي تقوم على أساس متين فانه لا يوجد في الوقت الحاضر سبب اقتصادي صحيح يحول دون بلوغ سكان فلسطين إلى مليوني نفس بعد سنوات قليلة وهم الآن نحو مليون وربع مليون نفس » ولكنه يقول في موضع آخر من ذلك المقال : « ليس ثمة شك أن الحركة الصهيونية قد ارتكبت أغلاطاً كثيرة فانها لم تقدر من البداية أهمية المسألة العربية وانكبت على مشاكلها الداخلية الخاصة ووقفت جهودها على جمع الأموال اللازمة وقد جمعت معظمها من الاكتتابات الصغيرة في جميع أنحاء العالم وأخذت تعمل بنجاح لحياء اللغة العربية ... وقد شاعت الحركة الصهيونية أن تناسي العرب مع أنهم كانوا يزدون بعد الحرب عن نصف مليون نفس وأخذ عددهم يتزايد منذ ذاك الحين زيادة طبيعية تعادل زيادة السكان اليهود من الهجرة »

ان الخطة التي سارت عليها الصهيونية في استعمار فلسطين هي شراء الأراضي واستغلالها بحيث تصبح البلاد بالتدريج ملكاً لليهود . وقد ساعدتهم على شراء الاراضي فقر العرب وحاجتهم في هذه الأيام العصبية إلى المال كما يحدث اليوم بمصر بين الفلاحين المصريين والممولين الأجانب ، ثم يعمدون إلى إنشاء المدن العصرية والمصانع والمصارف بحيث يضعوا أولاً الأساس في استقلالهم الاقتصادي الذي هو الخطوة الاولى والكبرى في استقلالهم السياسي المنشود . وقد ساروا شوطاً بعيداً في تنفيذ خططهم وأهم ما يلتفت النظر في نشاطهم تأسيس مدينة تل أبيب الواقعة على شاطئ البحر بجوار يافا ومدينة حادار كرميل بجوار حيفا

أما تل أبيب أول مدينة أهلها مائة في المائة من اليهود ، فقد بدأوا في إنشائها عام ١٩٠٩ حينما اتخذها خمسمائة من سكان يافا اليهود ضاحية هادئة فأخذت تنمو وتتسع سريعاً حتى أصبح عدد سكانها اليوم أكثر من أربعين ألفاً من اليهود . وفي احصاء عام ١٩٢٧ أن عدد مدارسها خمسون مدرسة ومنازلها ثلاثة آلاف ومصانعها مائتان ومخازنها ثمانمائة . وبينما وصلت مساحتها سنة ١٩٢٠ إلى مائة فدان فقد صارت عام ١٩٢٧ ستمائة وثلاثين فداناً وهي تزداد اتساعاً كل عام .

ومن يسير في هذه المدينة الحديثة يعجب من النظام وهندسة المباني والنظافة وجمال المتاجر ، ويصادف داراً للأوبرا وهيكلًا للعبادة وهما مآب بحرية وفنادق ومطاعم أوروبية ، فهي قطعة من أوربا الحديثة تجاور قطعة من الشرق العتيق . ولا شك أن موقع هذه البلدة الجميلة واعتدال مناخها وتدفق الأموال عليها ستجعل منها مدينة صناعية عظيمة الشأن

أما « حادار هاكرمل » فهي المدينة المشيدة على سفح جبل الكرمل المشرف على حيفا وهي بلدة جديدة أوروبية ذات منازل ونظام يضارع ما في قل أيب

* * *

أن ما نراه اليوم في فلسطين إنما مثل قريب للصراع بين مبدئين أحدهما يقول بقوة المال وسلطان الحضارة الأوروبية وجبروت الصناعة . والثاني يقول بالتغنى بالماضي المجيد والصلح الصالح والاتكال على الزراعة والحوّل والاستسلام للقادير . .

وفلسطين قطر أخذ في التقدم السريع فقد كان عدد سكانها عند بدء الاحتلال الإنجليزي لا يزيد عن ثلاثة أرباع المليون فصاروا اليوم مليوناً وربع مليون . وقد حمل إليها المهاجرون اليهود حضارة أوروبا الصناعية مما يجعل لها مستقبلاً صناعياً وزراعياً باهرآ . .

ولكن هذا النزاع المستمر بين العرب واليهود لن يؤدي إلى طرد أحد الشعبين من البلاد ليتفرد بها أحدهما . وليس هناك غير طريق واحد هو تعاون الشعبين واتحادهما لتكوين دولة واحدة فلسطينية ذات حكومة مشتركة وبرلمان يجمع بين العناصر المختلفة . ويكون الدين صوفية خاصة بالإنسان هي الصلة بينه وبين ربه كما هو الحال في بقية الأمم المتحضرة التي تستظل فيها المذاهب والأديان المختلفة براية الأخاء والتعاون . .

وفي سبيل هذا الاتحاد العنصري يجب أن يدرك اليهود بفلسطين وفي العالم كله أن الصهيونية وإنشاء الوطن القومي اليهودي المؤسس على الدين وحده فكرة لا تتفق وروح القرن العشرين . وعليهم أن يدركوا أن بفلسطين اليوم نحو تسعمائة ألف من العرب يستعمل جلاؤهم أو انقراضهم بل هم آخذون في الازدياد والتحضر . وعلى العرب أن يدركوا أن لا مفر لهم من التعاون مع هذا الجيش من اليهود الذين جاءوهم بالحضارة الصناعية . وعلى الإنجليز أن يتزلوا عن وعد بلفور ويعملوا من أجل سمعتهم على إزالة ذلك النفور وذلك التعصب الديني والتنافس الاقتصادي بين العرب واليهود لكي ينفشاً من وحدتهما وطن واحد ليس هو بالوطن اليهودي ولا بالاسلامي ولا بالمسيحي بل هو وطن فلسطيني يتجه نحو المجد والرق والاستقلال . .

فمن الكلام

أصوله ، وفروعه ، وما يجب أن يكون

ولم لا يكون الكلام فناً من الفنون الجميلة ما دام له أصول يتقيد بها وفروع يتشعب اليها ، وما دام له مراتبه في السمو والجمال كما له منازل في الضعة والقبح ، وأخيراً ما دام له أثره البين في النفوس وما لذلك الاثر من قوة وضعف . .

وهو فن يتميز به الانسان على سائر المخلوقات فقد تشاركه أو تبذره بعض الحيوانات في الفنون الجميلة الاخرى ، فتفرد الطيور وترقص الوحوش ، ويشيد النحل أبداع الخلايا الهندسية ، ولكن الانسان ينفرد دونها بفن الكلام الفطري الذي تسوقه الى ممارسته ما جبل عليه من حب التعبير عما يحال نفسه ومن الميل الغريزي إلى التفاهم مع بني جنسه . .

واذا اعترفنا بما لفن الموسيقى من تأثير سحري يهز القلوب فكيف ننكر ما لفن الكلام البليغ من قوة قد تقلب العروش وتغير مجري التاريخ ؟ ومن ذا الذي يجعد الاثر الذي تحدثه كلمات خطيب مفوه تشعل نيران الثورات وتبدل الحكومات وتسير الجماهير وتذك صروح الأنظمة ، أو ينكر ذلك الاثر الذي تخطه في النفس كلمات رقيقة كأنها المغناطيس تجذب اليها الأفئدة وتستبد بالمقول وقد تذلل العقبات وتخلص المرء من شر مستطير ؟ ومن لا يذكر كيف فعلت كلمات طارق بن زياد في نفوس رجال جيشه فاستماتوا في القتال حتى تم لهم فتح الاندلس ؟ وما أشعلته كلمات انطونينوس من ثورة ثارت لدم قيصر ، وما أحدثته خطبة أبي بكر في تهدة فتنة المرتدين وقد كادت تقضي على الاسلام في مهده . بل أن جونسون لم يعد من الشخصيات البارزة في القرن الثامن عشر بل في دولة الأدب إلا بأحاديثه الطريفة التي كان يدونها بوزويل أحد المعجبين به فخلد ذلك الحديث ذكره بينا عجزت كتبه الضخمة ذات الأساليب المعقدة الرنانة عن تخايله . .

إلا أن فن الكلام بما له من جبروت وتأثير ، كغيره من الفنون الجميلة ، قد يكون سماوياً راعياً إذا ما صدر عن فنان موهوب يلم بأصوله ويتحاشى نقائصه . . وقد ينحدر إلى الدرك الأسفل فيشوه جماله ويذهب بظلالته من لا يقيم له وزناً ولا يقدر له قيمة . . بل هو أقرب إلى فن الموسيقى من حيث اشتراكهما في التأثير بطريق السمع فإن الموسيقى تار النابه يسحر بفنه الالباب ويملك أعنة القلوب بينما الجاهل بالفن يزهدج النفس ويكدر الخاطر ، وما قصة الفنان الذي سمع لحناً مشوها فاضطرب وسقط ميتاً ببعيدة عن التصديق . . وكذا الحال في الكلام ، فرب كلمة واحدة من تلك الكلمات

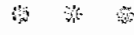
الجراحة المستهجنة تفسد بهجة الاجتماع وتفرق بين القلوب وتخلق العداوة بين المحبين . ورب كلمة عذبة رقيقه تكون بلسمًا للجراح وقبسا من نور يضئ ظلام الأحزان ويشتت كل كدر وجفاء .
فالكلام مثل سائر الفنون يجب تعهده بالتهذيب والتدريب كما تتمهد الشجرة بالرى والتشذيب حتى يصبح المتكلم فنانا بارعا يتغلغل حديثه في أغوار القلوب فيهنز أوتارها .

وقد اكتشف الانسان منذ القديم تلك القوة الكامنة في المحادثة لأنه بطبعه يتأثر بصناعة الكلام وتسجده بلاغة المتكلم سواء في ذلك البدوى الامي والمتحضر المهذب . فاول الانتفاع بها في التأثير على غيره ولكن ليس لسل انسان تلك المهبة وذلك الاستعداد الفطري . والكثيرون تعوزهم قوة التعبير عما يشعرون ويفكرون بلغة تصور حالتهم النفسية ، فتعبر أحيانا وجوههم بما تعجز عنه ألسنتهم ! وقد يكون منهم الكتاب المجيد والمنشئ البليغ لكنه إذا شاء الكلام تلثم واضطرب . وكم من عالم لا يستطيع مفاتحة غيره بالحديث لكنه إذا استوضعت مسألة عويصة تبسط في الكلام . ولدينا من حياة أوليفر جولدsmith مثلا عجيبا إذ أنه كان يكتب قصصه ومقالاته وشعره بلغة غاية في البلاغة والرشاقة لكن رواة تاريخ حياته يتفقون على أنه كان لا يعرف كيف يتحدث بل كان كلامه ركيكا مشيراً للسخرية ! .

وقد عرف الناس أيضا منذ زمان ما للكلام من سطوة ، فحشوا الحديث اللفظ واستشعروا بالخوف من شر الكلام الصادر جزافا ، ففضلوا عليه الصمت وقالوا مثلهم المشهور « إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » وقالوا أيضا « إن الصمت زين للرجال » ! وقال لقمان الحكيم « من يصمت يسلم ومن يملك لسانه لا يندم » وهو الذي يوصي ابنه بقوله « يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك » ! وقال ابن المقفع « إعلم ان لسانك أداة مهلكة يتغالب عليه عقلك وغضبك وهواك وجهلك ، فإذا غلب عليه عقلك فهو لك ، وإن غلب عليه شرفه وعدوك ، فإن استطعت أن تحتفظ به وتصونه فلا يكون إلا لك ولا يستولى عليه أو يشاركك فيه عدوك فافعل » وقال أحد الشعراء « ولئن ندمت على سكوتي مرة فلقد ندمت على الكلام طويلا » وقال آخر « جراحات السنان لها القمام ولا يلتام ما جرح اللسان » !

وغير تلك الأقوال كثير يعلأ الكتب الاخلاقية وهي نصائح من قلوب مخلصات لأولئك الذين لا يفهمون من فن الكلام إلا أنه أصوات لا تسيرها الإرادة ولا يكبح العقل جهاجها . ولعل الذاهبين بان الكلام موجات صوتية تحدث اهتزازات في الهواء خير منهم . إلا أن الواقع ان الصمت ليس بأكثر زينة من الكلام القيم ، ولئن كان السكوت من ذهب فالكلام الجليل على هذا القياس من ماس ، وما كان الصمت يوما بمقياس يسبر به غور العقليات . وكم من انسان صامت تأخذ العين وقاره

وجاهه فاذا فتح فاه وتكلم سقط من أعيننا كما تسقط قيمة المعدن المزيف ا وكم من انسان
زري المظاهر تزدر به العيون فاذا تكلم وجدنا منه كثرا لا تقدر قيمته ، ومضاطيس يجذب قلوبنا
ويحرك نفوسنا ا .



ذلك لأن فن الكلام من أدق الفنون ممارسة والمتكلم لا يصل إلى التأثير البليغ المنشود إلا إذا
توفرت فيه شروط أساسية منها :

أن يكون متضلعا في اللغة التي يتحدث بها عالما ، بقواعدها واشتقاقاتها ملما بنحوها وصرفها
واختلاف أساليبها ولهجاتها ، وطرق النطق بالفاظها وحروفها . إلا أن هذا الشرط الأول قد لا يكفي
وحده لبلوغ القصد إلا اذا اتحد مع الشروط التالية .

وأن يكون لسانا فصيحاً لا يتخلل نطقه لكنة ولا عجمة ولا تلثم ، وقد روى عن
ديموستنيس أفصح خطباء اليونان أنه طمع لأن يكون خطيبا عظيما لكنه وجد أنه لا يحسن النطق
للكنة في لسانه ولدت معه ، فعمد الى حصة يضعها في فمه ويخطب وحده كل يوم زمنا حتى قوم
من اعوجاج لسانه ا .

وأن يكون فاهما لعقلية من يحدته من فرد أو جماعة ، فيخاطبهم بالأسلوب الذي يدركونه
ويستسيغونه . فيستخدم السهولة في موضوعها والبلاغة لمن يفهمها والأمثال لمن يعقلها ، عالماً بأن لكل
مقام مقالا . وعلى ذلك كان من أهم واجباته ألا يكلم الجاهل بالطريقة التي يحدث بها العلماء . او
يخاطب الأطفال كما يخاطب الكبار . وهذا يستلزم شيئا من قوة الملاحظة والفراسة ودراسة شيء
من علوم النفس والالمام بنفسية الجماعات . وثمة فرق جلي بين مخاطبة الفرد ومخاطبة الجماهير ، فيجب
أن يتقيد هنا بعقلية من يخاطب لا بعقليته الذاتية . وقد صدق من قال في هذا الشأن : « إنك إذا أردت
لقاء الجاهل بالعلم والجاهل بالفقه والعبي بالبيان ، لم تزد على أن تضع عامك وتؤذي جليستك بحملك
عليه ثقل ما لا يعرف ، وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمي الذي لا يفقه
عنه » . . وكثيراً ما يسبب لنفسه محادث الجاهل بما لا يفهم أذى . فكم من جاهل يخالك تمسخر
منه وتزدره ا .

وأن يكون للحديث محور يدور حوله وغرض يرمى إليه فلا ينطلق جزافا ، ولا يصدر مفكك
الحلقات متنافر الصلات فيسبب السخرية أو السآمة . .

وأن يلم المتكلم بشيء من قواعد المنطق حتى لا يقع في سفسطة الالتباس اللفظي والسفسطة
الاستقرائية التي تؤدي إلى الاستنتاج المخطيء . عليه أن يفرق بين فروع الاستقراء من استنباط

وتتمثيل وما أشبهه من أقيسة المنطق وقواعده لاسيما أمام النابيين من سامعيه . .
 وأن يكون حاضر البديهة سريع الخاطر فيقابل ضجر السامعين بالنكتة المنشطة ، أو المفاجأة السارة
 أو القصة القصيرة ، أو يواجه الاعتراض والمقاطعة بالحنكة والبراعة
 جورج كان يخطب مرة في جمهرة من الناس راغباً في استمالتهم نحو مبادئه وخطته ، فأخذ
 يقول : « ويجب أن نمنح الاستقلال لآيرلند واسكتلند و . . . » فقاطعه أحد خصومه بقصد الخط
 من خطابه بقوله « ولجهنم ! » فأجابه الوزير مستمراً في الكلام : « طبعاً إن كل إنسان يحب
 استقلال وطنه » فقصى بسرعة خاطره على معارضة خصمه
 لأنهم كانوا بطبيعة معيشتهم يحبون الفصاحة وسرعة الخاطر حتى إن ماوكهم كانوا يقربون إليهم
 الفصحاء بل كثيراً ما كانوا يستوزرونهم أو ينادمونهم

وأن يكون الكلام طبيعياً غالباً من التكلف والصنعة والزخرف والسكنايات والتعقيد ، لأن تلك
 النقائص لا تستمرئها القلوب التي لا يستهويها غير الاخلاص وحرية الفكر والسهولة
 إن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان
 ويجب ألا يقلد غيره في طريقة القائه أو يجعل في لسانه عوجاً ليحاكي لهجة أجنبية أو يستعير أساليب
 اللغات الأجنبية فيترجمها مشوهة إلى لغته . أو يحشو كلامه بالحديث عن نفسه معدداً فضائله
 زهو وخيلاء

تلك بعض الشروط التي إذا أضيفت إلى خفة في الروح وقوة في الشخصية وجاذبية عامة كان لها
 أبلغ الأثر لاسيما في الخطابة والمحاضرة

* * *

ولكنك تغامر وسط المجتمعات وتدخل في المجالس والمنتديات ، فيصدم سمعك ذلك الكلام الذي
 يتنخم به الفضاء وتنوء تحت ثقله المسامع . فهذا ثرثرة في كل ناد يخطبها لا يقل ويدل فيزداد عند
 سامعيه اكراما ، بل هو ينطلق مهذاراً مكشوراً ، محتكراً الحديث زاعماً أنه قبلة المجالس ومحط أنظار
 الحاضرين وكلهم مستخف بكلامه مشتمن من أثرته ! وهذا آخر متأهب ينتظر باباً للحديث ليسابق
 صاحبه اليه ويشاركه فيه ، أو يعارضه ويقاطعه ليبين للسامعين بأنه لا يقل علماً عن المتكلم ، أو يسمع
 حديثاً فينكره ويكذبه وهذا من يتحدث عن قوم فينتقمهم بالنقائص والعيوب ويتناول أعراض
 الناس بالذم والتشهير ، ويرتكب جرم الغيبة والنميمة مطمئناً . وقد أجاد أبو حزم الأندلسي في كتابه
 فلسفة الاخلاق حين يقول : « الناس في بعض أخلاقهم على عدة مراتب : طائفة تمدح في الوجه وتذم
 في المنقب وهذه صفة أهل النفاق والغيابين ، وطائفة تذم في المشهد والمنقب وهذه صفة أهل

الوقاحة من العيابين ، وملائقة تمدح في الرجا والمغييب ونفسه صفة أهل الملق والطمع ، وملائقة تدم في الشهيد وتمدح في المغييب ومنه صفة أهل المسخف ، أما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ، ويتقون بالخير في المغييب أو يمسكون عن الذم في الشهيد والمغييب .

وهذا آخر ينتحل كلاماً من نفسه فنسبه إلى نفسه حباً في كسب الاعجاب ! وما كان أغناه عن ذلك إن نسبه إلى صاحبه ! وقد تبلغ به القصة فينسب إلى نفسه كلام أحد الحاضرين ! . وثمة من يجادل سواء متشبهاً برأيه ولا يعلم أن الغرض من المناقشة الودية هي الوصول إلى نتيجة فكرية وإن الحقيقة بنت البحث . فهو يسكار ليكسب المناظرة ويفخر بالظلة لايهمه الوصول إلى حقيقة أو ضاية ! وقد يتعمد تكذيب الآخرين وتدفعه غريزة الممارضة إلى تقض أقوالهم ! والحق أن المجادلة مهما كانت سلمية قلما تنتهي بحسن العواقب . قال جوته بلسان أحد أشخاص قصصه « وإن اختى وزوجها كانا نسم الزوجين ولكن بدلا من أن يتداعبا في الكلام ويتلاهما بأساليبه كانا يحاولان اقناع أحدهما الآخر ولشدة رغبتهما في الاتفاق ماتا ولم يتفقا على شيء » !

وقد تسمع من يحاضر صديقه عن المآكل والمشارب والملابس وما شابهها من الموضوعات التافهة ، أو يحدثك عن شئون منزله وأسرار معيشته ، وأخلاق زوجته وحادات أولاده ! أو يحدثك عن نفسه وأمراضه وعلاه وأفراحه وأحزانه ، وأعماله في البر وبطولته في فن من الفنون ! فتصبر على سماعه مرغماً أو يجرأ فيسدى إليك النصيح والارشاد جهاراً ولم تسأله نصيحاً . أو يتخذ من وداعتك سلماً يرقى عليه بالأكاذيب والمبالغات التي لا تصدقها أصغر العقول ! أو يرهقك بالأسئلة ولا يبالي أن ضجرت أم لم تضجر ! !

وهناك من ينفرد بأحد الحاضرين فيسر إليه كلاماً أو يخاطبه بلغة لا يفهمها السامعين أو يتهيج في حديثه فبرغى ويزبد ! أو يمس شعورك بأراء تناقض مذهبك ومبادئك على علم منه بها ! تلك بعض النقائص التي لا يخلو منها مجتمع في أية أمة وفي أي زمن . وكلها تثبت أن فن الكلام ليس بالأمر الهين الميسور لكل إنسان ناطق . .

إلا أن أقبح تلك النقائص هي البخل بالحديث كبرا وغطرسة بزعم أن من تحدثه أقل منك شأنًا أو مقامًا . وأين لنا بمثل ذلك انغليسوف القائل : « إنى أحادث كل إنسان فإن كان أقل منى علماً أفدته وإن كان أكثر منى معرفة استفدت منه وتعلمت » . وأن صغر المرء أو جهله لا تمنع النفس الكريمة الفاضلة بالحب العام من الحديث معه فلعل في آرائه صواباً وعلماً كنا نجهله . وقد قيل « إن اللواؤة الثمينة لا تهان لهُوان خائضها الذي استخرجها » . .

كان الحكيم المصري فتاح حطب يوصي قومه منذ آلاف السنين بقوله . « إن كنت

عالمًا فلا تزهو ، بل حادث الجهلاء كما تحدث العلماء ولتتعلم منهم ، لأنه لا أحد لما يستفيدة الانسان ، وإن كان المتكلم دونك منزلة فلا تمزأ بحقارته ، ولا تطارحه الحديث لكي تزهو عليه ، عار عليك إذا ربكت عقلا صغيرا »

ليحدث المرء كل إخوته الناس بلا غرور ولا كبرياء فقد يعين الحديث على انبلاء المهوم ، وما أجهل أن يفضي الصديق إلى صديقه بدخيلة قلبه ويتبادل معه الأفكار ، فإن ساعة حديث كما يرى يكون تكسب المرء حكمة قد لا يحصل عليها في تفكير يوم كامل .. وأى سرور يرى يفضل محادثة الشيوخ والمسنين الذين بلوا الأيام وعجموا عود الدهر ، فأنبأ أولك بخلاصة عمرهم وحدثوك عن تجاربهم وأخبار ماضيهم السعيد ؟ أو محادثة الأطفال الذين تنهتبي في كلماتهم الساذجة العذبة سعادة لا تشرى بالذهب الخالص ، والذين كان السيد المسيح يحب محادثتهم ويقول لمن حوله « دعوا الأطفال يأتون إلي فإن ملئهم ملكوت السموات » . ولم يجنى الانسان من فوائد حديثه مع الأطفال فتكشف أمامه السريرة البشرية قبل أن تلوثها الأيام فيقرأ فيها الطهر والوداعة والحب والاخلاص وما أجهل أن نجيب الأطفال على أسئلتهم العديدة مشجعين فيهم غريزة التحري والمساءلة التي تبدو في خلقهم منذ طفولتهم وتدفعهم إلى سؤالنا عن كل ما يرونه حولهم من غريب . فإذا نظروا إلى السماء سألونا كيف تبقى النجوم معلقة ولماذا تظهر السكواكب ليلا ولا تظهر نهارا ؟ ويسمعون لفظة الله فيسألونا ما شكل الله وأين يسكن ، ولماذا يميت الناس وهل يرانا الله في الليل ؟ وإذا سرنا معهم في الحقائق سألونا لماذا كان لبعض الأزهار رائحة وليس لغيرها عطر ؟ وكما شب الطفل واتسعت مداركه كلما تعطش إلى استجلاء خفايا الحياة فينهال علينا بالأسئلة العجيبة ! وكما على عاتق الآباء والمعلمين من مسؤولية في محادثة الأطفال والتبسط معهم في الكلام لأن عقولهم صحائف بيضاء قد يبقى ما ينقش عليها حتى الممات . وأن الحديث مع الأطفال معناه الكتابة على تلك الصحف النقية الطاهرة ..

ولا تخلو محادثة الأميين والجهلة من لذة ، لأنها تكشف لنا أيضا عن عقلية الانسان إذا شئت ولم يصقلها العلم . ويحسن استعمال الطريقة السقراطية معهم وهي تلك الطريقة التي كان سقراط يباشرها في حديثه مع كل من يلاقيه فكان يعلم الآخرين مدعى الجهل ، أو التجاهل السقراطي كما يدعونه . فيحاول بالسؤال الوديع إقناع من يحدثه بأنه جاهل في ذلك الموضوع حتى يتحرك فيه الشوق إلى الاستفادة ، ويلقى عليه سؤالاً فيبادر الجاهل بالإجابة عليه ، فيظهر له سقراط خطأه بسؤال آخر ، وهكذا حتى يقتنع المناظر بجهله ويأخذ سقراط في إرشاده من حيث لا يشعر .

أما محادثة الرجال للنساء الرقيقات ففيها فوائد اجتماعية كثيرة منها ترقية الخلق وتعلم الكياسة والمجاملة والتأنق في العبارة وعذوبة الأسلوب ..

في الخيال

يعيب البعض على من يسمو بآرائه أو آسانيه قليلا فوق مستوي المؤلف ، بأنه شخص خيالي إذ أن هذا البعض يسمي الفن بالخيال الجاهل . معناه « السيكولوجي » ، فهو إذا استخف بفكرة أو بكاتب قال « هذه فكرة خيالية وذلك كاتب خيالي » . ولا شك أن الكثيرين مثل هذا البعض يخلطون بين الخيال الخاضع لسلطان العقل ، وهو أجهل ما وهب الانسان من الملكات العقلية ، وأوفي خادم يعينه في حياته على كثير من شؤون الحياة ، وبين الأوهام الباطلة التي لا يرتبط فيها الخيال بالواقع ، أو بينه وبين الأمانى الخادعة أو الأخيالة المهوشة الطائشة ، بل أن هناك فروقا بين الخيال والتصور . وبينه وبين تداعي المعاني والذكريات ، فكثيراً ما يخلط بين معانيها في حين أنها ذات معان مختلفة . . ولا شك أنهم باطلاقهم الألفاظ على عواهنها قد أساءوا إلى الخيال وإلى أنفسهم ، وقد تسأل أحدهم مرة إن كان يستطيع التخيل لرأى لأول وهلة إنك تطالبه بالطيران في أجواء الأحلام النائية وخلق الصور المبهمة التي لا تدركها الحواس ، كأن يتصور ما يشبه الجن أو العنقاء ، أو يتخيل أشياء روائية لا يمكن للخيال أن يصنع منها صورا ، أو أن يستحضر أمام مخيلته مناظر جزر واق الواق . . والحقيقة أن الخيال أبعد من هذا الفن وإلا لما عجبنا من آثار عظماء الفنانين وفي مقدمتهم المصورون والشعراء الذين كان خيالهم الفضل الأكبر في عبقريتهم ، وغير أرباب الفن الجميل ، فإن كل ذوي المهن المختلفة في حاجة إلى الخيال يعينهم على الابتكار والتطلع إلى المستقبل . .

يقول علماء النفس « ليس الخيال أداة فكرية لا تعنى إلا بالمستحيلات ولا أن غرضه الرئيسي تسليتنا حين لا نلقى ما نفعله أكثر من متابعة جولاته ، أنه بالآحري وسيلة ضرورية عادية تنير الطريق لأجل تفكيرنا وعملنا اليومي ، وسيلة بدونها نفكر ونعمل خبط عشواء أو بالتقليد الأعمى . . » والخيال هو مستودع الصور والمعلومات والآثار والتجارب التي ادخرتها الحواس والوجدانات السابقة في العقل . . فهو أشبه بمخزن لأشرطة « سينما » الحياة التي نقلتها الحواس وحفظتها لوقت الحاجة ، ووقت الحاجة هذا هو وقت التخيل الذي ترجع فيه القوة العقلية المسماة بالتخيلية إلى المستودع ، فتستعير منه ما تشاء من الصور ، وتستعرضها أمامها دون أن تساعد الحواس في هذا الاستعراض . ويسمى علماء النفس هذا النوع من التخيل الشبيه بالتذكر « بالتخيل الحضوري » أما إذا أخذ العقل يتصرف في تلك الصور المحزنة ويتسكّر بمعوتها صورا جديدة مركبة من مفردات الصور القديمة المختلفة بحيث ينتج من ذلك صورا مخترعة لم يسبق لها وجود في مستودع الخيال ، فهذا ما يسمونه « بالخيال الاختراعي »

وعلى ذلك فالتخيل لا يتم إلا بعمليتين تقوم بهما التخيلية ، أولاها استعارة صورة أو عدة

مهور من المحسّات والوجدانيات السابقة والخزونة في الحافظة والذاكرة ، وثانيتها أن يرتب العقل عناصر تلك الصور ، ويؤلف بين أجزائها المختلفة بحيث تخرج صورة خيالية كاملة التنسيق . وهذه العملية أشبه بتجهيز الشريط « السينما توغرافي » الذي يخرج من ترتيب أجزائه موضوعاً مرتباً متسلسلاً لا يشعر الناظر إليه باضطراب الوضع أو تفكك العناصر أو فساد الذوق . .

وعلى ذلك فالناس متباينون في التخيل بالنسبة إلى تباين الصور المودعة في خيالهم وقد يعود هذا إلى أثر البيئة أو الأسرة التي تنمدهم بحميل الصور وقبيحها ، أو إلى أثر ما يقرأونه من قصص وكتب تتفاوت حسناً ورداءة ، وهذا أيضاً سبب تفوق بعض الكتاب والشعراء وأرباب الفن على البعض الآخر . . وما دام التخيل يستمد عناصره من الصور المخزونة فانه بذلك يهتك الستر عن مخفايا الحياة الشخصية التي تخزن فيها مختلف العناصر والمحسّات فالتخيل السقيم لا يصدر إلا عن حصول حياة سقيمة والتخيل الراقى يصدر عن حياة ملائ بالآثار الجميلة . وكل اناء بما فيه ينضج . .

ولهذا فان علماء التربية يهتمون بما للخيال من صلة بالتربية ، وهم يقسمون الأطفال من حيث موهبتهم الخيالية إلى فئتين : فئة وهب أصحابها خيالاً جاعاً يشعل بهم عن أفق الحقائق ويصور لهم في خلواتهم رؤى طائشة مغرقة تجعلهم يخشون الظلام والوحدة ، وفئة ضعفت فيهم قوة الخيال فحرموا نعمة كبيرة من نعم الحياة . أما إذا كان الخيال وسطاً بين هذين النقيضين فانه يكون أقرب إلى الكمال . . ولذا كان الواجب على المربي أن يغذي في الطفل ملكة التخيل غير المضطرب منذ طفولته ولديه عشرات الوسائل المعروفة في فن التربية . وعليه أن يوجه اهتماماً خاصاً إلى تنمية التخيل العملي فيه ، لأنه باب الاختراع والتفكير ، فلا يدهه أسير التقليد الاعمى لما يعرض أمامه من نماذج بل ليدهه يكتشف الأسباب ويبتكر أمثلة أخرى من مخيلته . كذلك عليه أن ينمي في الطفل ملكة التخيل الشعري بطريق القصص الراقية المشوقة ، وبذلك يتزع به نحو الخلق القويم ، وفي نفس الوقت يوقف ما يراه من خيال مؤذ بعيد عن الحقائق . .

ذلك لأن الطفل سيشب في حاجة إلى تخيل يمدّه في حياته ويعينه في أعماله . فان شب عالماً استحال عليه الوصول إلى الحقائق إلا بعد التخمين والتمثيل . وان نشأ سياسياً فانه لن يتوفق إلى تنفيذ الخطط إلا بعد فرض الطرق المؤدية إلى حل المشاكل وفرض النتائج ، وان نشأ أديباً كان التخيل مورده الذي يستقي منه التشبيهات والأمثلة وكل فروع البلاغة وكان التخيل روح كتاباته ومبتكراته ، وإن نشأ موسيقياً وجد الخيال محوراً لفنه ، وان شب ممثلاً لم يستطع أن يلبس مختلف الشخصيات التي يمثلها بغير التخيل . .

وهكذا فان العالم والفنان والفيلسوف والصانع وكل ذوي المواهب لا غنى لهم عن التخيل غير المهوش بل أن الحياة بلا خيال لعنة ونقمة .

مبتدأ القلم

جلسنا على بقعة من الشاطئ المرصوف بالأحجار والرمال المتلاشئة في أشعة الشمس ، على بعض خطوات من البحر ، في صباح يوم من هذه الأيام العاصفة ، التي يحلو فيها للمرء أن يسبح إلى البحر ليقر عيناً بجماله ، ويحس الوجوه الضاحكة عند قدميه .. وقد صعدنا خاشعين أمام تلك العظمة ، عظمة البحر المصطبغ بالزجاج ، ذي العباب والأمواج ، الشبيه بالنفس في عمقها واتساعها ، وأسرارها وجلالها . الشبيه بالحياة في تلونها وغدورها ، وروعها وجلالها . الشبيه بالقدر في هيئته وقوته ، وقسوته وصولته ، الشبيه بالله في خلوده وعظمته ، ومجده وابته . ذلك الخلق العجيب الذي تحس النفس مهما امتلأت بالخيلاء والكبرياء ، بالعجز والهزيمة أمامه . والذي تنحور أمامه العزائم الحديدية فلا تنوى هجرانه ، حتى تنكص على أعقابها طائفة إلى أحضانه .. وقد أعاد إلى ذاكرتي بصوته الهدار وخير موجه المزبد ، عهداً منصرمة قضيتها بقربه ، طفلاً يحب على شاطئ الحياة وحدها يسبح في يم الأحلام ، وشاباً تتلاققه أمواج الحياة في مدها وجزرها . فأخذت تلك الصور تمر أمام عيني تباعاً كأنها شريط مختلف المناظر من شرائط السينما ..

وبين فترة وأخرى كانت تقطع تلك الأحلام صبيحة من صيحات الدلال والعبث تبعث بها إلى الفضاء فتاة تلهو مع أمواج الشاطئ ، أو ضحكة عالية لحساء تتبختر على الرمال نصف عارية وتنثني كالفنن الملود ، أو سرب من أولئك الملهقات الفاتنة يمرح ويسرح رافلاً في حلال الاستحمام المهلهلة كأنها شباك الصيد تشف عن الصدور والظهور ..

وكان صاحبي جالساً بجانب صامتا . وقد علت شفتيه ابتسامة العطف والحنان ، كأنه والد يرقب صغاره اللاهين حوله ! وقد عرفته منذ عهد قريب على هذا الشاطئ حيث تسيطر الديمقراطية وترفع الكلفة ويتبادل الود إلى أجل محدود ينصرم بفناء الصيف والعودة إلى الجهاد ! وقد رأيت فيه شاباً حبه الطبيعة بعزات قلما تتوفر في فرد واحد ، فمن شخصية قوية إلى جاذبية مغنطيسية إلى فصاحة يمدّها تفكير منطقي هادىء إلى صراحة وشهامة ..

وكانت مناظر الحسان ورشاقتهن قد بدأت تثير في نفسنا إعجاباً ، فملت إلى صاحبي وقلت له : أكاد اليوم يا صاح أذهب مع القائلين إنه إذا كانت المرأة هي التي أفقدتنا النعيم فهي وحدها تستطيع أن تعيده إلينا ! أليس أولئك الحسان الطافرات إمامنا هن لؤلؤ الحياة المنشور وبهجة المجتمع وأزهار البشرية ! انظر إلى هذه الملاحاة الخلابة وانصت إلى هذه الأحاديث والنكات التافهة الرقراقة وهذه الضحكات الموسيقية الخارجة من أفواه معسولة وقلوب مبهتجة ! ألسنت ترى في عشرة ذلك

الجنس اللطيف الذي خلق للتضحية والعزاء والبهجة ، أقوم سبل التهذيب وأقرب مصادر الاطعام .
الفنى ؟ أو لا ترى أن المرأة هي روح هذا العالم وطيره الصادح ونعمته العذبة ، وأن المرأة الجميلة
النقية الحكيمة ، هي أجمل ما فى الطبيعة بعد الشمس بل هي كالشمس فى بهاء نورها وحرارة شعاعها
وهظيم نفعها ؟

وكان صاحبي مصغياً إلى حقى إذا مارأيته يبتسم بادرته بقولى : « وأنت مارأيتك ؟ » قال : أرى أن
ماقلته ضرباً من الشعر الجميل الذى لا يضر ولا ينفع ! .

وأما المرأة التى نرفعها إلى الأعلى بمثل تلك الأوصاف فماذا يفيدها هذا ؟ . منذ القديم يثرثر
الوجدانيون والنظريون لاسيما الشعراء فى الحديث عن المرأة ! تارة يمدحونها ويتعلقونها وأخرى
يذمونها ويحقدون عليها ، وفى مدحهم وهجائهم دليل على اهتمامهم بها ! ولكن ما الذى حاد على
المرأة من ذلك الاهتمام النظرى وماذا انتفع المجتمع من عبادة المرأة عبادة خيالية مهورها الشعر والنثر ؟ .
قلت : إنما هي نزعة التعبير الغريزية مما يشير فى النفس إعجاباً أو استعزازاً ، تلك النزعة التى
تدفع الوجدانيين إلى التغنى بما يخالف نفوسهم ، واتى كانت مصدراً لتجلى الفن الجميل فجعلت منه
أعظم مسرة بريئة على الأرض ، كما جعلت من المرأة الذكية وحياً وخيالاً للرجل ، فاستفادت المرأة
واستفاد العالم أجمع من وراء الفن الجميل . .

قال . لا أجد فوائد الفنون فى تهذيب النفوس وترقيق الطباع وترقية الخلق بل إن المثل العليا
التي يلدها التخيل السامى هي أهم الأسباب فى التطور الحيوى . ولكن هل يصلح الفن الجميل وهو
كألى بطبيعته ، لأن يتخذ منه الجائع طعاماً والعارى كساء والمحموم دواء ؟ هل يفنى الفن أولئك
الاشقياء الذين يدبون على الأرض كالحشرات المردولة ، والذين ينتزعون اللقمة من يد الحياة وهي
تضن بها عليهم ، عما هم فى أمس الحاجة اليه ؟ وأولئك الفتيات البائسات اللأى كتب عليهن الدل
والعار فنبذهن المجتمع ، هل ينقذهن من جهنمهن ذلك التغنى بجمال الانثى ووداعتها والاعتراف
بجميلها وفضلها على المجتمع وعلى الفنون والآداب ؟

وصمت صاحبي لحظة ، ثم أخرج من جيبه صحيفة نشرها أمامه وأشار إلى بضعة سطور مختبئة
وسط الأعمدة المرصوفة بالكلمات وقال : انظر ! فقرأت فيها اعلاناً حادياً عن زواج فتاة بفتى وموعداً
ذلك الزواج . فقلت . لا أرى شيئاً يلفت النظر ! . قال حقاً إن مثل هذا الاعلان المؤلف سيمر به
كل قارئ دون أن يعيره اهتماماً . أما عندي فالحق أقول لك انه استدر من عيني دموع الفرح . لقد
شعرت حين تلاوته أنى قد ربحت أثنى جائزة . لقد أفعم نفسى بنوع لم آلفه من الغبطة والسرور
لا أخال أحداً شعربها غير ذلك المحضن المفعم القلب بمحبة الانسانية الذى يجد فى احسانه لذة لاتعادلها
كل لذات الحياة ومسراتها . .

فتنقارت إلى الأسكين وقد تملكته نشوة الغارب مستغرباً ، فاذا به يخرج ورقة دفسها إلى وقال : هل لك أن تقرأ هذه الرسالة ؟

فقرأت : « سيدى العزيز . أبعث اليك مع هذه الرسالة الصحيفة التى نشرنا فيها خبر زواجنا ، أى لقد تزوجت زيجة سعيدة من زوج أحبه ويحبني وصرت منذ الآن زوجة مكرمة وربة دار وسأصير أماء وهذا كل ماتتمناه الفتاة ، ولكن ما أنا فيه اليوم من سعادة كأنها الحلم العجيب لن ينسيني أنك وحدك من أعاد إلى الحياة ووهبني السعادة سأظل ماحيت لك خادمة تلهج بحميك ولا تنسى إحسانك ... »

قال صاحبى : سأزيدك إيضاحاً ، ولكن هل تعلم ملهاتى وفيما أقضى بعض أوقات الفراغ ؟ قلت : لا . قال : فى معاشرة المومسات ١١ قلت : للناس فيما يعشقون مذاهب ١ . قال : ولكن لا تسيء بى الظن فلست أظن أولئك المنبذات ابتغاء المتع وتمرغاً فى الفجور . علم الله لقد شذذت عن الناس فى كل شئ . وجرأتى على ذلك إني خلقت لا أسمع لأقاويلهم وغيباتهم أكثر مما أسمع لطنين البعوض ! أننى أطرق كهوف الدمار لا مثل مع أولئك البائسات ما عثلة الطبيب الشفيق حينما يمر بين مرضى المستشفيات يعالج هذا ويواسى تلك ، فتحتلىء قلوبهم قبل أجسامهم بالنقة والصحة . لأن كانت حياة أولئك البغايا ملاكى بالخطايا وماضيهن ملوثاً بالعار ، فأنا أول من تذوب نفسه شفقة على حالهن . لأنهن علييات القلوب ، يتعطشن إلى ابتسامة الحنان الصادقة ، لا ابتسامة المداينة ونظرات الآثرة والشهوة . هن فى حاجة إلى كلمات الود والاخلاص لا إلى كلمات الاغراء والاطراء . . قديماً رفع يروس فى القصة ، الخطائة بسيغيه إلى أعالى السماء لأنها تطهرت بالآلم وتابت بالندم . وقديماً تقدمت المجذبة الزانية إلى السيد المسيح بين سخط الجماهير فأشفق عايتها وخاطب الجوع قائلاً « من كان منكم بلا خطية فليقدم ويرجها بحجر » . . لقد أنصف أنا طول فرانس حينما جعل من تاييس الراقصة الملوثة بالخطية قديسة يكمل رأسها النور ، لأنها تابت ووهبت قلبها وحياتها لله . كما أصاب دوماس الصغير حينما جعل من مرغريت البغى زوجة وفية تضحي بسعادتها فى سبيل زوجها .. لأنه كم من بغى تحمل نفساً أنقى فى جوهرها من ربوات النفوس المحتجة وراء الحدود ، المنعوتة بالطهر والشرف ! وكم من زوجات وأمهات من لوقيس بفضيلتهن وعفافهن فضيلة بغى عاهر تخرجت البغى قديسة نقية ! . أطرق أولئك المومسات لا نقذ من أقدر على خلاصه ، فأنتشل نفساً من الجحيم ، وأملأ البقية ثقة بالمستقبل الذى فقدته . انهن ينتفضن فرحاً حينما يتذكرن أنه ليس من المستحيل أن يفلتن من تلك الكهوف ، ومن هؤلاء الضيوف الثقال الذين يساومونهن كل لحظة فى أجسادهن ، حيث يعشن فى عزلة ، لا أم لهن تحنو عليهن ولا أب يرعاهن ولا صديق يواسيهن لأن أولئك

أول من نبذهن وتبرأ منهن . فيخرجن إلى نور العالم ويندجنن في الأسرة البشرية ويحققن ذلك الحلم الذهبى الذى طالما نعنن فى أجوائه فيصعبن زوجات وامهات مبعجلات . .

وقال صاحبنى : ماخولت باحداهن مرة وأفرغت لى مكشونات قلبها حتى شعرت بأنها ضحية فرد من ذلك المجتمع الذى زج بها إلى الهاوية وغسل يديه فى دمها ورأيت كيف أن حياتها المسمومة تود لو تفتت السم فى كل من يقترب منها لتنتقم لآمالها المحطمة ! .

وفى يوم عثرت فى تلك الكهوف على فتاة يفتن القلوب حسننها ونضارتها ، وعجبت كيف تسرب هذا العمر الغض وذلك الجمال البادر إلى تلك البيئة الموبوءة ، وقلت هذه ضحية جديدة تساق إلى الذبح . ولم تدعنى أفكر إذ أقبلت نحوى مثل جنينة البحار التى كان الملاحون فى الخرافة يستشهدون فى سبيلها ، وقد أسفرت عن أعضاء بديعة التركيب لم يستر جسدها إلا ملس سوى غلائل كأنها الغيوم الشفافة تستهوى أن تحجب ضياء القمر ، ولكنى رأيت غلالة الشهبوب الرقيقة البادية على وجه بديع التناسب حلو التقاطيع هو أشبه بوجه دمية نقية لآلهة معبودة أو تمثال حى للفن الجميل ! وبدأت تمثل دورا يتخلله التكلف فن ضحكات مرة إلى غناء سخيىف . . فقلت لها : يخال لى إنك هنا سعيدة يعلن عن غبطةك هذا الضحك وهذا الغناء والرقص ! .

فأجابت وهى تنضد شعرها بحركة عصبية : ربما . ثم أشاحت عنى بوجهها وقالت : إن أمثالنا لا يعرفن فرقا بين السعادة والشقاء ! .

قلت : ومتى أتيت إلى هنا ؟ قالت : منذ بضعة أيام . .

قلت : إن صدق ظنى فأنت لم تخلقى لمثل هذا المكان ، لابد أن تكونى ضحية جديدة ضمت إلى سجل الشهداء . هذا المراح لا يغرب مجرباً مثلى ، انما الطير يرقص ألماً إذا ذبح !

قالت : وقد ارتسمت على محياها الصبوح علائم الألم والحيرة : لماذا تؤلمنى بمثل هذه الكلام ، ولم لا تفعل كما يفعل الشبان أمثالك ثم تذهب إلى سبيلك ؟

قلت : ذلك لانى لست مثل أولئك الشبان الذين تكتظ بهم هذه المنازل سعياً وراء الشهوات ! انما أتيت أقضى برهة فى الحديث البريى ثم أدفع مثاهم أجر هذه المتعة وهاك الأجر ! .

قلت : هذه الكلمات هادئا ولكنى رأيتها قد انتفضت وتناولت النقود فألقت بها من النافذة وارتحت على مقعد تبكى بكاء مرأ !

فأقبلت عليها وقد امتلأ قلبى أسى وقات : عفواً لعل أسأت إليك من حيث لا أقصد . هلا اتخذتنى أخا يعينك ويعمل خلاصك ؟

فرفعت وجهها المبتل بالدموع وأحدقت فىّ وقالت : ماذا تعنى ؟

قلت : إصني إلى برهة ، أنا لا أعلم عن ماضيك شيئاً ولكني أحس أنك أهل لما أعرضه عليك .
وستعلمين أنني لا أبتغي من وراء مساعدتك جزاء ولا شكوراً . فهل أنت سعيدة بهذه المهنة
الشائنة التي قذفت بنفسك إليها ؟

قالت وهي تبكي وقد أنست إلى : إني شقية تسعة وقصتي طويلة مؤلمة ، لكنني أطلعك على زبدتها
إذ أراك تختلف عن غيرك . فلقد نشأت في أسرة كريهة وعشت إلى عهد قريب فتاة طاهرة معززة
وكانت تقطن بجوارنا أسرة أخرى تعرفنا إليها وتبادلنا معها الود وكان في تلك الأسرة شاب هام
بحبي ثم خطبني من أهلي فرأيت فيه في بادئ الأمر إخلاصاً ووداً صادقاً ، ولكني لسذاجتي لم أنغلغل
في أعماق نفسه فأرى الخبث والخداع ! ولو كشف لي عنهما ما صدقت ، لأن ظاهره كان لا ينم عن
باطنه . وعشنا بضعة شهور في كنف الحب والسعادة فأوليته ثقتي حتى إذا ما قرب موعد الزيجة
خدعني الأثيم ، وكانت أسرته قد انتقلت بعيداً عن دارنا وأذابه وقد انقطعت زيارته وفر فلم أعد
أسمع عنه شيئاً ! وقضيت الليالي محزونة مكروبة أعلل النفس بعودته فلم يعد . وشعرت أسرتي بزلتي
نخشت العار وتنكرت لي ثم طردتني بلا رحمة .. وهالتي الأمر فرحلت من وجه الفضيحة إلى
هذا البلد حيث تلاقفتني أمواج الحياة وقادني فاسق إلى هذه الثورة لأكون في متناول يده
فاستسلمت وقد جددت في نفسي المشاعر واستوى عندي الخير والشر ، وهأنذا هنا كما تري أبيع
جسدي لكل طارق في سبيل اللقمة والمأوى ، عالمة أنني هنا سجيننة تعسة أرضخ لأوامر ربة الدار
وهي توصيني بالضحك والمرح لئلا يفر من وجهي الضيوف !

وحادثت تبكي ثم قالت : أستحلفك بالله ألا تقل شيئاً لربة البيت لئلا تقتلني ! . قلت : ثقي بي
ثم خرجت إلى ربة الدار الصفيقة الوجه وقلت لها وأنا أخرج من جيبي حفنة من المال : لقد أرسلني
فلان باشا إليك مع هذا العربون لآتي إليه بهذه الحسنة التي سمع بها لتقضي عنده ليلة واحدة
وسيعطيك كل ما تطلبين من أجر ! أما أنا فثقي بأني سأأتي بها إليك صباح الغد ! .
فترددت المرأة قليلاً ثم رفضت ، ثم عادت تنظر إلى النقود . ثم رضخت أمام تلك اللهجة الصادقة
التي مثلتها . وسمحت باطلاق سراح سجينتها ليلة واحدة ، بعد أن أفرغت جعبتها من عبارات
التحذير والوعيد ! .

وانطلقت بغنيمتي إلى جو الحرية فأزلتها في فندق ، وفي الغد انطلقت أسعى لها عن عمل
شريف ، وساعدني الحظ فوجدت لها عملاً في متجر أعرف صاحبه ، ثم زودتها بشيء من المال وودعتها
وفرت بيننا الأيام ! .

صنعت كل ذلك مدفوعاً بلذة الاحسان ورحلت عن المدينة ومرت الشهور ولم أرها وكنت

أسير مرة على الشاطئ ، فسمعت صوتاً مذبذباً يناديني ، وأذاها أُمّامي وقد أخذت يدي تغمرها بالتقبيل والدموع ! وقالت : لقد أنقذت حياتي . فلن أنسى يدك ماحية ، لقد عشت بهائه الذكري في الظلم والشرف وعدت أحسن بأني من الأسماء ، فتذوقت لذة الحياة بعد أن فقدتها .
وكانت تتكلم كعظيمة بريئة غمرت غمرتها هدايا العيد ، وافترقنا ثانية حتى جاءني بالأمس هذه الرسالة وهذه الصحيفة

فعلمت أنها قد تزوجت . وبهذه الرسالة طويت صحيفة من صحف ملهاتي . وللناس كما قلت فيما يعشقون مذاهب ! !

ونمض صديقي وودعني ولبثت في مسكاني أنظر تارة إلى حيث ذهب ، وأتطلع أخري إلى جماعات الحسان وهن يضحكن ويعشن فرحات بالحياة آمناً من غوائل الدهر !



الباب الثاني

شئون مصرية

نشر التعليم بمصر واصلا

ليس المجال هنا ذكر ما يعود على البلاد من فوائد نشر التعليم وما تجلبه عليها الامية من مساوئ . لأن تلك بديهية يلوکها صبيان المدارس في انشائهم وانشيدهم . ولكننا نريد هنا أن نوجه النظر إلى ضعف مجهودنا في مكافحة الامية ، وأننا نسير في ذلك الضرب من الاصلاح سيرا بطيئا جدا . ويعود ذلك إلى ترفع أغنيائنا عن المساهمة في تشييد المدارس أو التبرع بالمال من أجل التعليم ، وإلى قلة ما يصيب التعليم من ميزانية الدولة ، وإلى أن نظام التعليم بمصر في حالته الحاضرة مازال في حاجة إلى الاصلاح والتجديد ..

وإنه لعبنا ما ننادي به من وجوه الاصلاح العام وما ندعو إلى اصطناع الحضارة الاوربية وبعث الامة من سباتها ، عبثا ما نقوله ونفعله في تلك الشئون الحيوية الهامة مادامنا لا نبداً فنوحده الصنف ونبدل أقصى الجهد في استئصال شأفة الامية من مجتمعنا ..

فنسبة المتعلمين بمصر اليوم وجلهم ممن لا يزيد علمهم عن معرفة القراءة والكتابة لم تزد بعد هذه النهضة الاخيرة عن ٢٠ في المائة من مجموع السكان ولا تزيد نسبة المتعلمات عن خمسة في المائة ، والباقي وقدره ثلاثة أرباع السكان أمي لا يقرأ ولا يكتب ! وكانت هذه النسبة منذ مائة سنة أي في آخر عهد محمد علي نحو ستة في المائة ولم تزد النسبة عن ستة ونصف في المائة عام ١٩١٧ . وهذا دليل على البطء في القضاء على الامية في حين أن أما أوربية صغيرة مثل السويد والنرويج والدانمرك بلغت فيها نسبة المتعلمين مائة في المائة منذ سنوات عديدة . ووصلت في اليابان إلى تسعة وتسعين في المائة وقاربت في انجلترا وسويسرا والولايات المتحدة المائة في المائة ولم يبق أمامنا من ينافسنا في انتشار الامية غير الهند والصين وما شابههما من الامم المتأخرة ! ..

ولقد تأخرنا في تنفيذ مشروع التعليم الاجباري المجاني بينما هو نافذ في أمة حديثة العهد بالمدينة الغربية كالإبان منذ عام ١٨٨٢ وفيها وضع قانون للتعليم وتجديده منذ سنة ١٨٧٢ .. وبينما كان التعليم في حكم محمد علي مجانيا واستمر ذلك إلى أواخر عهد اسماعيل إذا بنا اليوم لا تقبل في مدارسنا الحكومية إلا عددا قليلا من تلاميذ المجانية الذين لا بد من توفر عدة شروط فيهم مثل صغر السن والفقر والحصول على نسبة مئوية معينة من الدرجات وغيرها ..

وكننا مقصرون في الواقع في محاربة الامية . حكومة وأفرادا ، أما الحكومة فإن ما تنفقه على التعليم في ميزانيتها نحو خمسة في المائة وهذا قليل جدا لاسيما إذا اقتنعنا أن التعليم هو أول وأهم الوجود التي ينفق فيها المال وتقدم لأجله الهبات والتبرعات . وتسكاد مصر تنفرد بهذه النسبة بين

الاسم الآخذة في النهوض فإن امم البلقان لا تنفق احدها اقل من عشرة في المائة من دخلها بينما تنفق الامم الراقية من ٣٠ إلى ستين في المائة ..

وترصد الولايات المتحدة على التعليم نحو اربعمائة مليون جنيه سنويا تنفق على ٣٦ مليون تلميذ ، منهم مليون في نيويورك وعلى تسعمائة الف معلم ومعلمة ، ولا تدخل السكيات والجامعات التي لا تنفق عليها الحكومة في هذا العدد ..

أما إنجلترا فانها تنفق على التعليم الاجبارى المجانى نحو ثمانين مليونا من الجنيهات في السنة منها ٥٨ مليونا ونصف مليون على التعليم الابتدائى والباقي على الثانوى . وتنفق مدينة لندن وحدها على التعليم الابتدائى فقط ١٣ مليونا من الجنيهات في السنة ..

وإذا قيل أن عدد سكان مصر وهو يقرب اليوم من ١٥ مليونا قليل تتناسب معه نفقات التعليم فاننا نرى مثلاً جمهورية الأرجنتين بأمريكا الجنوبية والتي لا يزيد سكانها عن عشرة ملايين فيها خمس جامعات يبلغ عدد طلبتها أكثر من ثلاثة عشر الفا وأساتذتها نحو ١٢٠٠ ..

وإذا علمنا أن في لندن وحدها ألف مدرسة عمومية وصبعين مدرسة ثانوية و ٣٦٠ مدرسة فنية وصناعية وعدداً من المدارس الخصوصية . وعلمنا أن عدد رياض الاطفال في اليابان مثلاً ٦٦ الف مدرسة وعدد المدارس الابتدائية بها نحو ٢٦ الف مدرسة والثانوية ٤٤٠ مدرسة للبنين و ٦١٨ للبنات وأن في مدينة طوكيو وحدها عشر جامعات مختلفة . وهذه الأرقام تزداد ولا تنقص .. وعلمنا أيضاً أنه ليس لدينا من المدارس الأهلية غير الابتدائى والثانوى منها ، وأن أكثر المدارس الأهلية عندنا تجارى غير منظم ، فاننا نرى أن ما في القطر من مدارس حكومية ، وهى أهم ما فيه من دور العلم النظامية ، لا يفي بحاجة السكان على الرغم مما تبذله وزارة المعارف من همه لا تعرف الكلال مع قلة مواردها المالية وضآلة المبلغ المخصص لها في الميزانية العامة ..

فعدد مدارسنا الابتدائية الحكومية في القطر كله اليوم ٥٢ مدرسة للبنين و ١٨ للبنات وتشرف الوزارة على ١٧١ مدرسة أهلية ابتدائية للبنين والبنات .. وعدد مدارسنا الثانوية ٢٥ للبنين و ٩ للبنات منها اثنتان خصوصيتان وتخضع خمسون منها لتفتيش الوزارة .. وعدد المدارس العليا أربع غير كليات الجامعة العشرة .. وعدد الأقسام الليلية لتعليم العمال ٧٥ ويتبع مجالس المديريات ١٥٧ قسماً وعدد المدارس الأولية ٢٣٩ والمدارس الأولية الراقية للبنات ٢١

ومع أن عدد المعاهد وعدد التلاميذ في ازدياد إلا أن الملاحظ في تلك الأرقام أنها لا تكفى للقضاء على الأمية قضاء سريعاً ، وأنها لا تقارن بها أية أمه أوربية ونحن نطمح أن يكون عدد المدارس الابتدائية الحكومية مثلاً ألف مدرسة بدلاً من سبعين . ويكون عدد المدارس الثانوية

مائتين بدلا من ٣٥ وذلك لن يكون إلا متى توفر المال . وقد آن الوقت لأن تخصص الحكومة عشرين في المائة من دخلها لمحاربة الامية ، وأن تحجب ضريبة إجبارية باسم التعليم على الأغنياء الذين لا تفتح الأمة من أموالهم ، وأن تحجب لذلك ضرائب على الكاليات وغيرها كما يفعل المجلس البلدى بالاسكندرية فتسكون تلك التفضحية الصغيرة فى سبيل ذلك الخير العام ، ولدينا من انبجائرا وما تجبىه من ضرائب فى سبيل الاصلاح العام خير نموذج لمعاودة الشعب بحكومتته .. وكذا آن الوقت الذى نبطل فيه كل سبيل ينفق فيه المال لغير الاصلاح فنقتصد فى عديد الابواب كالحفلات والسفارات والوظائف وغيرها . وكذا آن الوقت لان يؤسس الأغنياء شركات للتعليم الأهلى تحت اشراف وزارة المعارف .

فأين هى هبات أغنيائنا فى سبيل نشر التعليم ومحاربة الامية ؟ لقد بلغ مجموع هبات كرنجى الأمريكى وحده سبعين مليوناً من الجنيهات لتحسين التعليم ونشر المكاتب وانشاء اللجان العلمية والتهذيبية . أضف الى ذلك هبات ركفلر ومورجان وفورست وغيرهم . بل أن أميركا تتبرع وحدها كل سنة بأكثر من اربعمائة مليون جنيه فى سبيل الرقى الأدبى والعلمى فى العالم ، ولا تخص بذلك بلادها وحدها . وفى البلدان الاوربية تعلن احدى الجامعات أو المدارس عن حاجتها إلى مبلغ من المال ، فيتسابق الأغنياء والفقراء إلى التبرع بأكثر من المبلغ المطاوب .. وبمصر عدد وافر من الأغنياء الذين يمتلكون الألوف من الأقدنة والعديد من المهارات والطائل من المال المدخر . بل بمصر أكثر من اثنتى عشر ألف رجل يملك الواحد منهم أكثر من خمسين فدانا ومع كل ذلك لا نسمع بالتبرعات إلا فيما ندر . وهؤلاء الاغنياء هم الذين يتركون جمعية المؤاساة مثلا تستعجدي الجماهير بورق النصيب وبمجمع القروش فى الطرقات .. وفى اليابان توزع مالية التعليم بين خزائن الحكومة المركزية وخزائن المحافظات والمديريات فتدفع خزينة الحكومة الخمس ، وخزينة المديريات النصف وتدفع الباقي خزائن المدن الكبرى والمحافظات . والخلاصة لقد آن الوقت الذى نقشبه فيه بفضائل الامم المتحضرة وأن نسير وفق أساليبها فى قضائها على الامية ..

* * *

ولنذكر بعض الاقتراحات التى يمكن اضافتها على سياسة التعليم عندنا :

أولا — يجب أن تبسط وزارة المعارف سلطانها ، فى الوقت الحاضر على الأقل ، كما هو الحال فى تركيا واليابان ، على كل ما يختص بشئون التعليم فى القطر كله ، فتضع جميع المدارس الاهلية بلا استثناء تحت مراقبتها واشرافها . وما لا يصلح لذلك الاشراف يجب قفله . وكما أنه لا يجوز لأى متجر أو مصنع أن يفتح أبوابه بلا ترخيص ، كذلك لا يجب فتح مدرسة بدون هذا الترخيص . كما أن

الواجب على كل المدارس الأجنبية بمصر أن تتبع أنظمة وزارة المعارف، ومناهجها بعد تنظيمها واستقرارها . وذلك لتوحيد التربية وتجانس الثقافة وتقرب أبناء الاجانب من روح البلاد التي يعيشون فيها ..

ثانياً — لا يجب أن يقوم بمهمة التعليم إلا من حاز على أجازتها . كما أن المحامي والطبيب بل والجمال وسائق العربات لا يستطيع أحدهم القيام بعمله دون ترخيص من الحكومة . والا اختل النظام وتسربت الفوضى في المجتمع . والرأي ألا يصرح لكل من هب ودب بالقيام بتفقيف أبناء الامة ، حتى ولو كان حائزاً على شهادة أخرى غير شهادة التدريس إذ ليست الخبرة في فن التعليم بالمعومات ، بل بالقدرة على تطبيق فن التربية . أضف إلى ذلك أن كثيرين من خريجي المعامل العليا لا يجدون اليوم عملاً وكثيراً غيرهم يشغل أعمالاً كتابية في مصالح الحكومة ..

ثالثاً — يجب الاكثار من المفتشين الذين لا تغفل عيونهم عن كل صغيرة وكبيرة من شئون المدارس لاسيما الاهلية منها . وأن يختص عمل بعضهم بالصحة العامة والنشاط المدرسي وخاصة في تلك المدارس البالية القائمة كالزرائب في الاحياء الوطنية والقرى . فيلاحظون فيها النظافة وتوفر الشروط الصحية ، كالأضاءة والهواء والأدوات الصحية وغيرها ..

رابعاً — أن الوزارة قد أحضرت صنعا باغلاق مدرستي المعلمين الثانوية والمعلمين العليا واستبدلها بمعهد التربية . وقد بقت مدرسة دار العلوم وهي المدرسة التي أسست في عهد الخديوي اسماعيل لتخريج مدرسي اللغة العربية والديانة ..

وهذه المدرسة التي يتخرج منها المئات من الطلبة لا يتعلمون فيها لغة أجنبية ولا يجد أكثرهم عملاً بعد انتهاء الأربع سنوات . والواجب أن تدمج هذه المدرسة في كليات الجامعة المصرية فيتعلم طلبتها إلى جانب تخصصهم في اللغة العربية والدين ، لغة أوربية يتقنونها بآدابها ويساهمون بها في الحركة الفكرية العالمية ، وكذا الحال في المعاهد الدينية فإن من الجائز أن يدرس طلبتها لغة أجنبية لاغنى عنها في القرن العشرين ..

خامساً — يجب رفع مستوى المعلمين الادبي . ولا أخال هناك بلداً تتمتع فيها مهنة التعليم كما في مصر . وأهم سبب لذلك احترام فئة كبيرة من العامة والعاطلين مهنة التدريس إذ ليس هناك قانون أو رقابة تمنعهم من احترام هذه المهنة . فأضاع ذلك على المعلمين الفنيين كرامتهم ومزلتهم . والرأي أن يصدر قانون يمنع الاشتغال بهذه المهنة إلا لمن يحمل ترخيصاً بذلك من وزارة المعارف وكذا يجب انتقاء المدرسين من صفوة الطلبة وخلاصتهم المتميزين بالشفعية القوية والجسم السليم والذكاء ، لأنهم سيكونون القدوة والمثل لأبناء الامة . كما أن من الواجب أن تتساوى معاملة المدرس

التي مع زميله الحقوقي أو المهندس مثلاً ، من حيث نظام الترقية والمركز الادبي ، حتى لا يشتر المدرس بعين يموقة عن أداء مهمته الخطيرة . وأن يقلل من تنقلات المدرسين الى مختلف البلاد لاسيما أثناء العام الدراسي . وأن تخفف لهم أجور السفر أثناء العطلة المدرسية ليقوموا برحلات تزيد من ثقافتهم . وأن تفتح في وجوههم أبواب الجامعة ليستكملوا دراستهم . وأن تكون بعثات التعليم من المدرسين المتخرجين في مهنتهم لأمن الطلبة فقط ، وأن تشجعهم الحكومة على كل مجهود علمي أو أدبي أو فني يبذلونه فوق أعمال مهنتهم . وألا تقاس جهودهم بالأقدمية ، وهذه الأقدمية التي تقصرها مصالح الحكومة عندنا في استحقاق الترقية لم تعد منسجمة وروح العصر الذي يمثل فيه الشبان الأكفاء مناصب الوزارة ورئاسة الجمهوريات ..

وأنا إذا اتخذنا في هذا الباب دولة كاليابان تسعى وراء رقي التعليم والمعلمين وجدنا أنها تمهد لهم سبل القيام بالبحث العلمي والتجارب العلمية والفنية في كليات الجامعة . وتقوم المدارس هناك بدفع أجور السفر ونفقات الرحلات لتوسيع ثقافتهم ، كما أنهم يمنحون فوق مرتباتهم مكافآت مالية جزاء قيامهم بالأعمال الإضافية . وتعترف وزارة المعارف هناك بمجهودهم فتمنحهم الرتب والأوسمة

سادسا — يجب أن نوجه مجهودا خاصا إلى تعليم الفتيات بحيث تصبح جميع الإلهات المصريات يوما متعاملات . وكذلك يجب أن نبدأ في نشر التعليم الاجباري المجاني في كل البلاد للجنسين ..

سابعا — يجب أن نزيل العقبات من وجوه الراغبين في العلم فلا نتمسك كثيراً في تحديد السن التي كثيراً ما تقفل أبواب العلم في وجوه الكثير من التلاميذ . ويمكن انشاء فصول خاصة بكبار السن ، كما تنشئ بعض المدارس الاوربية فصولا لضعاف البنية مثلاً . وكذلك لا يجب فصل التلاميذ الذين يتكرر رسوبهم مرتين في فرقة واحدة لأن ذلك يضطرهم إلى الالتجاء إلى بعض المدارس الأهلية حيث تضيع أعمارهم سدى ..

ثامنا — أن نغرس في الاوساط المدرسية أن ما يحتاج اليه الطفل ليس قاصرا على استذكار المواد للحصول على الشهادة . إذ نحن مازلنا نقسدهم الشهادة ولا نقيس الكفايات والمواهب إلا بالشهادات . ونحن كما قال سعد زغلول لسنا في حاجة إلى كثير من العلم حاجتنا إلى الاخلاق الفاضلة . كما يجب أن نعهد الملكات الفنية في المدارس وندخل الموسيقى والتصوير والتمثيل وغيرها من الفنون الجميلة في النشاط المدرسي . كما يجب أن نصل بين التلميذ المصري وبين العالم الخارجي وما يحدث فيه من نشاط وتقدم لاسيما في الصناعة ، اذ لا تتعدى معلومات جل التلاميذ عندنا ما في يدهم من كتب ، ولنهتم بمسألة التعليم بالسينما ونشر المجلات الخاصة بالتلاميذ وبالمكاتب العامة

تاسعاً — أما التعليم الإلزامى في شكله الحالى فيه نقط جدية بالعلاج . فهو لا ينتفع به اليوم إلا عدد قليل بالنسبة لأطفال القنطر الذين تنطبق عليهم شروطه . وهؤلاء غير ملزمين بالحضور إلى مدارسهم وكثيراً ما يتركونها ويصبحون آباءهم إلى الحقول ولا بد من أن يسن قانون يلزم الآباء بإرسال أبنائهم إلى المدارس وإلا تعرضوا للعقوبة ، فيصبح التعليم إجبارياً لا اختيارياً . ثم إن هذا التعليم مقصور على نصف النهار وهذه فترة لا تكفى للحصول . ثم يجب ألا يفصل بين البنين والبنات في هذا الدور لأن ذلك مما يزيد في النفقات وعدد المعلمين

عاشراً — ويجب أن نوجه اهتماماً نحو التعليم الإقليمى وهو عنصر متمم للتعليم الإلزامى إذ لكل إقليم بمصر ميزاته وزراعاته وصناعاته فيمكن تعليم التلاميذ ما يتفق مع خواص إقليمهم فإذا تميز بزراعة القماكة أمكنهم تعلم أساليب تجهيفها وتصديرها وترقية أنواعها وصناعة المربيات والنصير وغير ذلك . وإذا اقتص إقليمهم بالمراعى تلقنوا صناعة الصوف والغزل والنحوم وغيرها . وإن كان إقليمياً ساحلياً تدربوا على صيد الأسماك وتصديرها وحفظها وتوليدها وبذلك يشبون على تقدير العمل الحر المنتج ويمكنهم ترقية صناعاتهم المحلية على أسس علمية عصرية بجانب تعادهم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم

حادي عشر — وعلى ضوء تجاربنا في السنين السالفة وعلى ضوء التقارير التى وضعها كلابايد ومان ورجال وزارة المعارف ولجان المناهج يجب أن نضع المناهج المدرسية المستقرة مراعين أولاً ربط التعليم الابتدائى بالناووى وعلاقته بالتعليم الفنى من زراعى وصناعى وتجارى وناظرين ثانياً إلى توجيه الطلاب إلى الناحية التى يقتضيها استعدادهم واهليتهم . ومهتمين ثالثاً بما يحتاج إليه المجتمع المصرى فى حياته الجديدة من نتائج هذه الدراسات لا على أساس النظريات العلمية فتعد المدارس الصناعية مثلاً لصناعة الحاجات العصرية التى ينتفع بها المجتمع فى حياته اليومية والتى يمكن رواجها فى الخارج ، وكذلك تعد المدارس الزراعية لدراسات المنتجات المحلية التى نحتاج إليها وتغنيها عن شرائها من الخارج

والمناهج الدراسية العصرية الثابتة لم تستقر إلى الآن لأن الحالة السياسية فى بلادنا لم تستقر بعد وكان تغيير الوزارات كل حين يتبعه تبديل وتغيير فى سياسة جميع الوزارات بما فيها وزارة المعارف ، وقد آن لنا أن نضع القوانين الثابتة لكل مراحل التعليم ولا نضن بالمال فى سبيل تعميمه وإصلاحه . .

في الأدب المصري

الأدب في جوهره وقيته لا وطن له ولا لغة. لأنه فن جميل ينشد الجمال ويتعشقه ، وينقد الحياة ويكشف عن حقائقها وخفاياها ، وينبثق من النفس البشرية التي تسعى وراء الاتصال بالطبيعة وتتخيل كمالها ، وتدرك بالبصيرة جمالها . فهو من تلك الوجهة هبة عالمية شائعة يسعى القائلون بالوحدة الكونية إلى إتخاذها وسيلة نبيلة إلى جمع أشتات الانسانية ومزج عناصر البشرية . .

غير أن الأدب مثل كل جوهر ، يمكن أن يكتسب بشق الحل ويتشكل بمختلف الألوان فيتأثر بالبيئة وما تنطوي عليه من مجتمع متحضر أو متأخر ، كما يتأثر بالروح الذي يسود تلك البيئة وبالحالة النفسانية التي بها ، فهو يخضع للحياة البشرية ويستمد منها قوته أو ضعفه وجماله أو قبحه ، فتخرج آداب الشعوب من وراء تلك المؤثرات سائرة في مختلف الطرق لسكنها يجتمع في النهاية عند ضاية واحدة . .

وهكذا تتباين آداب الأمم باختلاف شخصياتها إذ أن للأمم كما للأفراد شخصيات تتجسم فيها خلقها وأمزجتها ووراثتها وصور حياتها الاجتماعية . ولما كانت تلك الصور الاجتماعية لا تتشابه وأمزجة الشعوب لا تتماثل لما للبيئات والأجواء والعوامل المكتسبة والموروثة من آثار ، كانت آداب الشعوب الى اليوم مختلفة في اتجاهاتها ومظاهرها . .

وهكذا نسمع بمختلف الآداب ولكننا لا نسمع بينها للأدب المصري صوتاً ولا يعرف العالم أن لمصر أدباً قومياً ، فنسمع مثلاً بالأدب الروسي الممتاز بتصوير الحياة البشرية تصويراً صادقاً صريحاً ، معتمداً على قوة الملاحظة وتحليل الخلق تحليلاً نفسانياً ، وتشريح الغرائز والميول تشريحاً دقيقاً ، واصفاً الحقائق بسذاجة وإخلاص لا يشوبهما تسكف ولا تزييف ولا تصنع . . ونسمع بالأدب اليوناني الذي يمجّد الصفات والأخلاق البشرية النبيلة ويرفع أبطال البشر إلى أعلى الآلهة ويقدس الحكمة والفن الجميل ، ويؤله الجمال ويصور الحضارة الإغريقية القديمة تصويراً تكسوه الروعة والفتنة وألوان الميثولوجية . . وبالأدب الهندي الذي يدور حول محور الروح ويتغلغل في أغوار النفس تأهلاً في مجاهل مسحورة ، مشوباً بالتصوف والفلسفة الدينية والرموز ، مبشراً بالحب العام ووجوب الاندماج في الكون وفي الله . . وبالأدب الانجليزي الهادي الرزين الذي تتوازن فيه مظاهر النفس من فكر عميق ووجدان ملتهب وإرادة قادرة ، محبباً إلينا الحياة مصوراً لنا جمال الوجود ، وسعادة الحب وانتصار الفضيلة . . وبالأدب الأمريكي الجديد الذي مرهان

ما استقل عن أخيه الانجليزي على يد أميرسون ويو وهويتان وثورو ولونج ، وأخذ يمثل الحضارة الأمريكية الحديثة ، المشيدة على العلم والنظريات الطبيعية وبشر بلذة العمل وسعادة الواجب وتقدم العلم وجمال الديمقراطية والتعاون والانتصار للضعيف والمظلوم . وظهرت فيه الروايات التي تصف الحياة والطبيعة الأمريكية . . كما بدأنا نسمع اليوم أيضاً بأدب حديث يمثل أمة جديدة ناهضة هي جمهورية تشكوسلوفاكيا ، ذر شارق الأدب القومي في ربوعها وهي بعد في دور التكوين والنشوء . . ولسنا نجعل مركز الأدب العربي بين تلك الآداب ، وهو الأدب الذي تتغذى مصر لها أدباً قومياً حتى اليوم ، وهو لا يمت إلينا بصلة ولا ينسب فنحن لا نتحدث في حياتنا اليومية بلغته الفصحى ولا نستعمل استعاراته وكنياته ومترادفاته ، ولا هو يمثل الحياة المصرية ولا الروح المصرية ، لأن الأدب العربي الذي تضيق به اليوم رحبات مكاتبنا هو أدب أسوي وليد الصحراء ومصور الحياة البدوية والمعيشة العربية وما فيها من مرافق وانقجاع كلاً وأسواق وخيام وأبل وأطلال وديار ودمن . وممثل البدو وهم يشنون الغارات ويعبدون المسكرم ويظعنون على الأبل ويتلاقون قبائل ثم يتفرقون ، وهو ديوان نحرهم وحماستهم وهجائهم وتباهيهم بكرم الأصل وكثرة العدد وعظم الشجاعة وجمال البادية وما فيها من كبيرة وصغيرة . .

فأي صلة بين هذا الأدب وبين المجتمع المصري الذي يمتاز بخواص وميزات تناقض الوسط العربي تماماً . وأين هو من ذلك الأدب المصري الذي يمثل النفسية المصرية ويصور المزاج المصري ويستمد من الحياة المصرية مادته وعناصره ؟ إن تلك الأزجال العامية والمواويل الريفية والاغاني الشعبية التي يترنم بها العامة بمصر هي اليوم كل ما في مصر من أدب قومي حقيقي ، وفي تلك الأزجال والمواويل والاغاني التي لا يعنى أحد بدرسها وجمعها وتهذيبها ، من المعاني الرقيقة والشعر الصادق والشعور الحى ، ما قد يغرق تلك المعلقة العربية التي نضعها في مقدمة ما نفخر به من آداب . . إن الأدب القومي المصري هو الذي يصور مصر الوديعه الهادئة ذات الحقول الخضراء والريف المزدهر بالقطن والقمح ، المفروش بأشعة الشمس ، المكتنف بتلال الصحراء المسجدة ، المستظل بقبة سماوية صافية الأديم قلما تتلبد بالغيوم أو تدوي بالرعود ، يجري وسطه نهر عظيم كأنه الفكر العميق أثقلته تجارب الصنين . .

وهو ذلك الأدب الذي يصور الفلاح النشط وهو يزرع ويحراث ويحصد ، والفلاحة القمحية اللون الخفيفة الروح ، المعتدلة القامة تسير الهوينى مع جرتها إلى الموردة ، والمرأة المصرية تتطلع إلى العالم المائج من وراء خدرها كما يرى الناعس أعذب الأحلام ، الذي يصور أصحاب الجلايب الرعاء وهم يد الأمة العاملة وقلبها النابض ، وأرباب العائث والطرايش وهم رأس الأمة المفكر ،

وهو ذلك الأدب الذي يحال النفسية المصرية ذات المزايا الخفية بالتفائل وسرعة الانفعال والبشاشة والصراحة في القول ، وعدم الثبات على حال ، والميل إلى المعايشة ، ويصور المصري بطبعه الهادي وميله إلى السكينة والرضوخ لحكم القضاء والقدر ، واتسكاه على الله وقناعاته بما يصيبه من رزق ، وحبه على ما يحمل به من مكروه . واستسلامه لشيثة القوة واحتماله للظلم والاستبداد أملاً في عدالة الله . وسذاجته الفطرية وإرادته الضعيفة وتغلب وجدانه على فكره وميله إلى الفكاهة والمداعبة والتنسكيت وضميره من الانهماك في المسائل العويصة ، وحبه للتسامح ولثناء الناس عليه وللنقد والتهمك . .

ذلك التحليل للنفسية المصرية في حاجة دائمة إلى درامات وقصص وأشعار تدرسها وتنقدتها وتعرضها صوراً مصرية أمام البصائر المصرية . .

ولكننا نرى حتى الساعة أن الكثيرين بمصر لا يفرقون بين الأدب العربي والأدب المصري . فهم يزعمون أن الأدب العربي هو أدب البلاد المقدس الذي يتعصب له ويشاد بذكره وينسج على منواله ، ويلقن للأبناء في جميع معاهد العلم فيأخذ التلميذ المسكين يستذكر أوصاف « سقط اللوى والدخول وحومل ونجد والمقراة » ويصيح مع عنقة في قوله « والطنن منى سابق الآجال » ويبكى مع الحنساء قائلاً « فيا لهفى عليه ولهف أمى » ويتغزل مع امرئ القيس قائلاً « برهرة رودة رخصة » ويفخر بالسيوف مع عمرو بن كلثوم قائلاً « نشق بها رؤوس القوم شقاً » ويحذو حذو الحريري والهمداني في مقاماتهما فيتعلم البهرجة والذهب بالالفاظ وتضعحية المعنى في سبيل الزخرف ويحال الأديب بهلوانا يسرى الهموم ويضحك السامة . وينسى أنه مصري في حاجة إلى أدب مصري قويم يهتز به ويفخر ، ويتأدب به ويتهدب ، أدب يحبب إليه بلاده الهادئة الوديدة التي تفيض حباً ونباتاً وحنات ألفاظ . .

وأولئك الكثيرون الذين لا يؤمنون بالأدب المصري هم الذين يرون في الأرجال والمواويل والأغاني القومية مخافات من عبث العامة وهي في الحقيقة كل ما لدينا من أدب قويم وهي النواة التي ستنمخض عن شجرة سامقة لا بد أن تبدو يوماً في جنة الأدب العالمي يانعة زاهرة . .

والحق إن الأدب لبث في مصر عدة قرون صناعة يحتكرها المحافظون الذين يرون في الابتكار تمرداً على آثار السلف الصالح حتى جاء محمد على مجدد فكرة القومية المصرية الحديثة فأخذ الناس منذ عهده يهتزون بمصريتهم بعد ما رأوا الجنود المصريين على أبواب القسطنطينية يهددون عرش الخليفة . فتحركت نفوس الأديباء من سباتها العميق المطمئن . وبدأوا يتطلعون إلى الحياة المصرية حولهم فينقدونها ويصفونها . وظهر في القرن التاسع عشر الزجل العامى الذي يدور حوله نقد

المجتمع المصري وكان من رجاله حسن الآلاتي ثم عبد الله نديم الذي كتب بعض قصص تمثيلية باللغة العامية المصرية. ومنذ عام ١٨٥٦ أخذ رفاعة بك الطهطاوي يؤلف الأناشيد الوطنية المصرية وينشرها لتكون وسيلة للاعتراف بالقومية إلا أن جل تلك المنظومات خرج منخرف المعنى والنظم فلم يخلد . ثم أخذ محمد عثمان جلال يكتب الروايات التمثيلية باللغة العامية وبينها تمهيره لرواية مولير المسماة تارتوف وأسماءها بالشيخ متوقف فجاءت قطعة من الأدب القومي الذي يمثل شطراً من المجتمع المصري وينقد بعضاً من عاداته وأخلاقه . .

ومنذ ذلك الحين شمر كثير من الأدباء المصريين بالحاجة إلى الأدب القومي المنفصل عن شبه جزيرة العرب ، فسكتبوا في ذلك مقالات ورسائل وألف بعضهم القصص والروايات المصرية . .

ففي عام ١٩١٤ ظهرت قصة زينب للدكتور هيكل وهي قطعة من صميم الحياة المصرية مسرحها الريف المصري الجليل وأبطالها المزارعون السذج ، الذين يقضون حياتهم الهادئة ذات الوتيرة الواحدة بدعة واستسلام قد تتخللها عواصف قنير روا كد تلك القلوب الساذجة المطمئنة وتطلق غرائزها المعبوسة . ويظهر أن الدكتور هيكل كان منذ تأليفه زينب طالباً بحاجة بلاده الماسة إلى أديب قومي وأدب قومي لا سيما إلى النوع القصصي منه المصدوم يومئذ بمصر ، بدليل قوله في حديث له « أكبر ظني لو أن الكاتب القصصي ظهر في مصر أمير وجه الأدب العربي كله ولعدل به إلى طريق أعتقد أنه خير من الطريق الذي يسير فيه الآن . . . ولست أخفي عنك أن شيئاً من هذا الوهم الغرور جال بخاطري حين كتبت قصة زينب في أثناء مقامي طالباً للعلم بأوروبا » . ثم كتب عام ١٩٢٥ مقالا في الأدب القومي ومما جاء فيه قوله « . . . وكان أكبر كتابنا وشعرائنا يفيض الهامهم أكثر الأمر بشيء غير مصري فاذا زرع واحد منهم إلى الجانب المصري بدافع الحماسة الوقتية أو لظرف طارئ لم تشعر فيما كتب بما يجب أن يكون . لم تشعر بأن نفسه كلها وأن قوائده وقلبه وذنه وكل قواه ومشاعره وعواطفه انتقلت إلى لسانه وإلى قلمه ففاضت بهذا السيل الروحي الفزير الذي يمثل أمة بحالها في عصر من العصور . . » هذا بينما كان الدكتور ضيف يفتتح عام ١٩١٨ محاضراته في الأدب العربي في الجامعة المصرية بقوله : « نريد أن تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية وحركاتنا الفكرية والعصر الذي نعيش فيه ، تمثل الزارع في حقله والتاجر في خانوته والأمير في قصره ، والعالم بين تلاميذه وكتبه ، والشيخ في أهله والعابد في مسجده وصومعته والشاب في مجونه وغرامه . أي نريد أن تكون لنا شخصية في آدابنا . .

ومن حديث للدكتور طه حسين في هذا الشأن قوله : « يجب ألا تحول دراسة الأدب العربي دون وجود أدب مصري قوي ومن الغريب أن الشيخ مصطفى عبدالرازق كان يدرس من مدة قريبة

أدياء مصر القدماء مثل البهاء زهير وغيره، فوجد أنهم أقرب إلينا في مزاجنا وأذواقنا من شعرائنا الراهنين أمثال حافظ وشوقي، ومع ذلك كان أولئك الشعراء يدرسون الأدب العربي ولكنهم ما كانوا يتجنبون الذوق المصري كما يفعل شوقي أو حافظ ..

وكان المرحوم محمد تيمور من أنشط المبشرين بالأدب المصري المستقل، وكان من القائلين بوجوب الكتابة باللغة العامية لغة مصر الطبيعية كما ينادي اليوم بها الزبير ولكوكس. ثم أخذ على عاتقه تأليف عدة قصص تمثيلية باللغة العامية تمثل العادات المصرية بلغة طبيعية ولهجة صادقة خالية من التكلف والتزييف، في لغة الشعب الذي يعبر بها عن آرائه وعواطفه. وقد مثلت تلك الروايات المصرية على المسرح المصري فصادف معظمها استحسان الجمهور الذي رأى فيها مرآة صريحة تعكس صور نفسيته وعقليته وخلقه باخلاص. ولكنّه لم يعمش ليتمم برنامجه، إلا أن ذلك المجهود الذي بذله في حياته القصيرة صادف هوى لدي بعض الشبيبة المشتغلة بالأدب بنفوس تتعطش إلى التجديد وتنشوق إلى استقلال قومي في كل المظاهر وفي مقدمتها الأدب. فأراد بعضهم أن يحذو حذو المرحوم تيمور ويكمل مشروعه الوطني إلا أن العقبات التي قدر للأدب المصري أن تقف في وجهه والتي سيأتى ذكرها كانت تواجه كل عامل على أحياء ذلك الأدب فلم ينبغ ذلك الأديب الوطني المنتظر الذي يمثل الحضارة المصرية ويخلق الأسلوب النموذج ويرسم في نثره أو شعره جميع الصور المصرية المادية والمعنوية ..

وأذكر من أولئك الشبان الذين كانوا يتقدون حماسة للأدب القومي المصري المرحوم عيسى عبيد الذي ألف عدداً من القصص المصرية جمعها في كتابيه « احسان هانم » و « ثريا » وكان له غيرها لم يطبع كما كانت له آمال كبار في نهضة الأدب القومي سحقتها الموت كما سحق آمال محمد تيمور من قبل. ومنهم المرحوم محمود مراد الذي كتب عدة روايات تمثيلية مصرية باللغة العامية على نسق محمد تيمور ولكن الموت عاجله أيضاً قبل أن ينهض بمشروعه. ومنهم الاستاذ محمود تيمور الذي يتابع الآن خطة أخيه لكنه تخصص في القصص المصري الصغير بدلا من الدرامات المصرية. وكان الاستاذ سلامة موسى يدعو منذ زمان إلى الأدب المصري والاتصال عن آسيا ومن قوله: « أن التجديد في الأدب لا يكون إلا بالتجديد في الحياة لأن الأدب يعتمد من الحياة، وعلى ذلك فالتجديد في الأدب المصري بطيء اليوم لأن التطور في تجديد الحياة المصرية بطيء جداً، والذين جددوا مظاهرهم أفراد قلائل، أما الذين تجددت نفوسهم فلا يعدون على الأصابع .. »

وتدل كل تلك الجهود على أن الطبقة المتعلمة تتأهب لاستقبال أدب قومي مصري وتنتظر أدياً قومياً لم يظهر حتى الساعة بمصر وأن هذه المقدمات لتبشر بقرب تحقيق تلك الآمال، لاسيما وأن طريق تحقيقها آخذة في التطور والتجديد والترب من الحضارة الأوروبية العالمية ..

أما العقبات التي تعترض طريق الأدب القومي وكثيراً ما تثبط عزائم المشتغلين به والتي لا بد من تذليلها أولاً ، فنتلخص فيما يأتي :

أولها — اللغة . فهل يكتب الأديب المصري باللغة العربية الفصحى التي لا يتحدث بها مصري فإذا مثلت قصة معصرية على مسرح تحدث الفلاح مع النفير بلغة الجاحظ وابن المقفع ، أم يخرج الأديب المصري باللغة العامية وهي على ما هي عليه من تشويه وركاكة ، أم يكتب بلغة هي الوسط بين الفصحى والعامية والرأي الأخير أقرب إلى الصواب ؟ كذلك يجب على الأديب القومي أن يهجر الأساليب القديمة وأن يقصر ألفاظه على قدر معانيه ، وأن يدع الحذقة والبهرجة والسكناية والتعقيد . كذلك يجب الكتابة بأسهل لغة لأننا في عصر السرعة واقتصاد الوقت والبساطة وبالا سواب والواقعي التصويري الذي يكتب به أدباء الروس ..

ثانيها — إصلاح المجتمع وسفور المرأة ومشاركتها الرجل ومساواتها معه أدبياً وإقتصادياً ، حتى يخرج من اختلاط الجنسين مجتمع كامل يستمد منه الكتاب صوره وإلهامه ..

ثالثها — تجديد الحياة المصرية واتفاقها مع روح العصر الحاضر والأخذ بمعاملة المدنية الأوروبية والارتفاع بكل نتاج العقل البشري من اختراع وعلوم وآداب ، ولا بد أن يؤسس الأدب الحديث مصرياً كان أم اجنبياً على نظريات العلم وفي مقدمتها علوم النفس والاجتماع ..

رابعها — دراسة البيئة المصرية وتاريخها وتقسيماتها ، وتأليف الكتب المختلفة التي تبحث في الشؤون المصرية بعمق وافياً يدرس في المعاهد العلمية ويتلقنه التلميذ فيمكن لأديب الغد أن يستمد من تلك الدراسات مادته ..

خامسها — حاجة الأديب المصري إلى حرية التفكير المؤسسة على البحث والاستنتاج والحكم الخالي من التحيز والأهواء ، لأن المجتمع المصري محافظ على عاداته ووراثاته ، يرى الخروج على القديم تمرداً وعاراً وهذه شر العقبات التي تناوى نشر الثقافة الحرة بمصر

نشر المؤلف هذا الموضوع في السياسة الأسبوعية في عدد ٢٦ يناير ١٩٢٩ وكان له صدى وأثر «



الأدب المصري والوصف

لأجل أن يصطبغ الأدب المصري بالصبغة القومية فمن البديهي أن يكون مسرحه بيئة مصرية ومنبته تربة محلية . ولذا كانت أولى واجبات الأديب المصري العناية الفائقة بوصف الشخصيات المصرية وما يحيط بها من بيئات ، وذلك يستلزم قوة في الملاحظة ودقة في التعبير . وثانيها المقدرة على وصف الميول والأمزجة والاحساسات المختلفة . وذلك يستلزم درسا جيدا في علوم النفس وتجارب ذاتية في ميدان الحياة ..

والبراعة في وصف البيئة المصرية على ما هي عليه من واقم ، وتصويرها تصويرا صادقا محسوسا يكسب الأدب المصري روعة الحقيقة ، وكما اقتربت نفوسنا من الحقيقة كلما زاد تأثرنا بها لعلمنا أنها شطر من حياتنا وعنصر من انبثقتنا ..

وتشمل تلك البيئة المناظر الطبيعية المصرية أيضا ووصف تلك المناظر وصفا فنيا ضروري في ناحيتين من نواحي الأدب المصري وان بدا أحيانا كماليا في باقي النواحي . فهو ضروري في القصة أو الاقصوصة وضروري في الشعر . أما ضرورته للقصة أو للاقصوصة فهو لصبغها بالصبغة الواقعية التقريرية كما في الأدب الروسي ، وجعلها مرآة صادقة للحياة المصرية ، هذا إلى أن تصوير المسكن تصويرا فنيا صادقا يزيد القصة طلاوة وجمالا ويقرب حوادثها الى مخيلة القارئ ، ويمثلها أمام ذهنه كأنه يراها بعينه .. أما ضرورته في الشعر المصري فلأنه يحب الى كل مصرى ما تظله سماء بلاده فيعشق ما في وطنه من جمال ويدرك ما فيه من محاسن ، بدلا من أن يتبرم بها ويقارن بها المناظر السويسرية والمحاسن الإيطالية مثلا ، ولا يرى من بلاده غير وجهها القبيح المؤلم . حقا إنه يمكن للمرء أن يكتشف للجمال في كل زمان ومكان صورا تأخذ باللب وتحميل النفس على التأمل والتفكير والسعيد من قضى حياته ساعيا وراء صور الجمال ورأى في كل ما حوله جمالا ومسرة ، إلا أن مصر لم تحرمها الطبيعة مثل كثير غيرها من بقاع الأرض من صور الجمال ..

ففيها الريف ذو الحقول النضرة والمزروعات الكثيرة وفيها الصعراء ذات القفار والتلال والرمال ، وفيها البحر ذو الاتساع والجلال ، وهي بهدوئها وصمتها تعين المرء على اجتلاء محاسن الكون في سكونة شاملة ورياضة ذهنية لا يعكر صفاءها مكدر ، وصيفها على الرغم مما ما يخامر من قيظ في بعض ساعات النهار يلبس في كثير من الجهات حلا منمقة وأردية من الحسن فضفاضة ، وشتاؤها الجميل يجذب اليه السائحون من كل الأقطار ..

فواجب الشاعر القوي أن يصور في شعره كل ما يري في بلاده من جمال . وهكذا فعل تنسون
بمناظر بلاده فصور بقوة ملاحظته ألوان الطبيعة ودقائق السلوقات ، حتى حبيب إلى الانجليز
بالادهم ، وهكذا فعل كاليداسا بمناظر الهند حتى قارنوه في استجلاء خفايا الطبيعة بدارون .
وهكذا فعل هوجو بجمال فرنسا وهوميروس من قبل بمناظر اليونان وجزرها . وهكذا يجب
أن يفعل الشاعر المصري ..

لأن الشعراء الذين يعلو نواحب الطبيعة ويلفتون أنظارنا إلى محاسنها ويرفعون الحجب المادية
التي تحول بيننا وبينها ، يملكوننا أيضا كيف نحب ونعبد البيئة التي نعيش فيها وكيف نرتاح إلى
العيش في أحضانها ، ونستمد منها رجاء وقوة وفرح وسلاما . قال هكسلي : « عمر الأحي بالحقول والخصاب
والسهول ومثله مثل من يمر في متحف قلبت معظم صوره وتمايله نحو الحائط فإذا علمت ذلك الأحي
جعلت بين يديه برناجها يتصفحة ويقبله فرحا مسرورا » ..

ولسكننا نرى بعض الادباء بمصر لا يعرف كيف يصف المناظر الطبيعية أو ماحوله من بيئات .
لأنه بوجدانه الطامع إلى ما يجب أن يكون لا إلى ما هو كائن ، وبخياله الملتهب الذي أضرمت ناره
حرارة الطقس المصري والمراهقه المبكرة ، بحب المبالغة والأغراق في تصوير الطبيعة ، فيزيد عليها
من الزخارف والزينات ما يذهب بروعة الحقيقة ، وما يخرج من وصفه صورا مضطربة مشوهة
لا تقترب من الاذهان . أضف إلى ذلك ضعفنا في الملاحظة وكان جديرا بالمدارس المصرية أن
تعتنى بتربية قوة الملاحظة في الاطفال حتى ينتفعوا بها في حياتهم وينفعوا بها أمتهم . ولتلك
التربية طرق عدة أهمها الدقة في دراسة التاريخ الطبيعي . زد على المبدعين السابقين تقليد الأديب
المصري للادب العربي القديم وتمسكه بألفاظه المألوفة التي استخدمها العرب في أوصافهم قبل ألف
سنة . فتراد في القرن العشرين يذكر لنا في شعره الوعل والناقة والبيداء وعيون المها وجيد الرئم
وأساريع الظبي . وإذا أراد أن يصف حديقة مثل حديقة قصر النيل أو الازبكية أو ما دونهما
لم يحمل نفسه عناء التصوير الطبيعي ونقل المناظر على حقيقتها ، بل تراء يعمد إلى الخيال فيخرج
من الحديقة المألوفة الساذجة جنة عالية قطوفها دانية تجري من تحتها الأنهار وتفرد على منابر
أشجارها البلابل والأطيال ..

هذه النزعة في المبالغة الخيالية التي تشوه الحقيقة ، أكبر عيوب الادب المصري منذ القديم
حتى الساعة . انظر إلى الشيخ حسن العطار الأديب المصري المعاصر لمحمد علي فانه أراد أن يصف
حديقة الازبكية وبحيرتها في عهده فقال : « وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر في وجنتها
رفقا نسيم نوره على طائنها وساحتها ، والنسيم بأذيال ثوب مائها النضى لعاب ، وقد سل على

حافاتهما من تلاعب الأمواج كل قرصاب ، ورقام على سناير أدوارهما في ساحة أفراحها ، مشردات البليور وجالبات السرور .. « فأى صورة يمكن للقاري أن يتخيلها من حديقة الأزبكية من وراء تلك الصورة ؟ ليس هذا رجوع ليهي الجاحظ الذي يصف الحديقة بقوله « قد اخضر شاربها كالزبرجد الأنضر ، وافترت عن ثغر حصبتها كالدردار الأزهر ، وذآن وجه الأرض يغايظ السماء بغديرها ويرانمها بزرقته وصفائه ، وبزهر حصبائه كما تباريها باخضرار نباتها .. »

وانظر إلى أديب مصرى كبير هو المرحوم عبدالله باشا فكري ، فإنه أراد أن يصف الحمام المصرى وما فيه من مناظر ، فبدلاً من أن يصوره صورة حقيقية رائعة ببساطتها بديعة بسذاجتها أخذ يقول فيه :

« به ماء كقضبان اللجين أصفى من انسان العين ، وأضوأ من جبين الشمس وأعذب من منى النفس ، ينكسر ذلك الماء الفضى على ألواح من المرمر الوضى ، متناسب الترتيب متلاحم التركيب مستحكم الوضع فائق الصنع قد أجيد جلاؤه وراق العيون بهاؤه ولمعت صفحاته وصفت مرآته كأنما جمد من الماء وتجسد من الهواء أو اشتق من أديم السماء فلو رآته بلقى بين يديها حسبته لجة وكشفت عن ساقها »

ولندع القاريء يستنبط من وصف ذلك الحمام ما فيه من مناظر ، وهل هو حمام مصرى عادى ، يقصد الكاتب وصفه كما ذكر قبل هذا الوصف ، أم هو حمام لبنات الجن ؟ إن محاولة التغيير والتحسين فى مناظر الطبيعة وصنع البيئة الساذجة المألوفة بألوان الخيال البعيدة عن الواقع إنما هو تصنع وتكلف وتزييف ، ولقد صدق « رسكن » أوفى أصدقائه الفن فى قوله :

« إن الفن هو اختيار الطاهر المحبوب من محاسن الطبيعة ، أما محاولة التغيير والتحسين فهى التفتن والتكلف ، ولذة المصور فى حب تلك المحاسن ومقدرته فى إعلانها للناس وتشويقهم إليها ، والعظمة فى الفن تكون بنسبة حب الجمال الذى يدعو إليه المصور ، بشرط ألا يأتى ذلك الحب مجحفاً بحق ذرة من الحقيقة »

وإن كان من رأى « رسكن » عدم التغيير فى النقل عن الطبيعة لأنها جميلة لا تحتاج إلى زيادة أو نقص ، فأنا قد نلتبس العذر لمن يحاول مزج الواقع بشيء من المثل العليا بشرط ألا يبعد أذهابنا بتلك المثل عن الحقيقة ، جميلة كانت أم قبيحة . فيحق له أن يتمتع الحواس وأن ينطلق بنا أحياناً إلى أجواء الحرية والجمال المطلق ، وإلا فأنا إذا اكتشفنا فراره من أجواء الحقيقة نقمنه عليه ويأهه وتكلفه ..

والآن لندكر كل أديب مصرى أن تصويره لمناظر بلاده فى بساطتها ووداعتها وسذاجتها تصويراً صادقاً حقيقياً انما هو يخص لبلاد أولاً وللفن ثانياً . ولديه فى مصر المناظر الفنية البهيجة من ساحل بحر الروم شمالاً إلى حدود السودان جنوباً . . وفى الشمال لديه صخور البصر المتسع الذى تلمع صفحته فى أشعة الشمس ولا تحول بين البصر وبين لانهايته غير قوارب الصيادين وطيور البحر وهى تعوف ، وتلك الأمواج التى تتكسر على صخور « المكس » وعلى رمال « الرمل » وتهدأ وتستريح فى الميناء الشرقية . ثمة بحر الاسكندرية الذى تطل عليه المنارة السامقة وعمودى باي وقلاع رأس التين ، كما تتجمع على شاطئه ذكريات المقدونى والبطلمية وكليوباترا والمكتبة الشهيرة ، وهو باق، يذكر القرون والأمم التى مرت تباعاً كالأشباح على تلك البقاع الخالدة ، وتحت تلك الشمس الساطعة والسماء الزرقاء . . ويبدو جمال البحر أيضاً حول « رأس البر » حيث يمتلئ الروح بتقدير العظمة والجمال ويتموج مع النسبات البحرية اللطيفة . وثمة « بين الموجتين » حيث يقبل النيل ثغر البحر صوراً فنية رائعة ، ولديه تلك الليالى المقمرة على شاطئ بورسعيد بجوار بحر ممتد إلى الأفق مسربل بالظلام يطل عليه تمثال « دى لسبس » كأنه شبح جبار من جبابرة الليل ، ويتهامس بين لجبهه وصخبه العاشقون المنفردون .

ويسير جنوباً فتحيط به الحقول النضرة الغنية ومزارع القطن والقمح والبرسيم والأذرة . وقد جرت الترع والقنوات وسط تلك الحقول مساجية منصته لأنين السواقي وتقيق الضفادع . وقد تناثرت القرى والمراكز المصرية بين تلك المساحات المزروعة وكونت لها مجتمعات منعزلة فقيرة وسط ريف جميل يصطبى بأشعة الشمس القوية ، ويهجع مستسماً لأحلامه ، وينصت فى الليل لنغمات الأرغول ومواويل « شعراء » الريف . .

وأولئك الفلاحات ، أولئك القرويات الساذجات الخفيفات الروح ذوات البشرة السمراء الجذابة التى لم تعرف تمويه الأصباغ والمسايق ، أولئك السافرات النشاطات اللاتى لا يدركن مغزى حق الانتخاب ومساواة الجنسين وتكلف المدنية وغرور المدارس ، أولئك العاريات الأقدام والسيقان ، الناهدات الصدور المعتدلات القامة الحاملات جرات الماء وحزم البرسيم وطعام الأخوة والأزواج ، الناعمات بأحلام الانوثة وميول الشباب المسترة ، ألا يستحقن تصويراً فنياً صادقاً فى الأدب المصرى وهن فى حياتهن وحقيقتهن فن جميل مجسم !

والقاهرة الراقدة على ضفة النيل تختلط فيها الأجناس واللغات وتمثل هى وأسواقها إحدى صور ألف ليلة وليلة ، وتلك القلعة الجالسة على مرتفعات المقطم تطل على المنازل والمساجد العتيقة ، ونهر النيل شريان مصر ، الذى أنهكه المسير من منابعه الاستوائية مسار بتودة وتمهل بين الحقول والتلال . . .

بالأشجار ، وتلك الأهرام المتوجة بالسحب ، وأبر الملوك المكتشفة سميت الصحراء ، وأسراش
 النخيل بالرج وحدائق القاكهة في الجبل الأحمر . كلها عصور فنية تستحق الوصف الدقيق . .
 ومن ينسى صور الأقصر ؟ فئمة وادي مقابر الملوك المكتشفة بالمداخن المنحوتة في صخور الجبال ،
 وثمة التلال التي تعلو بنا وتهبط حتى معبد الدير البحري المنقوش بذكريات حثشبوت ، والحقول
 الخضراء التي يقوم على حراستها تمثالا ممنون ، وثمة الكرنك الغني بالآثار والأعمدة ، وصور
 أصوان الجميلة ذات الشتاء الشعري والجو الدافئ الصحو والنيل المساجي تعبره إلى جزيرة
 « العنتين » وتمر بمحطات كليوباترا وتصلد التلة إلى مقابر الأشراف وإلى قبة الهواء ، وتتابع السير
 في الصحاري والرمال إلى جبل تحق وتعود إلى النيل فتري الجنادل المبعثرة في طريقه ، وتري على
 ضفتيه تلال المسجدية والقيافي الجرداء والصخور التي بنى عليها الصيادون أكواعهم المنفردة
 كأنها صوامع الرهبان ، وإلى خزان أسوان حيث تتدفق المياه من العيون ، بيضاء ذات ضجيج
 أشبه بخير الأوج المتلاطمة على صخور المكس ، وتري قوس قزح مرسوم على ذرات المياه
 المتدفقة البيضاء . وتسير وراء الخزان إلى خور النهر المنحرف بجبال صخرية ، وتمر بأفس الوجود
 المغفور بالمياه ، وبمعبد فيلة المنفرد في مجري النيل . .

سيدا لث الطبيعية متوفرة جميلة من البحر الأبيض شمالا إلى فيافي السودان جنوبا ومن
 سينا والبحر الأحمر شرقا إلى صحراء ليبيا الشاسعة وواحاتها غربا ، وقد تمحضت النهضة المصرية
 الأخيرة عن عدد من الشعراء والكتاب والروائيين المجيدين ، أخذوا يستلهمون جمال بلادهم
 ويصورون مناظرها المحلية فاستجابت النفوس لصورهم لأنها لقيت فيها بعض حاجتها وكرامتها .
 فعلى الفنان المصري أن يعرف بلاده جيدا ويحبب أنحاءها ويتغلغل في أعماقها ويحببها أولا ثم يحبب
 إلى مواطنيه أرضهم ويكشف لهم عن خفاياها وبذلك يقربهم من الطبيعة والاندماج فيها فيكون
 هذا التقرب تمهيدا إلى حب العالم كله وطن الإنسانية أم الجميع . .

الكاتب المصري بين البيئة والعصر

للكاتب المصري هموم تفوق هموم زميله الكاتب الأوروبي فان الأسير تحررت بلاده من كثير من القيود ، واجتازت كثيراً من العقبات التي ما برحت تعترض طريق نهضتنا ولم ندللها بعد .
بينما الكاتب المصري يواجه عدداً كبيراً من المشاكل والمصاعب التي فرغ منها الكاتب الغربي وانتقل الى آفاق جديدة كشف عنها العصر الحاضر .

والكاتب المصري يري بلاده وقد سيطر عليها الاجنبي واحتكر تجارتها الغريب واستبد بها المحافظون وعاشت فيها التقاليد واحتجبت فيها المرأة ، وشقى الفلاح والأجير وتراخت فيها الحضارة الصناعية وحارت أفكار الكثيرين بين التمسك بالشرق وتقاليد القديمة وبين اللحاق بالغرب وأساليبه الحديثة . وكان الواجب وقد بدأت نهضتنا واحتكاكنا بالحضارة الأوروبية منذ أكثر من مائة سنة أن تكون اليوم دولة مستقلة متمدينة لا تقل عن إحدى دول البلقان على أقل تقدير ، ونكون قد فرغنا في هذه المائة سنة الأخيرة مما تخلصت منه أوروبا منذ عدة قرون وهنا كان يقصر الكاتب المصري جهده لاعلى معالجة تلك المشاكل المتلكئة بل كان يتجه الى كتابة المسائل الانسانية التي تمس العالم كله والتي يهتم بها كتاب الغرب اليوم مثل مستقبل العالم ، الأعمال والبيوجونية والدعوة إلى الوحدة العالمية والمعاونة الدولية ومنع الحروب ودرس حضارة الآلات وأثرها في الانظمة والفنون ، والتوفيق بين العلم والدين والأدب ، واستقرار النظم الاقتصادية ، والانتفاع بثمار الاختراع والاكتشاف وابتداع مناهج جديدة في التربية ، وتطعيم الأدب بعلم النفس وما حدث فيه أخيراً من تطورات ، وغير ذلك من الشؤون الحيوية الكثيرة . .

فالكاتب المصري الذي يسعى إلى التوفيق بين البيئة والعصر يلقي نفسه لسوء الحظ مرغمة على التريث للخوض في مسائل بالية باتت لدى غيرنا من مخازي التاريخ كحجاب المرأة وما أشبه وهو المحير في الوقت نفسه على اللحاق بموكب الانسانية الذي يسير الى الامام ولا يبالي ببعض الأمم الشرقية التي تسير وراءه سير السلاحف . .

وهذه النزعة التي تعالج شؤوننا الخاصة المحصورة مع الاهتمام بالشؤون العامة هي النزعة الحديثة في الأدب الراقى المصري وهذا ما يجب أن يسير عليه كل كاتب مصري يحدوه الصدق والاخلاص والاعتقاد بأن ما يصيب العالم يمسننا اليوم وسيهيئنا منه شر في القدر وأن العالم قد أصبح مرتبطاً الحلقات . .

ولكن الذي نأسف له في سلفنا أن أكثر مشاكلنا الخاصة لا تنسجم مع روح العصر ولا تسير

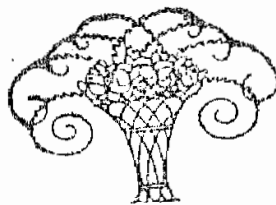
معها لأنها بقايا متسككة من الأجيال العالقة كان الواجب ألا تتغلف حتى الساعة . ولأجل أن نجسم لهذا مثلاً يمكننا أن نتخيل أديباً معاصراً مثل برناردشو مثلاً يحضر اليوم قومه من أثر حجاب المرأة في المجتمع الإنجليزي أو يدعو إلى محاربة الوار أو يعجب لسكن القلاع الإنجليزي مع بهائيه في كوخ واحد ! أو يندد بمن يكتب على طريقة الهندي ويطرز أسلوبه بالسجع والنساز الجاهلية ويحمل أسلوبه بالبديع والأشعار .

فمحاربة البدع المتفشية في بيئتنا تستنفذ جهود كتابنا المخلصين وتكاد تلهيهم عن تلك التيارات الفكرية الهائلة التي تتسرج في أجواء أوروبا وأمريكا وهم معذورون في ذلك فالذنب راجع الى البيئة التي زادت في هومومهم وضاعفت في مشاقهم . .

أما شعور أدبائنا اليوم بوجوب استلزام العصر وشعوره بما عليه من واجبات نحو الإنسانية وطنه الأكبر ، باعتباره أسرة واحدة فرقت بينها الحواجز ظانه دليل على تطور ذهني وارتقاء أدبي ، وفي أوروبا عدد من الكتاب لم يصلوا بعد إلى هذه النزعة السامية فهم يكتبون في وجوب التوسع الاستعماري على حساب الأمم الضعيفة كما كانوا يكتبون قبل الحرب العالمية عن وجوب الحرب والتغلب . .

وفي سبيل التقرب من روح العصر لاغنى للأديب المصري سواء أ كان كاتباً أم قارئاً أو كليهما معاً ، عن الامام بواحدة أو أكثر من اللغات الأوروبية الهامة ويقرأ بتلك اللغة ثمرات جهود أولئك الجبابرة ، جبابرة الفكر الذين يصورون في مؤلفاتهم العالمية المثل العليا ويقلبون بأقلامهم الانظمة الاجتماعية ويعبدون للبشرية أقوم السبل ويعلمون الناس كيف يسمون بأنفسهم وعن حولهم ولا يعني هذا أن يهجر الأديب المصري دراسة الأديين العربي والمصري لانه بهذه الدراسة يستطيع المقارنة والمفاضلة ولأن هذين الأديين يصوران بيئته ويطامانه على محاسنها ومساوئها . .

كما أن الاقتصار على قراءة آداب الأمم لاسيما الادب الأوروبي الحديث مترجمة الى العربية لا يغني من جوع لأن ما يترجم منها قليل جداً وقد تمر عشرات السنين قبل أن يترجم اليها كتاب عظيم الخطر بله أن كثيراً من هذه التراجم يخرج مشوهاً أو ركيكاً



ركود الأدب بمصر

في مصر اليوم فئة مستفيرة من الأدبيات والأدباء المصريين المستقرين الذين لا يعرفهم غير قليل من أصدقائهم ، لأنهم قلما يكتبون وقد لا يكتبون لغير أنفسهم . فهم كالأزهار التي يضيع عطرها في الخلاء ، أو هم أشبه بربات الجمال اللاتي ضرب الحجاب حولهن سياجا حرم المجتمع من مشاهد حسنهن ، والجمال مثل كل عبقرية أخرى هبة مشاعة يحق لجميع البشر أن يتمتعوا بها ولو بطريق سلمي وكان في مقدوري أن أذكر هنا من أولئك النوابغ المجهولين عدداً صادفته في شتى نواحي القطر ، وقد كادت الوظائف الحكومية وما على شاكلتها تقضي كعادتها على مواهبهم وتقتل في نفوسهم حب الحرية والتجديد ، لو لم أسمع من أحاديثهم وأرى في أيدي بعضهم من المؤلفات المخطوطة في مختلف فروع الأدب ما جعلني أرى أنهم أولى بالبداية بالسفور والخروج إلى الميدان .. أضف إلى أولئك عدداً من كتابنا الذين ظهروا يوماً على مسرح الأدب ثم اختفوا وكاد النسيان يطمس آثارهم وهم على قيد الحياة . أو أولئك الأدباء والمؤرخين المصريين الذين هجروا الكتابة بلغة بلادهم فأخذوا يرسلون الصحف الأجنبية ، ويؤلفون باللغات الأوربية كتباً حازت تقدير الغربيين وإعجابهم ولا يكاد أبناء وطنهم يسمعون بأسمائها ..

فاذا جالست أحد هؤلاء الكتاب وأنس إليك فسألته عن سبب انزوائه وفراره من المعركة القلمية التي تدور اليوم رحاها بين النور والظلام والتجديد والرجعية لأجابه بمرارة وأسف قائلاً : « أين أكتب ولمن أكتب ! » ، وفي هذه الكلمات القلائل تستتر تلك النقائص التي يحس بها جل كتابنا والتي تمس الصحف أولاً والقراء ثانياً ..

فالملأوف في البلاد المتحضرة أن كل كاتب يستطيع الخوض في غمار الأدب يبدأ بتقديم نفسه إلى الجمهور بطريق الصحف حيث تمرض بضاعته على ألوف القراء الذين هم أشبه بالقضاة يحكمون عليه بما يرفعه أو يشينه ، وعلى حكم أولئك القضاة يتوقف الاقبال على كتاباته ومؤلفاته كما يتوقف أثرها في نفوس قرائها . فالصحف بذلك هي الواسطة الأولى المهمة في اكتشاف الكتاب الموهوبين وتقديمهم إلى العالم ..

ولما كان الأدب كالشجرة الباسقة ذات الفروع العديدة ، كان من المستحيل لمن شاء التعلق بها أن يجمع في قبضته كل الفروع ، واذن كان لكل كاتب كفاية خاصة تبدو نحو ناحية معينة من نواحي الأدب ، فهذا يتجه إلى القصة أو الشعر وذاك إلى النقد أو التاريخ وهكذا . ووفق هذا التقسيم سارت صحف العالم المحترمة ، فترى الصحيفة اليومية في أميركا أو إنجلترا مثلاً تصدر في

عشرات الصفحات، وقد تصل إلى مائة صفحة مقسمة إلى تلك الفروع التي يتعلق بها قراؤها وكتابتها فيجد كل كاتب وكل قارئ ما ينسجم مع ميوله ونزواته . أما صحفهم الدورية فتجسد بينها ما قد يختص بعلم النفس فقط أو بالتمهيد أو بالاجتماع أو بمئات الفروع الأخرى . وفي مثل تلك الصحف والمجلات تجد الأقلام لها ميادين فسيحة تجول فيها بحرية وإخلاص فيظهر بينهم من آونة لأخرى كتاب عباقرة يفرون معالم الأرض بأقلامهم . .

فأين نحن منهم وقد أصبحت المهنة الأدبية الخطيرة عندنا صناعات يرخص لكل إنسان أن يزاولها ، فالصحافة والتعليم والتمثيل والموسيقى فنون يمكن لكل أفاق جاهل أن يزاولها وينشرها بين أهل هذا البلد سماً مستمناً ؟

أما صحفنا ويقع عليها جل المسؤولية في هذا الركود الأدبي الذي جراً الجبهة الرجعيين على المجاهرة بدجلهم فعمار مثلهم مثل الحشرات التي تنتهز فرصة الليل البهيم فتجول وتصول - هذه الصحف نومان يومية ودورية :

أما صحفنا اليومية ، مع استثناء كبرياتها المعروفة ، فلا تود أن تخضع لناموس التطور والارتقاء الذي يخضع له الكون كله فهي في جمودها وتأخرها كما كانت منذ ثلاثين سنة لا تريد أن تقلد الصحف الغربية في نهضتها ورقها ، فلا ترى فيها غير أعمدة مرصوفة بالهجاء السياسي والسباب الحزبي والأخبار الصبائية والثروة الصحافية السخيفة ، ولئن كانت الصحف هي السجل التاريخي الذي يرجع إليه أبنائنا في الحكم عايناً فسنكون في أنظارهم هزأة وسخرية . فهل في مثل هذه الصحف التجارية التعمية تظهر مواهب الأدباء المصريين وتجول أقلام المفكرين ؟ وهل تكون لأرائهم كرامة ولا أقوالهم قيمة وسط ذلك الهذر والسخف ؟ هل نطلب من الأديب المفكر أن يطلع علينا بمقال وسط عرائض الثقة وبرقيات التهاني وقضايا المظاهرات وأبناء هودة النكرات من معمايهم وإعلانات الكونياك ومنافسات المدارس الأهلية وسطور طلاب الشهرة ومقالات العامة وصبيان المدارس ؟

إننا نطلب من مثل هذه الصحف أن تتق الله في هذا البلد الذي بدأ ينفض عنه غبار الاستعمار ويتطلع إلى أنوار الغرب بعيون مبهوتة . فطالبها بالتطور والتوسع والتجديد ، وأن ماتربحه الكثيرات منها ليعينها إذا شاءت الارتقاء إذ هي تكسب من إعلاناتها كثيراً ويشتري المصريون منها بالكثير فهل هذا الربح الذي يدخل في جيوب أمثال تلك الصحف لا يدفع بها إلى التفكير في زيادة الصفحات وانتقاء الموضوعات الجدية واحترام القراء حتى يحد الأدباء فيها مكاناً له كرامته ينشرون فيه بحوثهم وأفكارهم . .

أما صحفنا الدورية وأغليتها أسبوعية صغيرة فأثمن حالا ، مادام أكثرها صراوح يستخرفها القراء لجلب النعاس ، ولست أظن أحداً خرج منها بفائدة أو بشبه فائدة . ولا أخالها تكتب لغير المفقلين الذين تستهويهم صور الحواة وحلقة المهرجين ومبتكرات المجرمين . فهل هنا نطالب الكاتب الذي يحترم نفسه أن يضع عصارة فكره بجوار مقال عن غريبت النساء أو طلاق الممثلات أو حوادث المومسات ! أم خير له ولنا أن ندعه آمناً مجهولاً يكتب لنفسه ما يشاء .

بقي دور القراء الذين تقع على عواتقهم بقية المسؤولية في ركود الأدب المصري . فاني لأشاطرهم الرأي في الإقبال على كتابات لا تفيد ولا تنفي من جوع . فنحن في فترة نحتاج فيها إلى الضروري قبل السكالي ، إلى الجسدي قبل الهزلي ، إلى النافع قبل التافه . نحن في حاجة إلى انتقاء ما نقرأ وما نغذي نفوسنا بقراءته . ولنعلم أن الكاتب الذي تقرأه هو الذي يتحدثنا بصراحة وإخلاص عن مواطن الضعف والقوة في نفوسنا . وهو الذي يؤدي نحو نفوسنا واجب الطبيب والمعلم المرشد لا البهوان الذي يقفز على الحبل ليضحكنا ، وبسرب في كتابته كالسكير ليطربنا . .

يقول أصحاب المطبوعات المأجنة « انما نحن مودة لقرائنا فنحن نقدم لهم ما يرضيهم وما به تروج تجارتنا » . والواقع أن لكل صحيفة أو مجلة قراء تتوقف عليهم حياتها أو موتها . وهؤلاء القراء الذين يطلبون المجانة والقليل والقال وأنباء العلاقات الجنسية ، هم السبب في رواج المطبوعات الشعبية المنحطة وفي كساد الصحف والمجلات الراقية النافعة ، وهم السبب في كساد سوق الكتب الأدبية والعلمية . فحازن الكتب مكتظة بالكتب المفيدة المكسدة منذ سنوات لا تجد من يشتريها ولا تعاد طبعها الأولى . وتجار الكتب قلما يجراؤن على طبع الكتب الجديدة خشية كساد سوقها . وكثير من المؤلفين يحتفظون بمؤلفاتهم مخطوطة فتموت معهم . ونحن لم نتفكس بيننا ، كما في البلاد الأوربية ، عادة إنشاء المكتبات المنزلية واقتناء الكتب والمطبوعات الراقية . وعندنا الألوف من المتعلمين الذين لا تلقى في بيوتهم كتاباً راقياً ومنهم من يهجر الكتب وينبذ المطالعة الجديدة بمجرد تخرجه من المدرسة ومنهم من يبيع كل ما لديه من كتب ليتخلص من ذكريات المدرسة وما لاقاه من نصب في طلب العلم كما يتخلص من عدو عتيق . .

امويوب المصري القديم وآثاره

كان للمصريين القدماء منذ آلاف السنين أدب فيه الغث وفيه السمين ، وظهر بينهم كتاب وشعراء وحكام . وكان عندهم كتب ودور للكتب ولعلمهم أول من كتب على الورق وأول من أنشأ المدارس والجامعات وما زالت اللغات الأوروبية تستعمل لفظة ورق « بير » وكتاب « بيبيل » كما وردا عند قدماء المصريين . .

أما الورق فكانوا يصنعونه من سيقان البردي الذي كان ينمو بكثرة في المستنقعات المصرية فيأخذون أليافه ويلصقون بعضها فوق البعض ، ويضغطونها ويحرقونها ، فتصبح ورقا يختلف طولا وعرضا ثم يلصقون الصفحة بجوار الأخرى ويكتبون عليها بأقلام الغاب ويلفون الجزء المكتوب حتى يفرغ الكتاب . وفي المتحف البريطاني مكتاب مصري طوله نحو أربعين متراً . وأنهم خشوا على كتابتهم من الضياع نقشوها على الأحجار والخزف . وكان عندهم الخطاطون الذين يتقنون فن الكتابة رتلون الحروف بأزهى الألوان والخطارف ، وقد بقي كثير منها إلى يومنا حافظاً لورثته وبهائه . .

على تلك الاوراق والاحجار كتب المصريون كل شيء يكتب فن كتب للحكم والاخلاق والنصائح ، إلى كتب دينية الى روايات وأقايمص إلى كتب في التاريخ إلى دواوين شعرية ونمذ علمية وأساطير الآلهة إلى غيرها مما يتسق مع زمانهم . .

وضع من تلك الكتب في كر الأجيال ما ضاع ، وبقي منها في متاحف العالم عدد وافر . وان في متحف برلين مثلاً من أوراق البردي ، ما يزيد عن أربع عشرة ألف ورقه . .

والمشهور أنه كان بمصر دار كبيرة للكتب في عهد فراعنة الازهرام . وقد وجدوا في أحد قبور الجيزة بياناً عن الألقاب التي تلى اسم عظيم من عظماء الأسرة الخامسة منها أنه كان أمين دار الكتب الملكية . واكتشفوا على جدران معبد ادفو أنه كان بجوار ذلك المعبد دار كتب المعبد حوريس وبين تلك الكتب مؤلف خاص بجغرافية مصر القديمة ولم يبق اليوم من هذه الدار أثر . وكان بالسرايوم دار للكتب وصل اليها منها جزء من قاموس هيروغليفي جمعه « كرمون » أمين تلك الدار في القرن الأول للميلاد كما وصل اليها كتاب في اللغة الهيروغليفية ألفه حور من المصري وفسر فيه ١٨٩ كلمة هيروغليفية . .

ومن أشهر أقدم الكتب المصرية التي وصلت اليها كتاب « حكم فتاح حطب » الذي كان

مستشارا للملك . وقد عثر على أوراق هذا السكتاب البردية أحد الفلاحين الذين كانوا يصفرون مقبرة باحدى جهات طيبة فباعها للأثري الفرنسي « بريس » الذي نشرها عام ١٨٤٧ وأهداها إلى مكتبة باريس الاهلية وهي في ثمانى عشرة صفحة مكتوبة بالهيراطيقيہ بلمداد الأسود والاحمر . وقد ترجمها إلى الفرنسية العالم شاباس وإلى الألمانية بروكش وإلى الانجليزية جن ، ونشرها الانجليز في بعض مدارس الاطفال عندهم لانها بحث في الخلق النفسى العملى تتضمن السلوك فى الحياة والواجب نحو الحار ونحو الزوجة وفيها نقرأ عن الوقح الذى يشبه شوكة فى جنب آله وصحبه ، وعن الثرثار والناصح النقة والجاهل العنيد ، والادب الصريح والحاكم والرعية والخدم والتجار فهى صورة للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ..

وظهر أيضا فى أيام الاسرة الخامسة حكيم مصرى اسمه قاقنه ، وقيل بل طاش فى عهد الملك سنفر و من الاسرة الثالثة وقد وصل إلينا شيء من بحثه الاخلاقى ، وترجم شيئا من تلك الحكم الى العربية العالم الأثري المرحوم احمد باشا كمال وفيها يوصى قاقنه بالسير فى الصراط المستقيم ويقول إن من خير الدنيا سهل عليه أن يقود أبناءه . وأن الابن الناكِر الجليل يحزن والديه وأن قليل الادب مذموم ، وغيرها من النصائح الاخلاقية ..

ووصل إلينا كتاب ثالث فى علم الاخلاق هو نصائح الحكيم آنى لتلميذه خونفمو حتب وقد عثر ماريت باشا عام ١٨٧٠ على أوراقه البردية فى احدى مقابر الدير البحري بطيبة وهى محفوظة اليوم فى المتحف المصرى باحدى غرف أوراق البردى . وتحتوى هذه الاوراق على تسع صحائف بالخط الهيراطيقي وقيل انها كتبت فى عهد الاسرة الثانية عشرة وقد ترجمها من الهيراطيقي إلى الفرنسية العالمان شاباس ودى . وجيه وإلى الألمانية أرمان وإلى الانجليزية ماسبرو وتمتاز عن حكم فتاح حتب أنها مختصر فى الخلق المعنوى العالى ، وفيها دعوة الى الاحسان والمملك العادل وتقدير الام ومغبة الزنا بينما حكم فتاح حتب تبحث فى الخلق النفسى العملى فى الحياة فكلاهما متمم للآخر .. وقد ذكر ما نيتون المؤرخ المصرى المعاصر لبطليموس فيلادلف فى القرن الثالث قبل الميلاد فى كتابه ملوك مصر ، أن أعظم فلاسفة مصر هو هرمس ونسب له عدة آلاف كتاب حتى لقب بالمثلث العظيمة والمثلث الحكمة وأهله بعض الشعوب ولكن لم يصل إلينا من مؤلفات هرمس شيء وينسبون إليه قوله : « وآسفاه وآسفاه يا بنى . فانه سيأتى يوم تكون فيه الهير و غليفية أصناما فيخطئ العالم فى فهم رموز العلم بالآلهة يأخذون على مصر العظمى عبادتها لوحوش الجحيم » وثمة كتاب قديم اسمه زهر النفس لهرمس الحكيم مطبوع بالعربية وملىء بالحكم القيمة ولكن ليس ثمة ما يثبت نسبته إلى ذلك الفيلسوف ..

أما كتاب تعاليم امنمحات الاول لابنه امرتن الاول فتخالف التعاليم السابقة إذهى أقرب إلى

التاريخ منها إلى علم الأخلاق ففيها يقص أمم وحضارات ، أنباء الحروب التي ملأت السنين الأولى من حكمه وكيف انتصر على أعدائه الآسيين والاسيويين ، وكيف ربه عناية أيضا إلى إصلاح الأرض وعمران المملكة . .

وكذا تعاليم الكتاب الملكي « داور - سي - خردا » إلى ابنه يابى فانها تتضمن مديحا في فن الكتابة وأهميتها وتفضيلها على سائر المهن ..

ومن أرق ما وصلنا من كتبهم « مذكرات سينيا » في بردية محفوظة الآن بمتحف برلين وكان سينيا قد اضطره إلى الرحيل إلى سوريا غضب عليه وهناك حصل على ثروة وجاه إلا أنه لم ينفك يحمن إلى وطنه فكتب في مذكراته هذه مديحا في فرعون وسطوته وشجاعته ووصف المعادات الحربية المتفشية بمصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة ..

ولا ينسى التاريخ بردية اشتراها المتحف البريطاني من ميسو ساليه عام ١٨٣٩ وفيها يقص كاتبها بدء القتال ضد الهكسوس وكيف كان الرسل يتفاوضون تارة مع أبوبى ملك الهكسوس وأخرى مع سوكنوتري الملك المصري حاكم الوجه القبلى فلم يقبل أبوبى شروط خصمه وبدأت الحرب وفيها هزم الهكسوس ..

وإذا التفطنا إلى الناحية الشعرية وجدنا أن المصريين القدماء تركوا لنا كثيرا من الشعر ولكنه ليس من الطبقة الأولى لأسباب سنذكرها بعد ومن هذا الشعر ملحمة الشاعر المصري بفتاور المكتوبة على ورقة بردية بالمتحف البريطاني ، وبها وصف الشاعر انتصار رمسيس الثانى في قادش وكيف حماه الرب آمون حين أحاط به أعداؤه ، وأسلوب القصيدة كما نقرأه في ترجمتها قوى رصين ..

ومما وصل إلينا أيضا نصيد للنيل ، وعدة أناشيد للشمس نظمت في عهد أخناتون الملك المجدد الفيلسوف الذى رغب في توحيد الأديان وتقديس الشمس كرمز لمصدر الحياة والقوة ، فشيد مدينة جديدة بتل العمارنة دعاها اخيناتون لتكون عاصمة مملكته بدلا من طيبة مقر عبادة الرب آمون ، وبني بها معبدا كبيرا نقش على جدرانه صورة الشمس مشرقة فوق الملك ورعيته وهم وقوف يقدمون إليها القرابين ويرتلون أناشيد الشمس مع نغمات الموسيقى. وقد بقيت هذه الأناشيد الشعرية الرقيقة منقوشة على جدران معبد اخيناتون . ووجد أيضا بمقبرة الاميرة توتو المجاورة لمقبرة أخناتون في جنوب تل العمارنة نصيد جميل للشمس ، وكذا وجد في مقبرة أميس قصيدة أخرى في مديحها . وتمتاز أناشيد أخناتون بروعة أسلوبها وخيالها وما بها من مبتكرات شعرية . أما الكتب الدينية فأغزر كتبهم مادة لشدة إيمانهم بالحياة الأخرى ولأهمية الدور الذى تمثله

« كا » الروح الخالد بعد فراق الجسد ، ولتشعب أساطير الآلهة . وأهم تلك الكتب هو ما يطلقون عليه اليوم خطأ « كتاب الموتى » كما أسماء لبسياس واسمها الحقيقي « فصول التقدم في اليوم الآخر » أو كتاب الخروج إلى النور ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات حية منها ترجمة الأستاذ بدج إلى الانجليزية عام ١٨٩٨ . ولا ترجع أهمية الكتاب إلى قيمته التاريخية فقط بل لأنه يبين شطرا من العقيدة الدينية لاسيما عن محاكمة النفس بعد الموت . ولا بد للامام بنيانة المصريين القدماء من درس نقوش المدافن وكتابات الأهرام وغيرها . .

وفي هذا الكتاب عبارات تبدو لنا اليوم سخرية ولكن بجانبها نرى آراء نبيلة فيها يقول شاباس : « إنه لا توجد فضيلة من فضائل المسيحية منسية في القانون المصري المذكور في كتاب الموتى وغيره ، فلقد حث على التقوي والاحسان وضبط النفس في القول والفعل والعفة وحماية الضعيف والجهود للمحتاج وغيرها » .

وقد رأى عالم اسمه « مارشام آدم » أن هناك علاقة بين الهرم الأكبر وبين كتاب الموتى ورأى أن الهرم الأكبر في نظام بنائه ووضع حجراته وممراته يشير إلى الشروط الواردة في كتاب الموتى ، وظن أن الهرم كان أيضا هيكلا تمثل فيه التجربة العظمى للمتقدمين إليها في سبيل الخلاص . وأورد أيضا في كتابه « دار الاماكن الخفية » رسما يفسر محتويات الهرم الأكبر من الداخل وفسر كل مكان بما يطابقه من تفاسير كتاب الموتى فقال مثلا عن الرلاقة المنحدرة إلى الحجر التي تحت الأرض أنها منحدر الغرض والحجرة مكان الامتحان والمحنة ، وفسر فتحة ثوب بالهرم أنها الطريق المؤدى إلى غرفة الولادة الجديدة ، وهكذا . .

ولم ينس كتاب المصريين فن القصص والروايات وكل ما وصلنا عنهم مترجم إلى اللغات الأوروبية فنرى فيها حكايات شبيهة بألف ليلة وليلة مثل قصة « كيف أخذ تحوتى مدينة يوبة » إذ فيها شبه من حكاية على بابا وما يشبه قصة جواد أوديسيوس في أوديسية هوميروس . وكحكاية الأخوين ، وقد كتبها باللغة الهيروغليفية منذ أكثر من ثلاثين قرنا كاتب مصرى اسمه نانا وما زالت محفوظة بالمتحف البريطانى منذ عام ١٨٥٧ . .

وثمة قصة مصرية مشهورة نقلها المؤرخ بلوتارخ عن بعض الكهنة وهى قصة « أوزيريس وايزيس » وخلصتها أن اله الظلام ست حقد على أخيه أوزيريس وقتله ، فأخذت أخته ايزيس تبحث عن جثته حتى وجدها ، واذ يعلم ست بذلك يقطع جسم اوزيريس ويدفن القطع في مديريات مصر المختلفة فتب ايزيس ويعاونها حوريس ونفتيس وتحوت وأنوبيس ، وتجمع أشلاء أخيها وتجلس تندبه ، فيرثي الآلهة لبكائها ويقيمون أوزيريس من الموت وينصبونه حاكما على العالم الآخر . .

وقيل إن هذه قصة رمزية وكان المصريين القدماء ينفذون بالرموز والأبهام ، فإن أوزيريس وهو إله العالم الآخر الأسفل ، وإله المحصول والنهر الواصب ، الخيصة والخصب ، يرمز في موته وقيامته إلى الزرع الذي قُدفن بذراته في الأرض ثم تنمو وتحيا ثم تموت . أما ست إله الظلام فيرمز أيضا إلى الصحراء القاحلة عدوة الخصب والنماء ويفسرون تقطيع جسم أوزيريس ودفن أجزائه في أنحاء البلاد ، إلى بعثرة الحبوب وزرعها في التربة . .

وقبل إن المصريين كانوا يحتفلون في إيدوس بذكرى موت أوزيريس وقيامته وملواف إيزيس . .

وتقول قصة أخرى أن حوريس لما قام يفتقم لأبيه أوزيريس من ست ، فقد في النضال عينه فقدمها إلى أبيه الميت الذي صار نفساً حية ، فأعاد تهبوت المين إلى حوريس . ويفسرون هذه العين بالشمس وإن المحصول يعتمد على تأثير عين الشمس . .

وتروي قصة أخرى ذلك النضال الذي كان يقع بين ست إله الظلام وحوريس إله الشمس والنور عند كل شروق وغروب ، فكان حوريس يهزم ست بأنواره عند الشروق وتعود الحرب سجالاً فيبهرمه ست عند الغروب . .

وشبه بها مع أساطير دينية ماورد في كتاب « شكوى إيزيس ونحت حات » وكتاب « مافي طالم بعد الموت قبل الحساب » ففي الأول وصف مسير الشمس بعد غروبها وفي الثاني وصف سيرها في أثناء النهار . .

وأشهر رواياتهم الغرامية قصة ساتني ابن الملك مع تبويبا ابنة السكاهن وفيها تصوير لما تجره غواية المرأة الماكرة ، ثم قصة الأمير المصري مع الحسناء السورية . .

أما الروايات المسرحية فلم يرد ذكرها إلا في ورقة بردية عدد صحائفها نحو ١٣٥ محفوظة بمتحف برلين . وقد أعطاها الأستاذ جردنر الانجليزى إلى الأثرى الألماني زيتى وكانت محطة ممزقة فأصلحها رجال المتحف ووجدوا أنها رواية تمثيلية كتبت في عهد الأسرة ، الثانية عشرة وقيل أنها أول رواية تمثيلية في العالم .

ومن قرأ بعض تلك المؤلفات السالفة الذكر يمكنه أن يستخلص لنفسه أن المصريين القدماء كانوا شديدي التأثير بالأساطير الدينية وقصص الآلهة وما وراء الموت من ألوان الحياة ، وكانوا ذوي شغف بالرموز ، وتعلق بالرزانة والمظنة وضبط النفس ، وكان حبهم لوطنهم وكل ما تظله سماؤها شديداً . . وكانوا بطبيعة البلاد الهادئة الوفيرة الغلة والماء راضين قانعين لا تحركهم آلام وأزمات نفسانية عميقة كما تحرك غيرهم من شعوب البلاد الجبلية القليلة الغلات

ولكن هذا الأدب الهادىء الرزين كان له أثر بين في آداب الشعوب الأخرى التى كان بينها وبين مصر صلات

فكان له أثر فى الأدب العبرانى وقد أورد أحد الكتاب المعاصرين ما بين مزامير داود وأناشيد اخناتون من مشابهات كثيرة ذكر منها أمثلة عدة دلت على تطابق بين بعض الفقرات فى المزامير والأنشيد

وقصة الطوفان المذكورة فى التوراة لها شبيه بما وجد فى مقبرة سبتي الأول من نقوش تروى كيف هلك البشر ليعبدوا أكسير الحياة للملك حتى يصل إلى الخلود . وسبب هلاكهم هى خطاياهم وعصيانهم . ثم اختلطت قصة ذبح البشر مع قصة فيضان النيل وشبهوا احمرار مياه الفيضان بدماء القتل ، وانتشرت عناصر القصة إلى البلاد الأجنبية ودخلها خلط ومنج فأصبح هلاك البشر سببه فيضان الماء . وهذه النظرية قال بها العالم الانجليزى الشهير اليوت سميت فى كتابه « توت عنخ آمون » وأورد لها فيه فصلاً خاصاً وأضاف إلى ذلك قوله : أن أثم العصيان الذى أهلك البشر كان المبدأ الذى يسميه اللاهوتيون « بالخطية الأصلية » وهى التى تظهر بشكل آخر فى سفر التكوين من التوراة ..

وكانت الخليفة المصرية هى الأولى التى صورت الجنة والجحيم وما فى العالم الآخر من صور رائعة وهى أول من قال بولادة الخلق أوزيريس من عذراء وبموته ثم قيامته ليسكون قاضياً فى العالم الآخر . وكان المصريون يعتقدون بالتثليث أى تمثيل الآله بثلاثة أقانيم وكان ثالوث طيبة هو (أمون وموت وخونسو) وثالوث منف (فتاح وسخت وإيموس) وأما ثالوث أيدوس فكان (أوزيريس وأيزيس وحوريس)

وهم أول من قال بالبعث والنشور والثواب والعقاب وشرحوا يوم الحساب فى كتاب الموتى وأول من اعتقد بالتوحيد ثم تعدد الآلهة وبخلود النفس وبعبقيدة التقمص التى أخذها أفلاطون وبوذه عنهم . .

وثمة مشابهات بين كتب سليمان الحكيم وبين أمثال قاقنة وفتاح حتب وآنى ، ومعظم أخيلة كتاب ألف ليلة وليلة وردت فى قصص المصريين القدماء وحكاية السندباد البحري هى قصة « البحار الغريق » المصرية . .

وهناك شبه بين بعض فصول هوميروس وبين بعض القصص المصرية . .

وتقول مدام بلافاسكى فى كتابها « التعليم السرى » أن رحلة قديمة جداً خرجت من مصر إلى غرب أوروبا وبريطانيا وآخذ علم المصريون سكان تلك الجهات الأوروبية كيف يبنون منازلهم

ومما يدهم وعلمهم شيئاً من الدين والفلك . وتقول إننا مازلنا نرى مثل تلك الآثار « في ستورنيج »
بألمانيا و« الكرنك » في بريطانيا و« برفنسا » و« كلارنس » ب« اسكتلندا » و« نيوجرانج » في أيرلندا
وأبدي السير نورمان أوكيار الفلكي البريطاني شاهداً قويا أثبت فيه أن المعابد الهائلة البريطانية
التي شيدت هناك قبل التاريخ كانت خاصة ببعض النجوم مثل اخواتها بمصر وما زال يوجد على
بعضها نقوش مصرية رمزية مثل علامة الصليب المقدس ذي الرأس الحلقية « تو » ومثل سفينة
أمون رع التي تحمل الشمس في مهاواتها كما يوجد آثار أخرى كثيرة تدل على انتشار الأثر المصري
في كل الأزمنة الغابرة ومن ذلك ملاحظته مدام بلافا سكي من المشابهة والعلاقة بين لغة ويلس
واللغة المصرية ولاحظ ذلك أيضاً الاستاذ موريس جولس . .

ووجدوا هناك تشابهاً بين الرموز المصرية والرسوم الأساسية وبين مثيلاتها بأمریکا القديمة ، ورأوا
ذوقاً مصرياً ظاهراً في مباني « مايا » في « شيكين اتزا » أما الأهرامات المشيدة للشمس والقمر ببلاد
المكسيك فمشابهة بأهرامات مصر تماماً . وعثروا بأمریکا القديمة على رسم الصليب المصري القديم والكرة
ذات الجناحين . .

ورأوا هناك بمخصوص كرشنا الهندي وبوذا واليوجا الهندية أن هناك صلات بين آراء وحكماء
مصر والهند . ولا يدرون أكانت هناك صلة قبل زوال قارة اطلانطيا أم بعدها . وعثروا على رسم
للسفينة المصرية الحاملة للشمس في آثار أيرلندا وفي « لوكهاريك » ببريطانيا وفي « بوهزلان » بالسويد
ووجدوا رسم الصليب القديم تو في معبد قديم بفرنسا كما رأوا كرة بجناحين مرسومة في معبد
الدير البحري وفي « شيباس » جنوبي المكسيك . .

هذه خلاصة عن الأدب المصري القديم وبعض آثاره في عقائد الأمم الأخرى . وهذا
الأدب الذي وصل إلينا بعضه بعد أن ضاع أكثره في مصر العصور ، مترجم كله إلى اللغات الأوروبية
وعلىنا نحن أحفاد أولئك المصريين أن نحصره ونجمعه ونترجمه إلى اللغة العربية ليقراه ويدرسه
المصريون . وليس الغرض من هذه الترجمة وهذا الدرس أن نتأثر به في أدبنا القومي الجديد لأننا
اليوم في عصر جديد يخالف عصور القراعنة . والأدب المصري يخالف كل الآداب القديمة بما
دخله من تطور العلوم والأفكار والمبادئ والترعات الحديثة وإنما الغرض أن نحفظ بهذا التراث
العظيم ونزيد به ثروتنا التاريخية ، ونحن أجدر الأمم بمعرفة أفسكار آبائنا وعقائدهم ووصاياهم
وخوارج نفوسهم وقلوبهم . .



كتاب الموتى

في عام ١٨٨٦ ترجم العالم نافيل إلى الألمانية عدداً من فصول « كتاب الموتى » وهو الاسم الذي أطلقه على هذا الكتاب المصري ، الأثرى المشهور لسياس الذي أوفدته الحكومة الألمانية عام ١٨٤٢ على رأس بعثة علمية تنقب بمصر عن الآثار اترين بهامتحف برلين . ولكن الاكتشافات الأثرية التي قام بها علماء الغرب بعد ذلك التاريخ في طيبة وغيرها ساعدت على اتمام ما كان ينقص هذا الكتاب من متون فظهرت له ترجمات ألمانية وفرنسية وإيطالية بالعنوان المتقدم . .

وفي سنة ١٨٩٨ ظهر للكتاب ترجمة أخرى الإنجليزية للدكتور واليس بدج مؤلف عدة مراجع قيمة عن المصريين القدماء ، نبعثها عام ١٩٠١ طبعة أخرى منقحة في ثلاثة أجزاء سبعة عشر صفحة بعد أن وازن بين عدد من نسخ الكتاب الطيروغرافية لاسيما ما وجد منها في مقابر طيبة وأضاف إلى الترجمة الأخيرة عدداً من الأشياء والشواهد المصرية القديمة التي كانت الغرض من انشائها انتفاع الموتى بها في العالم الآخر ، وعمل على أن تكون ترجمته حرفية حتى لا تضيع معالم الأسلوب الأصلي . وعلى هذا الكتاب الذي ترجمه بدج وصدره بمقدمات ثمينة والذي يعد أكل طبعة لكتاب الموتى اعتمدنا في هذا المقال الموجز . .

أما عنوان الكتاب فسكما نرى جديد اصطلاح عليه علماء الغرب لأن المصريين القدماء كانوا يطلقون عليه اسم « ريو نو برت أم هرو » ومعناه « فصول الخروج في النهار » أو التقدم إلى النور . ويرى بدج أن عنوانه المصري أقرب إلى موضوعه من اسمه الأصلي ، لأن الكتاب خاص بالموتى وما يحتاجون اليه وراء القبر وما يحدث لهم في الحياة الأخرى . .

وكان النساخون المحترفون يكتبون منه على صفحات البردي مخطوطاً لكل من يطلبه وذلك ليدفن الكتاب مع الميت . وكانوا يكتبونه لأنفسهم وللملوك والملكات ، وللأمراء والأميرات ، وللكهنة وللعمامة والفقراء وراج سوقه فيما بين عامي ١٦٠٠ و ٩٠٠ ق.م ولو أن بعض فصول الكتاب كانت معروفة قبل الامرات المصرية أي منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولبث معروفاً حتى بعد الفتح الاغريقي مع تبديل فيه وتحريف . وكثيراً ما كان يزين بالرسوم والصور التي تفسر محتويات المتون . بل كثيراً ما كان الفنان يتأنق في تلوين تلك الصور بأزهى الألوان فكان الرسام يشارك الخطاط في تنسيق الكتاب . .

إلا أن أولئك النساخين كانوا كثيراً ما يهملون في النقل ولذا لم نجد لهذا الكتاب مخطوطين متشابهين تمام المشابهة ، أو أن أحدهما يتفق مع أخيه على محتويات واحدة أو على ترتيب واحد في الفصول ، أو في الزيادة والنقصان . .

ويتمشى أكثر مافي الكتاب من آراء وعقائد في القدم مع المدنية المصرية ، وتطابق بعض فصوله الشائكة ما نعرفه اليوم من عقائد الاسرتين الخامسة والسادسة

ومن البديهي أن كتابا عظيم الشأن مثل هذا الكتاب تتداوله العصور في مبدأ أمره بطريق النقل الشفوي ، ثم تتداوله أيدي الكتبة المحرفين وغيرهم ، لا بد وأن يدخله الكثير من التحريف والتبديل ، وهذا نتيجة أعمال الناقلين من جهة وعجزهم عن فهم رموز الكتاب وأحاجيه وكمالاته القديمة المبهمة من جهة أخرى . إلا أن ما أصابه من تحريف ، وتشويه لم تكن لتؤثر في عقليات قرائه المؤمنين بما جاء فيه باعتباره مجموعة دينية وصلت إلى مقام كتاب وطني مقدس ..

فهو كتاب يترامى في القدم الى ما قبل أيام الملك ستمى أحد ملوك الأسرة الاولى . وكان منذ ذلك العهد الباكر يختصر فيه ويضاف اليه جيلا بعد جيل في عشرات القرون . ومع هذا فإن المصري المتدين ماسكا كان أم فلاحا ، عاش واضعا تعاليم هذا الكتاب نصب عينيه ، ودفن وفقا لارشاداته بعد أن أمل في حياة خالدة تسعد بها ما وراء الصوات والآناشيد والتعاويد التي فيه من قوة . ولم تكن فصول الكتاب في نظره مجرد مقطوعات لغوية ، بل كان يرى فيها الارشادات العملية ذات القوة السحرية طول الطريق التي تتجتاز الموت والقبر ، وتؤدي إلى عالم النور والخلود حيث يقوم عرش أوزيريس قاهر الموت الذي جعل البشر يولدون ولادة جديدة ..

ولا يعرف لكتاب الموتى مؤلف ولم يكتب عليه اسم يدل على مؤلف أو مراجع . والواقع أنه ليس من عمل فرد أو جماعة ، بل هو مجموعة تمثل عقائد أمة ، بل عدة أمم في أجيال طويلة . وقد رأى المصريون مقدمه أنه من تأليف الاله تحوت معلم الآلهة ولذا عدوه كتابا مقدسا . وكذا لا يمكننا الجزم بتاريخ صحيح لبده ظهوره ولا معرفة وطنه ومنشأه ..

واليوم وقد كشف عن مقابر مصرية عديدة يرجع تاريخها إلى ما قبل الاسر المصرية ، ودرس الباحثون ووصفوا ما احتوت عليه ، فانا لانجد شاهدا يثبت أن سكان مصر الأولين كان لديهم أية مجموعة من المآتون الدينية مما يمكن اعتبارها اصلا لكتاب الموتى . ولكننا مع ذلك نستدل من طريقة دفنهم للميت على جانبه الأيسر مع اتجاه الرأس نحو الجنوب ومع محاولتهم الاحتفاظ بالجسم على الرغم من جهلهم بفن التحنيط الذي ارتقى فيما بعد ، أنه كان لهم طقوس جنازية وأنهم كانوا يؤمنون بالحياة الأخرى .. ولما كانت تقاليدهم مغايرة لما جاء بكتاب الموتى من طقوس فلا يمكننا اعتبارهم المؤلفين لما جاء بالكتاب من آراء ..

وثمة من يقول إن أكثر ما جاء بهذا الكتاب من عقائد إما منقول عن أمم أجنبية قديمة وإما أنه جاء إلى مصر مع بعض المهاجرين الغزاة الذين أقوا من أصيا عن طريق بلاد العرب ولكن

لم يعرف بعد من هم الذين جلبوا معهم تلك الطقوس . وبهذا يكون كتاب الموتى مرآة تنعكس عليها عقائد الشعوب القديمة التي دخلت مصر ومزجت عقائدها بعقائد المصريين ..

ولكن المعروف أن صيانة الجسم بعد الموت بطريق التعفيط أو بغيره كانت عادة لازمة للمصريون لأسباب دينية قوية منذ ما قبل الأسرات حتى الفتح العربي لمصر عام ٦٤٠ ميلادية . فان كانت قبور سكان مصر الأولين لم تحتو على آيات دينية كما شاع بمصر في عصور تالية فان من الخطأ أن نظن أن قوما كالمصريين يعتقدون بالحياة الأخرى ويبذلون الجهد من أجل صيانة أجساد موتاهم كانوا يدفنون آثارهم دون أن يتلوا فوق قبورهم أمنية يرجونها لهم في العالم الثاني ، أو أنهم لم يدعوا الكاهن ليتلو بعض الصلوات والتعاويذ . وما دامت هناك صلوات تتلى ساعة الدفن فمن المحتمل أنه كان يسحبها طقوس خاصة لها قوة سحرية تصون الميت من أذى الوحوش والفناء ..

ومع أننا اليوم لا نعد مثل تلك الصلوات الجنائزية مهما كانت أهميتها كالمصدر الأول لكتاب الموتى فانا لا نشك في أن الطقوس المكتوبة في كتاب الموتى المستعمل أيام الأسرتين الرابعة والخامسة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات المصرية . وأن تلك الطقوس قديمة أو هي أقدم من المدنية المصرية المعروفة ..

وفي الكتاب تعاريف تصمد للحيات والرحايات المؤذية ويستدل من الأسلوب الذي يكتب به النساخون فصول الكتاب حول عام ٣٥٠٠ ق . م أنهم كانوا يكتبون فصولا يعدونها سحرية في القدم إلى حد أنهم لم يفهموا في أيامهم ما كانوا يكتبون ، ويستنتج أيضا أنه كانت هناك وحوش تعيش في النيل وعلى شواطئه أيام كانت شواطئ النيل مكتظة بالغابات التي قطعت للوقود . وأنه كانت تعيش على مقربة من منفيس وحوش برمائية لا توجد اليوم في غير النيل الأزرق والبحيرات الاستوائية . مثل تلك الوحوش كان المصريون يخافون على موتاهم من أذاها ..

* * *

أما مشتملات كتاب الموتى فتتمثل عقائد دينية سادت في عصور مختلفة من حياة الامة المصرية، وتصور آراء ذهبت بها مدارس فكرية عديدة بمصر . والفرض من فصول الكتاب كما تقدم خدمة الميت وفائدته ، قصد بها أن تمنح له القوة ليحصل ويتمتع بالحياة الخالدة ، ويقدم إليه كل ما يحتاج إليه في حياته الأخرى ، وتضمن له النصر على أعدائه ، وتعينه على الرواح والمجيء حينما أراد وكيفما ومتى شاء ، وبها تستطيع روحه أن تدخل في قارب رع أو أي مسكن للسعداء الخالدين كان يشتهي ..

وبين فصول الكتاب عدد يتضمن أناشيد إلى روح وإلى أوزيريس ومن هذه الأناشيد ما يقوله الميت لأوزيريس عند دخوله للمحاكمة بقاعة الآلهة « ميعاتي » « أرض الميعاد » :
 « قد أتيت واقتربت لأرى محاسنك . . يداي ارتفعتا لعبادة اسمك الحق والصدق ، أتيت واقتربت من المسكان الذي لا تنمو فيه شجرة السنط ، ولا الشجرة الكثيفة الأغصان ، حيث لا تعطى الأرض عشباً ولا حشائش ، ثم دخلت إلى المكان الخفي وتحدثت إلى الآلهة ست ، واقتربت نحو حامي وكان وجهه محجبا . . . » الخ . . .

وبعد أن ينشد الميت أمام أوزيريس ، ويمجّز قاعة الدينونة يقف ليسرد اعترافاته أمام اثنين وأربعين آلهة جالسين للحكم عليه ، وكل آلهة من هؤلاء مختص بخطية خاصة فيؤكّد الميت إنه لم يرتكب خطايا معينة . ثم ينادي الاثنين والأربعين آلهة كل باسمه ويعلن أمام كل منهم أنه لم يرتكب الخطية المختصة بهذا الآلهة بالسقاب عليها . وأخيراً يعترف بكلمات سحرية تؤهله لدخول القاعة وأخرى للخروج منها . . .

ومن هذه الاعترافات يرى أن القانون الأخلاقي المصري كان أعظم وأقرب إلى الفهم من كل قوانين الأمم القديمة وأن المصريين القدماء كانوا يقدسون الأخلاق الفاضلة . . .

ولم يعرف المصري القديم مبدأ الغفران فهو في المحاكمة التي تجري أمام أوزيريس يعلن رغبته في الدخول إلى محكمة هذا الآلهة على حقيقة أنه لم يرتكب خطايا معينة وأنه كان يخاف الله ويطعم الجائع ويكسو العريان وغيرها من صالح الأعمال . فاذا شك في قيمة أعماله الدنيوية لجأ إلى التعاويذ والكلمات السحرية ورسوم الآلهة فنقشها على أكتاف مواته وتوايبتهم وقبورهم وعلى أوراق البردي التي تدفن معهم . . .

ولنتقل هنا ذلك القانون الأخلاقي المذكور في كتاب الموتى وهو الذي يتلوه روح الميت حين تدخل « نو » إلى قاعة « ميعاتي » أو قاعة المحاكمة ومنه نستدل على أن الديانة المصرية القديمة التي شوهدت العامة والجهالة في عشرات القرون لا تقل في جوهرها من الديانات العظيمة التي أتت بعدها بأجيال . بل هي منبع الديانات كلها :

« في الحق أتيت إليك ، أيها الآلهة العظيم ومعى الحق والصدق . لقد أهلك الشر من أجلك ولم أفعل سوءاً بالبشر . لم أظلم عشيرتي . ولم أرتكب شراً بدلاً من الحق والصدق . لم تكن لي معرفة بمن لا قيمة لهم من الناس . لم أدع الآخرين يؤدون لأجلي عملاً شاقاً . لم أقدم اسمي للاطراء والتمجيد . لم أسئ معاملة الخدم . لم أفسد في احتقار الله . لم أغتصب من الفقير متاعه . لم آت بما هو ممقوت لدي الآلهة . لم أكن سبباً في ضرر يلحق به السيد خادمه . لم أسبب الماء لأحد . لم

أدع انساناً يقاسى الجوع . لم أجهل أحداً يبكي . لم أرتكب القتل . لم أصدر أمراً بقتل أحد .
 لم أوقع مكروها بالناس . لم أسرق قربان الآلهة . لم أخطف الخبز المقدم للأرواح . لم أرتكب
 الزنا . لم أدنس نفسي في الأماكن المقدسة لآلهة مدينتي . لم أنقص في الموازين ولم أضف أو أسرق من
 الأرض . لم أعتد على حقول غيري . لم أزد على أثقال الموازين لأخدع البائع ولم أغش في قراءة الميزان
 لأخدع الثماني . لم أبعد اللبن عن أفواه الأطفال . لم أطرد الماشية وهي ترعى . لم أوقع الدجاج
 المحصص للآلهة في الشرك . لم أصدر السمك بطعم من سمك مشابه . لم أحبس الماء في الوقت الذي
 يجب أن يفيض فيه . لم أصنع ثغرة في قناة يجرى فيها الماء . لم أطفئ نارا يجب أن تشتب . لم أنقص
 أوقات التقديم للآلهة ولم أغتصب اللحم المختار للتقدمة . لم أطرد الماشية المخصصة للآلهة .
 لم أقاوم مشيئة الله . أنا طاهر . أنا نقي وطهارتي طهارة ذلك العظيم يغير الساكن في مدينة سوتن هتن
 « هيرا هليو بوليس »

وفي الكتاب وصف مسهب للفردوس الذي تخيله المصريون ودعوه « سيخت حيتيب »
 و « سخت آرو » أي حقول الأمن والسلام . ومن الصلوات التي يقولها روح الميت للدخول في
 هذا الفردوس الصلاة الآتية :

« . . . انظر إلى الآن لأنني اصنع هذا القارب القوي لأرحل فوق بحيرة الآلهة » حتب »
 وقد أحضرته ليلا من قصر « شو » . . . أحضرت القارب إلى البحيرة لاستطيع التقدم إلى المدن التي
 وراءها . وقد أبحرت في مدينتها المقدسة « حتب » . . . دعني أحصل على منطقة في هذا المنفل
 « الجنة » لأنني أعرفه وأبحرت على بحيراته ، لأصل إلى مدائنه . . . إن في قوتي وأنا مزود بأسلحة
 أستخدمها ضد الأعداء . لا تجعل لهم سيطرة على . كافئني بحقوقك أيها الآلهة حتب . لتسكن مشيئتك
 ياسيد الرياح . هل لي أن أكون ملاكا في الحقول ؟ هل لي أن آكل في حقول السلام . هل لي أن
 أشرب فيه وأحرث فيه وأحارب فيه وأحب فيه ولا أكون فيه خادما بل سيدي . »

وفي الكتاب فصل يصف أصل الآلهة وما يرى في العالم الآخر . وبه صلوات تماهد الميت على
 الذهاب والاياب في ذلك العالم فيعيش بعد أن مات كما يعيش رعا يوما بعد يوم . وفيه فصل بقوته
 يقتصر على أعدائه . وفصل يمنحه سيادة على كل شيء ويساعده على التبعوال بين الخالدين . وفصل
 يعطيه القدرة على التقدم نهائياً في مختلف الاشكال التي يجب أن يتقمصها . فيمكنه أن يتحول إلى
 صقر ذهبي ، أو يصير حاكماً على الأسراء السماويين ، أو ينقلب إلى إله ينسبر في الظلمة ، أو إلى زهرة
 لوتس ، أو إلى الآلهة فتاح ، أو إلى طير مالك الحزين أو عصفور دوري ، أو يتخذ شكل الحية

« سانا » أو غير ذلك ، وفيه فصل يعينه على الحصول إلى الفردوس فيلقى ما يكتفيه من القميص والشعير ولا يجمع ولا يملش .

وفيهِ فصول يقصدها يحفظ جثة الميت في قبرها ، وتعاويز سحرية يحافظ بها الميت على نفسه وأن يمنع مما يستطيع أخذه والتحدث به وأن يمنع قلباً وأن يحفظ هذا القلب من لصوص القلوب ومن يطرد القلب ساعة وزنه امام اوزيريس

وبه تعاويز تحميه من لدغ الحيات والثعابين ومن امثلة هذه التعاويز ما يقوله الميت ليطرد الشيطان « ريريك » إبليس العالم السفلى .

« الى الراء تقهر ، ارحل عنى يا « آيب » انسعب . والا تغرق فى بركة « نو » فى المكان الذى أمر ابوك فيه بذبحك ، ارحل عن مهد رع المقدس لئلا يحل بك الرعب . انا رع الساكن فى رعبه . تأخر ايها الشيطان امام سهام اشعته . إن رع قد نبذ كلماتك ، ومسخت الآلهة وجهك ، وشق الفهد صدرك ، العقرب « الآلهة سركت » قيدتك بالأغلال ، واخرجتك « معت » الى التهلكة . الذين فى الطرق قهروك . اسقط واتعد يا « آيب » يا عدو رع . وانت يا من تحتاز الاقليم الواقع فى شرقى السماء مع صوت الرعد القاصف ، يارع من يفتح ابواب الأفق بلا تمهل ، لذي ظهورك خاص آيب عاجزاً تحت سهامك ، لقد أتممت مشيئتك يارع وقمت طبق إرادتك وعملت ما هو حق . . »

وفى الكتاب أيضاً فصل يهب الميت سلطنة على الماء الجارى وعلى نسائم ربح الشمال ، ولن يحتاج إلى شرب الماء القدر أو أكل الطعام التافه ، ولن تفضل روحه وتظل باحثة عن طعام بل أنها تجدد الحما كافيًا وماء نقيًا وهواء لطيفًا وتمشى فى الجنة كما تشاء وتجول فى ممرات العالم السفلى وتمر فوق ظهر الشيطان آيب ! .

* * *

كانت فصول هذا الكتاب فى البدء تتلى من الذاكرة وليست من صحائف مكتوبة ، وثذا فتمد هاشت بالتقاليد الشفوية مدة طويلة كانت الصلوات والطقوس فى أثنائها تزداد فى الطول والعدد ، كما تتغير حسب الظروف . ثم أخذت تكتب على جدران المقابر والأهرام ، وفى النهاية كتبت على صفحات البردى حين وجد الكهنة أن بعض الفصول على وشك النسيان . .

وكان بعض أجزاء الكتاب معروفا قبل عهد الأسرة الأولى أى قبل الملك مينا . وفى نسخة كاملة وصلت إلينا من عهد الأسرة الثامنة عشرة ما ينص على أن فصلا من الكتاب وجد فى أساس معبد « هينو » وقد عثر عليه رئيس البنائين فى حكم ملك الشمال والجنوب « سمتى » أحد ملوك الأسرة

الأولى . وتنص فقرة أخرى على ان فصلامنه وجد في مدينة خيمنو « هرموبوليس » مدينة تحوت في حكم الملك منقرع من ملوك الأسرة الرابعة . .

ولم تصل إلينا نسخ من الكتاب في عهد الأسر الثانية والثالثة والرابعة ، ولكن جاءنا أن ثلاثة فصول من الكتاب وجدها « حيروتاتاف » ابن خوفو وكان ينسب إليه علم عظيم . فمن المحتمل أن يكون مثل هذا العالم راجع بعض الفصول . .

وفي أيام الأسرتين الخامسة والسادسة أخذ بعض ملوكها مثل ارناس وببي الأول وغيرهما ينقشون جدران أهرامهم وممراتها بمقتطفات من كتاب الموتى في شكله الأول . . ثم انقطع تاريخ الكتاب بين الأسرة السادسة والأسرة الحادية عشرة ولو أن في ذلك العهد بنيت مقابر عظيمة بها كتابات جنازية هامة . .

أما في عصر الأسرة الثامنة عشرة فيدخل الكتاب في عهد جديد وتنتقل كتابته من الأهرام والأكفان والجدران إلى صفحات البردي ولعل ذلك لا تتفاجأ القصب بالكتاب بطريق ميسور تغنيهم عن تكاليف النقش على الجدران . .

وقد عثر على عدد من هذا الكتاب في مقابر طيبة حيث اعتنى السكينة بكتابته لأتسهم ولزوجاتهم وأقاربهم ، وبين هذا العدد الذي كشف عنه بطيبة خمسة كتب تختلف في الطول من ١٥ إلى تسعين قدما وفي العرض من ١٢ إلى ١٨ بوصة وشاعت في عهد الأسرة الثامنة عشرة عادة كتابية بالمداد الأسود في عواميد هيروغليفية وكانت العناوين ومبادئ الفصول والكلمات الهامة تكتب بالمداد الأحمر ثم دخل الزخرف والرسم والتصوير في صفحات الكتاب ، ووجدت صور منها تشبه صوراً مرسومة على أكفان موتى الأسرة الحادية عشرة لا سيما مناظر الجنة . .

وفي الأسرة التاسعة عشرة أخذت تلك الصور التفسيرية تظهر بألوان زاهية ولم يدخر الفنانون وسعاً في التنسيق والزخرف والتلوين . .

وعاش كتاب الموتى حتى دخول الإغريق بمصر ولكنه تبدل واختلفت مواضعه . . والذي يهمنا من أمر هذا الكتاب أنه أولاً كتاب مصري ، وثانياً أنه على الأرجح أقدم كتاب في العالم ، وثالثاً أنه يعطينا فكرة عامة عن عقائد وديانة أسلافنا المصريين مما شوّهه من العصور وعن تطور العقائد والأديان ، ورابعاً أن به أول اختراع لمناظر الجنة والجحيم ذات الصور المادية والرغبات الجسدية ، وخامساً لأن به أول قانون أخلاقي يضارع وصايا الديانات الكبرى



المؤلفات العالمية الخالدة

لم تترجم بعد إلى اللغة العربية

الفرض من ترجمة المؤلفات من لغة إلى أخرى هو اتساع ثروة الأمة المعنوية بما تضيفه إلى ثقافتها أولا وإلى لغتها ثانياً من نتاج الأمم الأخرى الأدبي وجهودها الفكرية ، وكذا إيجاد الصلات الروحية بين أدب الأمة القوي المملووع بشخصيتها وبين الأدب العالمي الذي لا تقيد به بيئات ولا لغات لأنه يدور حول الفن والحياة والنفس . وكذا ربط الحاضر بخلاصة التفكير الماضي .. وعلى ذلك فترجمة الكتب العالمية التي يعترف لها الجميع بالأفضلية والخلود هي الظاهرة الأولى التي تسبق نهضات الشعوب وتبدو في الطليعة كبشير يؤذن بشروق أنوار روحانية في ربوعها ، فيتسمع لصوته أفراد من ذوى النبوغ والمبقرية ، ويهبوا من سباتهم حاملين ألوية الأدب في الأمة مبشرين بالتجديد والنهضة ..

هذا ما أثبتته تاريخ نهضات وهذا ما فجعبت لتأخر أوانه في النهضة المصرية الحاضرة التي بدأت في الأفق طلائعها . وهذا ما رأيناه مثلاً في النهضة العربية الفكرية أيام العباسيين فان ازدهار التأليف العربي وظهور أعلام الفكر في تلك النهضة قد سبقته ترجمة المؤلفات الاغريقية على أيدي كثيرين من المترجمين أمثال ابن رشد مترجم أرسطو وأمثال حنين بن اسحق ويوحنا البطارق وثابت بن قره وجرجيس بن عنجشع وعشرات غيرهم ممن نقلوا كتب الفلسفة والطب والشريعة عن اليونان كما سبقته ترجمة المؤلفات الفارسية على أيدي عبد الله بن المقفع مترجم كليله ودمنة وغيره ..

وهذا ما حدث في عهد النهضة الأوربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فلقد كان لأحياء المعارف القديمة من يونانية وعربية ورومانية فضل لا ينكر في يقظة الفكر الاوربي من سبات القرون الوسطى وتحرير ذلك المنكر من السخف والتقاليد التي نشرها التعصب الديني يومذاك . وإذا بالقرن قد بحثوا المؤلفات القديمة الهامة وانكبوا على دراستها ونشروا عما ترجمه العرب منها فنقلوه إلى لغاتهم وظهر منهم المترجمون أمثال قسطنطين الافرى وجيراز الكرموني وسلمان الجنوى وميخائيل سكوت الانجليزى وغيرهم . ولم يهملوا ترجمة عدد من مؤلفات الاندلسيين وفلاسفة العرب وفي مقدمتها كتب ابن رشد وغيره . وتبعته نهضة الترجمة بالطبع حركة النقد لان التفكير العصري الحق في مناقشة التفكير القديم وتطبيقه على مستلزمات الحاضر ، فيأخذ منه ما يروقه وينبذ ما لا يتفق

مع روح زمانه . فلا عجب أن ظهر نقاد القرن الخامس عشر أمثال لورنزو غالا وفسينو وبوليتيانو وغيرهم . ولا عجب أن يعقب النقد التأليف والابتداع والتنويع ، فيظهر في إيطاليا دانتي وبتارك وبوكشييو ، وفي ألمانيا يوهنا ملر وأجريكولا وركن ، وفي فرنسا جيوم بودا وكوجامس ، وفي إنجلترا ملتون وشكسبير . .

تلك سنة طبيعية لكل النهضة فالتربة يتبعها النقد وهذا يعقبه التأليف والأدب القومي . ولكن النهضة المصرية الحاضرة تناقض تلك السنة فتسبق إلى التأليف المقنن القليل الاهمية قبل أن تعم ترجمة الكتب العالمية ، قديمها وحديثها ، إلى اللغة العربية . ولأن كنا اليوم في عصر ترجمة لا في عصر التأليف في الواقع ، فإن اللغة العربية لم تطلع حتى الساعة على شيء من آلاف الكتب العالمية الناضجة التي جادت بها القرائح البشرية ، بينما اللغات الأخرى قد نقلتها منذ قرون عديدة . وقد يتجه عصر الترجمة هذا إلى نقل الكتب الثانوية إلى العربية ، وإلى تشويه تلك الكتب أثناء ترجمتها لجهل انتقاء الكتب ولعدم الإلمام باللغة المنقول عنها . .

في الصبا وقع في يدي كتاب انجليزى هو احدى مؤلفات اللورد افبرى وكان بين فصوله موضوع عن اختيار الكتب وفيه أورد المؤلف فهرساً بأسماء مائة كتاب مختلفة الأهل مترجمة إلى الانجليزية عن أكثر من عشر لغات أجنبية ، وذكر المؤلف أن هذه الكتب المائة ذات أفضلية واعتبار في نظره وفي رأي سواه وقال : « ان ناموس بقاء الأفضل » سار على الكتب سريانه على أنواع الحيوان » وكان بين تلك الاسماء كتابان عربيان هما القرائن الكريم وألف ليلة وليلة ، فاشتبهت يومذاك وكنت لم أزل تلهيذا لاقدرة له على الخوض في غمار المؤلفات الأجنبية أن أقرأ منها شيئاً بالعربية فاتضح لى انه لم يترجم إلى العربية من هذه المائة كتاب غير كتابين هما التوراة التي ترجمها بعض المستشرقين والياذة هو ميروس الذي ترجمها البستاني واليوم بعد عشرين عاماً وقد تطورت النهضة الفكرية في مصر وتضاعف عدد المتعلمين أرى أن المترجم إلى العربية من هذه المائة كتاب لا يزيد عن سبعة كتب هي الكتابان السابقان وأصل الأنواع ووليمة أفلاطون وأخلاق أرسطو وخواطر إسكال وروبسون كروزو أما التسعون كتابا الباقية التي نقلت إلى كل اللغات أما المهاراتا والرمانيانا والشاكونتالا والنيلمنجنليد أما مؤلفات ملتون ودانتي وموليير وفولتير أما غيرها وغيرها من خير ما تمخض عنه العقل الانساني فلم تزل العربية تجهله ا

وكنا يعلم إن لأفلاطون نحو ست وثلاثين مؤلفاً إلا أنه لم يترجم منها إلى العربية حتى الساعة غير كتابي الوليمة والجمهورية . ولعل قدماء العرب قد نقلوا كثيراً من كتب أفلاطون ولكن أين تلك المترجمات اليوم ؟ .

وكلنا يعلم عن شمسبير كثيرا وقليلًا ، وكلنا شاهد على المسرح الغربي أو العربي رواية أو أكثر من مؤلفاته ولكن لم ينقل من روايات شمسبير السبع والثلاثين إلى العربية حتى اليوم غير نحو عشرة ترجمت لنفع تلاميذ المدارس بل إن بين هذه الترجمات ما نقل عن الفرنسية على الرغم من سعة انتشار الانجليزية بينما ومن الخطأ في النقل عن غير الأصل مباشرة !

وكذلك المؤلفات المصرية التي خلقها قدماء المصريين لا يقرأها اليوم أحفادهم بلقتهم القومية وهذا « كتاب الموتى » المصري ولعله أقدم كتاب في الأرض هو وحكم بتاح حتب لم يترجم حتى الساعة إلى العربية مع أن الأستاذ بدج نقله عن الهيروغليفية إلى الانجليزية عام ١٨٩٨ ، وكذلك كتاب مانيتون المصري وتراجم النقوش الباقية على المسلات والهيكل وفي داخل الأهرام والتوابيت وعلى أوراق البردي وكلها أدبيات مصرية نقلت إلى كافة اللغات الأجنبية ولم يترجم منها إلى العربية إلا النذر اليسير . بل إنك لتحصي في إحدى اللغات الأوروبية الكبرى أكثر من ألف كتاب مشهور عن قدماء المصريين وفراغتهم وفنونهم وعاداتهم ودياناتهم وألهتهم وقصصهم وأشعارهم ، وترى نحو عشرة كتب أفريقية في « أجرومية » اللغة الهيروغليفية ، بل هناك كتاب للأستاذ بدج أسماء « مطالعة للمبتدئين في المصرية » وقد رأيت للأستاذ المذكور وحده خمسة عشر كتابا انجليزية عن قدماء المصريين ولغتهم ولم يترجم منها إلى العربية غير واحد..

ولنا جيران شوقيون كالفرس والهنود تجمعنا بهم أواصر كثيرة ولكننا لانسمع عن مؤلفاتهم إلا بطريق الغرب وهل كان الاوربيون أحق منا في التمتع بأشعار الفردوسي ناظم الشاهنامة منذ ألف سنة ولم تترجم إلى العربية الا منذ عهد قريب ..

وكذلك أشعار السعدي شاعر الفرس الصوفي منذ ثمانية قرون وفي مؤلفاته « حديقة الأزهار » و « حديقة النار » و « البندامة » من الزهد والتصوف والدعوة إلى الخير والمحبة وذكر الحب والمحبين غير ما فيها من قصص تمزج الجذبالفكاهة والشعر بالفلسفة ، ما هو جدير بترجمته إلى العربية شقيقة الفارسية ..

ولنا جيران هنود لهم أدب روحاني يعجب به الغربيون ويحبلونه ولكن أين نحن من ديانة بوذا وكتب الفيدا المقدسة ذات الأشعار الدينية الرائعة وأين نحن من ديوان كاليداسا ولماذا لم تترجم من مؤلفات تاغور غير كتابين صغيرين وفي الانجليزية منها خمسة وعشرون ..

لقد حرمت العربية من أفلاطون ومخاوراته ويرون ورحلاته وكانت وفلسفاته ، ورأسين ورواياته ولافونتين وخرافات واوريليوس وتأملاته وشوسر وحكاياته وروسو واعترافاته ، ومولير وفكاهاته وتنتسون وغزلياته ، وأرسطو وأدبياته وصفو قلبيز ودراماته ودانتى وتخيالاته وألف غيرهم ..

في مصر بـمصر خمسة قروم

في عيد « الوحدة العالمية » في الشهر « الثالث عشر » سنة ٢٤٣٩ للميلاد ، أذاعت محطة الراديو المركزية من ناطحة السحاب بأسبوط على سكان « ولاية وادي النيل » « مصر والسودان سابقا » إحدى ولايات الأرض المتحدة ، المحاضرة الشهرية للدكتورة « ديموقراطية » أستاذة تاريخ الأرض للقرن العشرين بجامعة أسبوط الاهلية ! فأخذت الأسر تستمع في منازلها بوساطة الجهاز اللاسلكي المثبت في داخل كل مسكن . وترى الخطيبة معها في الغرفة بوساطة جهاز « التليفزيون » . وكانت الأستاذة في الجهاز صرندية بثوب سماوي أزرق هو لباس الشتاء الرمزي لكل سيدات الأرض ، وقد طرز عليه مثلث صغير داخله حمامة بيضاء ، هو علم الأمة الأرضية الذي يرمز إلى « الآء والمساواة والحرية » أما الحمامة فرمز للسلام المرفرف في سماء العالم ! وكان موضوع المحاضرة في تلك الليلة « كلمة مختصرة عن حالة ولاية وادي النيل المعنوية في القرن العشرين » والزمن المخصص لسماعها نصف ساعة . فأخذت الأستاذة تلقى خطابها بلغة شبيهة « بالاسبرانتو » لغة كوكب الأرض الوحيدة ، التي تميزها عن لغات سكان الكواكب السماوية الأخرى ! قالت :

اخوتي وأخواتي : كان أجدادنا حتى القرن العشرين يستهلون خطاباتهم بلفظي « سيداتي وسادتي » وكان لا بد للخطيب إن كان رجلا أن يقدم لفظة « سيدة » على « سيد » مجاملة للنساء اللأى كن يناضلن يومئذ في سبيل المساواة مع شقيقاتهن الرجل ، تلك المساواة الطبيعية التي لم تشع في كل الأرض بين الجنسين إلا في القرن الحادي والعشرين ، لأن الشرق في تلك الأيام المظلمة كان شديد التمسك بعاداته وتقاليده الموروثة ! أما اليوم في عصر النور فلم يعد فينا عبيد ولا سادة ولا سيدات ، بل أخوة وأخوات ، أحرار متساوين ، بجمعنا وطن عظيم واحد هو أمنا الأرض ، الذي يخفق عليه علم واحد ويذهب بدين واحد ويؤمن بالله أحد . . . وعلى ذكر المساواة لا أريد أن تفوتني الإشارة أن ولايتنا كانت حتى القرن الحادي والعشرين تثن تحت نير التمايز ، وكان فيها طبقات ومراتب متفاوتة الدرجات أهمها طبقتان : طبقة الفلاحين والعمال الذين كانوا يلبسون جلابيب زرقاء ترونها اليوم في متاحف الأزياء القديمة ثم طبقة الحكام والموظفين والاعنياء . أما الطبقة الأولى فكانت تروح تحت أعباء الجهل والأمية والفاقة ، وكانت محقرة منبوذة من الطبقات العليا رغم أنها كانت مصدر الثروة ويد الأمة العاملة النشطة ! أما الطبقة الثانية فكانت تنقسم بدورها إلى مراتب ودرجات عدة ، فيها من كانوا يدعون بالباشوات والبكوات والافندية والمشايخ وغيرهم ! وكان

بين هؤلاء ، كل المتعلمين ومن يعنون بالقراءة والكتابة ، وأولئك لم تزد نسبتهم في أواخر القرن العشرين عن خمسين في المائة من مجموع السكان ! وإن كنا اليوم لا نعثر بيننا على انسان غير متعلم ومثقف رغم أن سكان ولاية وادي النيل ينيف عددهم الآن عن خمسين مليوناً بعد تطبيق مبدأ ضبط النسل الذي أقرته كما تعلمون حكومتنا العالمية بسويسرا ، إذاً ليس علينا أن نتفصيل حالة بلادنا النحسة في تلك الأيام وهي تتمرغ في أحوال الجهالة والأمية والخنوع للتقاليد والعقائد العتيقة ! وكانت هذه الطبقة تميز نفسها بمختلف الأزياء فن طرايش وعمائم حمراء ترون نماذجها في متاحف الأزياء الاثرية السالفة الذكر ، إلى ملابس وأردية تجمع بين متنافر الألوان ومختلف الاشكال ، مما كان يجعل من كل مدينة مصرية قديمة معرضاً يشبه معارض « السكرتال » السنوية التي تقيمها اليوم في عيد الازهار للهو والفكاهة ! أما التمايز بين الرئيس والمرءوس والحاكم والمحكوم والرجل والمرأة ، فكان يتخذ هنا نمطاً غريباً . لكن القوم كانوا قد ألفوا تلك النقائص بحكم الوراثة والعادة . وهنا تحسن الإشارة إلى أن قطارات السكك الحديدية وكل مركبات النقل والمنازل والفنادق وحتى القبور كانت كلها ذات درجات تنسجم مع روح ذلك التمايز وتناقض مبادئ الأخاء والمساواة ، فكان للأغنياء درجة أولى تتوفر فيها أسباب الراحة والرفاهية وللمتوسطين ثانية أقل منها شأناً ، وللفقراء ثالثة فيها من الخشونة والقذارة ما يدل على احتقار المجموع لها ، علماً بأن أجر تلك الدرجة الثالثة الذي كان الفقير يدفعه يومذاك للسفر من الاسكندرية إلى القاهرة يزيد في قيمتها عما يدفعه اليوم من عملتنا العالمية الموحدة للانتقال بالمنطاد من الاسكندرية إلى لندن ! !

ولم يقتصر الانسان في ذلك العصر على التعلم في أخيه الانسان وسحق القوي الضعيف والغنى أخاه الفقير ، بل ظل أجدادنا أيضاً يسومون الحيوان أنواع العذاب دون أن تردعهم العاطفة ويقلم الفكر جذور تلك العادة الموروثة ! فكان القوم يذبحون الحيوان المسكين والطير الصادح الجميل ليأكلوا لحومها ، وكانوا يسخرون الحيوان في حمل الاثقال وحرث الارض وجر العربات على الرغم من اكتشاف قوتي البخار والكهرباء في أيامهم !

بل لقد أخذت دول تلك الأيام تتحكم في الشعوب الضعيفة وتبعث اليها بالجنود لاختضاعها واستعمارها ! فكنت ترى القارة الاوربية تفخر بالتغلب على قارات آسيا وافريقيا واستراليا وامتلاكها وكانت ولاية وادي النيل في هذا القرن تناضل الولاية البريطانية التي كانت كغيرها من الدول القوية القديمة شغوفة بحكم الشعوب وبلاستعمار ولكن ما هي إلا ان تيقظت الشعوب حتى ظهر مبدأ التوازن الدولي الذي أدى الى الحرية العامة وإلى الوحدة الارضية واشتراك الاسرة الانسانية في المعاونة العالمية والاقتصادية والروحية التي هي طلائع تعجلى الانسان المتفوق ، وهكذا قبل أن تدول

الامبراطورية البريطانية وتنفسك كما دالت قبلها الامبراطورية الرومانية ، كانت مصر تكرر كل تفكيرها يومئذ في سبيل الاستقلال ، فلا غرو ان رأينا لاهتمام سكان ولايتنا يومذاك بهذه المشكلة أثرا في حياتهم المادية والمعنوية ، ولا عجب أن ظهر من الزعماء السياسيين ما يفوق عدده عدد الزعماء الروحانيين وقادة الفكر وهم أقلية لا تذكر ، ولا غرابة إن أمست الأحداث السياسية مضغطة في أفواه الصغار والكبار بل لقد كنت ترى الصبي في مدرسته والأخي في عمله يتناقشون في السياسيات ، بل لقد انقسمت هذه الأمة الآمنة إلى شيع واحزاب سياسية كان بينها من الاختلاف والعداء ما لم يكن بين اهل الديانات المختلفة يومذاك ! ولو انقسمت هذه البلاد إلى احزاب فكرية تتناضل في المبادئ العنصرية والفنية والفلسفية ، ناشدة الحقيقة من وراء البحث لاستفاد الناس كثيرا ولما نالهم شر التشتت والتفريق . وفي سبيل ذلك الاهتمام السياسي ظهر عدد من الكتاب أوقفوا أقلامهم على الخوض في تلك المواضيع الساذجة ولو أن أولئك الكتاب كرسوا مواهبهم لخدمة الأدب المسمى ، والتذكير العلمي لحرر لنا اليوم بثمرات عقولهم المحزونة في متاحفنا ولما قدر لكتاباتهم ومؤلفاتهم أن تفي فناء معنويا وتزول بفناء اشخاصهم .

ونظرة واحدة ايها الأخوة والاخوات نلقيها على صحف مصر في القرن العشرين وقد بقي منها عدد وافر في متحف الصحف الدولي ، حتى نثق بالقول السائر ان الصحف اصدق مرآة تعكس عقليات الامم افكنت لا تعجد فيها يومئذ غير كميات من المقالات السياسية التي لا ندرك اليوم لها مخزي ، وغير كمية من الاخبار العالمية التافهة والاخبار المحلية الساذجة ، مما لا يجعلنا نتردد في الحكم على عقليات اسلافنا بغير الاضطراب والسخف وأني لا اعود الى هذه الصحف المشحونة بتلك الاخبار حتى يخيّل الىّ اني قد انتقلت الى جحيم تملؤه القوضى وسوء الخلق ، ذلك رغما عن ان ولايتنا كانت مشهورة بحب السلام والدعة ، ولكمنا إذا ما قارنا حالتها اليوم وهي ترتع في ربوع الحرية والامن والسعادة بتلك الحالة المحزنة التي كانت عليها في القرن العشرين لبدا لنا ذلك البون الشاسع الذي يحق لنا أن نسعد به ونختل به عجباً ! ولقد كنت تقرأ في الصحف كل يوم عن جرائم القتل وكثيرا ما كان يرتكب ذلك القتل من أجل ثور او عود قصب او كلمة ! كما كنت تسمع بأبناء المخازي والسرقات والفسق ولذا كان القوم في كل العالم في حاجة يومذاك إلى تشييد السجون والمحاكم وبث الشرطة والممس ! وكانوا في حاجة إلى جيش من المحامين الذين كانوا يرتفعون من الدفاع عن المذنبين والى جنود تحمي البلاد من فارات العدو وإذا علمنا ان مصر كانت في ذاك العهد في مقدمة الامم تمسكا بهعائر دينها وكنت ترمي المساجد والكنائس والمعاهد الدينية في كل مكان لعجبنا كيف كانت الحر مباحة تشري وتباع في كل مكان ولذهابنا كيف كان بها

دور عمومية للبناء ترخص بها الحكومة ١

لقد ما تأخذني الدهشة ، ايها الاخوة والاخوات ، حينما أتصفح التاريخ وأرى كيف كان أسلافنا الساكنين يعيشون على هذا الكوكب الصغير في مئات من الأمم المختلفة الأجناس واللغات ، والعادات والأديان ، بل لقد بلغ عدد لغات الأرض ولهجاتها حتى القرن العشرين ٢٧٩٠ لغة ولهجة ، وكان لتلك الشعوب المتفرقة مئات الأديان والمذاهب وآلاف الاعلام والرؤساء والحكومات والملوك ، وكان لسكل أمة جيش مذود بالآلات الدمار والقتل يخرج لمحاربة الأمم الأخرى بالنار والغازات السامة والرصاص ، ذلك لأن القرن العشرين كان استمرارا لما سبقه من عصور البربرية والفوضى وعبادة القوة ، فيه شبت الحروب التي قتل في إحداها مرة أكثر من ثلاثة عشر مليوناً من الشبان ، ولعلكم تدهشون إن قلت لكم ان أسباب تلك الحروب كانت تعود الى اختلافات تافهة أقواها في نظرهم ما كان من اجل القومية أو حب السيطرة أو غيرها من نتاج الاضطراب الذهني ، ولكن لا بد لنا أن نقرر أن القرن العشرين كان عصر التجارب فيه أخذت الأمم المتفرقة تتنافس في الاكتشاف والاختراع وتجربة الانظمة التي كانوا يطلقون عليها مختلف الاسماء كالشيوعية والبلشفية والاشتراكية والجمهورية وغيرها كما أخذت تناقش الآراء والعقائد لكنها لم تستقر على حال ولم تتذوق يوماً طعم السلام .

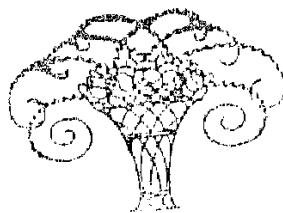
وسط هذه الامواج الصاخبة والعواصف الهوج كان يهتر وادي النيل تارة كما تهتز القصبه في مهب الريح ، ويندفع مع تيار القرن العشرين الجارف تارة اخرى ، متأثراً بمؤثرات حضارة ذلك العهد ، وما هي بحضارة ولا بشبهها ! كانت مصر مرغمة على مجاراة عصرها فأخذت تستيقظ من سبات عميق كان أشبه بموت أدبي طويل الامد ، وأخذت تقلد أوروبا زعيمة تلك المدنية ، في كل صغيرة وكبيرة حتى اصطبغت بصبغة مادية تضاءلت امامها ألوان الروحانيه الساطعه .

وفي سبيل هذه المنافسة الطبيعية وهذه المؤثرات القوية ظهر في مصر رجال ، أقول رجالاً فقط لأن نساء مصر كن في القرن العشرين في شبه هزلة هادئة مطمئنة يحامن في خدورهن أحلاماً ذهبية فلم يخلد التاريخ منهن زعيمة ولا أدبية ولا فنانة يسطع نورها في الآفاق كما خلد بعضاً من اخواتهن الغربيات . . اللهم إلا نفر من الناشئات اللاتي تأثرت بالحركة النسوية الأوروبية يومئذ فبرزن من وراء الحجاب ينشدن التمتع بتلك الحياة التي استأثر بها الرجل في مصر دونهن طويلاً . فأخذ بعضهم يكتب والبعض يشارك الرجل في ميدان العمل ولكن لم يصل اليها للأسف منهن اسم واحد يشع حوله النور والمجد . قلت ظهر في مصر رجال أخذوا على عواتقهم تحرير التفكير المعصري من أصفاد التعصب والتقليد والرجعية ، إلا أن الأغلبية الساحقة وهي أمية جاهلة كانت تقاوم مبادئ المجددين وترميهم

بالكفر تارة وبالتمرد على السلف الصالح تارة أخرى ! كان القوم في ذلك الزمن شديدي التعصب لدينهم ولغتهم وبلادهم وأفسكارهم وأزيائهم وكل ماورثوه عن أجدادهم فقدسوه واضطهدوا من خرج عليه ! فلا غرابة إن لقبت مصر في تلك الأزمان بأُم العجائب ! وكان المصريين في القرن العشرين لغتان، لغة الكتابة والقراءة وهي العربية الفصحى التي جاءتهم من شبه جزيرة العرب، ولغة التخاطب وهي العربية التي شوهها صرور الاجيال . ولو أن اللغة العربية لم تكن لغة المصريين بل لغة البدو الذين غزوا البلاد في القرن السابع للميلاد والذين نشروا آراءهم وآدابهم وعاداتهم وأزياءهم في وادي النيل منذ ذلك القرن وجعلوا مصر مستعمرة عربية فإن المصريين كانوا أشد من العرب تمسكا بعروبتهم وأكثرهم تحمسا للغة العرب وآدابهم ! بل كنت ترى أدباء المصريين في القرن العشرين يقلدون البدو في أساليبهم وآرائهم وهجائهم وحماسهم وغزطهم حتى يصعب علينا اليوم التفريق بين أزمنة الأدب في مصر ..

ظهر بين أولئك الرجال من هب ينادي بتحرير المرأة فأمطره بنو وطنه وابلا من اللعنات ، وقام مفكرون يؤلفون كتباً ذات تفكير حرقاضطهدوهم ، وهكذا كانت هذه الولاية يومئذ في أمس الحاجة إلى حرية التفكير حاجتها إلى نشر التعليم والمساواة والاعفاء والتفرغ للإصلاح المادي والأدبي والتقدم الصناعي والفكري !

فأين نحن اليوم منهم ؟ نحن العائشين في عصر الحرية والسلام والمساواة والديموقراطية ! العاملين على تحقيق غاية الحياة أعنى التطور والارتقاء وليس لهذا الرقي حدود ، المنتفعين بثمار الحضارة والاختراع ، المسيطرين بعلاومنا واكتشافاتنا على الطبيعة ، المتنقلين على هذا الكوكب كما تتنقل الطيور الآمنة في حدائقها ! المتصلين بسكان الكواكب الأخرى من أجل التعاون الروحي ! نحن بنات وأبناء القرن الخامس والعشرين ..



جول في متحف القصر العشرين

عام ٢٢٠٠

نحن في مدينة « هاتور » الهة الحكمة والمحبة عند القدماء ، وهي المدينة الذهبية ذات المجد والرواء ، التي أسستها الجمعية التاريخية في القرن الثالث والعشرين شمالى « هليوبوليس » لتكون مستعمرة علمية للمتاحف الأثرية وتماثيل العظماء الأقدمين . الذين انتقم وادى النيل يوما بعلومهم وفنونهم . فيها شيدت عشرات القصور الرشيقة التي أفرغ الفنانون كل ما اوتوا من حذق ولباقة في سبيل هندستها وتجميلها . وقد قادت تلك القصور وسط حداائق موشية البرود مزدانة بالياحين والورود ! جمع كل قصر منها أشتات التحف والآثار الخاصة بتاريخ وادي النيل في كل عصر وجيل فهذا متحف التاريخ المصري أيام العرب وذاك لعهد البطالمة وهناك متحف التاريخ المصري في القرن العشرين وقد استقل بقصر خاص لأن هذا القرن كان الحلقة التي تصل بين فوضى الماضي المظلم وبين دور التطور والانتقال إلى عصور النور والحضارة العالمية ..

ونحن في يوم من شهر الازهار « الذى سمي في القديم بشهر مارس نسبة إلى مارس اله الحرب الكريه .. بعد أن تغيرت أسماء الشهور بتغير العقليات » ..

وقد رفل وادى النيل الهادىء فى أبهى حلاه ، وكانت الحدائق التي تحيط بكل المنازل المتواضعة الفاتنة يتزوع أريج أزهارها وتتناغى على الفصون اطيافها .. وكانت نظم التعليم قد تبدلت معالمها وسارت وفق التطور الانسانى فكانت دروس العمران والفلك والطبيعات وغيرها الاتلقن فى فصول مدرسية مقفلة بل فى المتاحف والمراصد والمعامل والبساتين .. وأعجب مالى أولئك القوم أن علومهم وفنونهم وعقائدهم ليس بينها وبين ما يفخر به أهل القرن العشرين من علوم وفنون وعقائد أية مشابهة أو قرابة ! بل أغرب من هذا احتقارهم لعقليتنا ووضعهم كتبنا وصحفنا وكل عصارة أفكارنا وثمار جهودنا فى المتاحف الأثرية ليسروا عن نفوسهم برؤيتها والتفكك بها لا بدرسها ولا باحترامها غير مراعين للسلف أو القدم حرمة ! بل لقد بلغت الجرأة ببعض أدبائهم أن ألقوا عنا بلغتهم الجديدة دائرة معارف دعوها « تاريخ الفوضى فى القرن العشرين » ! نسبوا إلينا فيها من النقائص والعيوب ما نعدده اهانة جديدة باعلان الحرب ونسى أولئك الاحفاد العاقون انهم قوم مستضعفون لا يملكون جيشا ولا مدفعا ولا سيفا ولا غازات خائقة ! ولم يفكروا فى اقامة حصن واحد يحمى ديارهم بعد أن هدموا كل ما أفنينا العمر فى بنائه من حصون وقلاع فغفوا

آثارها حتى لا ينحجبهم مرآها !! بل لقد محوا أسماء قواد الحرب وسامتها من كتبهم ووضعوها مع
أسماء المجرمين والمجانين !! تلك الأسماء التي قدسناها وطبلنا لها وزمرنا وأقمنا لها التماثيل لنخلد ذكرها
في كر العصور ! بل لقد تغالى أولئك الثأرون فخرّبوا جل المعابد التي كانت تستكظ بها مدنا
وشيدوا على أنقاضها حدائق ودور كتب ومستشفيات ومعابد لديانتهم العاسية الجديدة !!
عودة إلى ما نحن فيه لثلاث تشق بنا عصبيتنا لمصرنا المجيدة . وقد وقفنا على عتبة « متحف
وادي النيل في القرن العشرين » وإذا بعلم يصحب عدداً من صفار التلاميذ . وقد كنت تحتفيا بينهم
أراهم وأنصت إليهم ، وهم لا يروني ولا يسمعون لي شيئاً ، لأنني أمسيت روحاً أثيرياً هائماً على وجهي
في الحيز وقد مضى على موتى أكثر من قرنين ونصف !! الحق لقد أخذني منظر أولئك الأولاد
ولا عهد لي بمثلهم ، إذ قد بدت على وجوههم علائم الصحة والنيل والنشاط وكانوا يرقنون
بملايس نظيفة متشابهة ، وكان يسمع في عيونهم بريق الذكاء والقطنة ، ولكنهم كانوا كما عهدتهم
أطفالاً لهم سداجة الطفولة وغريزة حب الامتطلاع والامتنعاسار عما يجهلون ، مع شيء من « شقاوة »
التأهدة المعروفة . . .

ودخل الجميع إلى صحن المتحف فأشار الاستاذ إلى تمثال غريب الصنع مقام في وسط المسكن
وقال : هذا رمز بلادكم في القرن العشرين . . ونظرت فإذا بفريق يكافح لجة تقعج أمواجها متخبطاً
في مجاهل . وقد وقف على الشاطئ شبح يلتقي إليه بحلقة النجاة !
فصاح تلميذ صغير قائلاً : حقا إني لا أفهم ماذا يعني هذا الرمز !

نخسيت على هذا الطفل « المسترجل » من أذى المعلم ولكني أدركت أن تلك العقوبات القديمة
قد بطلت منذ زمن طويل وأن للطفل حرية المناقشة والسؤال والمناظرة ، وأخذ الاستاذ يقول بهدوء :
أما الفريق فهو وادي النيل الذي كان يتخبط في ذلك الزمن بين أمواج بحر هائج ولجة مضطربة ، تلك
هي اللجة الفاصلة بين القديم والجديد ، بين التعصب والتسامح ، بين التوضي والاستقرار ، وأخيراً
بين الظلام والنور ! ولم يكن من السهل الانتقال بين هذين الشاطئين دون تجمش المصاعب أما
الشبح فرمز للزمن الذي يلتقي بحلقة الخلاص لينتشل الفريق ويصل به إلى بر السلام والأمن
والطمأنينة . .

وانتقل الاستاذ بتلاميذه إلى صورة شمسية كبيرة تغطي حائط الغرفة الفسيح وقال . أما هذه
فصورة القاهرة في القرن العشرين !

فسأل أحد التلاميذ : وما هذه الأعمدة المشيدة فوق المنازل ، هل كانت محطات للمناطيد أم
منارات للطيارات أثناء الليل ؟ .

المعلم : لا هذا ولا ذاك — إن تلك إلا ما ذل للمساجد والكنائس حيث كان أجدادنا يملكون ..
تلميذ : لكنها كثيرة العدد تكاد توازي في عددها عدد المساكن الأخرى فهل يفهم من ذلك
أن أجدادنا كانوا أتقياء صالحين إلى هذا الحد ؟ ..

المعلم : يقول التاريخ أنه لم يكن فيهم تقى ولا صالح ، بل كانت الشرور والجرائم والأثرة والنفاق
وألف نقيصة أخرى منتشرة في كل الربوع ! يثبت ذلك ما نقرأه في صحفهم التي وصلت إلينا ، فإنها
مشحونة بكل صنوف الآثام ، ولم يكن الدين الذي كانوا يتشدقون به غير اصطلاح نظري لا صلة
له بحياتهم اليومية ! كانوا يتعصبون له ولا يسمون بوصاياه ، كانوا يحاربون الخارجيين عليه ، وهم
أعدائه ، كانوا يقدسون مظهره ، ولا يقدرون خبره ، وبالجملة فقد كان الدين في ذلك العصر
اسما بلا معنى !!

تلميذ : إذا كانت هذه المعابد مهجورة لا ينتفع بها أحد ؟ .

المعلم : بل كانت مفتوحة الأبواب في وجه كل طارق وكثيرا ما كانت تزدهم بالمصلين الذين كان
منهم من يدخلها بحكم العادة فيؤدي ما يراه واجبا كريها ساردا جملا محفوظة يلقيها بعقل تائه
كالبيضاء أو مؤديا حركات آلية لا يفقه لها مغزي ، ثم ينطلق إلى مزاولة الشر والآثم ! ومنهم من كان
يغشاها أملا في مغفرة الله حتى إذا ما فرغ من بين يدي ربه عاد إلى آثامه . ثم يعود ثانية يسأل
الغفران وهكذا كأنه ذلك الطفل العنيد الذي تلبسه أمه أنظف الملابس فيعود إليها بمد برهة ملوثا
بالوحل والقذارة فتنظفه ثانية فيعود إليها قدرا من جديد !!

تلميذ : يخيل إلى أن هذه الصورة مشوهة اذ كيف يتأتى للقوم أن يعيشوا في هذه المساكن
القبیحة المنراكة بعضها فوق بعض بلا نظام ولا ترتيب أو أن يسيروا في هذه الطرق الضيقة
الملتوية كالحيات ؟

المعلم : ليست الصورة هي المشوهة ، بل المدينة نفسها كانت دميمة الوجه ! لقد كان فيها أحياء
وطنية أشبه بالقبور الخربة ، يعيش الناس فيها كما تعيش الهوام فوق الرمم البالية ! فمن مساكن تناثرت
بعضها فوق بعض ، إلى غرف ضيقة لا تدخلها أشعة الشمس ولا أنفاس النسيم ، ومن كهوف تعاف
العين رؤيتها تذوي فيها أسر بشرية كما تذوي الأزهار في صناديق مقفلة ! إلى طرق يملؤها الوحل
والتراب والروث ، وقد كاد جنبها يلتصقان هزالا وسقما ! ومن حوانيت صغيرة قدرة تتطاير
ربوات الذباب فوق طعامها وشرابها إلى مقاهي وسخة ترتع فيها الجراثيم ويخيم عليها
الكسل والفقر !!

لنسرع إلى غرفة أخرى لأن الوقت محدود ! هنا ترون تمثال البقرة التي كانت خادما أميناً وصيدقا

وفيا لأجدادنا إذ كانت تحرث لهم الأرض وتدير ساقية الري، وسترون نماذج هذه الأدوات في مكان آخر. وذلك قبل أن يعم استعمال الآلات البخارية لهذا الغرض في وادي النيل. وكانوا يستخرونها أيضا في أغراض أخرى وفي النهاية كانوا يأكلونها ! .

التلاميذ : وهل من العدل أن يأكل الإنسان خادمه وصديقه ؟ !

المعلم : كانوا يرون في كل ماورثوه عن أسلافهم عدلا وحقا، وكانوا قد اعتادوا أكل لحوم معظم الحيوانات والطيور لأنهم لم يكتشفوا عنصر « الفيتامينوز » الذي يغني المرء عن ذبح الحيوان المسكين وأكل لحمه ، وأما الشفقة بالحيوان الضعيف فكانت تتوارى أمام مبدأهم العجيب القائل بأن الإنسان سيد الحيوان !

أما هذا فتمثال الحمار الذي كانوا يمتطون ظهره للانتقال في الطرق والمزارع علما بأن السيارات كانت كثيرة الانتشار يومئذ في كل العالم . .

تلميذ : وهل كانوا يأكلون الحمار أيضا ؟

المعلم : لا . بل قيل إنهم كانوا يشمنون من هذه الفسكرة !

تلميذ : ولكني لا أفهم لماذا كانوا يأكلون البقرة ولا يأكلون الحمار !

المعلم . لعلمهم لم يستسيغوا لحم الخمر كما استطابوا لحم البقر أو لعلمهم ورثوا هذه العادة أيضا عن أجدادهم . وبهذه المناسبة أقول لكم أنهم كانوا يأكلون لحم الثور والخروف والجل والخنزير والبط والأرز ولكنهم كانوا ينفرون من لحم القطط والكلاب والسباع والضباع !

ثم انظروا هنا ، فهذا نموذج لما كانوا يسمونه « عربة كرو » وآخرها كانوا يسمونه « حنطور » وكانا من وسائل النقل ولا حظوا أن الحصان المسكين هو الذي كان يجرها طول النهار حتى يهزل جسمه ويموت ثم هذا هو « الترام » ومنظره كما ترون عجيبا

لندع هذه الغرفة ولنلق نظرة سريعة على غرفة الأزياء ، فهذا الشيء الأحمر ذو الخصلة السوداء هو الطربوش الذي كان يلبسه أهل الطبقة المتعلمة ، وهذه هي العمامة التي كانت تلبسها طبقة تسمى بالمشايخ ..

— وهل كان النساء يلبسن العمامة والطربوش ؟

— لا بل الرجال فقط ! .

— ولماذا ؟

— هذا رأي اصطلاحوا عليه !

— وهل كانت كل الطرايش والعمائم حمراء اللون ؟

— نعم كلها

— ولماذا استقاروا اللون الأحمر ولم يختاروا اللون الأخضر ، أو الأبيض مثلاً الذي يمسك

ضوء الشمس؟

— هكذا اتفقوا فيما بينهم ..!

— وما فائدة هذا الزر الأسود؟

— كانوا يضعونه للزينة !

— ولماذا لم يضعوا زراً أحمر أو أزرق فيكون أجمل شكلاً؟

— هكذا شاء مزاجهم أيضاً :

— يتخيل إلى أن أجدادنا كانوا غرباء الأطوار ! .

— لسكل زمن يابتي عادته ! .

أما هذا فهو الحجاب الذي كانت تضعه المرأة على وجهها وهو كما ترون نوع أبيض

شفاف ونوع أسود له قصبة مذهبية

— وما فائدة هذا الحجاب وهذه القصبة؟

— كان النساء يخفين وراءه وجوههن عن الناس؟

— لا أفهم لماذا هذا الأخفاء؟

— هذه أيضاً عادة وراثية كان النساء يتبعنها راضيات ! (المعلم يهرب من موضوع

الحجاب لضيق الوقت فيقول) أما هذا التمثال فيريكم كيف كان كثيرون من الناس يومذاك لاسيما

المتظاهرون بالتدين يرسلون لحام ! .

— وما فائدة الاحية ؟ ! .

— كان أصحابها يظنون أنها تميزهم عن الناس بالتقوى أو بالعلم ! .

وهذا تمثال يظهر الشارين الذين كان كل الرجال يرسلونهما !

— ولكنني أعجب لماذا يحلق هؤلاء لحام ويرسلون شاربهم؟

الاستاذ (متضجراً) . لندخل الغرفة السياسية .

— ما معنى سياسية؟

— هذا موضوع ليس مقرراً عليكم — انما انظروا إلى هذه الصورة فهي تمثل مظاهرات

التلاميذ يومذاك ..

— ما معنى مظاهرة؟ وما شأن التلاميذ في هذه المظاهرات؟ ..

هنا كنت قد سمعت النظر إلى آثار أعرفها وتعرفني وإلى أشياء بلوتها وبلتني فتركت هؤلاء

الصغار المتشردين مع ما بهم يطوفون باقي الغرف وقد بقي منها عدد وافر ملي بالتحف ...

تغيير الموسيقى المصرية

منذ أربع وعشرين قرناً كان أفلاطون يحذر قومه خطر الموسيقى المنحطة التي ينشرها بين الناس في كل زمان ومكان جماعة من المتطرفين على القرن فيقول : « يجب أن يتجنب ابتداع نمط شاذ للموسيقى . ثلثا يعرض هذا النمط الدولة للتهلكة ، لأنه إذا فسدت أساليب الموسيقى أثرت في أهم النظم السياسية . إنه هنا في الموسيقى يجب أن يقيم حراسنا بيت حراسهم ، إذ هنا ترحف القوضى بسهولة ، وبلا تعمد في شكل الماهو العديم الضرر ، وما هي إلا أن تهبط لها بالتدريج مستقراً فتنتاب في الخلق والعادات . ثم تندفع بقوة وتتخذ لها سبلا متكاتفة تهاجم منها القوانين والأنظمة ثم تمثل الوقاحة حتى تنتهي بقلب كل شيء سواء في العام أو في الخاص . . »

ثم يعود أفلاطون فيدعوهم إلى الإيمان بالموسيقى الراضية ويحكم تعليمها للصبيان في المنهج الذي تخيله في كتاب الجمهورية ، لأنها كما يعتقد تهبط طريقاً إلى أماكن النفس المجهولة فتلتصق بها وتحملها على الدماعة وتبث لطف الشمائل في من تزود بالتهذيب الحق . . وبأسلوبه الشعري الخلاب يقول : « ان الموسيقى قانون أدبي ، إنها تهب الكون روحا والعقل أجنحة ، والخيال انطلاقا والحزن رقة واكل شيء حياة ، إنها لماهية النظام وإنها تؤدي إلى كل صالح وهادئ وجميل . . »

وكان الاغريق وحكامهم يدركون علاقة المجتمع بالموسيقى ويرون أثرها يتغلغل في كل نواحي الحياة فكانت الموسيقى منذ فجر تاريخهم مادة أساسية في مدارسهم ترمي إلى ترقية الروح وتهذيب الخلق وتساعد على تكوين الأديب فينشأ رقيق الحواس منسجم العاطفة سليم الذوق منطقي الفكر . . والمجتمع المصري مثل كل مجتمع آخر لا يخلو من موسيقى تتجاوب في أجوائه أصداؤها . فتتسرب إلى المجتمعات والمنازل والحدود بطريق النقل والراديو والفونوغراف « والنوتة » الموسيقية وتؤثر في النفسانيات والخلق . فهل هذه الموسيقى المصرية تساعد على رقي المجتمع المصري وهل يمكن اتخاذها وسيلة من وسائل الثقافة والتربية ؟

* * *

كان للموسيقى عند قدماء المصريين شأن يذكر فهم أول من اكتشف السلم الموسيقي وأول من ضرب على العود والناي والطنبور والمزمار البلدي والدف ، وأول من أدخل الموسيقى في العبادة والرقص والولائم . ولم تزل تلك الآلات وتلك الحفلات مرسومة على جدران الهياكل والمقابر في الاقصر ، ولم تزل أناشيد اخناتون منقوشة على آثار قل العمارنة إلا أن الأجيال لم تبق من تلك الموسيقى المصرية غير آثار مشوهة تنوارثها اليوم الكنائس القبطية فتتغنى بها ولا تفكر في تجديدها أو اصلاحها . .

ولما هاجم العرب فالترك مصر ، حملوا إليها موسيقاهم وأغانيتهم التي ورثوا شيئاً منها عن الفرس ، وابتكروا منها شيئاً ، ووصل منها شيء آخر من عرب الأندلس . فإذا بالريف المصري يحتكر المواويل التي يتغنى بها إلى اليوم مع نغم المزمار ، وإذا بالمدينة تتمسك بالوشحات الاندلسية والبشارف الفارسية والتركية ، والى إلى العربية . وجاء أخيراً دور « الطقاطيق » والآفاق العامة الحديثة فكثرت وذاعت في ربوع القطر حتى كاد قيارها يحرف أمامه كل أنواع الموسيقى الأخرى . .

فالموسيقى الشائعة اليوم بمصر هي الموسيقى التركية والعربية اللتان اقتبسنا من الموسيقى الفارسية والتي شوهدا في كل العصور نقر من الاميين المشتغلين بفن الموسيقى كأنهم الآلات تنقل أصوات الآخرين ولا تهمي ما تقول . وليس النقل عن الأمم ومحركاتها لاسيما في فضائلها عيباً بل أن الحياة كلها تقليد ومحاكاة . انما العيب في التقليد الاغنى ولو كان في ذلك الشيء المقلد ما ينافي طبيعتنا ومجري حياتنا ، أو في التمسك بذلك الشيء المقلد تمسكاً مشوباً بالتعصب . ولقد نقل الغربيون في البدء موسيقاهم عن الشرقيين سواء بنقلهم عن اليونانيين أم عن الاسبان الذين تأثروا بعرب الأندلس في فنهم ، أم عن الترك الذين امتدت غزواتهم يوماً إلى حدود النمسا ، إلا أن أولئك الغربيين لم يعتقدوا أن ما نقلوه تراث مقدس لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما يعتقد المشتغلون بالموسيقى الشرقية اليوم ، بل أنهم تفننوا فيها وابتكروا وابتدعوا الجديد الذي ينسجم مع نفسياتهم ومع تطورهم الاجتماعي ، وجعلوا من موسيقاهم أداة حية للتعبير عن كل خواج قلوبهم وصور وجدانهم فأصبحت الموسيقى الأوروبية تعبر عن جميع الاحساسات والعواطف من حب وكره ، وفرح وحزن ، وأمل ويأس ، وغضب وهدوء ، وتمرد واستسلام ، كما صورت بالألحان جمال الوجود وكل ماني الحياة من صور تثير في النفس ارتياحاً أو انقباضاً . وتفاؤلاً أو تشاؤماً . فهذا لحن يصور القمر وقد نشر ضياءه الفضي على صفحة البحر أو فوق الاطلال . وتلك أنشودة تمثل شروق الشمس أو غروبها وهذه مقطوعة تمثل صخب الموج أو سكونة المروج أو زفيف الريح أو ثوران العاصفة . بل لقد صور بيتهوفن أطوار حياته في قطعة معروفة بالسنتفوني التاسعة . .

ثم ابتدع الغربيون « الهارموني » أو تعدد الأصوات التي يخرج من اختلاف ألحانها تناسب وتوازن في النغم ، وما زالوا يرتقون بالهارموني حتى صارت الاوركسترات الغربية بالآلاتها الموسيقية المختلفة الأحجام والأشكال والنغمات ، من أهم مظاهر الرقي الاجتماعي الحديث ، ومن الوسائل التي تعين على تهذيب النفوس وترقيق الطباع وترقية المجتمعات . .

كذلك ابتدعوا الاوبرات والاوبرينات منذ القرن السادس عشر ، وأخذ تالحين الاوبرات ينتشر من ايطاليا حتى عم الأمم الأوروبية وظهرت الاوبرات الخالدة على أيدي أنبياء الموسيقى والفن في

العالم . بل هم وضعوا الاوبرات المصرية مثل عائلة وتاييس وغيرها ونحن لم نبتدع أوبرا واحدة فهل على قول الدكتور هيكل : « أجذب النبوغ وأجذبت العبقرية من مصر فليست لها لغة للمسرح ولا موسيقى للمسرح ولا غناء للمسرح ولا مغنون وموسيقيون يحاولون خلق شيء من هذا ؟ . . » وهذه المبالغ الطائلة التي تنفقها الحكومة على دار الاوبرا في كل عام . . . أفما كانت تعاون على ظهور النابغة الذي يخلق الموسيقى القومية والغناء القومي والاوبرا القومية والمسرح القومي بدلا من أن تعيش هكذا عيالا على غيرنا من الامم ؟ . »

كذلك ابتدعوا مايسمونه « أوراتوريوم » و« سوناتة » و« سنفوني » وثلاثيات ورباعيات وخماسيات وتريه وغيرها ونحن مازلنا نقشبت بالبشرف والموشح والليالي العتيقة والتقاسيم الارتجالية . . . أما المواويل الريفية ففيها كثير من المعاني الساذجة الرقيقة والخيال الشعري الفطري وفيها يعبر أهل الريف عن خوالج نفوسهم ودفين عواطفهم وفيها تسمع أنات الحب وزفرات الألم ووصف المناظر الريفية ، والحق أن تلك المواويل التي يترنم بها الفلاحون وهم أغلبية السكان ، هي الشعر المصري الصميم البعيد عن التكلف والحذقة والتهتك . فمن لنا بمن يجمع أشعارها ويحلل دقائقها ويدرس معانيها ثم ينقدها نقداً عصرياً مميزاً بين غناها وسمينها ؟ أما موسيقى تلك المواويل فتشابهة ساذجة غير متحضرة ولا صالحة بينها وبين الموسيقى الراقية وسوف يبدل الزمن معالمها . .

أما الموشحات التي مازلنا نسمعها على كل « تخت » فموروثة عن أهل الأندلس وقيل إن مخترعها هو مقدم بن معافر . وكان الأندلسيون يتفننون في فن الموشحات ويجعلونه على أوزان مختلفة ولما انتقل هذا الفن إلى مصر أخذ الكثيرون يقلدونه حتى امتزج الأصل بالتقليد ، ولكن معظم تلك الموشحات سخيصة المعنى ركيكة العبارة متشابهة النغم لا يثير في النفس عاطفة ، إذ هو ضرب من الموسيقى العتيقة الخنثة التي زاد طينها بلة نقر من العامة المشتغلين بفن الموسيقى . وهي لا تتفق مع المزاج المصري ولا مع روح هذا العصر ولا أظن أن هناك اليوم من الآذان ما تلذ لسامع تلك « التواشيح » غير آذان السواح الأجانب الذين يقودهم التراجمة للتلهي بمشهد « التخت » وما عليه من غرائب . والأجدر بنا أن نخلع عنا مثل تلك الأنواب البالية بدلا من توقيعها . . .

والبشرف أو البشرى ! الموروث عن الفرس والترك . نوع من الموسيقى القديمة الناعسة الحزينة التي تحمل النفس على الركود والاستسلام ، والجسد على التراخي والفتور ، وخلق بنا أن نجددها ولا ندعها على هذا الطراز ملأه النغم لا تتفق مع النفسية المصرية المتفائلة الفشطة الطروب . فقد أخذ الترك الذين تقاينا عنهم مثل تلك الموسيقى يستبدلون بها الموسيقى الأوربية . ولعل هذا البشرف هو ما أوحى إلى المسيو هكتور مندوب الحكومة المصرية في مؤتمر الفن الأجنبي الذي

عقد مرة في براغ قوله : « . . . والعبارة الموسيقية الشرقية عادة قصيرة ولكنها تكرر مراراً بين ارتفاع وانخفاض وقد تظن أنها بلغت آخرها فإذا هي تبدأ من جديد وتستمر ثم يعاد تكرارها مرة أخرى كأنها أضلاع شكل كثير الجوانب . وقد كانت منذ أقدم الأزمنة مما يوافق ذوق البدوي الذي ليس الصحراء في نظره نهاية والذي يري اليوم كالأمس والغد كالיום . »
أما الليالي فقد طال علينا أمدها ولما يبرز عليها ضوء الفجر بعد مازلنا ننادي الليل حتى في رابعة النهار وفهود فنقول يا ليل ألف مرة . .

أما الطقماطيق والآسوار فقد غمرنا طوفانها رغم أن جعلها سخييف اللحن قصير النغم بالي المعزى حتى اضطرت ادارة المطبوعات إلى مراقبة اسطوانات الفونوغراف من أجلها ويرجع السبب في انحطاط هذا النوع من الموسيقى إلى شذمة من العامة الذين كانوا يرتزقون من تأليف أو تلحين تلك الأغاني ، ولكن يسرنا أن نرى اليوم عدداً من الشبيبة المستنيرة تهب لتلافي هذا الخطر الاجتماعي ، فتشرع في تأليف أو تلحين المقطوعات الراقية والأغاني المهدبة . .

* * *

منذ سنوات عديدة كان يظهر بين فئدة وأخرى فئدة من الفنانين الذين أحسوا بحاجة الموسيقى المصرية إلى التجديد والتوسع والاصلاح ، ولكنهم كانوا أبدأ يصطدمون بالرجعيين الذين يقفون دائماً لكل مجدد بالمرصاد خوفاً على مصالحهم المادية . وكان أولئك المحافظون وما برحوا يعتقدون أن هذه الموسيقى المصرية الموروثة فن لا يدخله التبديل أو التجديد ، ولذا كانت جهود المجددين تتضاءل أمام مقاومتهم وقد ساعدتهم على تشبثهم بالتقديم ابتعاد أغلبية الشعب عن دراسة الموسيقى النظرية والعملية وخلاو المدارس من هذا الفن ونسرة انتشار الموسيقى الأوربية بيننا . .

وكان عبده الحولى بين أولئك المجددين الأولين الذين شعروا بالحاجة إلى الاصلاح فأخذ يقتبس الجديد من الفن التركي ويدخله في أفانيه . وأخذ سلامة حجازى يبتكر ألحانا ساذجة للقصاصد والأغاني المسرحية . وجاء سيد درويش وكان شاباً ذا نزعة فنية مبتدئة فقضى حياته القصيرة حاملاً على تجديد الموسيقى المصرية لا سيما الألحان المسرحية . وفي هذه السنين الأخيرة ظهرت بشائر التجديد على أيد أخرى من الملحنين والمغنيين الذين يحاولون الابتكار والتمشى مع الموسيقى الأوربية مما يجعلنا نعتقد أننا نشرف على عهد جديد تتفتح البلاد فيه أثوابها البالية . . ويمكن اجمال أهم عيوب الموسيقى المصرية فيما يأتى .

أولها — أنها تدور في الجملة حول الحب الجنسي المقرون بالضعف والذل والتوسل ، ولعل ذلك عائد إلى اضطراب الخيال في الشرق بسبب حجاب المرأة وحرارة الطقس وفي ذلك اهمال لبقية

الاحساسات والمشاعر في سبيل ناحية واحدة . وكان جديرا بهذه الموسيقى أن تصور أيضا السكرة والغيرة والغضب وغيرها من صور الوجدان كما تصور الحب والرضى . .

ثانيها — أنها تفيض بالحزن والمرارة، وبالشكوى والنواح . وهذه الشكوى موروثة عن عصور الاستبداد والظلم حين كانت النفوس تنفس عن كربها بالزفرات على الرغم من أن النفسية المصرية متفائلة تحب الدعابة والتهكم وتقابل الخطوب بالصبر والاتكال على المقادير . .

ثالثها — أن جلها يصير على وتيرة واحدة ، وهي بذلك تجلب الملل وتثير الطغور الدفينة . .

رابعها — خلوها من الهارموني الذي هو روح الاوركسترات الاوربية كما سلف . .

خامسها — خلوها من الاوبرات والاوريتات والاوراتوريوم ونحوها . .

سادسها — خلوها من الاناشيد القومية والافاني الشعبية الراقية السهلة العبارة التي يسهل انتشارها بين العامة والمتعلمين على السواء . .

وأولى الآمال بالاصلاح نشر الموسيقى في كل مدارس البنين والبنات المصرية ورياض الاطفال بلا استثناء ، وجعلها مادة اجبارية على أيدي أساتذة متضلعين في فنههم وملحنين بالموسيقى الغربية . وكذا بث الروح الموسيقى في كل البيئات حتى يقدر التلاميذ وآباؤهم أن الغرض من تعليم الموسيقى هو التهذيب والتربية لا الجلوس إلى « التخت » كما يظن أكثرهم . .

وثانيها — ابتكار الألحان الجديدة والتجديد في الموسيقى الشرقية على أيدي ملحنين ملهمين بالموسيقى الشرقية والغربية . .

وثالثها — انتقاء الموسيقى التي تذاع على الشعب بوساطة الراديو ويكون أكثرها جديدا راقيا يسمو بمستوى الشعب ولا ينزل إلى مستوى العامة ليرضيهم . .

أما القول بأن الموسيقى الغربية لا تلائم مزاجنا ولا يجوز لنا الاقتباس منها فكلام يتنافى مع روح العصر ومع الواقع وهو كلام دحضه الترك الدين ورفنا عنهم الكثير من موسيقانا الشرقية فهم باصطناعهم الحضارة الاوربية ومبادئها ونزعاتها وموسيقاها لم يحسوا بأنها جارت على قوميتهم أو نفسياتهم . ونحن الذين نتقرب اليوم من الغرب وندرس علومه وفنونه ونترجم مؤلفاته ونلتفح في حياتنا اليومية باختراعاته ومكتشفاته ونلبس ملابسه وتعلم لغاته لانشط عن جادة الصواب إذا نحن انتفعنا بالموسيقى الغربية المترامية الاغراض الوثيقة الصلة بعلم النفس وبذلك نربح كثيراً ولا نخسر شيئاً . .



نشر الموسيقى في مدارسنا

يرى المربون في مختلف الأمم من وراء تسليم الموسيقى للتلاميذ ونشر هذا الفن في معاهد العلم إلى أغراض سامية ونتائج هامة تتصل بالنفس وتهذيبها والخلق وتقريبها .

أما تلك الأغراض فيمكن تصورها إذا نحن عدنا لحظة إلى عمق التاريخ ورأينا كيف عدت الموسيقى مادة أساسية في منهج التعليم عند قدماء الإغريق ، وكيف كانت وسائل التربية الرئيسية لديهم حتى عصر الاسكندر لا تتمعدى الموسيقى والرياضة البدنية للصغار ، أي لم تتمعد التثقيف الروحي والجسدي ، ثم أضيفت عليهما العلوم الأخرى التي يدعوها بالفنون السبع . وقد قصدوا بذلك الاهتمام بالثقافة الموسيقية إلى ترفيق الطباع وفتح جراح العاطفة وتنظيم القوى النفسية وتهذيب الخلق وصفاء الروح . وفي ذلك يقول الأستاذ بروتنج : « لم تكن الموسيقى عند اليونان وسيلة لتمارين الأذن والصوت ، بل كانت تتمتع به نحو الروح وكانت أساس الحياة العليا كلها ، كما كانت تتخلق في الشخص أديباً حقيقياً رقيق الحواس منسجماً العاطفة ، يسخر العقل في مسائل حاذقة مع تحكيم الذوق السليم ، بعيداً عن تلك الموازين الخشنة - للحكم والمناقشة . كل هذا نتيجة لتقدير قيمة الأصوات والتأثير المعنوي للأناغم » .

وذكر المؤرخون كيف كان الإغريق يعدون من لا يميز بين أنصاف الصوت وأرباعه جاهلاً غير مثقف . وكيف كانوا ينظرون نظرة الاحتقار إلى من لا يلم بالموسيقى والرياضة البدنية مهما أوتي من عقل وصدق وقوة ، لأنهم رأوا في ذلك نقصاً في السكياسة والركة والرشاقة . وذكروا كيف كان يدرّب كل صبي على الموسيقى النظرية والعملية ، وكيف اعتقد أساتذة المدارس يومذاك أن هذا أول واجب عليهم في سبيل التهذيب الخلقى ، وكيف آمنوا بأن اتحاد الموسيقى مع الشعر تؤدي بالنفوس إلى الفضيلة والشجاعة .

وكان أفلاطون وارسطو أكبر من دافعا عن هذا الرأي فجعل أولها تعليمها في جمهوريته محتوماً على الصغار ، ورأى في قواعد التربية التي يؤسس عليها دولته الخيالية أن الطفل يكون منذ السابعة من عمره ملكاً للدولة فيتعلم من السابعة إلى العاشرة الحركات الرياضية التي سيجارسها طول حياته ، ويتعلم من العاشرة إلى الثالثة عشرة القراءة والكتابة ، ثم يتعلم الموسيقى والشعر من الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة ثم يتلقن باقي العلوم فيما بعد .

وتبعه ارسطو فأخذ يوصي بوجود ممارسة الألعاب الرياضية مع أنغام الموسيقى وحبذ اهتمام المدارس الإغريقية بتعليم الموسيقى للتلاميذ ، ورأى أن لهذا التعليم ثلاثة أغراض : إما للتربية

الكاملة أو تهذيب العواطف أو للانتفاع بوقت الفراغ . ولكنه أوصى بالاعتدال إذ ليس من الضروري في رأيه أن يشب الصبي محترفا للفن لأن المحترف لا يمارس الموسيقى لكاملة الشخصى بل لمسرة الآخرين وليس هذا دائماً بالنوع الراقى .

والمعروف أن الموسيقى نوعان : نوع سام يمارس بعضه في المعابد والكنائس لبيت الخشوع وهذا النوع هو الذى يتصدد به أفلاطون وأرسطو وغيرها من معاصى الاغريق إلى تهذيب النفس ، ونوع ماجن يسخر في الملاحى والحروب والمراقص والاخير يهبط أحيانا إلى درك أسفل وهذا هو النوع الذى يخشى منه أفلاطون على خراب الدولة

ومن أجل تلك الأغراض أدخلت الأمم الاوربية فن الموسيقى في مدارسها ومن أجلها أنشأت وزارة المعارف المصرية مراقبة الموسيقى وقررت تعليم هذا الفن في مدارسها ولو كادة اختيارية أولاً كما أخذت ترسل البعثات لتلقى فن الموسيقى في أوروبا وألحقت بها إدارة دار الاوبرا ووضعت المعهد الملكى للموسيقى الشرقية تحت اشرافها ورغم الجهود والمشروعات التى تعمل مراقبة الموسيقى بوزارة المعارف على تنفيذها اليوم فهناك عقبات لا بد للزمن من تذليلها حتى يصبح فن الموسيقى عادة أساسية في منهج الدراسة عندنا :

أولها — أن الوسط الذى يعيش فيه أكثر التلاميذ وكذلك آبائهم وذوهم لا يقدرّون ما لفن الموسيقى من أهمية ، ويرون فيه مضيقه لوقت أنبائهم وملهاة لهم عن دروسهم وامتحاناتهم . فهم لا يشجعون أنبائهم على تعلمه بل هم ككثيراً ما يقاومون تلك النزعة أو يقضون عليها في نشأتها ، وإن هم تساهلوا مع أنبائهم وتركوهم يتلقونه رغبوا منهم في نتيجة سريعة ونموغ مبكر ..

ثانيها — عدم توفر عدد معاصى الموسيقى ، واكثر المشتغلين بالموسيقى عندنا وأكثر معاصيها أميون لا يعرفون من الفن غير نوع سطحى يدور حول استظهار بعض الادوار والبشارف والمارشات المصرية التى يلقونها بدورهم للتلاميذ . وكثير منهم لا يعرف « النوتة » الموسيقية فيعزف « سماعياً » علاوة على أنهم يجهاون الموسيقى النظرية ولا يرون فيها غير وسيلة للهو البرىء لا وسيلة للتثقيف . وهم بدورهم يرغبون في نتيجة عملية سريعة أمام الآخرين فيشيدون بذلك بيوتاً على الرمال وكان الواجب أن يكون معلم الموسيقى شاعرى المزاج رقيق العاطفة ملماً بأصول فنه وأسراره وتاريخه وأن يمارسه سنوات طوالاً قبل أن يلقنه لتلاميذه

ثم أن تلك الادوار والمقاطع التى يعلمها أكثرهم لتلاميذهم لا تعبر عن عاطفة ولا تمس علم النفس وماهى إلا « مرشات » تافهة ودوالى وبشارف عتيقة .

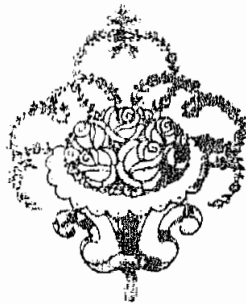
أما المدارس التي أدخلت فن الموسيقى وهي بعض المدارس الثانوية والابتدائية فهي تقصد حتى اليوم الى تكوين فرق تعرض بضاعتها في الحفلات السنوية على الزائرين وليس في هذا تحقيق لأغراض المربين . .

أما وسائل الإصلاح فيمكن اجمالها فيما يأتي :

- ١ — أن يقوم بتعليم الموسيقى في المدارس فنانون متضلعون في الموسيقى لا سيما الغربية ويعلمون تلاويذهم الفن على أساس عصري قوي يبدأ بتعلم النوتة الموسيقية جيداً
- ٢ — تعمل « اجرومية » للموسيقى وكتب لتشرح الاهواء المركبة من سلم موسيقى يكون النغمات وتفسيرها ، لتكون بمثابة كتب الهجاء التي يبدأ بها التلميذ عند تعامه إحدى اللغات . .
- ٣ — أن يوضع منهج ثابت تسير عليه كل المدارس وتدرج به مثل العلوم الأخرى في السنين المختلفة . .

٤ — يبعث الروح الموسيقى في المدارس بل في كل البيئات عن طريق المحاضرات حتى يقدر التلاميذ وآباؤهم تلك الاغراض المنشودة من وراء تعليم فن الموسيقى . كذا يجب أن يلحق التلاميذ شيئاً من تاريخ الموسيقى واصولها . أما أولئك الذين لا تصلح نفوسهم لتشرب ذلك الفن فليكتفى بتلقينهم الموسيقى النظرية وقارئتها وعلاقتها بالأخلاق والعواطف ، ويتلقون الاناشيد القومية . . « ومن لا يعى الموسيقى في قلبه على قول شكسبير ولا تؤثر في نفسه نغماتها الحلوة لا يصلح لغير الجرم والاحتيال والشقوة ونفسه أحلك من ظلام بهيم وعواطفه أحلك من ايراباس إله الجحيم فمثل هذا الشخص لا يوثق به » . .

فأولاد المدارس وبناتها هم رجال الغد ونسائه الذين سيوجهون البلاد الى الناحية التي درجوا عليها فاذا زدناهم اليوم بثقافة حرة جديدة فانما نعمل على تجديد البلاد واصلاحها في المستقبل والدعوة الى تجديد الموسيقى وتقربها من الغرب لا تجدى الآن نفعاً بين من شابوا على ما شربوا عليه ، وأنما تؤتى ثمارها إذا غرسنا الدعوة بالفعل لا بالقول في النفوس الفتية الناشئة . .



تجريب فن التمثيل بمصر

يقولون إن التمثيل قد نهض اليوم عندنا وتجدد ، والحقيقة انها نهضة في ترجمة الروايات التمثيلية من اللغتين الفرنسية والانجليزية . . أما فن التمثيل ، ذلك الفن الجميل المتشعب الاطراف ، الدقيق الجزئيات ، المتراعى الاغراض الذي يصور الحياة تصويراً حياً مجسماً خالياً من التكلف والتزييف . . الذي يتعاون فيه المسرح وأهله على تحقيق أغراض المؤلفين من تشريح الغرائز والهيول والأخلاق تشريحاً بسلوكولوجيا مميزة بين الجميل والقبيح والخير والشر والضار والنافع ، لتتكون دار التمثيل مدرسة طبيعية لا تدوى في جنباتها أصوات النفاق ، تلقى فيها على الجمهور دروس حيوية وصور اجتماعية وطرف فنية تترك في قارات النفوس آثاراً خالدة ، ويصبح الممثل في ظاهره وباطنه معلماً مصرياً وفناناً مقدر التبعة أما ذلك التمثيل الذي يمثل نفسية الأمة المصرية وما يصدر عنها من أمل ويأس وجمال وقبح ، وقوة وضعف ، وقصص وكال ، فما زال عندنا طفلاً يحبو ويلهو حتى اليوم . .

فترجمة الروايات المسرحية هي كل ما عاد علينا باسم التمثيل من فضل ، وهذه حسنة أدبية لا تجهد لأن لهذه الترجمة ميزتين :

أولاهما : أنها الخطوة الطبيعية الاولى نحو التأليف المسرحي ، فكل من أراد التخصص في ذلك النوع الفني من التأليف أن يضع تلك المترجمات نماذج يقتدى بها في قواعد الفن وأسلوب التفكير والتصوير والبناء القصصي ، بما في ذلك من طرق التعبير والمحاورة وخلق الشخصيات والنفسيات المتباينة وتحليل الخلق المؤسس على علم النفس وقوة الملاحظة . .

وثانيتها : أنها تطلعنا على ناحية مهمة من الأدب الغربي فيمكننا أن نشترك معهم في التمتع الذهني بكثير من صور الحياة ونطلع اطلالاً مجسماً على تاريخهم وعاداتهم وسلوكهم . . لكننا إذا اقتصرنا في مسرحنا على الترجمة كما نرى اليوم ، ولا نخرج غير قصة واحدة مؤلفة كل سنة تكون في الغالب مقتبسة عن الغرب لصادف صعوبتين :

أولاهما : أن معظم هذه الروايات الاجنبية التي نعملها لا تتفق مع المزاج الشرقي والاساليب المصرية ولا تصور نفسياتنا وعقليتنا وقوميتنا ، بل نمسح في تلك القصص المترجمة ما يدور حول موضوع تافه ، يدور حول انتقاد عادات أمة من الأمم في عصر خاص وزمن مضى ولا يكون لها أية ميزة تاريخية أو نفسانية ، أو ما يدور حول تحليل نفسية شاذة لعظيم غربي مجهول ، فيخرج المشاهد ولم ترسم في ذاكرته فكرة تشغل نفسه بتحليل عناصرها بل قد يكون ذلك داعياً إلى

تسرب الملل في قلبه من حضور التمثيل . . ويرجع ذلك النقص إلى اقبال أو جهل أرباب الفرق في اختيار الروايات الفنية أو إلى الرغبة في إخراج أكبر عدد من الروايات في موسم واحد . . وثانيتهما : أن معظم تلك القصص مترجمة بلغة ركيكة تشوه فيها اللغة وتضيق فيها معالم الفن ويقضي فيها على أغراض المؤلف وسميته . ومن أرباب الفرق من يفضل مثل تلك التراجم السرجاء لأنها أقل ثمنا وأيسر شروطا في بيعها

وترجع أسباب ركود التأليف المسرحي عندنا إلى أربعة أسباب رئيسية :

أولها : حجاب المرأة الذي قضى على مجتمعنا ومنتجاته . فالمؤلف المصري لا يجد أمامه ذلك المجتمع السافر الذي تنقسم فيه المرأة والرجل سواسية أدوار الحياة فيتبادلان الاختلاص والحب ، ويشتركان في الواجب والتفكير ، ويعملان على توطيد دعائم الأسرة ، ويتفاهمان في تحليل مظاهر النفس . فكيف يتأتى لذلك المؤلف أن ينقل عن مثل هذا المجتمع قصة صادقة تصور حوادثها عن وقائع طبيعية ؟ وكيف يتأثر المشاهد ويهتز وجدانه بقصة يعلم اليقين أن حوادثها شاذة مختلفة وأن أدوارها بعيدة الوقوع بيننا !

وثانيها : — حيرة المؤلف في تخير لغة قصته المسرحية ، إذ هناك فريق يقول بتأليفها باللغة العامية لأنها اللغة القومية القريبة من الطبيعة والبعيدة عن التكلف ، وفريق يقول بتأليفها باللغة العربية الفصحى خشية عليها من الاندثار . ولكل من الفريقين براهين منطقية معقولة ، إلا أننا إذا نظرنا إلى الموضوع من الوجهة الفنية نذهب ولا مرأى ، ولكن بلا تطرف ، مع الفريق الأول إذ كيف يتسنى لمؤلف أن يضع على المسرح فلاحا ساذجا أو خفيرا جاهلا يتحدث باللغة الفصحى . أما إذا نظرنا إلى الموضوع من الوجهة الأدبية تبين لنا أن التأليف باللغة العامية مجهود وقي لن يخلد لأن اللغة العامية تتحور وتبديل مع مر السنين ومرافق العيش ، أما اللغة الفصحى فباقية . فإذا ما ما طبع المؤلف قصته العامية فإنها لن تنتشر إلا في عصره أما المستقبل فسيمحو ألفاظها ويبديل معاني عباراتها . . والرأى الوسط بين الاثنين أن يحاكي مؤلفونا شكسبير وغيره إذ كانوا يضعون لكل عقلية لغتها ، فالمتعلم يتكلم بلغة راقية قريبة من الفصحى والامى يتحدث بالعامية التي يلوها في حياته اليومية ، فيكون ذلك أقرب إلى الطبيعة . .

وثالثها : قلة الخبرة الفنية ، فالمؤلف بيننا قد يضع قصته وهو بعيد عن جو المسرح ، فتخرج شخصياته كعرائس « الأرجوز » الخشبية . وأول شرط للمؤلف المسرحي أن يكون فنانا مائلا بدقائق فن التمثيل وقواعده ومناظره كما يجب أن يكون ملما بعلم النفس مشبع الروح بحب الجمال وروح الفن غير مقيد كثيرا بميول الجماهير الجارفة ، ناظرا عن الحياة نفسها صورت قصته . . ويرى

رينهاردت المخرج المسرحي أن المؤلف يجب أن يكون ممثلاً إذا كان هذا في حيز المستطاع . .
 ورابعها : نقص التعليم والثقافة وقلة الاطلاع وعدم انتشار الكتب ، فجل أدبائنا لم يتعموا تعليمهم
 ولم يتزودوا بالاطلاع لأن نفوسهم مغممة بالغرور متأثرة بالوسط فتراهم يحبون الكتابة لا القراءة ،
 وحبيبهم للأولى وسيلة للشهرة الوقتية الجوفاء وابتغاء تقاريظ الصحف التي تنفعها على كل ثرثار . . .
 نحن في تأليفنا المسرحي الضئيل نقتبس من الغرب ، وهذا ليس في البدء نقصاً كبيراً لأن التلميذ
 يبدأ بتقليد أستاذه قبل أن يلحق به ويساويه ، ولكن هذا المقتبس قليل جداً لا يتفنى مع أية نهضة
 فكرية من نهضات أية أمة . فلقد ألف بالانجليزية في عصر شكسبير وحده منذ أربعة قرون
 نحو مائتي قصة تمثيلية منها سبع وثلاثون قصة خالدة لشكسبير ، وثمانى عشرة لبن جونسون
 وخمسون لملشور وبومون معاً وأربعون لفيليب ماسنجر . .

قلنا إن انتخاب مسارحنا للروايات المترجمة كثير القوضى ونقول إنه كثير أماً لا يتفق الاستعداد
 المسرحي مع روح القصة وتاريخها ، لأن تعدد المناظر ونقائمتها وتقريبها إلى الطبيعة أمر يحتاج إلى
 تقنيات لا يرضى بها أصحاب المسارح عندنا رغم أرباحهم . وكثيراً ما تستهين أو تجهل إدارة
 المسرح لاسيما المدير الفني نقلاً هامة في اخراج الرواية ، كتاريخ العصر الذي تمثل فيه القصة ونمط
 الازياء ونظام المسرح العام ووسائل الانارة وصوت الملقن والوقت المحدود لرفع الستار . .

ولعل خير القصص التي يجب انتقاؤها للمسرح مؤلفة كانت أو مترجمة ، هي تلك القصص التي
 يستفيد منها الشعب دروساً حيوية لأن التمثيل مدرسة الشعب ، وأغلبته ساذجة أمية ليس فيها اليوم
 من الاستعدادات ما يؤهلها إلى فهم التحليلات العميقة والنظريات الفلسفية التي يرمى إليها المؤلف ،
 إنما يريد الشعب فائدة اجتماعية أو أدبية بصورة رشيقة واضحة قوية . ويمكن المؤلف المسرحي
 أن يحلل النفسيات بحيث يدع للمشاهد المجال في الانتصار للعقل والحق والخير في تصويره شرطاً من
 حياتنا الاجتماعية تصويراً صادقاً يخرج منه الناظر مستغنياً متأثراً . .

كان من رأى اسكندر دوماس الصغير أن الغرض من فن التمثيل هو الاصلاح الخلقى والأدبى
 وأن المسرح يجب أن يكون منبرا تلتى منه الآراء الاجتماعية ، فعارضه في ذلك الناقد سارسي قائلاً:
 إن الفن لا يتصد بكليته إلى الاصلاح الخلقى بل إلى الجمال كما رأى أرسطو وراسين . . ولكن ما القول
 إذا جمعت القصة المسرحية بين الفن والجمال والفائدة الاجتماعية ولو بطريقة غير مباشرة ؟

أما الرواية الهزلية التي تمثل على المسارح المنحطة والمنتشرة في أرجاء البلاد فخارجة عن هذا
 الموضوع لأن ضررها على الخلق واللغة والفن أبلغ من منافعها . وهي تقليد مشود للكميديات
 و«الاوربات» الغربية التي يمثلها المهرجون في الأسواق . وهي تمسخ المهن المصرية الوضيعة الشريفة

وتسقطها في العيون ولم تترك طبقة من طبقات الأمة إلا هزأت بها وحقرتها . ثم خلطت تشييدها بالموسيقى المختلطة الألحان المرتبة للتناسق كأنها حلقات الزار 1

ونحمد الله إذ كاد يندثر ذلك الزمن الذي كان الناس فيه لا يطارقون دور التمثيل إلا لثلاث : لشهرة الفرقة أو شهرة الرواية التي تطنطن بذكرها الاعلانات الجوفاء أو لسجاع الصوت الرخيم كغناء روميو رائيسا جوليت ، أو نشيد صلاح الدين الأيوبي منفتحرا بسطوته ، وكان القوم يخرجون بعد أن قضوا ليلهم في مشاهدة تلك الروايات ، ولا يجول في خيالاتهم أى مغزى لتلك المشاهدة ، وليس فيها ما يحملهم على التفكير في معضلة من معضلات المجتمع عرضتها عليهم القصة ، وإن الكثيرين لا يعرفون مما رأوه غير حركات الممثلين والممثلات المتكلمة ..

وفي النهاية نحن في أمس الحاجة إلى تأليف القصص المسرحية التي تحمل الاخلاق المصرية وترقى من شأن المجتمع المصري وتعينه في نشوئه وتطوره وشعوره باستقلاله وتحرر تفكيره من قيود التقليد والاقتباس والرجعية . .

* * *

نحن نستعين بمهمة الممثل فنلحق بها الوصمات والتحقير حتى ضاعت قيمة تلك المهنة وسقطت بيننا إلى الدرك الأسفل ، والسبب في ذلك السقوط راجع إلى نقائص أكثر ممثلينا الذين اندس بينهم من لا يفقهون في فنهم قليلا ولا كثيرا ، يتغذون تلك المهنة صرثقا فيعشقون المهنة ويحقرون أنفسهم ..

والممثل أكثر الفنانين احتكاكا بالجمهور لأنه يعرض عليهم كل ما يملك من ميزات النفس والجسد . فكان الواجب أن يكون متعلما متقنا واسع الاطلاع على خفايا فنه ، متقنا للغة التي يعبر بها على المسرح ، عالما بدقائق علم النفس لاسيما الانفعالات النفسانية وآثارها في مظاهر الوجه والجسد ملما بفن الالتقاء ، قوى الصوت محبا للفن لا للكسب ، دارسا علم الاجتماع ، مميزا بين الاخلاق المتنافرة والمشارب المختلفة ، متغلغلا بين كل طبقات الشعب لدرس ميوله وأمزجته ، قوى البنية ليتحمل أعباء مهمته ، قوى الملاحظة والحفاظة محملا دوره الذي كلف بتمثيله حتى يمكنه الاندماج في شخصية الدور ، ويصبح جزءا منه ، ناسيا ذاتيته ، لابساً شخصية الدور الجديد ..

أما نقائص الممثل المصري التي نأمل اصلاحها في اقرب فتتلخص في ثماني نقط . .

أولها . اعتماده على الفطرة التي هيأت له الالتحاق بمهنة التمثيل ، وكثيرا ما يتطفل عليها ابتغاء الرزق أو حبسا في الظهور ، فلا يبالي بالتوسع في الفن والتزود بالجديد والسير في سبيل التقدم ..

ثانيها : جهله الفاضح بالعلوم والآداب وبين ممثلينا وممثلاتنا من لا يجيد القراءة والكتابة ومنهم من لم يتم تعليمه الابتدائي ..

وثالثها : غيوره . والغرور داء عياء في ممثلينا ، بل وفي فنانينا وجل أدبائنا شيمة كل أمي نال شيئاً من الشهرة الجوفاء فيخال أنه قد اعتلى ناصية الفن وتوقل عياء المجد ..

ورابعها : لحنه في اللغة لجهله بقواعد النحو حتى أبسطها ، ومظه الألفاظ ، وعججه نطقه ، وإهماله في حفظ دوره الذي يمثل وكل ذلك يضعف من قوة الدور بل يسقط القصة برمتها ..

وخامستها . تكلفه في التمثيل وانفعاله العصبي في غير موضعه وكثرة الحركات والإشارات اعتقاداً منه بأن الشعب يغتر « بالتهويش » وكان هذا التكلف أوضح الفروق بين الفرق الأجنبية التي زارت مصر وبين الفرق المصرية.

وسادستها : أنه لا يكلف نفسه أقل مجهود في درس دوره درساً نفسانياً حتى يندمج في شخصية ذلك الدور ، ويفهم صلته بباقي أدوار القصة وموقفه بالنسبة للرواية كلها . ولعل ذلك راجع إلى جهله . إننا إذا طالعنا شيئاً من مذكرات كبار ممثلي أو ممثلات الغرب أدهشنا تلك المجهودات التي يبذلونها في سبيل تمثيل أدوارهم على الوجه الأكمل ، وإليك ساره بونار مثلاً وهي الغنية بفنها وعظمتها عن بذل تلك المجهود فانها قبل أن تمثل دورها في رواية فيدوره طالعت القصة خمس مرات ثم تملت دورها في كراسة وعلقت على هوا مشه بالملاحظات وملأت الكراسة بالتعليقات ثم أخذت تحفظ دورها في كل خلوة وصحبت المؤلف ليفسر لها كل ما أراد تخيله وسافرت الى روسيا لدرس عادات الشعب وخلقته وخالطت الناس هناك صغيرهم وكبيرهم حتى ألمت بكل دقائق النفسية الروسية وعادت فتلت دورها المروفا وإليك ايذا روينشتين فانها لم تمثل دور فادة الكامليا إلا بعد أن طالعت القصة بتفكير وتحليل عدة مرات ثم عرجت على أقوال النقاد فقتلتها درساً وبحناً فلم تترك نقداً لجلول لمر وهنري بيدود ورينيه وسارس وأميل فاجيه وغيرهم إلا استوعبتها واكتشفت في دورها حقائق جديدة ثم أخذت تزور المستشفيات وتدرس أطوار المسولين وأعراض مرضهم ، وبعد أن بذلت من الجهد ما يضييق المقام عن ذكره عادت فتمثلت دورها على وجه أكمل . . وإليك مونييه سولاي الذي لم يمثل دور أوديب الملك إلا بعد أن أخذ يدرس الفلسفة اليونانية لاسيما فلسفة أفلاطون وأرسطو ويقرأ الأدب الإغريقي ، لاسيما روايات اسكيلوس وشفوقليس . حتى تشبعت نفسه بالروح اليوناني الشعري وكذلك اندريه الفلوان لم يقم بدور الملك لير إلا بعد أن درس الرواية عدة مرات وبعد أن جلس في عزلة على أحد جبال سويسرا يطالع آراء نقاد أوروبا في توالييف شكسبير لاسيما كتابات تاين ولسنج وبعد أن سهر الليالي فريداً قلقاً محاولاً الاندماج في تلك الشخصية البارزة التي رسمتها ريشة شكسبير شعر بتبدل ذاتيته وتحول كيانه !

وسابقتها : استهانتها بالعقود التي يبرمها مع مديري الفرق فينتقل كل ساعة من فرقة لأخرى غير مبال بما ينجم عن تلك الفوضى من اضطراب في نظام المسارح . .
وثامنتها : إسقاطه لكرامته أمام الجمهور بما يرتكبه علنا وجهارا من صنوف المنكرات زاعما أنها من ضروريات الفن وشذوذه . . .

وبهذه النقائص وغيرها سقطت بيننا مثزلة الممثلين والممثلات حتى خال الكثيرون أنها مرادفة للمعهر والحطة . ولهذا يقترح الكثيرون من محبي الفن على الحكومة أن تنشئ مدرسة للتمثيل أو فصلا حكوميا في مدرسة الفنون لتعليم فن التمثيل على قواعد علمية يتخرج منها الممثلون ليمثلوا في مسرح حكومي كمدار الأوبرا تشرف الحكومة على سمعته وعلى رواياته كما تشرف على المدارس والكتب ، ويكون أجر الدخول في ذلك المسرح منخفضا حتى يتسنى للشعب الحضور والاستفادة . .

* * *

إذا كان فن التمثيل ثالوثا مركبا من ثلاثة أركانهم : القصة والممثل والمشاهد ، وقد نقدنا القصة والممثل كان من الواجب أن نوجه إلى النظارة في مجال التمثيل ثلاثة مناب :
أولها : أن كثيراً من المشاهدين يرى في الحرية مغزى أوسع من الحقيقة فيزعّم أن له الحق في التمتع بكل ما توحى إليه ميوله بين الجموع ، فيحضر إلى الملهى متأخراً ويسبب جلبه تعكر صفاء التمثيل ويخرج قبل انتهاء الفصل وفي ذلك من قلة الذوق ما يحس به الجميع ، وقد يدخن ويضحك وينتقد بصوت مسموع أو قد يلقي من أعلى الملهى نكتة سخيفة أثناء التمثيل . .
وثانيها : أن الكثيرين لا يذهبون الى دور التمثيل إلا للتفكه وقتل الوقت للاستفادة والدرس والتفكير . .
وثالثها : أن احتقارنا للممثلين والممثلات يؤثر في بهجة الفن ويضيع كثيراً من قيمة الرواية وجعلها . .

أما أكثر الصحف المسرحية التي كثرت بيننا اليوم وعم طوفانها فإن أكثرها لا يخدم فن التمثيل بل يهدمه ويعوق تطوره ، لأن أكثر محرريها قوم أميون يتجرون بأعراض الناس ويصورون الممثلين والممثلات بأبشع الصور وأحقرها . وهي لا تنقد الفن للفن بل تنقد سلوك الممثلات خارج المسارح متطفلة على الشخصيات بائعة الصمت عن العيوب بالمال ، على ذلك فهي نكبة على فن التمثيل التمس في هذا البلد المسكين . .

مصر تكتظ بسكانها

تعد مصر اليوم من أكثر بقاع الأرض ازدحاما بالسكان . فإن مساحة القطر المصري بما فيها الصحاري تبلغ ٤٠٠ ألف ميل مربع ، ولكن الجزء العاصر بالسكان من هذه المساحة هو الأراضي المزروعة ومساحتها ١٣ ألف ميل مربع أو سبعة ملايين من الأفدنة بما فيها الواحات الغربية . أي جزء من ثلاثين جزءا من المساحة السكانية أو قدر مساحة هولنده التي يبلغ عدد سكانها سبعة ملايين . بينما سكان سويسرا أو دافركا التي تبلغ مساحة كل منهما ١٦ ألف ميل مربع لا يزيد عددهم عن ثلاثة ملايين ونصف مليون من السكان في أحديهما ..

من ذلك نرى أن الميل المربع في وادي النيل يسكنه أكثر من ألف نسمة بينما في بلجيكا التي تعد أكثر الممالك الأوروبية ازدحاما بالسكان يسكن الميل المربع ستائة نسمة وفي الصين التي تعد أشد بقاع اسيا ازدحاما يسكن الميل المربع ٦٤٠ نسمة .. وعلى ذلك فالقطر المصري يعد بالنسبة إلى المساحة ، وبالنسبة إلى غيره من بقاع الأرض في مقدمة الدول المكتظة بالسكان ..

ونظرة واحدة إلى احصاء السكان في مصر ترينا مقدار الزيادة المطرد مع بقاء الفقر حتى ليدفع ذلك كل مفكر إلى التساؤل عما ستؤول إليه حالة البلاد بعد قرن واحد ..

ففي عام ١٨٠٠ كان عدد سكان القطر كما أحصته الحملة الفرنسية ٢٠٠.٦٠٠.٢٤٦ نسمة . وفي عهد محمد علي دلت نتيجة الاحصاء سنة ١٨٤٦ أن السكان تضاعف عددهم فبلغ ٤٤٠.٧٦٦.٤٤٠ وبعد نصف قرن آخر تضاعف العدد فوصل في احصاء ١٨٩٧ إلى نحو تسعة ملايين وثلاثة أرباع المليون ووصل . في احصاء ١٩١٧ إلى ١٢ مليون و ٨٠٠ ألف وإذا باحصاء عام ١٩٢٧ يرفع الرقم إلى نيف و ١٤ مليون أي بزيادة أربعة ملايين ونصف مليون تقريبا من النفوس في ثلاثين سنة ..

وعلى هذا القياس سيصبح سكان القطر بعد قرن واحد أكثر من ٢٥ مليوناً مع أن المساحة المزروعة لا تزيد عن مساحة هولنده المكتظة بسبعة ملايين فإذا تكون النتيجة وماذا أعددنا لأبنائنا يوم تضيق بهم البلاد ..

النتيجة في مذهب مalthus سيئة « لأن السكان يتضاعفون بمتواليات هندسية أي ١ - ٢ - ٤ - ٨ بينما غلات الأرض لا تزداد إلا بمتواليات حسابية أي ١ - ٢ - ٣ - ٤ فتكون النتيجة زيادة السكان على المحاصيل والتعرض للقمح » أضف إلى ذلك أن مصر بلاد زراعية تعتمد في حياتها على الزراعة ، وعدد المتعالمين فيها آخذ في الازدياد وجلهم يأنف من فلاحه الأرض وفي القطر عدد عظيم

من العاديين والمرتزين بأحق المهن ومتوسط ما يملكه الفرد بمصر أقل من نصف فدان . بينما متوسط ما يملكه الفرد بفرنسا مثلاً عشرين فداناً ومتوسط الدخل للواحد من سكان مصر لا يصل إلى اثنتي عشر جنيهاً في العام ..

والذين لا يملكون شيئاً أو يملكون مادون خمسة أفدنة يزيد عددهم على عشرة ملايين والذين يملكون نصف الأراضى الزراعية ثلاثة عشر الف ملك ، وحال الفلاح المصري السيئة معروفة ..

أما واجبنا اليوم فينتج من دراسة خمسة مشروعات مهمة علينا أن نوليها اهتمامنا منذ الساعة لأن في كل ثلاث سنين فقط يزداد سكان مصر نحو نصف مليون نسمة أما هذه المشروعات فيمكن اجمالها فيما يلي :

أولاً — العمل على زيادة الأراضى المزروعة . ففي مصر اليرم أقل من سبعة ملايين من الأفدنة المزروعة ولكن فيها أيضاً أكثر من خمسة ملايين من الأفدنة الصالحة للزراعة ، ولكنها لا تزرع لحاجتها إلى مشروعات الري كما في الأراضى البور في شمال الدلتا . ونحن نعلم أن ملايين الأمطار المكعبة من مياه النيل تضيع في كل عام من مصبى دمياط ورشيد ولو انصرفت تلك المياه الضائعة إلى براري الدلتا وانشئت بها المصارف والجداول ومشروعات الري الأخرى لجعلت منها جنات مزروعة ماهرة بالمكان ..

وكذلك الحال في مصاحات واسعة من البحيرات الضحلة التى تشمل آلاف الأفدنة في شمال الدلتا فإنه يمكن تخفيف أجزاء منها ..

ثانياً — إيقاف هجرة الأجانب إلى مصر فإن مصر التى تفيض بسكانها لا تتسع لآلاف المهاجرين الذين يأتون إليها بلا أموال وسرطان ما يحتكرون التجارة والصناعة فيها مما يحتاج إلى ممارسته الآلاف من العبيبة المصرية المتعلمة . وقد كان عدد الأجانب في مصر عام ١٨٩٧ لا يزيد على ١٥٠ ألفاً فإذا بهم بعد ثلاثين سنة ينفون على ٣٠٠ ألف ، بل أن ١٨ فى المائة من سكان الإسكندرية و ٧ فى المائة من سكان القاهرة أجانب فى الإسكندرية اليوم نحو مائة ألف أجنبي وفى القاهرة أكثر من ٧٦ ألفاً ..

ففى استراليا التى يبلغ عدد سكانها حوالى خمسة ملايين ، ولا تزيد نسبة كثافة السكان عن شخص واحد فى كل ١٦ ميلاً مربعاً ، تمنع مهاجرة الأجانب إليها وتكاد تقصرها على الانجليز وتشتد فى تنفيذ سياسة « استراليا البيضاء » فتفرض دخول العناصر الأجنبية لاسيما العناصر الملونة .. والولايات المتحدة التى تلتصق أراضيها لأكثر من خمسة أضعاف سكانها الحاليين ، قد وضعت

جداً لهجرة الأجانب وقيدت الهجرة بقيود ثقيلة وذلك خشية ازدياد العمال وانحطاط الأجور وخوفاً من دخول عناصر تفل في المستوى الاجتماعي عن العناصر الحاضرة وخوفاً من ازدياد السكان وما ينشأ عن ذلك الازدياد من ضيق وفقير وكفاها ما فيها من ملايين العاملين . . . وكذلك في كندا لا تصرح الحكومة للاسيويين بالهجرة إليها وكذا تقيد هجرة الأوربيين من غير الانجليز بقيود كثيرة . . .

وما دام الوقت لم يحسن بعد حين تفتح أمم الأرض أبوابها في وجوه ساكنيها فيقتلون فيها كما تقتل الأسرة الواحدة في المنزل الواحد ، وما دام المصري لا يستطيع الهجرة من بلده إلى بلاد أخرى دون أن يلتقي القيود والصعاب ، فإن عليه حتى تستتب أمور العالم وحتى ينظم شئون بلده أن يمنح الهجرة الأجنبية إلى أرضه

ثالثاً — نشر الدعوة إلى ضبط النسل وهذه مسألة تعيرها اليوم كثير من الأمم المتحضرة عناية كبرى فأقرت ألمانيا قانون التعقيم لمنع المرضى والمجرمين والمجانين من التناسل حتى تنشأ بها ذرية قوية صالحة وأخذت هولندية تعلم الأمهات الطرق الواقية من الحمل وقررت أمريكا أن ضبط النسل لا يخالف القانون كما قرر أساقفة إنجلترا أنه لا يناقض الدين . . .

والمعروف أن الأمم لا تقاس بالكمية بل بالكيفية وأكثر الأمم حضارة اليوم كأسرج ونرويج ودانمرك هي أقلها سكاناً بينما أكثرها تأخراً كالصين والهند أكثرها سكاناً . . .

والمعروف أيضاً أن العناية بزيادة النسل القليل وتقل مع النسل الكثير . وأن أكثر الأمم مواليداً أكثرهن وفيات كما نرى في الهند والصين . والطبقة الفقيرة بمصر وبقية الأمم هي أكثر الطبقات مواليداً وأكثرها وفيات وهم أحوج الناس إلى ضبط التناسل إذ كثرة العمال تنقص الأجور وتزيد البطالة . . .

وإذا قيل أن كثرة العدد تزيد الأمة قوة حربية وأن بعض الأمم الحربية القديمة كانت تعثر بكثرة النسل لأن ذلك يعني زيادة الجنود والجيش فإن الحضارة الحديثة لم تعد تنظر إلى عدد الجنود بقدر ما تنظر إلى التقدم الآلى والصناعى ، ثم أن الأمم لم تعد تقاس بعظمتها الحربية بل بحضارتها وتقدمها . . .

ولا يعنى ضبط النسل التأخر في الزواج ولا الاجهاض ولا طرق التدجيل ، وهو لا يمس الدين ولا الخلق لأنه يعنى المعرفة الصحيحة بالطرق الواقية من الحمل في سبيل الاكتفاء بنسل قليل يمكن العناية بتربيته وتنقيفه لينشأ في الأمة جيل سليم الجسم والعقل . . .

رابعاً — تشجيع مهاجرة المصريين إلى المودان لأنه جزء منهم لبلادنا والقطر الذى تربطنا

به علاقات حيوية منذ فجر التاريخ . وهو يكاد يكون خالياً من السكان . فمساحة السودان مليون ميل مربعاً بينما يبلغ سكانه نحو أربعة ملايين مع أنه يتسم لثلاثين مليوناً أو أكثر . ونحن أولى من الانجليز باستعماره والهجرة اليه لأن الانجليز يملكون أستراليا وكندا وغيرها من البقاع الخالية من السكان والتي تسد حاجتهم الحاضرة والمستقبلية في الهجرة والاستعمار ، أما نحن فليس لدينا ممتلكات ولا مستعمرات . والسودان هو المكمل الطبيعي لبلادنا . .

ثم إن أهالي الصعيد لا سيما الأجزاء الجنوبية وكذلك أهل النوبة يدفعهم فقر أقاليمهم إلى الهجرة إلى المدن المصرية الكبيرة فيشتغلون في أحط المهن وتغص بهم الشوارع وكثيراً ما تضطربهم الحاجة إلى ارتكاب الجرائم وجدير بالحكومة أن تمهد لهم سبل الهجرة إلى أقاليم السودان الزراعية بعد عقد المهادنة مع الانجليز ، وبعد أن تقوم هناك مشروعات الري والمواصلات ، مما يساعد على تقدم السودان الزراعي والصناعي في المستقبل . .

خامساً — خلق بيئة صناعية تقوّم بجانب البيئة الزراعية حتى تفي بحاجات السكان المتزايدين وتخلق لهم أعمالاً لا سيما لألوف المتعلمين . ففتح المصانع وترقية الصناعة بمصر هي فتح أبواب جديدة للرزق وقد بدأنا نحس بحاجتنا الحاضرة والمستقبلية إلى الصناعة في مؤسسات بنك مصر وشركاته التي ستكون نواة لبيئة صناعية تنقلنا إلى الحضارة الأوروبية . .

أما الاعتماد على الزراعة وحدها وشراء أكثر المصنوعات من الخارج فلم يعد من مبادئ هذا العصر الصناعي ولا من السبل المؤدية إلى الاستقلال الاقتصادي ولا هو يفيد في علاج مشكلة العاطلين ولا في مشكلة ازدياد السكان . ويجب أن نكون أمة صناعية وزراعية معاً ولدينا كثير من المادة الخام التي تساعدنا على النهوض بالصناعة والاستغناء عن المشتريات الخارجية فنحن نستورد من الدقيق الاجنبي ما يزيد قيمته عن مليونين من الجنيهات في السنة بل نحن نشترى من الخارج بما تزيد قيمته عن سبعة ملايين من الجنيهات من الأصناف الغذائية التي يمكن انتاجها بمصر في الوقت الحاضر . وقد تألفت بمصر في تسع سنوات ٨٧ شركة أجنبية تستغل مواردنا الزراعية وتحيلها إلى مصنوعات بينما لم تزد الشركات المصرية عن ١١ شركة في هذه الفترة فإذا أنشأنا ألوف المصانع أمكننا إيواء العمال العاطلين وتوفير الأموال التي تخرج من البلاد وإيجاد العمل للسكان الآخذين في الازدياد



اهتزاز الحجاب

بدأت المرأة المصرية تستجيب لدعوة قاسم أمين فارت على حجابها ثورة هائلة تسريجية لم يشعر بها المحافظون كما شعروا بالطفرة التي فاجأتهم بها المرأة التركية أو الإيرانية ، وساعدها على تلك الاستجابة السريعة على الرغم من العقبات الكثيرة التي تلاقيها ، ذلك التيار الهائل الذي زحف على مصر وما برح يكتسح الارض كلها أمامه أعنى تيار الحضارة الغربية وما حمله معه من مبادئ ونزعات وأساليب جديدة . .

وكان الحجاب في الواقع قاصراً على المدن أما في الريف المصري فكانت الفلاحة تخرج دائماً سافرة تشارك زوجها في أعمال الحقل وتبيع له منتجات الريف ..

ثم زحفت الحضارة الأوروبية على المدن وتغلغل ظلمها في الريف منذ أن جاءت الحملة الفرنسية ببدنها وأساليبها ، وتبعها عصر محمد علي وكان عصر انتقال وإصلاح يستمد من الأساليب الفرنسية . وطفرت النهضة في عهد اسماعيل حين أخذ الخديو يدعو إلى الحضارة الأوروبية ويقول إن مصر باتت شطراً من أوروبا ، وكان بين مئات أعماله أن فتح مدارس لتعليم البنات . إلا أن الثورة لم تتحرك في نفوس المصريين وتوقظ البلاد من سبات طويل مظلم إلا منذ عام ١٩١٩ فكان الشعب في مناداته بالحرية والاستقلال ينادي أيضاً بالنهضة في كل مرافق الحياة . وكانت ثورة الاستقلال حافزة ليقظة المرأة المصرية بل المرأة للشرقية هامة ، فخرجت المرأة من خدرها تتظاهر في الطرق وتهتف بحياة الحرية وسقوط الاستعباد . وسمعنا سعد زغلول يقول « اني من أنصار تحرير المرأة ومن المقتنعين به لانه بغير هذا للتحرير لا نستطيع بلوغ غايتنا » ثم تألفت لجنة السيدات السعدية وجمعية المرأة الجديدة ، وجمعيات لتشجيع الصناعات الوطنية ولأنشاء المستوصفات والمشاغل وديار العناية بالطفولة والأمومة ، ونوادي لمساعدة الشابات المصريات . ثم ساهمت المرأة في المؤتمرات الدولية النسائية وأخذت تحرر في الصحف وتساعد في احياء الفنون الجميلة ، والتحققت الفتيات بالجامعة المصرية يدرسن بجانب الفتيان الطب والحقوق والتجارة بل والزراعة ، ورأينا الفتاة المصرية تطير وتشترك في مسابقات الطيران ورأيناها تلبس « روب » الحمامة وسمعناها خطيبة ومحاضرة . .

وأخذ الحجاب يحتضر ويتلاشى ولم يبق منه إلا قليل يصونه ويتمسك به بعض الرجال ، وهذا البعض إما محافظ يسيء الظن بمعاني السفور ، وإما عصري يشتهي السفور في نساء غير نساته ! وإلى هذا البعض نسوق بإيجاز ثمانية مثالب للحجاب لعل في ذكرها وازع له للحاق بالقافلة وهي تسير إلى الأمام ولا تعبأ بالمتساكنين :

أولها — ماجره على كثير من الأسر من ويلات وخطوب وأماننا تلك المشكلة الاجتماعية التي نصبت عن عدم ائتلاف الزوجين قبل زواجهم ، فكثر الطلاق واضطربت حياة الأسر لأن الحجاب لم يسمح للفتاة أو الفتى بانتخاب شريك حياته انتخبا مؤسسا على المعرفة والألفة والميل والاعجاب ودرس الخلق والطباع . وإذا بكل منهما قد وجد نفسه حليلا لشخص متباين الخلق متنافر العادات ومع ذلك فهو مرغم على معاشرته وهو يرى أنه قد تسرع وأخطأ الاختيار فيبدأ بالشجار والنزاع وهذان يؤديان إلى الطلاق . أو يلجأ كل منهما إلى البحث خارج بيته عن الرفيق الذي ملائخه .

ثانيها — أثره في نفسية المرأة التي يعودها الحجاب على الخجل والتردد والارتباك وخشية الرجال ، فإذا تحدثت إلى رجل لمعشمت واضطربت وخالت كلماته حبائل لاقتناصها ونظراته شبكا للظفر بها ، وأن هي سارت في الطريق شعرت بأنها غريبة في مضمار لم تخلق للسير فيه ، وخشيت في كل لحظة أن تثير شكوك زوجها وذويها . .

ثالثها — أثره في آداب وسلوك الكثير من الشبان ويظهر ذلك الأثر في الكيفية التي يتحدثون بها في المحافل والمجتمعات ، وفي اللغة الجافة التي تتخللها المصراحة في الفحش والخلو من أساليب المجاملة وأصول فن الحديث . وقد لا تخلو محال الموسيقى والتمثيل والرقص ونحوها من جماعة الصاخبين الصارخين الذين يعكرون جو الفن ويشوهون بهجة الاجتماع بلجبههم وضحكهم وعرا كهم . ويرجع هذا الجفاء الذي يشوه المجتمعات وهذا الأسلوب القف في الحديث إلى عدم إختلاط هذا النفر بالفتيات الراقيات في المجتمعات المهذبة مما يضطرهم إلى ممارسة اللباقة والرقه والظرف وتصبح هذه الدماثة في الخلق طبيعة فيهم . .

رابعها — أثره في الفنون والآداب لأن الفنان والأديب كثيراً ما يستلهمان الجمال الانثوي وتكون المرأة خيالهم ، أما وقد حرم عليها معاشره المرأة الراقية في المجتمعات وه الصالونات «بانا في حاجة إلى الحب يصقل نفسيهما ويشعل وجدانيهما . فترى الشاعر أو الكاتب أو الفنان ينكفأ أحدهم في عواطفه فتخرج أساليبه مزينة وأشعاره كاذبة . وهو يتطلع إلى الحب والجمال وعدوبة الأنوثة حوله فلا يلقي لها أثراً . وكثيرا ما يندفع بعضهم وراء هذا التعطش الغريزي نحو بأئعات الهوى فلا يجد غير أسوأ الأمثلة ووقتئذ تنسم عواطفه وتجد قريحته وتبدد الحقائق أحلامه وهو بعد شاب على أبواب الحياة . .

خامسها — ما زاه كل ساعة في طرقنا حيث يحملق الشاب في المرأة كأنها طرفه غريبة ولغزاً مبهما ، فيتطفل على استقصاء كنهها واستجلاء أمرها ، ويؤدي به الفضول إلى التحدث إليها متكاما ساخرا ، وإلى مغازلتها في قارعة الطريق بنمط قاس . ولو أنه اعتاد معاشرتها سافرة والتحدث إليها المجتمعات كما يحدث في الغرب لما بدر منه كل هذا الشذوذ ولما نظر إليها بتلك النظرات الجائفة

حيثما ذهبت ولما صيبت ذلك التزييف في الخرائز وانتشار الشذوذ الجنسي
سادسها - أن الحجاب حرم الأمة من ذلك العنصر المكمل لحياتها وقضى على مواهب ومميزات
نصف المجتمع وهو في عزله عن النشاط الاجتماعي ، وكمن من فتاة كانت تبرز الرجال في القنون أو
الآداب أو غيرها إذا ما أتيحت لها الفرصة في البروز الى الميدان

سابعها - أن الحجاب حرم البلاد من المجتمعات الحقيقية التي تزينها المرأة وتخلق فيها ذلك الجو
اللطيف وفي هذا حرمان الجنسين من بهجة المجتمع المذهب ، وضياح الفوائد الاجتماعية العديدة عليهم
مما ، فصعى الرجال إلى مقاهيهم ونواديمهم المماخبة حيث لا يجلس غير الرجال وحيث تمر الأيام والسنوات
متشابهة لا تأتي بمجديد ولا تغير في النفس مشاعر جديدة ، وصحى النساء إلى زياراتهن المألوفة في مختلف
المنازل يقضين الساعات في ألقه الأحاديث

ثامنها - ان ذلك الحجاب قد حرم المرأة المصرية من الرياضة البدنية في الهواء الطلق وميادين
التريض ، فلم تألف الألعاب الرياضية ولم تمارسها بينما يعبر نساء الغرب المانش ويشتركن في الألعاب
الاولمبية وينشأن أندية الرياضة . وقد أدى حرمان المرأة المصرية من هذا العالم الرياضي النفسى أن
فقدت حركتها وتزهد جسمها وانتابها الملل فهالت الى التراخي والفتور والكسل والجلوس طويلا
في عقر دارها بلا عمل غير التحدث مع خدامها وجيرانها بألقه الأحاديث ويعود الرجل فلا تروق

له في عينه ويتطلع الى أولئك الرشيدات النشاطات وهو الذي أجهز على جهالها ومواهبها
والخلاصة أن كل مجتمع في الوجود يسير على ساقين هما نشاطا الرجل والمرأة ، ولا ينبغي لمجتمعنا
أن يحجل بين مجتمعات الأمم على ساق واحدة . ولكن المرأة المصرية اليوم غيرها بالأمس . فقد
كاد يندثر ذلك الزمن الذي عيرنا فيه اللورد كرومر في كتابه المر « مصر الحديثة » في حديثه عن
الحجاب بقوله : « سألت امرأة انجليزية سيده مصرية عن الكيفية التي تقضى بها وقتها فأجابت :
انى أجلس على هذه الأريكة فاذا تعبت قمت إلى الأريكة الأخرى » . ! . إذ أن المرأة المصرية كما
تقدم قد هبت وتحررت من جل القيود . ونحن لا ندعو اليوم إلى تحريرها لأن الآذان قد سمعت
تلك النغمة القديمة ولأن النهضة النسائية بمصر تتطور وتسير بخطى واسعة غير عابئة بالعقليات
الأمسنة ، ولكننا نرجو لها أن تقفوا أثر أختها الانجليزية وأن يكون لها حق الانتخاب والتمثيل في
مجلس النواب وكل ما لأخيها الرجل من حقوق . .



مقدمة

عندنا اليوم فئة من الشعراء المجيدين المبدعين الذين تأثروا بالنهضة السامية وبالآداب النربى مثل العقاد وعبد الرحمن شكري ونابى وراى وغيرهم ، نأذا غصصنا النظر عن الشعراء البارزين الذين تجدد على أيديهم الشعر النربى وتطور فى هذا العصر ، وتحدثنا عن الشاعر المصرى من الوجهة العامة وجدناه رجلاً وديناً له مثل سائر أهل المنطقة الحارة خواص ذلك المزاج الذى كان يدعى فى القديم بالمزاج الدموى ، وهو الذى يغضب صاحبه سريعاً فيهبجو ويثور ويشتعل ثم يهدأ سريعاً فيتنامى ويرضى ويمدح . وهو الذى يحب المعاشرة والمباشرة ولا غنى له عن الاجتماع وزحامه . وله أيضاً ميزات الخلق المصرى فهو متفائل بطبيعته يعقب الشدة فى مخيلته الفرج وتنجلي الغيوم فى ذهنه عن سماء صافية الاديم . فيتألم تراه متشائماً متبرماً بالخلقة وما فيها مثل ليكونت دى ليل وشيعته . وهو فى أعماق نفسه محافظ لا يميل إلى التمرد والثورة على القديم وتقاليده ، ومؤمن لا سبيل إلى الالحاد والشك إلى قلبه كإشك شلى ، وليس هو بالتأثر على الخلق الوراثى فتراه أبايعاً مثل بيرون أو مهتكمافى شعره مثل امرئ القيس . وهو من يتغاب فى نفسه المتقلبة مظهر الوجدان على مظهرى الارادة والفكر

فأذا جمعنا عشرات الدواوين المنظومة التى أخرجها شعراء مصر لاسيما صغارهم ووضعناها تحت المجهر ألقيناها تتعطل إلى عدة ألوان تذهب إلى ناحيتين . ناحية المعنى ومصادره السيكلوجية وناحية المظهر ومصادره اللغوية وهنا تأخذنا ظاهرة واضحة هى أن جل تلك المنظومات وجدانية محضة يتغلب فيها الوجدان المشتعل على مظهرى الفكر والارادة فلدينا شعراء حساسون ذوو عاطفة حسية وخيال جامح لا تكبحه الارادة التى تزن والفكر الذى يحكم ويتأمل ولسيطرة الوجدان على الفكر والارادة فيهم ثلاثة أسباب :

أولها — حرارة الجو المصرى الذى يساعد على ايقاظ الحواس وعلى المراهقة الباكرة فيذعن الشاب لاحكام الحواس ويبحث عن الحب الجنسى الذى يملأ مخيلته وتدفعه رغبة خفية الى الظهور والشهرة العاجلة وتسيره ميول غريزية نحو استطلاع أسرار الحياة وخفاياها بتسرع . .
وثانيها — مزاجه الخيالى الذى يبيت فى قلبه روح التفاؤل وحسن الظن بالايام والركون إلى الأحلام الذهبية تتلقاها بيئة هادئة مطمئنة . حتى غيرنا أحد الغريين بقوله : « إذا رأى غربى منظر الشلال ذهب به الفكر إلى تسخيره فى توليد الكهرباء أما اذا وقف به شرقى تخيل قصيدة فى وصفه » .

وثالثها — تعطشه الى المرأة تعطش الصادي المحروم الى منهل الماء العذب فيتخيل فيها العزاء والسوان ويرى فيها الجمال والكمال وتصبح المرأة الموهومة ضيالة أحلامه المنسودة ، ويزيد تعطشه الى الحب والمرأة الخيالية ذلك الحرمان الذي سببه احتجاب المرأة في الشرق وعدم اختلاط الجنسين في المجتمعات والمآدب ونحوها . .

وهكذا يشتعل وجدان شاعرنا فينظم القصائد المطولة في النزل بامرأة وهمة يدعوها قارة بليلي وأخرى بهند . ويذهب في الشكوى من حرقة غرام وهوى . وفي الحنين الى عالم غير هذا العالم ، وفي بث الآلام والأشجان مما لا يوجد لها في الغالب أي مبرر . وبذلك تتلاشى ارادته أمام ذلك التيار الجارف تيار العاطفة المشتعلة فلا يقوى على كبس جراح نفسه ، ويسترسل في شكواه وذلك وجواه ويقع أسير شعوره مغلوبا على أمره يبكي ويستبكي الناس معه . .

وأقوى مثل للشعر الوجداني المحض عندنا هو تلك المواويل الريفية الحزينة التي ينشدتها أهل الريف في سهراتهم الخلوية مع صوب الأرقول والغاب والتي تعبر عن عواطف لا أثر للتزييف ولا زخرفة اللغة فيها فتلك المواويل الباكية هي الشعر المصري الحقيقي . .

أما فن التفكير فيكاد ينعدم في تلك الدواوين فلا تلقى من عجز الشعر بالحكمة مثل ورد سورت أو من عجزه بالتصوف والروحانية مثل تاجور أو بالرمز مثل برونيج أو باللاهوت مثل ارنولد . . وإذا وجد التفكير هنا فإنه يكون تفكيراً سطحياً قريب الغور لا يأتي بجديد ولا يكشف عن سر من أسرار الوجود والروح ، ولا يحمل مشكلة من مشاكل الحياة والموت وتكون نظرياته مألوفاً ومبتكراته مقبسة عادية ، كأنه تفكير الطفولة الساذجة التي لا تشغل بالها بهموم العيش ومشاكل العصر . .

وتعود أسباب هذا الضعف في التفكير المنطقي الذي يلد الحكمة والتفنن والابتكار الى أسباب منها :

أولاً — البيئة الجغرافية فبلادنا هادئة مطمئنة يأتينا رزقها رغداً ، وهي ذات سماء صافية وأرض منبسطة لا تعتمورها تضاريس منفاجمة أو ظواهر طبيعية تحمل العقل على التفكير في هذه الخليقة وصانعها ، والظواهر وعللها والمقائد ونشأتها ، والمعروف في الجغرافية الاجتماعية أن سكان الأراضي المنبسطة من مزارع وسهول هم أهل العقيدة الثابتة التي تتكل على القدر وتعتمد عليه في كل شؤونها وتستسلم لمشيئة القضاء ولا تشك في العقائد الموروثة بل تميل الى الراحة من عناء التفكير العويص ، بعكس البلاد الجبلية ذات الظواهر الطبيعية المفاجئة . .

ثانياً — روح المحافظة على القديم لما للبيئة المحافظة والتربية التقليدية من أثر قوي يمنع تسرب

الشك الى القلوب والشك اول ابواب التفكير والتفاسف والبحث في علل الاشياء مما يؤدي الى تكوين المبادئ الحرة والافكار المستقلة . .

ثالثا - جناية الاستبداد القديم الذي ما برح باقيا في مصر وباديا في أدبها حتى اليوم . كان لقدماء المصريين أيام مجدهم واستقلالهم أدب مصري بارز الميزات مازال حتى الساعة حافضا لثقافته ، أما وقد فقدت مصر استقلالها منذ زمان بسبب موقعها الجغرافي وغيرها من العوامل ، فقد أضاع أيضا الأدب المصري استقلاله وتأثر بأداب الفاتحين ، ثم كان لغارات الدول تباعا على مصر أثر عظيم في القضاء على ملكة التفكير الحر لأن الاستعمار الأجنبي الذي قضى على الثقافة والتعليم وحرية التفكير أرغم المصري على الالتجاء بكتبته إلى الزرع والحراث ليسد بهما حاجة المستعمر وضرائبه . وكان من أثر استبداد الغزاة غير القضاء على التفكير الحر والأدب الحر فظهرت آثارا في الشعر والشعراء ، مازالت آثارها باقية وأولاهما مانراه في كثير من شعرائنا من تبجيل القوة وتقديس الأمانة وتعلق الحكام والرؤساء . فتراهم ينظمون القصائد المطولة في مدح السلاطين ورثاء الأمراء والزلفى إلى الأقوياء واستعطاف الكبراء مضحين بكراماتهم وكبرياتهم . وثانيتها : تلك الصيغة الحزينة التي ترفرف فوق الشعر المصري والموسيقى المصرية لانها زفرة محتبسة تشكو إلى السماء ذلك الظلم وذلك الارهاق اللذين وضعهما المستبد على عاتق الشعب .

رابعا - الزواج المبكر الذي تخلفه حرارة المناخ والتهاب الحواس والخيال ، فينشأ عنه نضوب سريع في الحيوية ، ويفقد الشاعر ذلك الوجدان الذي لا يملك سواه قبل الأوان . وقد يهجر الشعر بعد أن تعبىه القريحة الناضبة ويكتفى بما حاز من تقاريط وألقاب !

أما إذا نظرنا إلى الرداء الظاهري لتلك المنظومات لقينا في شعرائنا نزعة قوية إلى تقليد شعراء العرب الأقدمين في قوافيهم واصطلاحاتهم وأنماظهم وبحور نظمهم وأساليب انشائهم ومنهم من لم يزل يصف الأبل والخيول المطهمة والخيام ، ويبكى مثلهم على الدمن والاطلال ويحكيهم في معالقاتهم ، ويأتى بالديباجة من الغزل والنسيب ولو كانت القصيدة في الرثاء . ومنهم من يهجو ويمدح لغير سبب . .

وثمة فريق من شعرائنا يفضل متانة النظم على جمال المعنى فيصبح نظاما لا روح في قصائده ولا فائدة من تلاوتها . وهناك فريق آخر يؤمن باللفظ الشاذ الغريب ناسجا في ذلك على منوال شعراء الجاهلية فيقصيد الكلمات الدارسة ، وينبش عن الألفاظ المهجورة بعد أن دفنتها الأجيال في لحودها ، ثم يضعها في أعمدة مسجعة مرتبة تسمى عندنا بقرص القصائد وما كان أغناه عن تلك المشقة ولديه الكلمات السهلة الرشيقه لكنه كما نعلم جميعا يريد أن يقنعنا بأنه في اللغة علم في رأسه نار !

مصريوه يؤلفوه كتباً قيمة

باللغات الأوروبية

المصري من أقدر الناس على تعلم اللغات الأجنبية وهو إذا أجادها تحدث بها في طبعها الأصلية فلا يسكاد يفرق كثيراً عن أهل تلك اللغات الذين نشأوا يتكلمون بها منذ طفولتهم .. وليست هذه الميزة خاصة بالمصري المتعلم فقط ، بل تراها أيضاً في العامة كالترجمة والبحارة المصريين وغيرهم . ويرجع ذلك إلى ذكاء فطري أولاً وإلى أن اللغة العربية تمتاز بعدد من الحروف الخلقية الصعبة النطق ثانياً ، وإلى طول عهده بعشرة الأجانب ثالثاً ..

وقد ظهر بين المصريين عدد ممن نبضوا في اللغات الأجنبية فتحدثوا بها ثم كتبوا بها كأهلها . وبينهم من نظم بها الأشعار ، وألف الكتب القيمة التي يقدرونها الأجانب حق قدرها . ومعظم تلك المؤلفات التي ألفها المصريون باللغات الأجنبية لم يترجم إلى لغة مؤلفيها لينتفع بها أهل وطنهم كما ينتفع بها الأجانب ، ولو أن في ذلك التأليف المصري باللغات الأجنبية دعاية محدودة لمصر والمصريين ..

وئمة أسباب تدفع المصري المثقف إلى التأليف باللغات الأجنبية لاسيما باللغات الأوروبية الواسعة الانتشار كالإنجليزية والفرنسية منها :

١ - أن شهرة الكاتب المصري لا تتهدى عندنا بضعة آلاف قارئ ، إن كان ممن يكتبون في الصحف المصرية الرائجة أو كان ممن ينزلون على رغبة الأكثرية من القراء وهذه الأكثرية للأسف لا تطلب من الكاتب المصري إلا التافه المشوق الذي لا يكبد الذهن . ولذا كانت الكتب القيمة الراقية كاسدة السوق بينما ترى القصص الساذجة والكتب الساقطة واسعة الانتشار ، أضف إلى ذلك أن عدد المتعلمين بمصر وهم مازالوا لسوء الحظ قليلون لا يبالون بعادة اقتناء الكتب وإنشاء مكتبة منزلية يلجأون إليها في أوقات الفراغ . فكانت نتيجة أعراض القراء عندنا عن شراء الكتب الراقية أن قل عدد المؤلفين وندر وجود ناشري الكتب أو شركات الطبع والنشر ولم يعد أحد كبار المؤلفين يجراً على طبع كتاب على نفقته إلا وهو موقن أن كتابه سيظل مدفوناً في زوايا المكاتب لا يرد إليه جزءاً مما بذله في تأليفه من وقت ومال وجهد ..

٢ - وإن الكتاب الذي يروج في إحدى اللغات الأوروبية يدر على مؤلفه الربح والشهرة مما يغريه على التقدم والتفرغ للتأليف ، وقد يترجم هذا الكتاب إلى لغات أخرى فيكون سبباً لثراء مؤلفه وبعد صيته ..

٣ - ان الصحف المصرية لا تنسج عندنا بلج لاف الاقلام الممتازة ، والصحف اكبر وسيلة لتقديم الكتائب إلى جمهور القراء واكتشافه الكتاب الباقرة للجمهورين والاعلان منهم . لأن الصحف المصرية تحتاز فترة عصيبة تدنسها إلى الاتجاء بكليتها إلى الناحية السياسية ولانها محرمة من جهة اخرى إلى التعميل والكساد كما لا يسجج المفكرين على التلوس في الناحية الذهنية التي تضيق عنها اليوم صفحات جرائدنا ..

٤ - ان من يؤلف كتابا بلغة أوربية يحس بتبادل العطف والفكر بينه وبين قرائه المديدين وقد يفتيه ذلك الشعور المتبادل مما يطمح اليه من ربح مادي ..

ولنقدم هنا للقارئ المصري بعضا من مؤلفات بنى وطنه التي حازت تقديرا لدى الغربيين ونرى بذلك إلى تبادل الفكر والسطف بين القاريء المصري وبين اولئك المؤلفين المصريين ..

١ - ألف المرحوم قاسم أمين « المصريين » باللغة الفرنسية وطبعه بالقاهرة عام ١٨٩٤ وقد عني قاسم أمين بتأليفه إلى دحض مفتريات الدوق دي هاركور الذي ألف عن المصريين كتابا ملاء بالطعن والنقد والافتراء ، فتصدى له قاسم ورد على مفترياته بهذا الكتاب الذي لم يخرج فيه عن حدود الحقائق واللطف وبدأ مقدمته بقوله « ان السطور القلائل التي بين يدي القارئ تحتوي على خلاصة لدحض آراء ألباهنا جناب الدوق ده هاركور عن المصريين واني لا أستطيع تقديم كل تفاصيل المفتريات التي وجدتها في كتابه ، لان هذا كان يتطلب مني وقتا لسوء الحظ لم يكن متوفرا لدى فلم يكن في مقدوري إلا أن أضع ملاحظات على هامش كتاب جناب الدوق ده هاركور وارتبطت خاصة بالرد على المسائل العامة التي لاحظها . . . »

٢ - وألف الدكتور « طه حسين » باللغة الفرنسية كتابا في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية حاز به أجازة الدكتوراه في فرنسا وقد ترجم هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية منذ بضع سنين .. وألف الرحالة المصري « أحمد حسنين بك » كتابا عن الواحة المفقودة باللغة الانجليزية ونشرته مكتبة بروت قبل أن تنشر طبعته العربية وقد جمع فيه وصف وتاريخ رحلته المشهورة في صحراء ليبيا وحاز هذا الكتاب تقديراً كبيراً بين الانجليز ..

٤ - وألف الاديب « علي فؤاد طلبه » باللغة الانجليزية كتابا اسمه « سر نديب أرض السحر الخالد » وصف فيه جزيرة مرنديب التي ولد فيها إذ كان والد المؤلف أحد المنفيين اليها عقب الثورة العراقية وقد طبعت هذا الكتاب مكتبة هتشونون ..

٥ - وألف الشاعر الاديب « فولاذيكن » باللغة الفرنسية عدة كتب صغيرة بينها ديوان شعر فرنسي اسمه « أغاني شرقي » وكتاب عن « سعد زغلول » وقصة صغيرة طبعها بالقاهرة عام ١٩٢٩

اسمها « حياة مسامة » كتبها بلغة فرنسية رشيقة وهى قصة فتاة مصرية مهندبة عملت على تحرير المرأة المصرية وسفورها . .

٦ — وألف الأستاذ « شفيق غوبال » باللغة الانجليزية كتاباً تاريخياً عن « ابتداء المسألة المصرية ونهضة محمد على » وهو كتاب طاز به المؤلف على درجة أستاذ فى الآداب من جامعة لندن وطبع بها عام ١٩٢٨ وله مقدمة بقلم الأستاذ أرنولد توينبى وفى هذا الكتاب أبحاث منقولة عن دور السجلات البريطانية والفرنسية مما يلقى نورا على تاريخ الحملة الفرنسية بمصر وتأثيرها وفى مقدمة تلك النتائج العلة الوثيقة بين بريطانيا ومصر ونهضة محمد على

٧ — وألف الدكتور محمد صبرى بالفرنسية كتاباً ضمها فيما اسمها « الامبراطورية المصرية فى حكم محمد على والمسألة الشرقية » وذكر المؤلف أنه تاريخ دبلوماسيتى مستمد من مصادر خاصة ووثائق مجموعة من دار السجلات بباريس ولندن وفيينا والقاهرة وطبع بباريس عام ١٩٣٠

٨ — وألف « واصف خالى باشا » بالفرنسية كتابين أحدهما اسمه « حديقة الأزهار » مفتتحا بمقدمة لجول ليمتر عضو الأكاديمية الفرنسية وفيه قصيد المؤلف أن يذيع ما استطاع عن العرب ومفاخرهم ، وترجم المؤلف نماذج من الشعر العربى الذى يمثل الجمال الطبيعى والفن والفن والحكمة والمدح والهجاء والغزل والحكمة والنوادر . وثانيهما « حياة البطولة عند العرب » وهو بحث اجتماعى عن أخبار العرب فى البطولة والنجدة وفيه يشبههم المؤلف بتلك القبائل الجرمانية التى امتازت بالقوة والشجاعة . وذكر فيه المؤلف ما عرف عن العرب من سجايا واكبارهم للمرأة . .

٩ — وألف الأمير حيدر فاضل عدة كتب باللغة الفرنسية منها ديوان شعر فرنسى بلبغ . . تلك بعض مؤلفات المصريين بلغات أجنبية حبذا لو نقلت إلى اللغة العربية . وهناك كتب أخرى غيرها ثم أن هناك كتباً ألفها بالانجليزية بعض الأدباء اللبنانيين بامير كامل جبران والريحاني وغيرهما . . إن تفصيل عدد من أدبائنا المنقذين الكتابة باللغات الأوروبية على الكتابة بالعربية يحملنا على التفكير فى عدة مسائل من مسائلنا التى لا أول لها ولا آخر . فان اللغة العربية من اللغات الواسعة الانتشار التى يتحدث بها ملايين الناس فى الامم العربية ومع ذلك فقلما يروج بها كتاب قيم فتمتد طبعته الاولى . والكتاب العربى فى الجملة لا يستطيع الكسب من قلمه وقلما يصادف تقديرًا وتشجيعاً واعتباراً كما نرى فى كتاب الغرب . أليس هناك علاج لهذه الحال أم يأتى يوم يضطر فيه كتابنا إلى البعث عن لغة غير العربية ينشرون بها ثمار عقولهم ؟

تقديم الأدب العربي بأمره

اخواننا اللبنانيون قوم شعراء ذور مزاج صاف وشعور رقيق . من لا ينظم الشعر فيهم أو ينثره فهو يتخفى به أو يحفظه أو يصوره أو يصفه على آلات الطرب ! ويعود هذا المزاج إلى طبيعة بلادهم ، جبل لبنان المليء بالشجر والجمال ، حيث تعلو الجبال مكسوة بالصنوبر وأشجار الفاكهة وتهبط الوديان مزدانة بالنبت والخضرة وتتفجر الينابيع بالماء النسيم . وهم إذا هاجروا من بلادهم حملوا معهم حيث رحلوا ذلك المزاج الذي يمتشق الأدب والفن وعندنا بمصر جالية لبنانية نبغ منها عدد من الكتاب والشعراء والشاعرات ممن كان ولم يزل لهم أثر في الآداب والفنون . . . وقد هاجر منهم عدد كبير إلى الأمريكتين وهما إليها معهم نفوساً شرقية تتعلق بالروحانيات ومصران ماظهرت لهم هناك المصحف والمجلات العربية وطبعت الكتب وألفت الأندية الأدبية مثل « الرابطة القلمية »

فهم في تلك البيئة النازحة التي يوجه أهلها جل عنايتهم إلى الماديات ويقيسون المواهب بالدولار، ووسط ذلك المصحف الصناعي والتنازع على البقاء ، قد استطاعوا أن يجددوا في الأدب العربي ويطبعوا دواوين الشعر وكتب النقد بالعربية وبعضها بالانجليزية . وكان لا تتقاهم من الشرق المستعبد إلى جو الحرية والديمقراطية أن امتلأت قلوبهم بالجرأة وحب الحرية فأخذوا يترددون جهراراً على الاغلال العتيقة والتقاليد الموروثة التي يتقيد بها الشرق وأسسوا من وراء تلك المبادئ مدرسة أدبية لها خواص مذهب الرومانتزم القائل بأن كل ما هو غير مدعم على التفكير الحر المطلق إنما هو جهل وتعصب ولا يبيده سوى تقدم الذهن البشري وهو المهتم أيضاً بحياة الإنسانية على تباين طبقاتها وتنافر نزعاتها منتصراً للضعيف والعاذل وكل ما يقضى به العقل السليم . . .

وكانت أول جريدة عربية ظهرت لهم بأميركا هي « كوكب الشرق » التي أسسها نجيب عريبي في أواخر القرن التاسع عشر وكانت في مبدأ أمرها تهمل الحكومة العثمانية حتى يباح دخولها في البلدان الخاضعة لتركيا وقتئذ فلما اشتد طغيان عبد الحميد نادى الجريدة بخلعه . ثم ظهرت جريدة الأيام ثم جريدة الهدى التي أنشأها بنفلا دلفيا المرحوم نسوم مكرزل ثم انتقلت إلى نيويورك . . .

وثمة أنشأ المرحوم نجيب دياب جريدة «مرآة الغرب» عام ١٨٩٩ وظهرت في نيويورك جريدة الصخرة عام ١٩٠١ ثم انتقلت إلى بتمبرج . ثم أنشأ الأستاذ أمين الغريب صحيفة «المهاجر» ثم ظهرت مجلة الاخلاق وغيرها . . .

ولعل أشهر أدباء المهجر هو المرحوم جبران خليل جبران الشاعر المصور الذي ابتدع أسلوايا

موصيقيا كثير الاستعارات والتشبيه الشعري مما جعل من شعره شمساً عذباً كان له أثره في قلوب الكثيرين . وقد ترك جبران اثنتي عشر كتاباً وديواناً ألف بعضها باللغة الانجليزية وظهر أولها بمصر منذ نحو خمسة عشر عاماً . وكان جريئاً في الحق متهدداً على التقاليد البالية والسادات الموروثة المستهجنة ، ناقماً على الظلم والاستبداد مهاجماً تمسك رجال الدين والحكام داعياً إلى التجديد واليقظة في الحياة والادب والفن . .

ويأخذ البعض على جبران شغفه بالسمو إلى مدارات الافلاك حتى لا تدركه العيون ، وتعلقه أحياناً بالاستعارات الشعرية المبهمة والعبارات الرمزية التي لا تصدر إلا عن خيال جموح مرفرف مع النجوم ولا يلحق به إلا من وهب مثل ذلك الخيال . أما الذين يأخذون عليه هفوات النحو والصرف من جراء تمرده حتى على القيود اللغوية فيضاطبهم في قصيدته المنشورة بقوله « لسكم لغتكم ولي لغتي » وكثيراً ما يصبح شعره بتأملات فلسفية حاملة نجمل منه ذلك الشاعر الفيلسوف الشرقي المتصوف ، الذي يتحدث عن الوحدة والليل والموت والجمال والاله والحب ويصف وطنه الذي يحشقه ويستلمه الجمال قائلاً « لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي أما لبناني فأودية هادئة سحرية تمسج في جنباتها رنات الأجراس وأغانى السواقي » وهو في حياته بأمرىكاً لم ينس يوماً الشرق الذي نشأ فيه فاتخذ من مروجيه ووديانه مسرحاً لقصصه وموضوعاً لترانيمه ولكنه بينما يراه سحرًا وجمالاً لا يطيق رؤيته موطنًا لنعال المستعمرين والطغاة والمستبدين . ولا يصبر على استكانة أهله القاعين يرضون بالفصيح ويمسكون على المذلة . ولا يرضى عما يراه فيه من جمود وعبودية للتقاليد والسادات بينما يتطور الغرب ويرتقي ، فهو ككاتب مجتهد قارئ متعمد يدهو نفسه بصديق الناس وعدوهم . .

ومن الأدباء المجددين الذين ظهروا بأمرىكا الأستاذ أمين الريحاني ، الذي كتب ونظم الشعر من الشرق ، بالانجليزية والعربية ويشبهه البعض بجبران وفي ذلك التشبيه بعض الصواب إذا نظرنا إليهما من وجهة الشاعرية الجبلية المتمردة ذات النزعات التصوفية والفلسفية إلا أن جبران قد بز الريحاني في مضمار التفنن والابتداع وفي الاسلوب القوي المؤثر . .

وتتمخضت تلك النهضة الادبية عن عدد من الشعراء المجددين الذين تفننوا في أوزان الشعر وأغراضه منهم ايليا ابو ماضي ، ورشيد أيوب ، ونسيب عريضة ، وغيرهم ، فظهروا في دواوينهم بمظهر جديد لم يألفه قراء الدواوين العربية القديمة . مظهر تتجلى فيه روح الشعر الساذج المعبر عما يمليه القلب بأسنس عبارة مع الايمان بأن الشعر هو الشعور الطبيعي لا الصناعي ، إذ رب بيت يحمل في ثناياه من الشعر مالا تحمله عشرات القصائد المنظومة . وهم يصورون التافه الساذج من مشاهد الحياة فيخرج جميلًا ببساطته طارياً عن الألوان المزيفه . .

وظهر بينهم عدد من النقاد أشهرهم ميخائيل نعيمة الذي ألف في النقد كتابي الغربال وحياة جبران وهو في نقده لا يتحيز ولا يتعامل ولا يتسفل إلى النقد المبعأني الذي يري السب واللعن ومس الشخصيات من معاني النقد كما يحدث بيننا كثيرا، وهو ينادي بالتجديد في الأدب بل الثورة على القديم الجامد ويغضبه نمسك الكثيرين من الكتاب والشعراء بالخلاف الخادعة ويدعوهم بعنفادع الأدب وكتابات المتفانيق . .

والخلاصة أن لهذا الأدب العربي الجديد الذي ظهر بأميركا حسنات لا يجب أن نجهدها منها أنه أدب التجديد الذي يحارب القيود والرجعية والمظالم والكتابة العتيقة والنظم التقليدي بحرية لا تخشى تحت سماء أمريكا الاضطهاد والسجن . ويهيب بالادب العربي الى مجاراة أخيه الغربي ومنافسته في «مخار الابتداع والارتقاء والتمشي مع تطور العلوم والفنون والمبادئ في هذا العصر» وهو من جهة أخرى ينشر بين الغربيين دعاية للشرق وروحانيته وحقه المهضوم لدى المستعمرين وعما لهم . .

وهذه الحرية التي تمتع بها أدباء العرب بأمريكا في حياتهم وكتاباتهم ودعوا اليها وتغنوا بها ، قد خلصتهم من قيود المدرسة القديمة وحررتهم من أغلال التقليد ، فسكتبوا بصراحة ونقدوا بجرأة وافتنوا في مواضيع النثر وأساليبه ، وابتكروا في أوزان النظم وقوافيه ، وكان أدبهم أشبه بثورة تجتاح أمامها كل قيد حتى قيود اللغة من نحو وصرف واشتقاق بل منهم من ذهب إلى أن الكتاب أو الشاعر في حل من الخطأ اللغوي ما دامت معانيه واضحة وغرضه مفهوما ، وقد رأى الأستاذ عباس العقاد في تقديمه لكتاب الغربال السالف الذكر : « ان الكتابة الادبيه فن والفن لا يكتفى فيه بالافادة ولا يغنى فيه مجرد الافهام وعندى أن الاديب في حل من الخطأ في بعض الاحيان ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيرا وأجمل وأوفى من الصواب . . ولكن متى وجدت القواعد والاصول فلماذا نهملها أو نخالفها إلا لضرورة قاسرة لا مناص منها ؟ »

غير أن التطور يجب أن يسرى على اللغة سريانه على كل ما في الحياة ولا يعنى التطور مخالفة القواعد الموجودة بل يعنى تطعيم اللغة بألفاظ جديدة عالمية لا عيب في استعمالها فلفظة الراديو خير من المذياع والترام خير من الجواز ، كما يعنى ابتكار ألفاظ سهلة للاصطلاحات العلمية الجديدة التي لم تعرفها العربية وغير ذلك من أساليب التجديد . .



الفصح و كرم القمح

هذا بحث لا يفنيه حقه موضوع محدود الصفحات ولا كتاب دليء بالنظريات، لأنه أكثر المسائل المصرية أهمية وأولاها بعناية الهيئات والجماعات، وأجدرها بتدخل الحكومة ومجلس النواب .
وانه لما يثلج الصدر أن مسألة الفلاح قد بدأت تلقى العناية الجديرة بها لدى الكتاب والصحف والحكومة . وقد بدأت الحكومة الحاضرة بتنفيذ شيء من برنامجها الذي خصت به الفلاح فألغت ضريبة الخفر ، كما ألغت السخرة ، وبدأت بتبسيط أموال الحكومة المتأخرة على خمس سنوات ، وأمرت باستعمال الرفق في حدود القانون عند تحصيل الأموال الأميرية ، وتدخلت في سوق القمح ولم يزل أمامها الكثير من الإصلاحات الحيوية التي تنقذ الفلاح من حاله التعمسة . .

فالقرية في شكلها الحاضر مباءة الأمراض المتوطنة التي تفتك بالفلاح وعشيرته ، كالبلهارسيا والأنكلستوما والبلاجراء ، وهي عرضة دائماً للأمراض الوبائية . لأن هذه القرية إن هي إلا مجموعة من الأسكواخ البالية المبنية بالطوب الأخضر والطين كأنها زرائب متلاصقة تعلوها أكرام الحطب والقش لا يدخلها ضوء الشمس ولا الهواء النقي . تلك حال أربعة آلاف قرية يسكنها أكثر من ثلاثة عشر مليوناً من اخوتنا الفلاحين الذين يعيشون في فاقة وعلل ، محرومين من الماء النقي والغذاء الصحي . ولعلاج هذه الحال يجب تنظيم القرى لتكون صالحة لسكنى الادميين ، وانشاء قرى نموذجية حديثة تبدأ بالبناء قرى في كل مركز من مراكز القطر على أن تعم بالتدريج بمساعدة الملاك والحكومة ومجالس المديریات والمجالس المحلية . ثم امداد القرى بمشروعات المجارى اللازمة لها ، وقيام نظام للنظافة العامة والتصرف في القمامة . وتوفير المياه الصالحة للشرب وللاستعمال المنزلى بجميع القرى ، وذلك باقامة محطات رئيسية تنفيذها بالماء النقي على أن تقام محطة منها في كل مديرية ثم تعم تدريجياً ، وكذلك العمل على ردم البرك والمستنقعات المجاورة لتلك القرى وانشاء مذبح في كل قرية يشرف عليه طبيب بيطري تعجباً لحوادث التسمم من أكل الماشية المريضة . ثم يجب نشر الدعاية الصحية في القرى سواء أكان ذلك بالسينما أم بالإذاعة . .

والفلاح المصري فقير معدم لا يكاد يجد قوت يومه ، مسخر بأزهد الأجور لخدمة الملاك الأغنياء . ونسبة صغار الملاك بمصر إلى كبارهم هي ٩٩ في المائة إلى واحد في المائة ولو أن هذا الواحد في المائة يمتلك ٤٦ في المائة من مجموع الملكية وعدد الملاك المصريين كبارهم وصغارهم يبلغ ٢٥٢٠٢٦٢٢٠٢٣٩٧٩٥٣ فداناً وعدد الملاك الأجانب ٦٥٦٤٤ يمتلكون أكثر من نصف مليون فدان وأما بقية سكان القطر وهم أكثر من ١٢ مليوناً فلا يمتلكون شيئاً من الأرض !

والفلاحون هم وسعدهم الذين يدفعون الجزء الاكبر من الضرائب العقارية ، ولعلاج حال الفلاح الاقتصادي وسائل منها استثمار الاراضي البور وإصلاح أوسع مساحة مستطاعة منها ، سواء بواسطة مصلحة الاملاك أو بواسطة الافراد والهيئات ، ففي الوجه البحري أكثر من مليون و ٣٠٠ ألف فدان قابلة للزراعة وفي الوجه القبلي نحو مليون ونصف مليون من تلك الاراضي القابلة للإصلاح . وهذا الإصلاح يتم تدريجيا في عدة سنين وتوزع الاراضي المستصلحة على صغار الزراع لتعميم الملكيات العقارية الصغيرة وبيعها للمصريين دون سواهم . وكذلك يجب تحويل الاراضي التي تروي برى الحياض إلى رى صيفي ، وتقوم الحكومة بتعميق المسارف وتخفيض مناسيب فيضاناتها إلى الحد الذي يسمح بزراعة أشجار الفواكه واستثمارها في صناعات عديدة وتوزيع البذور المنتقاة على الزراع لتحسين المحاصيل . وتخفيف وطأة الديون العقارية ، ثم بتعميم الجمعيات التعاونية الزراعية لتخفيف وطأة الديون الفردية عن الفلاح ، ولامداده بالبذور والاموال ، ولتعليمه تطور أسمار المحصولات الزراعية . .

والفلاح أمي جاهل ، ولا بد من نشر التعليم الإلزامي في كل البلاد وإصلاحه ، وبث الدعاية إلى فوائده بين الفلاحين الذين لا يرغبون أولادهم على الذهاب إلى المدرسة ، فيضطر المعلمون إلى جمعهم من قرأهم ، ثم إن عدد الصغار الذين يتعلمون الآن تعليمًا إلزاميًا يبلغ حوالي سبعمائة ألف بينما يبلغ عدد الذين في سن التعليم الإلزامي أكثر من مليونين ومائة ألف . .

ويجب الاهتمام بموضوع التعليم الإقليمي بجانب التعليم الإلزامي فلكل ناحية في القطر ميزات ومنتجات يمكن لبنائها أن يتعلموا كيف يرقون بها على وجه علمي صحيح يرغبهم في العمل الحر المنتج . .

إن فقر الفلاح وجهله وانتشار الامراض في بيئته تعمل على انحطاطه الاجتماعي والمعنوي فتكثر الجرائم والمشاغبات في الريف ، ولا يمكن أن نجعل منه انسانا له ما لغيره من حقوق إلا اذا تضافرت الجهود على الاهتمام بقضيته . وليس على الارض فلاح مهضوم الحق محروم من أسباب الحياة التي يتمتع بها الحيوان لا الانسان ، مثل مواطننا الفلاح المصري . .

وترقية شئون الفلاح هو ترقية البلاد كلها لأن معظم سكان القطر من الفلاحين ولأنه العمود الفقري للحياة الاقتصادية بها وحديث بالحكومة أن تنشئ مصلحة خاصة بترقية شئون الفلاح تسمى مثلا « مصلحة الفلاح والقرية » . .

الباب الثالث

دراسات أدبية وفنية

في الفن الاغريقي

يقتصر هذا البحث على فنون النحت والمعمار والتعبير عند قدماء الاغريق بصفة عامة بحجة ،
الاسيا بعد جولة بين متاحف اليونان وهياكلها وآثارها . .

وهذا الفن هو وليد ثقافة ممتازة كانت المنجم الذي استمدت منه اوربا ثقافتها ، ولا تزال
الفنون اليونانية موضوعا حيا للبحث والدراسة في أنحاء العالم المتمددين . كما أت النهضة
الاوروبية في القرن الخامس عشر والنهضة العربية في القرن الثاني للهجرة تأثرت كلتاها كثيرا بالفنون
والآداب الاغريقية . .

وقد يتساءل الباحث : لماذا سما الفن إلى تلك الذروة في مثل هذه البقعة من الارض ؟ . .

وهنا يجيبه الاستاذ فرجريف بأن الثقافات والحضارات القديمة لم تزدهر في أقاليم دون أخرى
بغير أسباب أهمها . العوامل الجغرافية التي ساعدت على نمو تلك الحضارات وتكييفها . فقد نبتت
المدنية المصرية في واد خصب كثير الخيرات تحميه الصحاري ، ونشأت المدنية البابلية في واد مماثل
تحميه المستنقعات ، وقامت المدنية الهندية في واد خصيب آخر تحميه الغابات ، ونمت الحضارة
الاغريقية في جزر تحميها البحار . وكانت تلك الحماية الطبيعية من شر الغزوات الاجنبية المحرقة
والتدخل الخارجي المتلف ، ضرورة لنمو الحضارات في جو أمين هاديء موفور الرزق ، حتى
يتفرغ الشعب في كر السنين للنهوض بالفنون والعلوم . .

ووطن الاغريق كما يدعو اهله هو « ايلاس » الذي دعتة الشعوب الاخرى ببلاد الاغريق
أو اليونان ، ولا يقتصر هذا الوطن على شبه الجزيرة الواقعة في الطرف الجنوبي الغربي للبلقان ،
بل كان منذ آلاف السنين ولم يزل شاملا جميع شواطئ وجزر بحر ايجه ، ذلك الخليج الهاديء
المرصع بمئات الجزر وأشباه الجزر الجبلية الجميلة ، حيث نشأت وترعرعت الحضارة الاغريقية ثم
زحفت غربا الى المورة وايطاليا وسائر أنحاء أوروبا ، وشرقا حتى اجتازت الهند . .

فايلاس بلاد اتخذت من البحر سورا وحصنا يقيانها ويدعان للشعب فرصة لترقية حضارته .
وظهر فيها شكلان من الحضارة : أولهما في جزيرة كريت وشبه جزيرة بلوبونيز « المورة » التي تكاد
تكون جزيرة . ففي هاتين الجزيرتين المهميتين من الغزوات وجد المجال والوقت المتسع للنهوض
وترقية الفن . وفي القرن العشرين قبل الميلاد شيدت المباني والقصور الحجرية ، وظهرت فنون
وصناعات كثيرة ، وبنيت المدن بعيدة في داخل الارض لتكون في مأمن . وكان أكثر تلك المدن
يشيد في سفح جبل أو « اكروبول » ، وعلى هذا الاكروبول تبنى الحصون ليلجأ اليها سكان المدينة

ساعة الخطر وما زلنا نرى بقايا تلك الحصون على كل من اكروبول أثينا وكورنثه وارغوس وغيرها .
أما ثانيهما فظهر في جزر وأشباه جزر بحر ايجه ..

* * *

فلازدهار الفن ولرقى الثقافة في بلاد اليونان أسباب أهمها :

أولا — أن البحر كما أسلفنا كان الحصن الطبيعي لبلاد الأغريق كما كانت الصحارى لمصر والمستنقعات لبابل . ولكن يجب ملاحظة الفروق كما تلاحظ أوجه الشبه بين تلك الحضارات القديمة ، فصر ومثلها بابل واد متصل لا تفصل بين أجزائه حواجز طبيعية ، فكان من المألوف أن يحكم الوادى كله حاكم واحد يجعل منه أقليما واحدا متجانسا ، بينما في بلاد الأغريق كانت البحار والجبال فواصل جعلت من المدن وحدات مستقلة عن بعضها وعن غيرها من الشعوب الأخرى ، وحتى في أوقات اتحادها كانت المسافة تعين على ذلك الاستقلال لأن الحدود كانت مساحات لا خطوط ..

هنا نظر الأغريق الى البحر كحصى بعكس الفينيقيين الذين نظروا اليه كطريق للتجارة فقط ، وأثر ذلك في تاريخ الأغريق وفي عقليتهم ، وأصبح أهم وجوه المدنية الاغريقية هو الشعور العميق بالاستقلال والذود عنه ..

هذا الشعور بالاستقلال حجب اليهم الحرية بكل ما فيها من معان واسعة . وظهر أثر تقديس الحرية في تفكيرهم وفنونهم فعاشوا أحرارا غير مقيدين بتقاليد دينية مستبدة ، أو خاضعين لحكام طغاة ، يفكرون في دائرة حريتهم الشخصية وينعمون في جو تسوده الديمقراطية والفلسفة الحرة والفن الطليق والروح الصافية الصريحة ..

وهذه الحرية ساعدت على ارتقاء الفن وتجديده والتسامح به إلى المثل العليا . وهم في تصويرهم ونحتهم للأجسام العارية في مختلف أوضاعها لم يروا في ذلك تعديا على الخلق لأنهم في محيطهم الحر الصريح كانوا أيضا ممتازين بنضائل لم نصل اليها اليوم في حضارتنا العظيمة المشوبة بكثير من التمويه والنفاق ..

ثانيا — إن طبيعة المعيشة في الجزر كونت من الاغريق ملاحين بنوا السفن والأساطيل يجوبون بها البحار قبل الفينيقيين . وكانوا يعتقدون أن كيانهم يتوقف على البحر ولا يمكن لأمة أخرى أن تهزمهم الا في البحر . وهذه العقيدة كانت سببا في حفظ استقلالهم وهزيمة دولة عظمى غزتهم كالفرس . فعلى البحر تنقلوا وتركوا آثار حضارتهم في ايطاليا وصقلية وكانت رحلاتهم البحرية وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب وقربهم من العالم القديم المتمدين كصر وآشور سببا في اتصالهم

بالحضارة المصرية والآشورية ، وكانت وغوردم تقابل بالترحيب في بلاد فرعون ، وكان من هذه الصلة أن نقلوا من مصر كثيرا من الفنون لم يلبثوا أن جددوا فيها وابتكروا وما جاءت النثرة بين القرن العاشر والسابع ق . م حين نهضوا بالفن حتى كانوا قد تميزوا من التبريد الفنية التي ورثوها وخلقوا فنا خاصا مستقلا . .

ثالثا — ان الفن هو الصلة بين الانسان والطبيعة ، والطبيعة قد سحت بلاد الاغريق من حيث المنظر بمرتبتين عظيمتين لها جل الأثر في تلك المسحة الجميلة البسيطة التي يتسم بها الفن الاغريقي . فهي بلاد مليئة بالمناظر الطبيعية الجميلة ، بل هي من أجمل بلاد الأرض منظرا ، وذلك الجمال الطبيعي الذي تغنى به يرون حين تجول في أرجائها هو الذي خلق شعر هوميروس وبنداروس كما خلق تماثيل فدياس وصور ايليس ، ذلك الجمال الذي تتأمله ملتون وكيتر وجوته واندريه شيزيه والذي قال فيه أناطول فرانس : « أتينا أيتها المدينة المبهجة الى الأبد لولم تكوني لما عرفت الأرض إلى اليوم ماهو الجمال »

أما الميزة الثانية لهذه المناظر الطبيعية فهي تفاوتها في الاختلاف وتباينها في كل مكان . فهنا جبال متوجة بالثلوج وهضاب مكلفة بالسحب ، وهنا الروابي المكسوة بالصنوبر ، وهنا الغابات وأحراش الزيتون ومزارع الكروم وبساتين الفاكهة ومراعي الأغنام وينابيع المياه ، وهناك الريف الزمردي والوديان السحيقة والصخور الجرداء ، والتلال الحمراء وجبال المرمر البيضاء والخلجان الهادئة الزرقاء والجزر الخضراء ، وهناك السيول الجارفة والسماء الصافية والهواء البحري المنعش البليل والشفق المزين بالألوان ، كل تلك الصور الطبيعية المختلفة في حدود مصفوفة وديمة رشيمة ليس فيها الهائل ولا الجميم الثقيل الفل ، كان له الأثر البين في تكييف عقلية الشعب ونفسيته . .

فالبلاد ذات التضاريس المفاجئة والظواهر الطبيعية المتباينة تحمل الانسان على التفكير في الخليفة وخالقها والوجود واسراره فيشك ويفلسف ويمجدد ويتمرد ويبتكر ويبتدع ، ولا يميل الى الدعة والسكون والاستسلام . فاذا كانت طبيعة أرضها فوق ذلك في حدود الخيال والمعنى بدت الروح صافية صريحة تكرر الغموض والابهام والمبالغة وتحب ، الواضح الصحيح الموجز . .

وكان المحيط الجميل أثره في عشق الاغريق للجمال فكانت حضارتهم حضارة الجمال ، وكان الجمال هو محور الفنون الاغريقية كلها حتى الفلسفة جعلوا منها فنا جميلا . .

وانتقل الاغريق من عبادة الجمال الطبيعي وابتداع آلهة لكل مظهر طبيعي ، إلى تقديس الجمال في الجسم الكامل وفي الروح النقية وفي الاخلاق الفاضلة وفي سائر مظاهر الحياة . . كان سقراط يجعل الجمال شرطا للفضيلة وجعل افلاطون في جمهوريته بين أوصاف الفلاسفة الحكيم

«عقلا مطبوعا على الجمال والانسجام فيمن تسمح له غرائز» أن يدرك صبر الأشياء على ما هي عليه في ذاتها»
 وكان بريكليس يقول « نحن قوم نحب الجمال بشكله الطبيعي البسيط » . ويقول كليمينيس
 « خالقنا لنعبد الجمال وخلق الجمال لنعبد » ويقول المؤرخ بلوطارخس « ان الجمال يجذبنا اليه بقوة
 تحدث فينا همة ناهضة ليست هي غريزة التقليد بل هي النطنة يشيرها ما تحدثه فينا مشاهدة الجمال من
 أثر يدفعها الى العمل » ويقول المؤرخ ثوكيديدس « نحن نحب الجمال بقدر و تفلسف في غير حيلة »
 هذا الحب للجمال هو الذي ألهم اولئك الفنانين فابتدعوا أعمالهم الخالدة وأثار خيالهم فطعموا
 إلى المثل العليا غير قانعين بمحاكاة الطبيعة ..

وهو الذي خلق اعجابهم الشديد بالجسم الجميل وثقافته . ورأوا في ثقافة الجسم وسيلة لتقافه
 الدهن وجمال النفس . فاعتنوا بالالعاب الرياضية والحفلات الاولمبية والرقص التوقيعي وتعليم
 الموسيقى في جميع المدارس وأقاموا المباريات لاتخاذ الاجسام الرياضية الجميلة . وكان لهذه الثقافة
 الجسمية أثر عظيم في فني النحت والتصوير إذ كانوا يقيمون للفائزين في بطولة الألعاب والجمال تماثيل
 متقنة من البرنز والمرمر ، وكذا كانوا يقيمون الأناصب التذكارية الجميلة ينقشون عليها اسم الفائز ..
 ونحن في هذا العصر قد عدنا نقلا ماسبقنا اليه الاغريق منذ عشرين قرنا فأقمنا مباريات الجمال
 والألعاب الاولمبية وأخذنا نحكي التماثيل الاغريقية والرقص التوقيعي والعمارة اليونانية وأصبحت
 مقاييس الجسم الجميل الذي يحوز اليوم قصب السبق هي المقاييس الاغريقية التي ننقلها عن تماثيلهم ..

* * *

أما تاريخ الفن الاغريقي وكيفية تطوره منذ فجر التاريخ إلى قبيل الفتح الروماني فله الابحاث
 المسهبة في المؤلفات الأوربية الحديثة ونلخص هنا عنه نبذة مقتبسة من مؤلفات العالم اليوناني
 المعاصر « اسكندر فيلادلفيوس » :

يعود أصل الفن الاغريقي الى مجاهل ما قبل التاريخ وهي فترة مظلمة ظهر فيها العصر الحجري
 ولم تعرف فيها المعادن . فعمد القوم إلى استخدام الحجر المصقول والمظام ومواد أخرى ، في صنع
 الآلات والأسلحة والأدوات والآنية . وأنشأوا المباني الحجرية والمقابر المحفورة في الصخر كما نرى
 في آثارها اليوم بكنوسوس بكريت ، وتساليا وغيرها ..

وفي منتصف الألف الثالث ظهر البرونز وبدل بظهوره معالم الحياة البشرية وكان جفرا للمدينة .
 فظهرت في اليونان آنية معدنية وحلي وأدوات للحفر والقطع . وأخذ القوم ينقشون على الآنية
 والجدران وأذابوا المعادن . وفي هذه الفترة ارتقى الفن إلى درجة أولية خصوصا في جزائر بحر
 ايجه مما دعى بالعصر الايجي فأرنا أصناما من المرمر وآنية وصرايا وعلب وأشكال مختلفة
 للآلات وكانت الآنية تزخرف برسوم الحيوان والنبات والاشكال الهندسية ، وكان في هذه الزخارف
 ذوق يقدر الجمال والطبيعة ..

وهذه المدينة الباكورة وما تحمل من فنون ، بدت أيضا في كريت وفي بعض البلاد الداخلية كـأرغوس ، وقد زادت معلوماتنا عن تلك العصور بعد حفائر هنري شليمان في تروادة وميكينا وتيرينث ، وكذا اكتشافات ارثر ايفانز وماليرت بكريت . وظهر أن ميكينا كانت من أكبر المدن اليونانية الزاهرة بالفنون كما كانت مقرا للامراء والأغنياء الأغاثيين مثل أقامنون وغيره . ولذا اطلق على المدينة الأولى باليونان اسم « الحضارة الميكينية » تلك الحضارة الباكورة التي وصفها هوميروس في أشعاره وصفا رائعا أثبتت الاكتشافات الأخيرة انه وصف لا مبالغة فيه .

ولكن حدث في أواخر الألف الثاني ق . م أن نزلت قبائل الدوريين على بلاد اليونان من الشمال واكتسعت البلاد حتى جنوب المورة ، وأعملت يد التفريب والاتلاف في قصور الاغاثين وفنونهم ، وما لبثوا أن اندمجوا في أهل البلاد فحدث من امتزاجهم نمط جديد للعيشة والفنون . . وأخذ الفن الاغريقي يتطور على مر الأجيال بتدرج وبطء حتى وصل إلى الذروة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وهذا التطور البطيء نتيجة أعمال ثقافية ، أدبية وجسمانية ، طبعت الأمة الاغريقية بطابع خاص بها . .

ولحسن الحظ أن بمتاحف اليونان وأوروبا اليوم آثاراً فنية عديدة هي نتائج الاكتشافات الحفرية التي قام بها العلماء في أنحاء اليونان ، ولا سيما حفريات الاكروبول في القرن التاسع عشر . وفي هذه المتاحف المليئة بمجال فسيح لدراسة الفن الاغريقي منذ نشأته ، وفي المهددين الايوني والدوري مما سبق عصر بركليس الزاهر . وأصبح لأسماء الفنانين القدماء أهمية بما هو معروض أمامنا من تماثيلهم العديدة التي تمثل تاريخاً حياً للفن وتوضح أسلوبهم الفني بجلاء . .

ومما يلفت النظر في تلك العصور هو طراز لازمه الفنانون الاوائل في تمثيل الرجل العاري وهو في الغالب شاب حليق ذو قوام صلب مفتول ، واقف بقدمين ثابتتين وساقه اليسرى متقدمة قليلا إلى الامام ، وذراعه موازيتان لجانبي الجسم ورقبته ورأسه مستقيمتان وكل ذلك يذكر بالتمائيل المصرية . وبجانب هذا الطراز من الرجل العاري نرى تماثيل المرأة المكسوة إذ كانت العادة تلزم المرأة باللباس المحتشم ، وبتحف الاكربول عدد من التماثيل الفريدة في بابها تمثل صبايا حسان لابسات أردية واسعة وهي تماثيل نساء اثينيات من القرن السابع الى القرن الخامس قبل المسيح . .

وحينما ظهر المثال فدياس (٤٩٨ — ٤٣١ ق . م) كانت التربة مهيأة لا ينقصها غير عبقريته ونبوغته للارتقاء بالفن إلى أوجه ، فاستطاع أن يخلق فنا لا ينقصه غير نسمة الحياة وما عمله فدياس في القرن الخامس ق . م لم يسبقه اليه فنان حتى اليوم ، وليست تماثيله أصناما جميلة كاملة بل رجالا تفكر ورؤوسا تتأمل . ويعد افريزا هيكل البارثنون ، وقد بقي منهما البعض في مكانه ونقل البعض الآخر إلى متحف لندن ، متحفا فنيا كل قطعة فيه تحتدعي الدرس ، وليس لغير ميخائيل انج

ورفائيل أن يلحق به ولكن بعد الفين من السنين ..

إلا أن عبقرية فدياس لم تكن لتتجلى للعالم لو لم يشجعه صديقه بركليس بحب الجمال والفن الذي كان عصره أحد عصور الأرض الذهبية ، عصر سقراط وأفلاطون وبناء هياكل الأكروبول المرمية .. وقد صنع فدياس مع تلاميذه العظام تمثال أثينا وزئوس من العاج والذهب ، ونصب الأول في هيكل البارثينون في هيكل أولمبيا ولم يبق اليوم من التمثالين غير أمثلة منقولة عن الأصل وبينما كانت أثينا تتجمل في عصر بركليس بأيات الفن كان الفن قد ازدهر في بلاد اغريقية أخرى مثل أرغوس وكورنثة وإيجين وغيرها ، وظهر في أرغوس الممثل العظيم بوليكليتوس الذي أسس مدرسة للتماثيل البرزية وفي مقدمة أعماله تمثال من البرنز دعاه القدماء بالنموذج حقق فيه كمال الجسم وجماله ، وكان الممثل ومدرسته يمثل جمال الجسم الرياضي العاري في شبان هم نماذج الجسم الكامل وبجانب النحت والعمارة ازدهر التصوير في المدن اليونانية الكبرى وكانت القصور والمعابد تزدان بتلك الصور وظهر من عظماء المصورين بوليغنوتوس الذي زين معبد أثينوس ومتحفها للصور وغيرها . وكان له تلاميذ من كبار المصورين وحملت إلينا معظم أسماؤهم ..

وسرعان ما شبت حروب البوبوفيز التي دامت أكثر من ربع قرن فكان لها أثر في خلق الاغريق ونفوسهم ، وكذلك كان لها الأثر في الفن الذي هو تعبير عن نفسية الشعب وميوله ..

وإذا بنتاج الفن في القرن الرابع ق . م تخالف كثيراً أعمال القرن الخامس ، فاحتجبت الآلهة العظام وراء ستار وبدا في مكانها أنصاف الآلهة والشياطين والساخرين والمستهترين . خرجوا يملكون بعد مصائب الحرب ليجدوا في لهوهم راحة لحواسهم . وفي المادية التي اكتسحتهم بعد تلك الحرب ظهر انحطاط في الخلق ، فلم تعد أثينا آلهة الحكمة وجوبيتر رب القوة وأمثالهما تاهم فناني القرن الرابع كما ألهمت عظماء القرن الخامس ، بل جاء دور فيثيس آلهة الحب واللذة عارية تماماً وظهر ايروس وديونيسوس وبان وميثية وإيميروس وما شابهها من الآلهة المنحطة التي تمثل الاستهتار والخر والشهوة . وهنا ظهرت تماثيل الأناث عارية ذات اغراء وفطنة ..

وظهر في هذا القرن الرابع فنان عظيم هو « برا كسيقتيليس » يمثل روح ونزعات عصره ، وأهم تماثيله أفروديت وأبوللون وإيروس وارتيميس وعرائس النمنون وكان المرمز في يديه كالشمع يمثل فيه كل الحواس والميول . وهو مثال الشباب والجمال الأنثوى ..

ولم يكن برا كستيل هذا وحيد عصره إذ ظهر معه فنانان عظيمان هما تلميذاه سكوباس وليسيبوس ثم ظهر غيرها كثيرون . أما سكوباس فكان يمثل في فنه اضطرابات النفس والاحساسات الحادة ومن تماثيله صيد الخنزير البري والموت الفاجع لنوييد والسباق لاداس ، وتمثال « باخنتي » . وكان

أيسبيروس محافظاً على مبادئه أستاذة ومثل بالبروز أجسام الرياضيين والمصارعين . .
 وبلغ فن التصوير كفن النحت في هذا القرن شأواً جديداً في التقدم وفي نهاية القرن الخامس
 ذاع ذكر أبوللودور الذي اهتم بالألوان أكثر من اهتمام سابقيه به ، وترك لوحات فنية دقيقة في
 ألوانها وظلالها وتفصيلاتها وهذا عنده خليفة زوكسيس وبارهاسيوس فتقدم فن التصوير والألوان
 الطبيعية ومن لوحات زوكسيس صورة هرقل الطفل يحارب الثعابين وصورة أميرة السنطوروس
 الخرافي ومارسياس وغيرها ومن لوحات المصور بارهاسيوس صور الأبطال هرميس وهرقل
 وأوديسيوس وأجا كس وغيرهم . .

وفي خارج أثينا ظهرت أيضاً مدرسة عظيمة للتصوير وذلك في « سيكيون » وتأثرت بالمزاج
 البوونيزي مثل مدارس النحت . وأكبر أساتذة هذه المدرسة « افمبيوس » وبامنياس وكانا في
 أسلوبهما خاضعين للعقل والتجارب العلمية . وكان ثانيهما فيلسوفاً ومؤلفاً لعدة كتب في الفن
 والهندسة والرياضيات . وكان له تلميذان عظيمان سارا على نهجه . وكذلك ظهرت في طيبة مدرسة
 شهيرة أبان مجده تلك المدينة . .

وكان ختام القرن الرابع مثل بدايته زاهراً في الفن . وظهر في أواخره الرسام العظيم أيليس الذي
 ولد بأسيا الصغرى وكان مثل ليسبيوس السالف الذكر مصوراً في بلاط الاسكندر وأشهر صوره
 فينيس خارجة من الغمر وهي تضارع في جمالها صورة فينيس التي رسمها براكستيلوس . .
 أما المصور بروكوجينيس فكان صديقا ومعاصراً للمصور ايابيس ورحل إلى رودس التي صارت
 في ذلك العهد منافسة لأثينا في فني النحت والتصوير وللوحتة « اياليسوس » شهرة وقصص . .
 وهكذا تطور الفن الاغريقي ونما كما تنمو الشجرة الضخمة التي تنمو في شيخوختها ، لكنه
 حافظ في نموه حتى مواته على أقيسته السابقة وعلى حبه للجميل والطبيعي ، وكان احتضاره إبان
 الحكم الروماني حين أمسى الفنانون مقلدين بسطاء وأخذ حب القديم وتقليده يسيطران على
 المجتمع الروماني وفي حكم الرومان ظهر عدد من الفنانين الاغريق لكنهم كانوا يعمالون في روما
 ولأجل روما . .

أما فن المعمار فقد تطور أيضاً مع العصور السابقة وظهر منه الأسلوب الدوري والنمط الايوني
 الذي تفرع منه الطراز الكورنثي . .

وما زالت بقايا الهيكل المبعثرة في أرجاء اليونان وجزرها وخاصة تلك الهيكل المرصية
 المشيدة فوق الاكروبول كالبارثنون والأرخثيون تحدث الناظر عما بلغه فن العمارة من
 عظمة وكال . .

شعراء امرئ القيس

الفنانون الخالدون كالأنبياء والمرسلين لا تلدهم غير المثوبة ولا تنبتهم غير أرض المسغبة ، لأن الفن الحى لا يصدر إلا عن نفس كئيبة حساسة ذقت الألم والحُرمان ، فرفعها الألم إلى سموات لا تدركها النفوس المرحية الشديدة الالتصاق بالأرض . .

أما أولئك النفر الذين شذوا فخرجوا من بين أحضان « الارستقراطية » وتجاوزوا في سماء الفن فأن ذلك سبباً يرجع الى التعطش أو الألم أو حرقة الحب . .

وهذا أبو الحارث امرؤ القيس الملقب بالملك الضليل الذى كان أباه من ملوك كندة وأشرفها فان لنموه في الشعر حتى وضع في مقدمة شعراء الجاهلية سبباً يعود إلى تظليه بنار المرأة ، وولعه بها وتأمله من حبها ، كما يعود إلى تشرده بعد أن طرده أبوه ، والى فزعه لمقتل أبيه ورغبته في الثأر له . .

وهذا أبو السباس بن المتمر الخليفة العربى وابن الخليفة المتمر بالله فانه لم يرق سلم الشعر حتى لقب بأشعر بني هاشم إلا بعد أن صقل مؤدبوه وهم رهط من الأدباء والأفذاذ نفسه ، فكشفوا له عن مرائى الجمال ، وإلا بعد أن اهترت نفسه بالفتن التاريخية التى اندلح لها في عهده ثم آلت إلى قتله . .

وهذا داود ملك اسرائيل منذ ثلاثين قرناً فانه لم ينبغ في نظم ديوان المزامير الذي تترنم به الشعوب إلى اليوم إلا بعد أن ذاق الألم والقلق يوم خاض عباب الحروب الطويلة مع الفلسطينيين والموآبين وغيرهم ، تلك المعارك التى سالت فيها الدماء أنهاراً ، ويوم رفر ف شبح المجاعة مدة ثلاث

سنين فوق مملكه ، وتغشى الوباء بين شعبه ، ويوم بكته ضميره على ما ارتكبه مع امرأة قائده أوريا بعد أن تسبب في قتله ، فجاء ديوانه الزبور مناجاة صادقة لله الغفار ، ونواحا مرأ من قلب كلهم . .

وهذا سليمان بن داود الذى امتد مملكه من نهر الفرات إلى الحدود المصرية والذى سارت الأمثال بعجده وترفه فانه لم ينظم ديوانه الرقيق « نشيد الأنشاد » ولم يصنع كتابيه الفلسفيين « الجامعة »

و « الأمثال » بتلك الصبغة الشعرية إلا بعد أن اشتعل قلبه بحب « شاميث » وامتلاّت نفسه بالضجر الذى يعقب امتلاك كل ما تشتهى القلوب من نعم الحياة ومسراتها ، ذلك الضجر الذى يؤدي إلى

التطلع والشوق إلى ما وراء المحسوس فتقلب المسرة كآبة غامضة هي أول وحي للشعر الحى . . ثم هذا لورد بيرون شاعر الارستقراطية الانجليزية فى القرن التاسع عشر وسليل أسرة بيرون

الكبيرة فان غرامه المشهور بمارى دف وغيرها وآلامه المعنوية بسبب مركب النقص ، قد استدر الشعر من وجدانه الملهب ففاض شعراً رقيقاً وخرج ديوانه آية من آيات الفن الجميل . .

ومن يجول جولة قصيرة فى دواوين أولئك الشعراء الخمسة الذين من بينهم أربعة من الملوك يكتشف فى شعرهم ميزات تجمع بينها وتميزها عن غيرها من دواوين سائر الشعراء ، أولها روعة

الوصف، زأبته، وثانيها : نزعهم الايقورية الايجابية واباحتهم ، وثالثها أنانيتهم ، ورابعها كبرياؤهم وارستقراطيتهم ، وخامسها مللهم من الترف رضعهم من ازدياد الملذذ ..

وأنهم رغم تلك المحاسن التي تزين جسد شعرهم وتلك النقائص البشرية التي تقرب بينهم وبين القلوب ، لم يسكبوا المحبة كما حازوا الإعجاب ، ولا أخالنا نعطف عليهم كما نعطف على الضارين هو ميروس وملتون ، ونرى لآلامهم كما نرى لآلام هوجو وجوتا ولا مرتين : ذلك لأنهم نالوا في حياتهم كل ما تشتهي القلوب ولبسوا من النعمة ثوبا ضافي الذيل . .

أما نبوغهم في الوصف فهم جديرون به وهم الذين درجوا في النميم ورتعوا في جنات الجمال ، فجاءت صورهم التي نقلوها عن تلك المرائي الفاتنة صادقة خالبه . .

قيل لعل بن الرومي الشاعر الكبير « لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وتصف وصفه وأنت أشعر منه ؟ » فقال : انشدوني شيئاً من شعره فأنشده بعضاً من أبياته ومنها تشبيهه للبهل بالزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر فصاح بهم : واغوثاه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك انما يصف ماعون بيته وهو ابن خليفة وأنا أي شيء أصف ؟ . .

والحق إن شعراء الارستقراطية قد تفردوا بوصف القصور المنيفة والجنات العجيبة ، والحياد المظلمة ، والولائم الفاخرة ، والجواهر اللامعة ، والكؤوس المشعشة ، وكل ما ينطوى عليه البذخ وتشاؤه نضرة النميم . .

غير أنهم قلما يتغلغلون في أعماق الحياة ويخاطرون بذواتهم في دياجير البؤس وزوايا الشقاء ، فيعاينون المجاعة تشب أظفارها في الأجساد البشرية ، ويصيخون الى عويل اليتامى وشكايات الابلأى ، ويسمعون لهنات المحتضرين وأنات المكرويين فيعمدون إلى ريشاتهم المزركشة بالذهب والجوهر ويصورون تلك المشاهد الأليمة والمأسى الفاجعة كما فعل هوجو وشكسبير . . أنهم بعيدون عن مثل تلك المرائي التي تنفع عليهم مسراتهم وملذذهم ، لأنه يحجبهم عما يمثل في كل لحظة على مسرح الأرض ، ما يكتنفهم من بروج مشيدة وبساتين غناء . وقد ألهمهم بذخهم إلا عن التغنى بجمال بيتهم والتشبيب بنسائهم وبث أحزانهم الخاصة إذا حزنوا وجواهم إذا شقوا . .

أما نزعهم الاباحية ونظرتهم إلى الحياة نظرة حسية فتتجلى في أشعارهم وتاريخ حياتهم : وهذا امرؤ القيس الذي كان يتخذ له صحبة من صعاليك العرب ليقضى معهم أيامه قاصفاً لاهياً مستسلماً لكل صنوف المتع واللذات والذي يفحش في تشبيهه بالنساء وله في ذلك أبيات تحمر لها وجوه الفضلاء خجلاً ، وذلك ابن المعتز الذي كان يسبح في ترف الملوك وملاهي الثراء ، وهذا داود الذي قتل قائده ليسلبه امرأته الجميلة التي افتنن بها وهي عارية فضمها إلى جيش نسائه وجواريه ، وسليمان

الذي كان له الف زوجة والذي اعترف في كتابه « الجامعه » بما لا تكاد تصدقه العقول والذي له في ديوان نشيد الأنشاد أبيات في النسيب ووصف جسد حبيبته ما لا نجرؤ هنا على ذكره . .
 أما يبرون فقد بذل الجميع في مضمار الشهوات وقصصه مع عشيقاته المديدات مشهورة ، وأشعاره في الفزل معروفة ولكنه تفرد وحده بسخط أرباب الاستقامة وأساء به الناس الظن حتى اتهموه في أخوته .
 أما أنانية أولئك الشعراء فبادية في دواوينهم التي ترى كيف لا يلبث لهم الحديث إلا عن أنفسهم حتى غلب في شعرهم ضمير المتكلم ، فنقم عليهم الكثيرون تلك الخلقة ، وليست هي في الشعراء نقصاً . وذهب بعض الناقدين إلى أن خير ما نظمه يبرون من الشعر هو ما خلى من ضمير المتكلم .
 وديوان المزامير هو لسان داود المستغفر المستهطف أما سليمان فقد زاد عليهم في وصف جماله ومجده وأبنته . وفاقهم امرؤ القيس في وصف ما يجري بينه وبين خليلاته في خدورهن بصريح العبارة وأقلهم في تلك الخلقة ابن المعتز . .

أما ميزة العظمة التي تحوم فوق قصائدهم فحدث عنها ولا حرج . هم يشعرونك بأنهم كانوا رؤساء تدين لهم الرقاب وتخضع لمشيئتهم المسمرات ، وهم يقنعونك أنهم مرححوا في بحبوحة من العيش ونالوا من الرفاهية والنسيم ما لم ينله عباد الله ، وهم ينفخون في شعرهم بأنفسهم وعذابتهم . .
 ولكنهم رغم ذلك قد حل بنفوسهم الضجر والسآمة ورفرف الملل فوق ملاهيهم فتسمع يبرون الذي خاض في عباب اللذات والمتع ينشد قائلاً : « قد صارت أيامي مثل الورقة الصفراء في الخريف وقد ذبلت أزاهير الحب وثماره ثم انقضت ولم يبق أمامي غير الدود والسوس والحزن » . .
 ونسمع سليمان يعظنا بقوله : « بنيت لنفسي بيوتا ، غرست لنفسي كروما ، عملت لنفسي جنات وفراديس ، وغرست فيها أشجاراً . . قنيت عبيدا وجواري وكان لي ولدان البيت . . اتخذت لنفسي مغنين ومغنيات وتنعمت بنى البشر سيدة وسيدات . . ومهما اشتته عيناى لم أمسكه عنهما . ثم التفقت أنا إلى كل أعمالى التي عملتها يداى وإلى التعب الذى تعبته في عملها فاذا السكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس »

وينشد لنا داود الملك في مزاميره الحلو قائلاً :

« لأن أيامى قد فنيت في دخان وعظامى مثل وقيد قد دبست . ملفوح كالعشب ويابس قلبي حتى سهوت عن أكل خبزى . . صرت مثل بومة الخرب . سهوت وصرت كعصفور منفرد على السطح . . . إني قد أكلت الرماد مثل الخبز ومزجت شرابى بدموع . . . »

أما امرؤ القيس الملك الضليل الغائص في يم المعاصي والمنكرات فينشد لك قائلاً :

« ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الاصبح منك بأمثل ا
 فيألك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يبيذل »

فى الادب النسوى

تحليل ودعاية

أول ظاهرة تترأى لمن قدر له أن يقتنعهم غمار القصص والمقالات التى تمخضت عنها عقلية المرأة أنه ليس بين ذوات « الفساقين » من جبايرة الفكر وربات الابتداع والاستقلال بالنظر من تضارع رجلاً من مفكرى الطبقة الثانية أو فنانها ! ولذا لا نتظار أن نرى بين النساء من تنافس افلاطون فى الحكمة أو هو ميروس فى الشعر أو شكسبير فى الدراما ! لأنه منذ أن ظهر الانسان على هذا الكوكب والرجل هو الزعيم الفكرى نبياً كان أم فيلسوفاً شاعراً !

ولفتت هذه الظاهرة أنظار الكثيرين من الباحثين فعملها أحدهم بأن فى أجسام الرجال غدداً صماء تميزهم عن النساء فى الصبر على الاعمال الذهنية والكبد العقلى ! ثم أخذ على عاتقه دراسة ألف عظيم من عظماء التاريخ فوجدهم ما خلا ثلاثين منهم ، من الرجال جميعاً ، وأن جل أولئك الثلاثين امرأة ممن ورثن الملك بطريق المصادفة وقن بأعباء الملك مسترشدات بالرجال ! ولا يذكرون اليوم بين العظماء المعاصرين غير أربع من النساء هن ميسز بيزانت التى كانت تدعو إلى الصوفية الهندية وتنبه الغربيين إلى كنوز الهند الأدبية ولكنها لم تكن أول من لفت أنظارهم إلى ثقافة الهند ومتصوفها إذ هناك من الرجال من ترجموا عدداً من أسفار الهند الشهيرة وكتبوا فى تلك البحوث قبل أن تظهر أنه بيزانت ، ومدمام كورى التى اكتشفت الراديو بالاشتراك مع زوجها ، وجرازا ديليدا التى منحت مرة جائزة نوبل للأدب لما ألفته من القصص ، ثم جين آدمز التى اشتهرت بأعمال البر . .

وهب نفر من المدافعين عن قضايا المرأة ، وقد ضاق النساء بكثرتهم وفضولهم ذرعاً ، وأعلنوا أن لافرق بين عقل الرجل وعقل المرأة ، ونسبوا ما فى المرأة من ضعف معنوى سواء أ كان مستورا أم ظاهراً ، إلى تلك المؤثرات القديمة يوم عاشت المرأة مستعبدة للرجل مستسلمة إلى الطاعة والقيود . ولكن يرى آخرون أن الأجيال الطويلة قد مرت على تحرير المرأة الغربية ورفعتها إلى مصاف الأكلية فلم يطرأ على عقليتها ونفسياتها تبديل ولا تطور !

وقيل بل لأن المرأة لم تتفرغ للأدب والعلم لأنها ما برحت ترى العظمة والسعادة فى مملكة بيتها وانها لو خيرت بين جمال الانوثة وجلال العلم لفضلت الاول دون تردد ولكن ثمة من يرى المكاتب مزدحمة بألوف الكتب التى دبجتها راعة المرأة بل أن طوفانها ليكتسح أمامه مؤلفات

الرجال ! ولكن لتقرأ ما شئت من مؤلفات الجنس اللطيف فانك قلما تخرج بنائدة كبرى ويظهر أن المرأة التي تهمل عبء تيجان الملك لا تقوى على حمل صولجان الادب في يدها الناعمة البضة ! يعطف الرجال على كل ما في المرأة من نكت الضعف فيأخذ العطف لونا من الجمالة يبدونها لها بين كل آونة وأخرى ! فاذا أخرجت لنا كتابا أو قصيدة هتفنا لها وهللنا ! ولست نمة من يتهامسون قائلين : هل كنا في حاجة إلى تلك القصيدة أو القصيدة تضاف إلى أكوام المطبوعات وروايات المؤلفات أكثر من حاجتنا إلى تربية طفل وإدارة منزل وإسعاد أسرة ! حتى اذا ما قرأنا ذلك المؤلف وجدنا أننا لم نكن في حاجة لأن تصور لنا المرأة في كتابتها نفسية الرجل صريحة بقميص المرأة أكثر من حاجتنا إلى أدب نسوي محض تنظر فيه المرأة ، وهي ذلك الخالق اللطيف الشاعر المزاج ، إلى الحياة بطرف ناعس ، وتصور فيه ميول الانثى المستترة وراء حجب التقاليد وتعبير فيه عن عواطفها الرقيقة الكامنة ، وتعلن فيه عن أمانيتها ورغائبها ، وضعفها وقوتها ، ونزواتها وغرائزها فتساعدنا في اجتلاء كنهها وحل لغزها ، وتقرب بين قلبها وقلب أخيها الرجل . وقتئذ تزداد ثروة الادب بكنوز الأنوثة وينتفع علم النفس بدقائق تخفيها المرأة بين جوانحها ..



قيل إنه ليس نمة واحد في كل مائة مؤلف من مؤلفات الجنس اللطيف يخلو من تدخل الرجل أو أثره ! إلا أن هذا التدخل قد يكون مباشرا كما يحدث في تواليفات الناشئات اللائي يلقين المعونة من والد أو صديق ! وقد يكون غير مباشر أي هو تقليد المؤلفات الأخرى في أساليبها وآرائها ! والحق أن المرأة منذ القديم إلى الساعة تترع إلى تقليد الرجل في تفكيره وعواطفه وميوله وأسلوبه كما تراها تقلده اليوم أيضا في لباسه وقص شعره ومهنة وأعماله ! ولم تدع له بابا إلا وحشرت فيه أثمها الجميل ! ذلك لأن الرجل يفوق المرأة قوة معنوية ومادية ، وفي وسعه أن يبت في نفسها بالاحياء والاغراء كل مالمالديه من أفكار وميول ، حتى في وجهة نظره إلى الجمال وقدر أي ماكس نورداف في هذه النقطة الأخيرة « أنه لو أتيح للمرأة أن تستقل بالنظر وكانت له القدرة على تحليل ما تشعر به وما ينطوي عليه وجدانها لبرهنت منذ القديم على أن مذهبها في الجمال يخالف مذهب الرجل فيه من عدة وجوه » . . .

وكان الواجب ألا تتفق المرأة في أدبها أثر الرجل ، اذ بين المزاجين بون شاسع ، وبين وجهتي النظر اختلاف واضح . . فتستمد من الهامها صورا ترسمها لنا بحرية وتسير وفق شعورها غير مقيدة بعرف أو عادة أو تقليد فيكون أدبها سافراً حراً كما تكون هي أيضا حرة سافرة تتمتع بالصراحة والاستقلال ..

إن الأدب النسوي إلى اليوم مثل مرآة المرأة المزخرفة لكنها لا تعكس صورتها إلا بإشاريين وحلية ! إذ هو صدى لصوت الرجال ولكن المرأة قلما تعترف للرجل بالفضل بل أنها تنصر بعناد النساء أن كل ما تكتبه نتيجة تنكير عويص وبحث طويل ! ويزيد عنادها ما تقرأه كل ساعة من تقارير الرجال وألقاب فخيمة تخلعها عليها صحف الرجال !

* * *

كان اناطول فرانس يقول : « تحيا المرأة دائماً بالقلب ويحيا الرجل بالعقل والعقل والأدب النسوي الخالي من شوائب التقليد والمنفعة ، هو أدب القلب والعاطفة والوجدان . والمعروف في علم النفس أن النساء والأطفال يتفوق فيهم الوجدان على مظهرى الارادة والفكر ، فهم بذلك أقوىاء الشعور ضعاف الارادة والفكر ، وقاما يظهر بين النساء فلاسفة وحكميات وسائسات يسود فيهن الفكر أو قائدات وحاكمات من ذوات الارادة الحديدية وحتى الملكات اللاتي ظهرن على مسرح التاريخ كن أسيرات العاطفة والشعور .. »

وتعترف الكثيرات من شهيرات النساء بذلك فقول أثيل مانين الروائية الشهيرة « قد تقدر النساء على محاكاة الرجل ومناقبته في أعماله والتشبه به في عاداته وأحواله وطرق تفكيره ولكنهن مهما حاولن فليس لديهن غريزته ولا مقدرته الطبيعية وليس لديهن عقلية ولا قوة تفكيره ! » وتقول ألن كي الكاتبة السويدية : « ان المرأة لا مقام لها ولا سعادة إلا أن تحب وأن تحب الحب وتحب الرجل وتحب حب الرجل ! » وتقول الكاتبة راحيل فارنهاجن : لقد كنت أرانى كأننى حيوان مملوك لذلك الرجل وكان فى يده أن يلهمنى لو شاء » .

أما برنارد شو فانه يشتط في وصف عاطفة المرأة فيقول : « ليست غاية المرأة هى لذتها أو لذتنا بل لذة الطبيعة وأن فى المرأة حيوية عمياء مجنونة نائرة طائشة تضطرها الى تضحية نفسها فهل تظن أنها تترى لحظة عن تضحيته أنت ؟ » ..

وذكر تاجور فى أحد أحاديثه : « ان العواطف هى قوام الانوثة وأنها الكل فى الكل وأن المرأة لا تحجم عن التضحية بكل شئ فى سبيل الرجل الذى تحبه ولو تحملت العار والخراب ، وان كل اعتبار فى نظرها يجب أن يخضع لعاطفة الحب » ثم ضرب مثالا بالبودة الذى أخضع عواطفه وهجر امرأته طلبا للحكمة الأزلية أما زوجه فلم تستطع أن تحذو حذوه وتتجاهل عواطفها ! .

فن الطبيعى أن يظهر بين النساء شاعرات رقيقات وكاتبات وجدانيات . ولا يظهر بينهن حكميات وفيلسوفات وعالمات . إلا أن المرأة كثيراً ما تلقى صعوبة فى التعبير عن عواطفها وتصوير

مشاعرها لأسباب عدة فإذا ما تخطت تلك المصاعب لمست بين سطورها حرارة الاحساس واشتعال الوجدان وسخين الدمع .

فشعر الخنساء كله عويل وبكاء حتى لقبت بأحزن من بكى وندب واذ قتل شقيقها معاوية وصخر ، جزعت عليهما وبكتهما بأسعس الدمع ونظمت المراثي المطولات فيهما وما فتئت تبكي مغلوقة الارادة حتى عميت ونما قالته ترثي صخرأ :

فاولا كثرة الباكين حولي على اخواتهم لقتات نفسي
فيا طيفي عليه ولطف أُمي أيصبح في الضريح وفيه يمسى ؟

ونظمت مسز هيمنز « فيليسيا براون » أشعارا تنتمي الى القلب الحساس ، ترى فيها عواطف الانوثة ورقة احساسها متجلية في ديوانها المسمى « شعر العواطف » .. أما مسز براوننج شاعرة الانجليز الكبيرة ، فكانت لموت أخيها الذي تحبه ولمرض حل بها أن هجرت العالم واعتكفت في غرفة مظلمة تقطع وقتها في نظم الشعر الوجداني الحزين ..

أما جورج ساند الكاتبة الفرنسية المعروفة بغير نماذج المرأة الحرة الوجدانية المستسلمة لعواطفها وخيالها وشهواتها . وقد عاشت مع شوبان والفرد دي موسيه وعدة رجال آخرين عيش الزوجة ، لكنها سرعان ما كانت تهجر كل عشيق بعد أن تشيد حوله من نماذج المثل العليا ماشاء خيالها الجموح أن يشيد ثم تحطم ما بنته ضجرا وسامة . وكانت تتور في بعض مؤلفاتها بعاطفة نارية على المجتمعات العالية وتنادى بحماسة ان الحب أكبر الفضائل وأن من يتبع نداء قلبه لن يخسر ، وبعد أن تضرم وقود الحب تفر من لهيبه ثم تعود فتكتب بعنف متمردة على الشرائع والقوانين والعادات إذا وقفت في وجه العاطفة ! وتري في بعض رواياتها ان المرأة حرة لها أن تحب من تشاء وتعيش مع من تحب في ظل السعادة ! والحب الحر في نظرها هو العاطفة الشرعية المقدسة . وهكذا قضت حياتها محترقة بلهب العاطفة الحسية حتى لقبت بكاتبة العواطف ..

وهذه مدام دي ستايل فانها في كتاباتها ابنة روسو بالقلب ومثله في التطرف والمغالاة في خضوع القلب للعاطفة وقد تشبعت بأفكار ذلك الرجل الناري المزاج ووجدت فيه ضالتها حتى أنها قلده في روايته « هلويز الجديدة » في روايتها « دلفين » ذات الرسائل المتبادلة التي تدور حول الغرام الحار ..

ومن أقرى ميزات الأدب النسوي أيضا : الحذلقة .. تلك الحذلقة التي دفعت موليير الى تأليف قصتين مسرحيتين شهيرتين هما « النساء العالمات » و « المتحذلقات » ساخراً فيهما من حذلة نساء عصره في تفكيرهن وحديثهن واستعمالهن للاستعارات اللفظية ، وتسكفنهن التأنيق

والتطويف وتصنع الاحساسات وادماء العلم والاطلاع ومناعرا تهن في السياسة والمنطق واللاهوت !
وقد كانت مدام ده سمنية شديدة الولوج بالانماط العتيقة والمستعارة من اللاتينية ، ومن أساليب
حذلقها قولها في حقيدها « روضه بلطف كما تروضوا حصانا ذا فم لطيف » ١ أو تصف واحداً
بقولها « له ظاهر مثل خلق منفس في الدقيق » ١ أو تقول إحداهن « اسمح لهذا المقعد أن
يحتضنك » ١

وغير مدام ده سمنية كثيرات ، بل أنه داه متفهم بين الأدبيات الشرقيات والفريات إلى الساعة
ولعل ذلك راجع إلى غريزة المرأة في حب الظهور والزينة وحب المظاهر الجذابة !
ومظاهر آخر في ذلك النوع من الأدب هو الثروة النسائية ، من أسهاب في الشرح إلى تكرار
في الأفكار إلى تطويل في الوصف والرسائل إلى كتابة عدد لا يحصى من القصص الناقصة ! ولقد
كتبت جورج ساند أكثر من مائة قصة وكتاب . ومس برادون أكثر من خمسين قصة ، ومسز
اوليفانت خمساً وأربعين ، ومس ثاكري أربعين ، وكل من مسز كريك وأما مارشال ثلاثين ! وكل
من ماري كورللي ودوروثيا جيرارد ومسز الكساندر هكتور أكثر من عشرين ، وكل من
كريك جورجيانا وجورج اليوت ومسز فرانسيس اليوت وفورستر وكافاناغ وشارلوت ينيج نحو
الاثنى عشر قصة ، ولكن لم يخلد من تلك الأرقام غير نذر يسير !
ونظمت مسز براوننج شعراً كثيراً حتى خوج الكثير من شعرها خلوا من روح الشعر وحرارته
وامتزجت بعض سطورها الجميلة بأخرى سخيصة ولو أنها تأنت ونظمت القليل المتقن بدلا من
الكثير المهمل لآتى شعرها حلواً رائعاً ..

واليك مدام ده سمنية أيضاً فأنها لصلتها بمحاشية لويس الرابع عشر كانت تقف على الكثير من
خفايا البلاط الملكي ، وكانت ترسل ابنتها يوماً بيوم ساردة لها أهم الاخبار وأتق الحوادث ، كما
أنها كانت تقيد كل يوم ما يصل اليها من الحوادث السياسية والعسكرية والتمثيلية حتى أنباء الزواج
والولادة والدخول في الدير ! وهى الكاتبة البارة التى تقول « عندما أبدأ الكتابة لأعرف متى
أنتهى فلا أدري إذا كان خطابي سيأتى طويلاً أم قصيراً فأنى أكتب مادام قلبي يسره ذلك فهو
الذى يسيطر على كل شيء » ١

وظاهرة أخرى هى طراوة الأسلوب ولبونته فى أدب المرأة التى لا تقلد الرجل ، فلا يخرج أدبها
مثل شعر الخنساء . ومثل تلك المرأة التى تترك نفسها على سجيته وتسير وفق الهامها يأتى أسلوبها
مؤنناً ! بل كما قال أحد كبار الأدباء يصف أسلوب كاتبة شهيرة بمصر « انه أسلوب طرى مثل جسم
المرأة » ١ ولكن بعضهن كتب بأسلوب بسيط واضح مثل جين أوستن والشاعرة هيمانز ولو بدت فيه
مظاهر الانوثة !

وقد قال بشار في هذا المعنى : « لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه » !!
 وتميل المرأة إلى تأليف القصص والروايات أكثر من أى نوع آخر من أنواع الأدب ، كما أنها
 تحب في حياتها اليومية سماع القصص ومطالعها بشغف ! فتتهز نفسها بأنباء الحب ويمتلي قلبها
 إعجاباً بأدوار البطولة وعظفاً على أحاديث الأشقياء وتذرف عينيها الدموع السخينة عند انتحار عشيق
 أو موت طفل أو كلب جميل ! وفي هذا الشغف بالأدب الخيالي ما نراه من الرواج العظيم للروايات
 عند الجنس اللطيف اللاتي يهمن بالخيال ويهربن من الحقائق !!
 ولقد قامت شهرة جل الكتابات على تأليف القصة وظهر في العصر الفكتوري منهن طائفة
 كبيرة مثل شارلوت برونتي التي اشتهرت برواية « جون أير » خاصة ، وماريان ايفانز « جورج
 اليوت » أكبر الروائيات الانجليزيات التي اشتهرت بروايات آدم بيد ورومولا وقصة يوبال . .
 كما قامت أيضاً شهرة مدام جرمين اكرمان ، وجرازا ديليدا ، وعشرات غيرها في عصرنا على
 تأليف الروايات . .

والظاهرة الأخيرة ، التي نحمدها للسراة في كتابتها ، هي قوة الملاحظة الغريزية ودقة الوصف
 في النوع الأنثوي ، ولقد قامت شهرة جين أوستن خاصة على نقد ووصف الخلق ، وكتبت ماريان
 ايفانز معظم رواياتها معتمدة على ملاحظة مناظر بلدتها واروكشير بانجلترا وأخلاق سكانها. وصورت
 أباهما في قصتي آدم بيد وكالب جارت ، وأبدت قوة ملاحظة عجيبة في نقد الحياة العادية ونظامها
 المؤلف ، فصورت الحياة على لوحة كبيرة يتجلى فيها كثيرا من الخفايا والدقائق كما نرى في قصتها
 « سيلاس مارنر » . وصورت الحياة الانجليزية الحشنة والمعيشة الريفية التي لا تعرف تمويه المدنية
 في رواية آدم بيد . كما صورت في قصتها « رامولا » الشهيرة مناظر ايطاليا في عهد سافونا رولا ،
 ونقدت في روايتها « دانييل ديروند » حياة الأغنياء والعلماء ، ولو لم توفق فيها كثيراً . .
 وكذلك ماريادجورث التي صورت في قصصها مناظر ايرلندا الطبيعية وعادات الايرلنديين
 مواطنيها بل لقد حشرت فيها أيضاً وقائع حقيقية حدثت في أيامها . .

وكذلك قامت شارلوت برونت بتصوير مناظر يوركشير التي حولها في قصصها . .
 وأكثر كتابات جرازا ديليدا وصف لأهل وطنها سردينيا . وقد كانت تعيش بين القرويين
 ورعاة الغنم فصورت حياتهم أبداع تصوير حتى لفتت برواياتها الام ، والرياح ، والغاب ، والرماد ،
 أنظار العالم إلى سردينيا وأهلها . .

وصورت مدام ده ستايل مناظر ايطاليا في قصتها كورين عن شاعرة تسير مع نبيل انجليزي في أنحاء
 ايطاليا وروما ، فتألفت نظره إلى الرسوم والنقوش والابنية والتذكارات التاريخية في الاماكن التي يمران بها
 وكل ذلك مبني على قوة الملاحظة وملكة النقد الغريزيتين في النساء فيستخدمانهما في قصصهن
 العديدة التي هي أهم أعمالهن الادبية . .

في الادب الهندي

إذا ذكر الادب الهندي والثقافة الهندية تواردت إلى الذهن تلك الكتب القديمة التي أثرت في حياة الهند وأدب الهنود . وتكتظ حول الهيكل أسماء كتب الفيدا ، واليوانيشاد ، والراذنيستا والنيبلنجنلند ، وقصتي المهاباراتا والشا كونتالا ، وغيرها من الكتب والقصص القديمة الهندية كما تحضر إلى الذهن أسماء الشعراء كاليداسا وبهاهابوتي وكاير وتاجور ، وأسماء قديسي الهند مثل بوذه وبنجنالي وكرشنا مورتى وغاندي وغيرهم .

فإذا ما تصفحنا إحدى أسفار الهند الدينية أو الشعرية أو الفلسفية أخذنا بون واضح يميز ذلك الادب الهندي عن آداب الشعوب والأمم . فنحن إذا قرأنا شطراً من الادب اليوناني القديم رأيناه يمجّد الصفات والاخلاق البشرية النبيلة ويرفع أبطال البشر إلى مصاف الآلهة ، فهو أدب الانسانية في قوتها وضعفها . وإذا عدنا إلى الادب اللاتيني رأيناه يصور الضعف البشري وعجزه أمام القضاء والقدر . وإذا انتقلنا فجأة إلى الادب العصري في مختلف لغاته وجدناه يهتم بتصوير العواطف البشرية والميول النفسانية ومشاكل المجتمع الحاضر . حتى إذا مرجعنا إلى أدب الهند ألقيناه يدور حول محور الروح ، الروح فيه أعمق وأعظم مافي الوجود ، بالروح والتجرد المادي وقتل الميول والاحساسات الجسدية نندمج في الاله ونكشف عن الحقيقة ونحصل على السعادة المطلقة . فالادب الهندي بتصوفه وعمقه أكثر الادب روحانية وأعمقها غوراً وأشدّها رهبة . والهنود كما وصفهم تاجور قوم تتجلى فيهم ميزتان كبيرتان : الفلسفة والشعر ، بطبيعته نشأتهم ومذاهبهم لانهم يؤلهون الحياة في الانسان والحيوان والنبات والحياة عندهم مقدسة أينما وجدت »

وهذه الروحانية العميقة التي تصبغ الادب الهندي بتلك الصبغة ، راجعة إلى تأثير أدباء الهند وفلاسفتها بالتعاليم الدينية والصوفية التي سطرت في كتبهم المقدسة وعلى رأسها كتب الفيدا الاربعة التي يعتبر كل منها في ذاته فرعاً باسقا في دوحة الادب الهندي . وأهم هذه الكتب هو كتاب « الريج فيدا » أي معرفة الاشياء المقدسة ومدحها ، وقد كتب قبل هوميروس ويشمل أكثر من ألف أنشودة دينية ، في أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر منظومة باللغة السنسكريتية ، بعضها يناجي الالهة القديمة ، والبعض ينص على مذهب ألوهية الكون ووحدته وأخرى أناشيد تمثل قصصاً خرافية وأساطير وأخرى تناجي آلهة الذبائح . وكل هذه الالهة هي شخصيات الألوهية لقوى الطبيعة ومظاهرها أو رموز للاخلاق المختلفة . وفي هذا الكتاب وصول إلى التوحيد كما تنص إحدى الاناشيد : « في البدء لم يكن شيء ولا شيء ، لا فضاء ولا سماء فمن الذي ستر الاشياء

وأين كانت وفي عناية من وماذا كان البحر والعمق الذي لا يسبره احد ؟ لم يكن في ذلك الزمن فناء ولا خلود ولا ليل ولا نهار إلا وجود واحد هو ذلك الذي تنفس من دون الهواء في الحرية، وخارج ذلك الوجود كان لاشيء»

وما تبقى من كتب الفيدا وهي « أثار فيدا » أي فيدا السحر والتعزيم ، و« تساما فيدا » أي فيدا التراتيل التي تتلى عند تقديم شراب السوما المقدس و « ياجور فيدا » أي فيدا القرايين . فكلها تتضمن أناشيد منظومة وصلوات للذبايح وللحفلات الدينية وتناجى بعض هذه الأشعار آلهة الليل والفجر والرياح والخمر كما تناجى (اجنى) إله النار وكاهن المنزل و (اندرا) إله ضوء النهار العظيم مثل المحيط العديد الهبات ، فيها أناشيد لطلب الحفظ الحسن والبركة والصحة والثروة وتماويذ لصد الشياطين والأرواح الشريرة ..

وهالك أنشودة إلى « سافيتار » إله الشمس العظيم يقبل مخترقا طريقه في الظلام .. وهي التي يتلوها البراهمة بمثابة « الفاتحة » :

« لمنغن مدأتج سافيتار السماوى المجيد ، ليوح الينا صلاتنا ويرشدنا الى طقوسنا المقدسة . انا نتقدم اليك أيها البهوى فى حاجتنا إلى الطعام والضوء والحياة ونضرع اليك يا إله الخيرات أن تمدنا بمحاجتنا . ان الحكماء والقديسين يعبدونك يا من لا يقارن بك أحد بأغان مقدسة وذبايح تقدمه » وهذه الأنشودة شبيهة بأناشيد اخناتون المصري الذي يناجى بها اتون الآله الممثل بقوة الشمس ولا بد أن الكثير من معتقدات المصريين وأناشيدهم تسرب إلى الهند ..

وبأشعار كتب الفيدا تأثر أدباء الهند كما تأثر أدباء أوروبا بشعر الاغريق واليك شاعرهم كاليداسا تراه يمهّد دراماته المسرحية بهلوات الى شيفا ابى الأدب كما انه نظم مناجاة لفشنو وأخرى لبراهما .. ولم تخل أدبيات الهند من تلك النزعة الدينية الشعرية التي تأثرت بالتعاليم البوذية والسنخيامية والفشنوية واليوجا ..

إلا أن النزعة الدينية كثيراً ما تضعف فى القصص المسرحية التي تدور حول الحب وفى ذلك يقول الاستاذ ريدر : « للدرامة الهندية ذاتية بارزة إلا أنها تقرب من المسرح الاوروبى الحديث أكثر مما تشبه الدرامات الاغريقية القديمة لأن القصص المسرحية الهندية ماعدا القليل منها ليست لها ميزة دينية وانما هي تختص بالحب بين الرجل والمرأة وقد توجد العناصر التراجيدية فيها إلا أن الخاتمة التراجيدية غير مرغوب فيها لديهم » ..

وإذا رأيت ناحية من الأدب الهندى متأثرة بتعاليم كتب الفيدا، فثمة جانب آخر من ذلك الأدب متأثر بالفلسفة البراهمية التي تعتقد بتعدد الآلهة الخاضعة كلها لثالوث مؤلف من ثلاث

آلهة عظمى يهيمن عليه الروح العام وهي القائلة بتقل الأرواح ، والموهبة بممارسة الخير والفضيلة حتى إذا ما خلعت الروح عنها أثواب الحيولى أمكنها الاتحاد مع براهما . أما النفوس الشريرة فتسوي إلى الجحيم بينما النفوس الوسط بين الخير والشر تتطهر بتقمصها في جسم إنسان أو حيوان جديد .

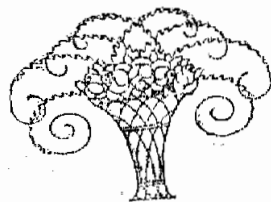
وثمة ناحية ثالثة متأثرة بالهندوية التي تفرعت عن الفيدية كما أن هنالك فريقاً من أدباء الهند يخضعون في تصوفهم لتعاليم بوذه الذي يوصى بانكار الذات وبالأخاء والمساواة والتسامح . .

وكان لكتاب « المهابهاراتا » الذي فصل فيه النبي « بقينجالي » مذهب الصوفي أثر آخر . وكذا كتاب اليوبانيشاد الذي تأثر به تاجور ، وهو من أقدم كتب الهندو الفلسفية وهو يبحث على التجرد من المظاهر الحيوية ليندمج الانسان في براهما وتفتى شخصيته في جوهره . ونرى تاجور في كتابه « سادهاانا » يلخص تعاليم اليوبانيشاد ويقربها إلى القارئ العصري ليفهم تلك الآراء الهندية القديمة في الفرد والكون وشعور النفس ومسألة الشر والتحقيق في الحب والجمال . كما نراه في كتابه « جيتنجالي وجنى الثمر » يناجى ربه بمزامير صوفية على طريقة أسلافه الهندو . .

يقول الشاعر الانجليزى بيتز : « نحن نحارب ونجمع مالا ونملا رؤوسنا بالسياسيات وكل ماهو كئيب في فعله بينما مستر تاجور مثل المدنية الهندية نفسها قانع باكتشاف النفس ومستسلم لذاتيتها » . .

ولعل أوضح ميزات الأدب الهندى تلك الصبغة القومية الهندية التي تميزه عن باقى الآداب ، وانك اذا نقلت آداب الشعوب المتباينة إلى مختلف اللغات فقدت كثيراً من ذاتيتها وشاعت في الأدب العالمى ، أما الأدب الهندى فانه يقف بين مختلف الآداب متميزاً بنكهته الهندية الصوفية ، فاذا ما ترجم إلى اللغات الاجنبية ظل هندياً له أسماء الهندو ودياناتهم وفلسفاتهم وعاداتهم ووصف بلادهم الفسيحة لأرجاء ووصف حبهم الشعري وغزلهم اللطيف الذى ينبع من وجدان شرقى وروحانية عميقة . .

فنحن بدراستنا الأدب الهندى قديمه وحديثه انما لغوص فى أعماق الروح ونقترب من سرها ونحس برهبتها ، كما تقترب من أمنا الطبيعة ونشعر أننا أجزاء منها ، فهى لم تخلق لنحاربها ونسيطر عليها ونسحقها ، بل لنكشف عن أسرارها ونتعلم منها ونندمج فيها ونعاين فيها صور الآله الأعظم الذى يتجلى فى كل ذرة من ذراتها . .



ساعة مع بوته

في القرن الخامس قبل الميلاد ، ذلك القرن الخصب الذي ظهر فيه عدد من أعظم الشخصيات ، كسقراط وأفلاطون وبركليس وفدياس وأوريبيدس وسفكليس وهيرودوت وغيرهم ، وفيه ظهرت أعظم المؤلفات وأبدع الهياكل والتماثيل . في هذا القرن ظهر أيضا في الهند نبي يدين اليوم بمذهبه خمسمائة مليون من بني الانسان ، وسواء أكانوا يقبعون حقا تعاليمه الأصلية أو أنهم شوهوها وألقوا فوقها أكاداسا من الخرافات والتخيلات فان تعاليم ذلك النبي المستنير مازالت تحت تلك الأكاداس درة لامعة ..

وكما حاك الخيال حول تلك التعاليم السامية سدولا كشيقة ، كذلك حاك الشعر حول حياة غوتاما البوذه فسيجبا فضفاضا من الأساطير والمعجزات والأخيلة ، مما دعا البعض إلى انكار تلك الحياة وظنها صورة من صنع الخيال !

ولكن الحقيقة أن وراء تلك الأساطير والخرافات أساسا من الصدق ، وأن الفلاسفة البوذية القائمة على أسس من الاخلاق النبيلة لم تولد من خرافة . وكان بوذه كثيره من العظماء والمشاهير الذين مرت عليهم أزمنة سعيدة ، عرضة للتخيلات المغرمة بالمبالغات والأوهام .. ويمكننا أن نستخلص حياة غوتامه من بين الأساطير وأن نزيل عنها ماعلق بها من خرافات ، ونصورها الصورة الموجزة التالية :

كان الراجا « سدهودانا » حاكما على قبيلة السكياس بناحية « كايلافتو » الواقعة على نهر كوهونا على بعد مائة ميل من مدينة بنارس وخمسين ميلا من سفوح الهيمالايا .. وعلى مقربة من تلك الناحية كانت تقيم قبيلة السكوليين على رأسها أمير له ابنتان تزوج منهما معا أمير السكياس السالف الذكر ، ولكنه لم يرزق منهما ولدا حتى بلغت كبراهما الخامسة والأربعين من العمر فرزقت ابنا ..

ولما حان وقت ولادتها رحلت كعادة قومها لتلد في بيت والديها ، ولكنها اضطرت في الطريق إلى ولادة ابنها في ظلال أشجار احدى الحدائق الغناء . فحملوا الأم وطفلها إلى بيت زوجها حيث ماتت بعد سبعة أيام ، فكفلته خالته ، زوج أبيه ..

وهنا تسهب الأساطير فيما حدث وقت ولادة هذا الطفل — بوذه المستقبل — من آيات ومعجزات ، وكيف غيرت الطبيعة مجراها لتظل مهد المخلص وكيف أتى الحكماء من بعيد ليقدموا فروض التقديس للمولود العظيم ..

وسمى المولود « سدهارثا » الذي معناه « من أتم غايته » ثم دعى فيما بعد باسم أسرته « غوتاما » . أما البوذيون الأتقياء فلا يدعونه بهذا الاسم مجردا ، بل يلقبونه بأحدى الأسماء الحسنى المديدة ، مثل أسد سبط سكياس ، والسعيد ، والمبارك ، وسيد العالم ، وملك الحق ، وغيرها . ولما بلغ غوتاما التاسعة عشرة زوجه من إحدى قريباته من أسرة أمير السكوليين ، وكانت حياته في هذا الحين مكتنفة بالبذخ وصرح الشباب . فلم يرق ذلك في أعين ذويه وشكوا لآبيه الرجا أن هذا الابن الذي سيصبح يوما زعيمهم وقائدهم في الحرب لا يتهيأ للرئاسة المستقبلية ، بل يلهمو ويمرح .

وتقول الاساطير أن غوتاما حين سمع بذلك عين يوماً ينازل فيه أتوياءهم وينظر حكامهم ، وأثبت لهم أنه أجدر بتلك الزعامة مما كانوا يظنون . وقد حاك الشعر والخيال من هذا الحادث صفحات طوالا عما أتاه البوذه في هذا الحفل من معجزات . .

وهنا يفقد التاريخ عشر سنوات من حياة غوتاما ، والعجب كيف اتفقت تلك التخييلات الشعرية الخصبية على إهمال هذه الفترة الطويلة من حياة كل دقيقة فيها مفعمة بالآيات . . وإذا بغوتاما شاب في التاسعة والعشرين وهي للسنة التي بدأ فيها مرحلته في البحث وراء الحقيقة و « النروانة » . .

ويعزون هذا الانقلاب العظيم الذي حدث في حياة غوتاما وقتئذ أنه كان في يوم من أيام هذه السنة راكبا يتنزه مع خادمه « تشانا » فرأى شيخا مهودا فتأمله . وفي يوم آخر صادف أنسانا موبوءا قرئى له . وفي آخر وقعت عينه على جثة مشوهة لأنسان ميت ففكر في مصير الإنسان ، وفي مرة رابعة قابل ناسكا متقشفا يمشي بهدوء ووقار فسأل خادمه عنه فقص له هذا شيئا عن حياة النساك ومرامهم وخلقهم . .

وكما تحرك مثل هذه المشاهد أى عقل حساس فتعمله على التفكير في الحياة البشرية ومصيرها ، وتؤدي به إلى الحنين والرغبة في حياة تشملها الحرية الروحية والسلام النفساني والطمأنينة القلبية ، هكذا تحركت في ذهن غوتاما عوامل جديدة عميقة . .

يشب الإنسان فلا يتحرر من الوهم بل يقضى حياته في دائرة من الرغبات والهموم متشوقا إلى أشياء لا تجلب له المعادة الموهومة حين يحوزها ، بل تجلب له رغبات وهو ما جديدة . وهؤلاء الذين يدفعهم طموحهم إلى مقاصد مالية يسرون وراء الغرور ويعرضون أنفسهم لآحزان وخيبة مرة . .

في حياة تكتنفها الراحة والترف والملل شعر غوتاما ذو البصيرة النيرة ، بحاجة نفسية مبهمة

تتلاشى أمامها كل زخارف الحياة وأرباحها وغرورها. «الولادة والأضيق والمرض والموت والتعلق بأشياء غير مرضية والانفصال عن أشياء سارة والرغبة المستعصية في الامتلاك ، كلها حالات يملؤها الشقاء والحزن »

وأخذت روح غوتاما تتمرد على تفاصيل الحياة اليومية . وبدأ يفكر في غرور الحياة ويشفق على هموم الآخرين ويتعطش إلى فهم أغاز الحياة والموت ، وفي هذه العاصفة النفسانية تراءت له حياة الناسك الهادئة الحرة كشفق للسلام وانكار الذات والتفرغ للتأملات الجدية المؤدية الى ادراك أسرار الوجود . .

وأخذ هذا الشعاع السماوي ينير لغوتامه طريقه الروحي ، وأنه ذات يوم بهم بالعودة من نزته إلى بيته إذ أتاه بشير ينبئ أن زوجته ولدت له ابنا فقال : « وهذا قيد جديد قوي يجب أن أتحرر منه » فهو في رغبته في الحرية الروحية وجد نفسه يزداد قيودا أرضية فعزم على الخلاص وعاد إلى بيته مفكرا حزينا ولم يلتفت إلى مظاهر التهليل والفرح التي استقبله بها الشعب . .

وفي منتصف تلك الليلة بعث خادمه ليعده له جواده ، ثم سار نحو غرفة زوجته ووقف عند الباب ينظر إليها وهي نائمة بين الأزهار وقد وضعت يدها على رأس طفلها . ورغب غوتاما ان يودعها ويودع ولده ، ولكنه خشى أن تستيقظ فترده عن قصده . وتركهما معلا النفس بالعودة إليهما بعد أن يصير بوذه أي « مستنيرا » فيعود إليهما لا كزوج وأب فقط بل كعلم ومخلص أيضا . . وكانت احدي ليالى يوليه والبدر ساطع في سمائه إذ خرج غوتامه من داره تاركا وراءه وطنه وبيته وزوجه وولده غير مبال بالثروة والمجد والزعامة . . خرج إلى البرية فقيرا شريفا ليبحث وراء الحقيقة والسعادة الروحية . .

وهنا تصف الأساطير كيف اعترض الشيطان طريقه ليجربه ووعدده ماسكا دنيويا على قارات الأرض إن هو كف عن غرضه وعاد إلى بيته . ولكن غوتاما لم يذعن فرأى الشيطان أن يتبعه ويحاربه حتى يغلبه يوما على أمره . .

وفي تلك الليلة ركب مسافة طويلة حتى وصل إلى شاطئ نهر « أنوما » فترجل وسل سيفه وقص غداثر شعره ، ونزع عنه حليته وجواهره وملابسه ، وأعطاهما جميعا إلى خادمه ليعود بها الى داره . .

ثم لبس ملابس الفقراء وتابع مسيره وحده لا يملك شيئا من عظام العالم وقضى سبعة الأيام الاولى وحيدا في غابة من أشجار المانجو . ثم سار نحو مدينة « راجا جريها » بالوادي الشرقى من نهر السكنج . ويحيط بهذا الوادي الحبيب خمسة تلال تتفرع من جبال « فندهيا » وكان

في هذه التلال كهوف يسكنها جماعة من الرهبان البراهمة المنقطعين إلى عبادتهم وتأملاتهم . فتعبد غوتاما أحدهم وتعلم له ولكنه لم يقتنع بطريقته ، فتأمل الآخر وتعلم منه ما تقولاه الفلسفة الهندوكية عن هذا العالم والعالم الآخر ..

وقد كان البراهمة قبل بوذه بأزمان طويلة قد التفتوا إلى أعماق علم الكائنات وحقيقتها وكذا إلى علم الأخلاق والفلسفة الأدبية وعندهم تعلم بودها ، وبذلك اشتقت البوذية عن الهندوكية التي سبقتها بعدة قرون ، ولم يأت البوذه لينقض ديانة أسلافه الهندوكيين بل ليجدها ويحسنها وما جاء لينقض الناموس بل ليكمله ..

وبعد أن درس بوذه على هؤلاء المعلمين البراهمة لم تقتنع نفسه المتعطشة إلى الكثير فتركهم وتغلغل في غابات أورو فيلا حيث قضى ست سنوات مع خمس من تلاميذه وأخذ في تعذيب نفسه بالصيام والحرمات والتقصيف حتى هزل جسمه وصار كالخيال . ولكنه كان كلما توغل في التفكير وامتنحان النفس كلما شعر أنه مازال بعيداً عن السلام العقلي واليقين الذي ينشده ، وخشى أن تضيع جهوده ويموت على طريق خاطيء وبدأ يحس بالفشل ..

وكان يسير على مهل مفكراً فترنح وسقط على الأرض وظن تلاميذه أنه مات ، ولكنه أفاق ويئس من مواصلة تعذيبه لنفسه ، وبدأ يتناول الطعام بنظام فلما رأى تلاميذه عدوله عن تقشفه ونذوره احتقروه وتركوه وحده يتحمل في حزن ويأس مرارة الخيبة ..

في تلك اللحظة التي كان فيها غوتاما في أمس الحاجة إلى الرحمة وإلى ثقة تلاميذه ظل وحده جالساً وسط العاصفة النفسانية الهائلة وقد تجمعت حوله شياطين الشر ساخرة وأظلم أمامه العالم ..

التقصيف والعذاب والحرمات لم تثمر في نفسه سلاماً ولا يقيناً ، والفلسفة التي تعلمها زادتته شكوكاً وحيرة ، والتأمل والدرس وانكار الذات لم تحقق مطمحه ، وأمام شكوكه أخذت صور بيته المفرحة التي نبذها وراءه تتراءى أمامه ، صور الحمد والحب والثروة والقوة بدأت تسطع أمامه بألوان جذابة . وكلها في متناول يده ، وأن هو عاد إلى وطنه استقبله قومه بالفرح والترحيب ..

ولكن أتضيع كل جهوده سدى ؟ أمكذا يصبح فريسة لليأس وسخريه للشيطان ؟
وقد ظلت المعركة ناشبة في نفسه من الصباح حتى مغرب الشمس وما كاد ينصرم النهار حتى أخذت شكوكه تضمحل وأخذ السلام يملأ عقله والحببة تفرغ قلبه وأصبح بوذه : « مستنيرا » ..
ثم نهض من مجلسه تحت شجرة الحكمة وسار متجهاً نحو بنارس لينير قلوب أولئك المكتنفين بالظلام وليفتح باب الروانة للناس . فقد وجد طريق الخلاص وسيرى الناس كيف يهربون من شرور

الحياة ويسيرون في « الطريق الوسطى » ذات الثماني شعب : الايمان الحق ، والغاية الحق ، والكلام الحق ، والأعمال الصالحة ، والنمط الصالح للعيش ، والجهد الصالح والتفكير الصالح والتأمل الصالح وأخذ يعلم الناس مبادئه بأسلوب سهل خال من تعقيدات البراهمة ، ولم يتميز في تعليمه بين الرجل والمرأة والرفيع والوضيع والعالم والجاهل ، وكان يوصي الجميع بهذيب النفس وعمل الخير وممارسة الفضيلة والطهارة والرحمة . .

« إن الثورة الحواسية التي تسبب الارتباك . وشهوات الحياة التي تخلق رغبات ملحة والرغبة في حياة مستقبلية وحب الدنيا الحاضرة كل هذا أصل الشقاء ولا يزول الحزن والشقاء إلا إذا أطفئ هذا التعطش الحواسي وهدمت الشهوات ، فمن يتغلب على هذا التعطش الحقيقير تزول عنه الآلام . هناك طريق نبيل هو الحياة الماضية المنسكرة فادخل هذا « الطريق » وضع نهاية لهذا الحزن » .

وبعد خمسة أشهر منذ خروج البوذة إلى العالم للإرشاد ، جمع تلاميذه وقد بلغوا الستين تابعا وأرسلهم إلى مختلف الجهات ليعلموا الناس مبادئه الجديدة وشرع يتجول ليعلم الناس ويرشدهم ثم ينفرد بتعليم أخصائه أثناء الشهور الممطرة .

ثم سار نحو مملكة ماجادها في الوادي الشرقي للسكنج فاستقبله أميرها بالترحيب ، واعترف هو وشعبه مذهبه فأخذ غوتامه يضع أسس ديانتهم ولم تخل هذه الديانة الجديدة من مقاومة وانتقاد وسخرية . .

وقد وصلت أنباء البوذية الجديدة إلى « كايلافاستو » وطن غوتامه فأرسل إليه أبوه يدعو إلى رؤيته قبل موته . فرحل إلى وطنه القديم ووقف في فابة خارج المدينة وحوله عدد من تلاميذه المتسولين . فخرج إليه أبوه وأقاربه ولسكنهم لما رأوه وأتباعه يشحذون خبزهم طادوا أدراجهم ساخطين وفي اليوم التالي دخل مع تلاميذه إلى المدينة وبدأوا يشحذون طعاما فلما سمع الأمير أن ابنه يتسول في المدينة خرج إليه مسرعاً وسأله لماذا يتسول ويشين أسرته بهذا العمل؟ فأجابه غوتاما أن هذه شيمة آبائه فأجابه أبوه المهرجا أن أباءه ملوك لا يعرفون التسول . فقال له غوتاما أنت وأسرتك من نسل الملوك أما أنا فسليل البوذيين القدماء الذين كانوا يشحذون طعامهم ، وأنا قد وجدت كتمرا خفياً وعلى أن أقدم لوالدي أتمن لآله وهي أن تحبى الحياة البسيطة الصالحة فمن يتبع الفضيلة يلقي السعادة في هذا العالم وفي الحياة المقبلة . .

فلم يحب أبوه سدهودانا وقاده إلى قصره حيث أكرمه ذووه والخدم ، ثم دخل إلى زوجته التي كانت في انتظاره فلما رآته حلق الرأس والوجه في أسمال النساء الصغراء خرت عند قدميه باكية . .

ونام غوتامه على حصير وتناول وجبة واحدة من الطعام في اليوم ، وسرعان ما اعتنقت زوجته وابنه وأخوه البوذية ، ثم دخل في مذهبه عدد كبير من أقاربه وأتباعه . .
ورحل البوذه عن وطنه وتجهول في أنحاء الهند معلماً وعرشداً ثم سمع بمرغن أبيه فعاد وحضر موته ثم رحل إلى تخوم الله آباد وصنع معجزات الأنبياء ودخل الناس في دينه أفواجا ، وعمل نظاما خاصا بالنساء البوذيات وحاول بعض أتباعه ان يبتدعوا مذاهب خاصة متفرعة من البوذية ، ولكن غوتامه كان دائما يوصي بالحياة الساذجة البسيطة والتعاليم الخالية من التعقيدات والقيود والطقوس ويحثهم على الأخاء والمساواة . .

ولما شعر بدنو أجله جمع من كانوا حوله من أتباعه وخطبهم مودعا ومن هذه الخطبة قوله :
« أيها الشحاذون احفظوا جيداً ومارسوا وتمموا وأذيعوا الناموس الذي أظهرته لكم حتى تدوم ديانتي طويلا من أجل سعادة الجموع وخيرهم . . . بعد ثلاثة شهور سيرحل « التناجاتا » (أي الذي مثل غيره) . أن أجلى قد دنا وحياتي قد انقضت . وسأترككم وأرحل معتمداً على نفسي فقط فسكونوا جادين ومفكرين وطامحين وراقبوا قلوبكم بعزيمة ثابتة . ومن تمسك بلا كل بهذا الناموس وهذا التعليم فانه سيجتاز محيط الحياة ولا يحزن » . .

ورحل غوتاما إلى مدينة « كوسيناجارا » واستراح بجوار الهند ثم أوصى من حوله بنصائحه الأخيرة وأسلم الروح . وكانت وفاته حوالي عام ٤١٢ ق . م وهو في الثمانين من عمره بعد أن خلف دينا عظيما يتبعه الآن خمسمائة مليون من بني البشر . .

مصادر هذا الموضوع :

١ — البوذية : حياة وتعاليم جوتاما تأليف رايس داغيد

٢ — قصة البوذة . لمستر بيل

٣ — مقدمة تاريخ البوذية الهندية . ليوجين بورنوف

شاعر مع طليعته

شاعر هندي

ولد كاليداسا في يوم غير معروف من أيام القرن الخامس للميلاد ، يوم كانت رومة تن تحت نير البربر وأوروبا لا تدرك للمدينة الحقيقية معنى ، وبلاد العرب تتخبط في جاهليتها قبيل الاسلام . وقيل ان مدينة « أوجيان » إحدى مدائن الهند ذات التاريخ المجيد كانت مسقط رأس الشاعر لأنه خلف لنا أناشيد مديحتها وطيب ذكرها ، وعرفنا أنه قضى في تلك البلدة شطراً كبيراً من حياته على الرغم من كثير تجواله في ربوع الهند . .

فسكانت الهند ، منذ خمسة عشر قرناً تغيرت فيها معالم الأرض ، تطرب لشعره ، وتلهج بذكره حتى تضاءلت في نوره أضواء غيره من فحول الأدب والعلم ممن كتبوا مثله باللغة السانسكريتية . وسرت تلك العصور متتالية وما فتئت أندية الأدب في الشرق والغرب تذكر كاليداسا وتعجب يشعره ، بعد أن رفعت منزلته إلى سماء هو ميروس وفرجيل وصفوقليز . ووضعت قصته المسرحية « ساكونتالا » بجوار الألياذة والمهابهاراته والراماينة . وهب نفر من كتّاب الغرب فترجموا مؤلفاته وحللوا كتاباته ووصفوا حياته . كما أخذت دوائر المعارف على عاتقها سرد كل ما يتعلق بتاريخ ذلك الشاعر وفنه ، وكان بين أولئك المترجمين الأوربيين من قام بذلك الواجب منذ قرن ونصف من الزمان ، وكان بين أهم الغرب من منلت على مسارحها رواياته منذ عشرات السنين . .

غير أن أولئك الباحثين والمترجمين لم يسعدهم الحظ بالعمور على تاريخ حياته ، كما وقفوا إلى العصور على ديوانه . وآلمهم ذلك فقاموا ينعتون الهندود بالاهمال لكنهم تناسوا أن حياة شكسبير وهو ميروس وغيرهما لم تزل مكتنفة بالغموض محوطة بالشكوك . وقرأوا مؤلفات كاليداسا علمهم يعثرون فيها على شيء من خفايا حياته لكنهم سرعان ما رأوا أن ذلك الشاعر كان كثير التواضع نادر الحديث عن نفسه ، بل انه لم يتحدث بضمير المتكلم ليذكر شيئاً عن شخصه غير صرتين أو ثلاث . .

ومثل كل عظيم دب على هذه الأرض وعرف من أمر حياته كثيراً أو قليلاً ، فتخيل له الأفاضل وتبتدع حوله الأساطير ، وتنسب إليه الكلمات والمؤلفات ، كذلك حملت إلينا العصور من أعماق الهند عدة قصص عن حياة كاليداسا ، لاسيما وقد جهل الناس أمرها ، فجاء في إحداها أن أميرة بنارس التي اشتهرت بالحكمة والشعر رآته فسمهرها جماله ورغبت في الزواج منه رغم فقره وكبريائها وكان لم يزل شاباً لم ينل من الحكمة والشعر قسطاً وافراً ، فأشارت عليه أن يضرع إلى الآلهة

« كالي » تهبه الحكمة والشعر وسرعان ما استجيب صلاته وبات يسعى « كاليداسا » أي عابد « كالي » ..

وبعض تلك الأساطير مسهب جذاب غير أنه في حاجة إلى براهين تؤيده ومع ذلك فقد اتفقت تلك القصص على أن كاليداسا الشاعر الحكيم كان جميل الصورة فاضلاً . ولعل جماله كان سبباً قوياً يفسر إعجاب الهنود وغير الهنود ومحبتهم له . والجمال هبة عظيمة لا سيما إذا كانت في شاعر يتغنى كل حياته بالجمال والاشادة بوصف الجمال . بله أن للجمال الشخصي أثراً عظيماً في فن وحياته ذويه، كما يري مثلاً في شعر ملتون وكيتر ويرون وشلي وأندريه شنييه . .

قال « آرثر ريدر » في مقدمة ترجمته لأشعار كاليداسا :

« يشعر المرء أن كاليداسا كان جميلاً من الوجهة الجسدية ، والهندي الجميل نموذج حسن للرجولة ، وأن المرء ليدرك أنه أثار فتنة النساء كما فتنه ، وأنه اكتسب محبة الأطفال ، وثقتهم أنه لم يذق لوعة الاحتقار في الحب بل سار بين الرجال والنساء بخطوات ثابتة كأنه إله . . »

وسواء أذهبنا مع القائلين بأهمية الاطلاع على حياة الشاعر قبل تلاوة شعره حتى ندرك المؤثرات والأسباب والنتائج التي خلقت ذلك الشعر ، أو مع الذاهبين بعدم أهمية حياة الشاعر مادامنا نتمتع بشعره ، فإننا وقد جعلنا حياة كاليداسا لا تلقى أمامنا غير الاهتمام بمؤلفاته . فنرى أنه خلف لنا سبعة كتب منها ثلاث قصص تمثيلية هي « مالا فيكا واجنيمترا » أول مؤلفاته و « ساكونتالا » أشهرها وأعظمها ، ثم « ارفاشي » آخرها . وثلاث ملاحم هي « أسرة راغو » و « ميلاد إله الحرب » و « رسول السحاب » وقصيدة وصفية اسمها « الفصول » . .

يقول سيلفان ليفي في كتابه « المسرح الهندي » :

إن اسم كاليداسا يسيطر على دولة الشعر الهندي ويلخص مغزاه بجلاء ، وما فتئت قصصه التمثيلية وملاحمه ذات الحكمة ومرثيته ، تشهد حتى اليوم بمقدرة وسلامة هذا النبوغ الباهر . فوجد فيه الحسن الحظ بين أتباع « ساراسفاتي » إلهة الفصاحة مؤلف فريد تعجب به الهند وتعرفه البشرية . فالتحيز الذي يعظم مولد الساكونتالا في « أوجيان » قد خرج نوره بعد قرون طويلة من أقصى العالم إلى أقصاه ، حينما نقلها « وليم جونز » إلى الغرب . فعين كاليداسا مكانته في هذه القصة الرنانة حيث يلخص كل اسم فيها فترة من الروح البشرية . ومن مجموع تلك الأسماء يتكون تاريخ جدير بأن يسمى بالتاريخ نفسه . .

تقرأ إحدى تلك المؤلفات السبعة فتشعر أنك أمام فن ساحر له نكهة خاصة ، ذلك هو الفن الهندي الممتاز بالعمق والرموز والفلسفة الصوفية . ولا يصدر مثل هذا الفن عن بلد غير هندستان

التي أفلتت الحكماء والمسحاء ، حيث تهمس قوات براهما ، ويشعل السحرة والمجوس نارا تتأجج أمام
الآلهة ، حيث تطلع الشمس بمهرجاناتها فوق الهياكل المكتنزة بالساج والخيزران . . ومن تلك
البيئة المسحورة خرج بهاسا وصوميلا وكافيترا وبهاقاهوتي ، ثم معاصرنا رابندراناث تاغور .
وفي تلك الربوع الشرقية ذات الأحلام والأخيلة قضى كاليداسا فترة حياته الهادئة . وإذا بنفسه
قد تعاملت انعام النظر في حقائق الأشياء ولكنها نظرة الشاعر الحالم الممتليء بالشاعرية الفيضة التي
ترى أن العالم لم يخلق للانسان ولا لنفعه ، وهكذا تناول القلم فدبج تلك المؤلفات لا تتلو منها
صفحة إلا وتمتليء الأذن بالموسيقى التي تتغلغل بالنفوس في عجايل كلها روعة وأسرار وأحلام . .

تغنى كاليداسا بالحب العذري السعيد بين الرجولة السكاملة والأنوثة العذبة ، — الحب السليم
العواقب اندي قد تتخلله مكافآت ومخاطر ، إلا أنه يقتبس إلى بر السعادة والسلام وهو في تقديسه
للحب بمظاهره يعطف على المرأة ويحبها ويرفع من شأنها وهنا شبه آخر بينه وبين مواطنه تاغور —
وأخذ يصورها في قصصه لابسة حلل البطولة والفضيلة . تشعر بالحب وبجلال الحياة مثل الرجل
بل فوق ما يحس به الرجل ثم ينادي قائلاً : « كل أعمال الحياة المقدسة مفروسة في زوجة فاضلة »
ويقول ارثر ريدر في ذلك :

« لا أعرف شاعراً اللهم إلا شكسبير قد أخرج للعالم مجموعة من بطلات النساء المتميزات ،
بطلات صدادقات رقيقات ، جريئات مثل ما أخرج لنا كاليداسا أمثال سيتا وبارفاتي وسا كوتالا . .
وتغنى كاليداسا أيضاً بحمال الأطفال وأحبهم وصور الطفولة بألوان رائعة . .

ولم يقصر كاليداسا غرامه على شطر من العالم دون الآخر بل نراه وقد صور الفصول الستة كما
يعدها الهند ، فأفرد لها قصيدة رائعة بل كتاباً صغيراً شائقاً ثم نراه وقد نبش عن الزهرة الصغيرة
فوصفها وتغزل بها حتى قارنه البعض بالعالم الطبيعي دارون . ثم يعود فيصف لنا بخيال عجيب
وبيان ومهارة صور الأنهار والأشجار والجبال والأمطار والشمس والقمر . .

ويصف لنا جبل الهيمالايا « سقف العالم » في مقطوعاته المنظومة الساسة فيقول :

« ها إله الشمال النائي ذو الصفوف الثلجية الذي يشرف فوق الجبال الأخرى بعظمة ملكية .
وكأنه مقياس عظيم للأرض مطلق من التغيير ، يقبس ما بين البحر الشرقي والبحر الغربي . .
هناك حيث يتفيا أنصاف الآلهة ظلال السحب التي تنطق قممها السفلى . .

فاذا ما أزعجهم المطر المفاجيء الذي يستر وسطه ، التجأوا إلى قمم العالية التي تضيئها
الشمس أبداً . .

حيث تتناثر قشور أشجار البتولا قطعاً وسيوراً ، وتغطفه مع معان الأرض الممزوجة به ،

كأنها كلمات مكتوبة تحت أطراف أنامل رشيقة في رسائل غرامية تبث بها الحسان ..
أما مزاميره فمميقان الخيزران التي تمتلئ برياح المنائر ، التي لا تدرك للراحة معنى كأنها تحاول
أن ترقع بنغماتها مع الأفاقي التي تنسدها الملائكة على قمم الجبل ..
حيث الأعشاب السحرية التي تلمع في الليل كأنها مصابيح لا تحتاج إلى زيت ، وتغلا الكهوف
بضوئها المتلألئ ، وتبعث بأنوارها إلى عشيقات رجال الجبل ..
ويقول في ترانيمه الغرامية :

« نخلت وجنتها وهزل صدرها وكتفها ، تعب وسطها ، وشحب وجهها .. إنها تذوى في سبيل
الحب ، فيأطها من حسناء يرثي لها ، إنها مثل غصن السكرمة الذي يذوى في لفحة الرضاء .. إنه
الحب الذي سبب اللوعة المحرقة ، وأنه الحب الذي يخفف وطأتها ، كأنه المطر الذي يهبط في يوم
أدكن فيغسل الكندر ويبعده .. »
ويصف الصباح بقوله :

« على أشجار « الجوجوب » تندرج قطرات الندى الحبية ، ويستيقظ الطاووس ويترك قش
الكوخ ، ويهب الغزال بقرب المذبح ويتمطى ثم يقفز ليستقبل حياة يوم قشيب »
يقول بانا الهندي : « أين تلك النفس التي لا ترتعش من شعر كاليداسا حينما تواجه تلك السطور
التي لا تحتل رقعتها كأنها لمة من الأزهار الحلوة كالعسل ! »
أنا اعتدنا قراءة الشعر الهندي مترجماً من اللغات الهندية إلى إحدى اللغات الأوروبية ثم إلى
العربية ، وفي هذا النقل الطويل تكون معاني الشعر وموسيقاه قد ضاعت تقريباً ! ولا يتبقى أمامنا
غير فكرة عامة نتخيلها عن الشاعر وأشعاره ..

وهناك في لغات الهند من الاصطلاحات والرموز والألفاظ ما يصعب ترجمته إلى لغات الغرب
نفسها ، ولكن هذا لا يمنع من دراسة الثقافة الهندية وغيرها من الثقافات المستترة لترداد
الصلة بين ثقافات الشعوب المختلفة ويتبادل العطف والفكر بين شعب وآخر ، فتقترب القلوب من
القلوب ، ويبعد بذلك الطريق الذي تتجه فيه مختلف الثقافات نحو ثقافة عالمية واحدة هي ثقافة
النفس البشرية مهما تشكلت بالجنسيات واللغات ..

هذا هو الحلم الذي سيحققه المستقبل ، حلم العالمية والثقافة الانسانية الواحدة التي تميز سكان
هذا الكوكب الأرضي الصغير عن ثقافات الكواكب الأخرى ؟ ! ..



ساعة مع تاجور

أمانت كل من البيئة والوراثة على تشكيل شاعرية تاجور الموهوبة . فقد نشأ من أسرة إنغالية اشتهر أفرادها بالنبوغ والعبقرية ، فكان منهم الفيلسوف والمصور والشاعر والموسيقيار ، وكان جده أميراً وأبوه زعيماً دينياً قيل انه كان يقضى نهاراً في الحديقة غائصاً في التأمل والتفكير . ويحكى عنه أنه كان صرة في فلك نهرى فراق له منظر من صهور الجمال الطبيعي وخاص في تأملاته ثمانى ساعات ! وقد شب تاجور وكل ما حوله فن وأدب ، وكان يري أسرته تقرأ كل يوم في كتاب اليوبانيشاد وغيره ، كما رأى أباه يقضى عمره في العبادة دون أن يهمل واجباته نحو العالم . فأخذ الشاعر يدرس منذ حداثة مذهب الهند الفلسفية ويتنقل بين كتبها ودواوينها القديمة فتأثر بتلك الروحانية التي تفيض بها تلك الكتب ، وهبط عليه وحى الشعر منذ الصبا ، وبدأ يكتب منذ ذلك العهد كثيراً من المواضيع الطبيعية .

ثم اشتهر منذ التاسعة عشرة من عمره يوم كتب قصته الاولى وكانت قطعه المسرحية تمثل منذ صباه على بعض المسارح الهندية ، وترجع مسرحيته الشعرية « شترا » التي استقى حوادثها من كتاب المهاهاراتا القديم ، الى ذلك العهد . وان هى الا صورة ليقظته الروحية الباكرة ووجدانه الفاض بالمشاعر والاحلام . وقد صور فيها الحب العذب بين المرأة والرجل ، وأطلق فيها حسناءه شترا أرق كلم الحب وجعل مسرح ذلك الحب أجمات الهند السكنيفة الأشجار ، وأدخالها المشبكة الغصون ، حيث لا يسمع غير ترانيم الطيور وصرير الجنادب وحيث تنقثر أنوار الربيع على بساط السندس ، وينبج ضوء الفجر فيشرق بنوره الوردى على جبين الحبيب . .

ويسهل تخيله في ذلك العهد الحالم جالساً في حديقة منزله يقضى أوقاتاً هادئة في الدرس ونظم الشعر وقراءة الأشعار الهندية القديمة وكتب الدين والحكمة ، حتى ذاعت أشعاره في ربوع الهند وترنم مواطنوه بأغانيه في أنحاء البلاد . .

ويشب تاجور وتبدل السنون شعره من الغرامى الوجدانى الى الصوفى والدينى ويتقن اللغة الانجليزية ، ويقرأ بها الثقافة الانجليزية والاورية ثم يترجم اليها هو وأصحابه هداً من مؤلفاته ، فتنتشر في ربوع الغرب ويقبل عليها الناس كما يقبلون على واحة نضرة هى واحة الروح وسط صحراء المادية وضجيج الآلات ، ويمنحونه جائزة نوبل في الادب معترفين بأن شعره يتضمن كل مطامح النفس البشرية . ويطلع له بالانجليزية اكثر من عشرين كتاباً سرعان ما ترجمت إلى معظم لغات

الأرض ، وقد طاف تاجور في أنحاء العالم ودرس الحضارة الغربية ولم ينفر منها وكانت خير سفير بين الشرق والغرب . .



هو في شعره رمز الشاعر وهورته ، كما قال اميرسون في شكسبير وذلك بقوة تعبيره وبتعويده حقيقة الأشياء إلى موسيقى وشعر . ولم يبالغ ذلك الهندي القائل أنه يقرأ تاجور كل يوم فتراءة سطر واحد منه تنسي المرء كل مشاق الحياة . .

وشعره الغزلي هو شعر الشباب الوجداني المتغنى بالحب والجمال ، الذي لم يرفض فيه تاجور أن يحسى ويحب الحياة ويحب العالم ويراه ملبئاً بالجمال . وبكلماته : « لقد قبلت هذه الدنيا بعيني وأعضائي ، لقد طويتها في قلبي في طيات لا عدلها . وغمرت نهرها ولياليها بالآفكار . حتى صارت حياتي والعالم جزءاً واحداً . وأنا أحب حياتي لأنني أحب ضوء السماء المنسوج في »

وفي هذا الشعر الوجداني يعبد تاجور الجمال في كل دقائق الكون ويقول . « يحاول لنا الجمال لأنه يرقص على نفس الهزج المبهم الذي ترقص عليه حياتنا » وبصوفية شرقية يندمج في تلك الطبيعة التي يحبها والتي يعتقد أنها لم تخلق لمنفعة الانسان وسيطرته لأن الانسان جزء منها . ويتغنى شاعراً بالكواكب تضيء فيه والدنيا تفيض في حياته كغمر ، والأزهار تينم في جسده ، وكل شباب الأرض والماء يتصاعد في قلبه كبخور ويمس بأنفاس كل الأشياء تعزف على أفكاره كما تعزف على ناي . .

ويتحدث في بعض أشعاره بلسان المرأة التي يحنو عليها ويتوجها بالغار ، وتضحك المرأة في شعره وتبكي ، وتحب وتشقى وتتحد مثله مع الكون وتسلم زمامها إلى قدرة الاله تغمرها بفيضها . هذا إلى أن في نفس تاجور شيئاً من طبيعة الانوثة التي تشف حين يبدو في رفته وعذوبته واستسلامه لقوة الله تحبه وتحتضنه ، وحين يعتلى قلبه بحبة الأطفال محبة شبيهة بحبة الام الرؤوم ، وقد أفرد لهم ديوانه « الهلال » حيث يصور عقلية الطفل الساذجة وأحلامه الملائكية وصلته بالكون . .

وهو في شعره الصوفي ينزع إلى الاسلوب الهندي الديني الذي تأثر به في صباه حين كان يدرس الفيدا واليوبانيشاد وغيرها . .

وهو متدين لكن الدين عنده صوفية خاصة هي دين العباقرة والمفكرين ، فهو يرى الله في كل صور الكون ومظاهره ، كما يراه في العمل لا في صوامع العبادة ، وهو يتصل باله في عبادته للجمال ويرى الفن مقرباً بين الضمير الانساني والله . .

وهو يبشر بالحب العام ويرى أن أول واجبات الألمان أن يحب أخاه ويحب العالم كله ، فيعيش

الجميع في الاخاء عيشة روحية ينسرها الفرح بالحياة النبيلة عنده هي تلك التي يعيش فيها المرء لأجل الآخرين ، الفرح الحقيقي هو في تلك العظمة الصادرة عن ارتباط الانسان بالمجموع وصلته بالكون واندماجه في الاله والطبيعة ..

وهو يرى الدنيا كلها وطنه الجميل وهو لا يزهد في مسراتها البريئة ولا يترفع عن التمتع بثمار الحضارة البشرية ، ويرى الدنيا خيرا وأما الشر فعارض مستمر وضروري فيها . ويرى الله قوة محبوبة تحنو على الكون وتشمله بعظمتها وحنانها فيناجس إليه سكريا لاسيما في ديرانه « جيتنجالي وجني الثمر » ومنها قوله :

لا أدري كيف تشد ياسيدي ، إني ألصقت في ذهول صامت ، ضوء موسيقاك ينير العالم ، أنفاس بحياة موسيقاك تجري من سماء إلى سماء . تجري موسيقاك المقدس يعجز كل العنقبات الصغيرة ويندفع الى الامام . إن قلبي يتوق إلى الاتصال بفنائك ولكنه عبتا ما يبحث مناضلا عن صوت . إني أود الكلام ولكن الكلام لا يصير أغنية فأصرخ مغلوبا على أمرى . آه لقد جعلت قلبي أسيرا في الشرك اللانهائي لموسيقاك ياسيد ..

وقد ذكر مرة في إحدى أحاديثه أنه يرى الدين لوناً من ألوان التعبير الانساني عن العواطف والميول ، وأن هذا اللون متصل بأمزجة الأفراد والأمم ممثل لها ، فمن الثروة الانسانية أن تحتفظ بهذه الألوان التي عبرت بها الأمم والشعوب عن عواطفها وطموحها الى الحق الذي لاحد له . وقال « إنه وإن اختلفت الطرق المؤدية إلى المثل الأعلى فإن ذلك المثل يبقى واحدا وما الاديان المختلفة إلا تلك الطرق ، والخير كل الخير أن تترك للأفراد والأمم الحرية الدينية التي تمكنها من أن تعلن شعورها وطموحها الى المثل الأعلى كما تريد »

* * *

وتاجور روائي كما هو شاعر ومصور وموسيقار ، وقد كتب كثيرا من القصص الصغيرة كما كتب بعض الروايات الكبيرة مثل « الخطام » و « الوطن والعالم » وهو شاعر في رواياته كما هو شاعر في ترانيمه ومحاضراته وأحاديثه ، وقصصه مثل قصائد من الشعر المنشور . وفي رواية الخطام يصور تاجور الحياة الهندية في صورة هادئة وديعة فيها الحب وفيها الرحمة وفيها بقية العواطف البشرية لكنه لا يحلل تلك العواطف على طريقة روائي الغرب بل يدع أعمال أبطال قصصه وأقوالهم تتم عليها . وفي قصة « الوطن والعالم » يصور المهراجا نيخيل الحكيم صورة تمثل الهندي الطيب القلب الذي يصل إلى استقلال بلاده بالحب لا بالانتقام وبصيف الحق لا بصيف القوة . ويشير فيها تاجور الى حركة « السواديش » وهي تلك الحركة التي بدأت اجتماعية ثم اتقالت سياسية وارتبطت

بالروح بمبادئه قاندي ، كما يصور العراك الذي يشب في قلب بيالا زوجة المهرجا بين حب زوجها وحب الزعيم الداهي الى استقلال الهند ، وتصور حتى أنها تسرق من مال بيتها لتعطيه زعماء منها أنها تعد الحركة الوطنية في شخصه ولكنها تندم أخيراً حينما يتبين لها أثره فتعود الى أواصر الزوجية وتعلم أنها لم تكن تحب غير زوجها . .

وتاجور مع حبه لوطنه ودعايته له في كل العالم بما ينشره من مؤلفات ودواوين تترجم إلى جميع اللغات ، يرى أن استقلال بلاده لا يتحقق بالعنف ولا بمقاطعة الحضارة الغربية بل يجب أن يسير سيره الطبيعي فتجتمع كلمة الهنود وينتقون بالحضارة الحديثة التي نتجت عن الجهود البشرية وتطور الانسانية دون التضحية بثقافتهم الهندية وروحهم الشرقي . .

وهو عالمي النزعة وتتجلى هذه النزعة في حبه للعالم أجمع وللانسانية كلها ، وقد تحدث مرة مع وزير زعيم العالمية في هذا العصر ، فكان مما ذكره ومما يكشف عن نزعته قوله : أنه يحتقد أن وحدة الحضارة الانسانية يمكن إيجادها بطريقة أمثل إذا نحن عملنا على أن نصل بين حضارات العالم بروح الزمالة والتعاون بينها . . وقد مضى زمن اللغة التي تعيش في مساحة لا تزيد على خمسة أميال ثم أن المواصلات السريعة تعمل لايجاد لغة عامة ولكن الأرجح أن هذه اللغة العامة لن تطرد اللغات الوطنية . . أننا في حاجة الى سيكولوجية جديدة توافق العصر الحديث وذلك لكي تطابق بين أنفسنا وبين ضرورات المدنية الجديدة وأحوالها . . إنه لما يؤسفنا أن نعتقد في أية أمة أو سلالة أنها ممتازة عن غيرها وأن بها عناصر التفوق كأنها قد حوت محابة الهبة في نظام الخليقة ! .

« * »

ومما فعله تاجور للتقريب بين الشرق والغرب وضعه لكتاب « سادها نا » الذي اقتبس حكمته من اليوبانيشاد وصاغه بأسلوب عصري سهل التناول لذي القارىء الأجنبي الذي لا يستطيع الخوض في أسفار الهند العميقة . ويبحث هذا الكتاب في ثمان مسائل عظمى هي : علاقة الفرد بالكون ، وشعور النفس ، ومسألة الشر ، ومسألة الذات والتحقيق في الحب ، وفي الجمال ، وفي اللانهاية . .

وفيه يقارن بين الحضارتين اليونانية والهندية أو بين الغرب والشرق فيرى أن مدنية اليونان القديمة وهي التي تأثرت بها أوروبا نشأت مثل كل المدينات العصرية بين جدران المدن ، وهذه الجدران ترك أثراً عميقاً في عقليات الناس ، لأنها تخلق مبدأ « فرق تسد » وتولد هادة امتلاك كل ما يقهره وتفصل أحده عن الآخر فتفصل بين أمه وأمة ، وبين معرفة ومعرفة ، وبين الانسان والطبيعة أما في الهند فقد نشأت الحضارة في الغابات ، وأخذت بذلك شكلاً متميزاً عن سواه . لأنها

كانت محوطة بالحياة الطبيعية الواسعة فكان لها الصق الصلات بوجوه تلك الحياة ، وكان لا حتمك المرء بشمو الطبيعة الحى ، أن تحرر عقله من الرغبة فى توسيع ملكه . ولم يكن غرضه الامتلاك بل البحث وراء الحقيقة ، وتوسيع مدركاك ، فشمع أن الحقيقة شاملة وأنه لا توجد عزلة مطلقة فى الوجود وأن الطريق الوحيد للمصقول على الحقيقة هو فى اتصال كياننا بكل الأشياء . .

ويرى تاجور أن الغرب يفتخر بزعمه أنه يخضع الطبيعة ويسيطر عليها . وهذا ما نشأ عن التربية العقلية بين جدران المدن . لأن فى المدن يوجه الانسان انتباهه إلى حياته الخاصة وإلى أعماله . وهذا يسبب انفصالا بينه وبين الكون الذي يعيش فيه ، أما فى الهند فأنها مزجت العالم مع الانسان كحقيقة واحدة عظيمة ، ووجهت التفاتها إلى الانسجام الذي ينشأ بين الدائمة والعالمية وشعرت انه لا يمكننا الاتصال بالكون إذا كان غريبا عنا

ثم ضرب تاجور مثالا قال : انه يمكننا أن ننظر إلى طريق من وجهتين مختلفتين . فقد ننظر إليه كفواصل بيننا وبين المقصد الذي نريده وفى هذه الحال نحسب كل خطوة نخطوها فى مسيرنا فيه كشئ ربحناه بالقوة من ذلك العائق . وقد ننظر إليه كوسيلة تؤدي بنا إلى غايتنا وعلى ذلك تكون جزءا من تلك الغاية ومبدأ لذلك المقصد .

فالنظرة الأخيرة هى نظرة الهند بالنسبة إلى الطبيعة واتحادنا بها واتحاد أفكارنا مع الأشياء وتناسب قوتنا مع القوة الكونية .

ويرى تاجور أن لكل شئ معنى روحياً فالارض والماء والنور والفاكهة والازهار ليست ظواهر مجسمة نستخرجها لمنفعتنا ثم نتركها جانبا ، بل هى ضرورية للكمال المنشود ، كما أن كل نعمة ضرورية لاتمام اللحن . ويجب علينا أن نتصل بالادراك بهذه الدنيا ، لا يدفعنا إلى ذلك شوق علمى أو جشع مادي بل يكون مطلبنا فى ذلك الفرح والسلام . وإذا لم يفهم المرء علاقته بالعالم يعيش فى سجن ذي جدران غريبة عنه . ولا يكون كمال البشرية حينما نفهم علاقتنا بكل شئ ونندمج فى كل شئ إلا متى اتحدنا مع الاله . .

إن كل بواعثنا الانانية ورغباتنا التي تحركها الاثرة ، لاتساعدنا على رؤية النفس فى حقيقتها ، لأنها لاتشير الا إلى ذاتنا الضيقة ، وأنه حينما نشعر بنفوسنا نرى الكائن الداخلى الذي يسمو على أنانيتنا وله علاقته العميقة بالكل . .

وكما أن الاطفال لا يشعرون بسرور حينما يبدأون فى تعلم الحروف الهجائية ، لأنهم لا يدركون الغرض الحقيقي من الدرس ، حتى إذا ما اتحدت الحروف وكونت كلمات وجمل ذات معنى كان ذلك سبباً لسرورهم كذلك النفس فإنها حين تنفصل وتسجن فى حدود ذاتية ضيقة تفقد مغزاها لأن

جوهرها هو الوحدة وأنها لا تجد حقيقتها المجردة إلا باندماجها مع الآخرين وهنا يكون فرحها ..
وليس أهم درس يتعلمه الإنسان من حياته هو في معرفة وجود الألم في العالم ، بل في أن يحول
الألم إلى ما هو خير منه ، كالي فرح ..

إنه يمكننا أن ننظر إلى نفوسنا من وجهتين متباينتين ، نفس تظهر ذاتها ونفس تتوق على ذاتها
وتكشف بذلك عن مفزاعها وجوهرها . أما الأولى فتحاول أن تكون كبيرة وتقف على مرتفع
من تجمعها وازديادها وتستبق كل شيء لنفسها .. وأما الثانية التي تكشف عن نفسها فانها تقدم كل
مالديها وتصبح كاملة كزهرة تفتحت أكامها وهبت حللوتها من كأس جمالها
وتشبه النفس مصباحا فيه زيت يحتفظ به في داخله من الضياع ، وهذا المصباح لا تظهر
فائدته إلا اذا أنير وبدت هملته بكل ما حوله وضحي زيته ليفدى الالهيب ، فالنفس طالما تدخر
محتوياتها تكون في ظلام ، وسلوكها يناقض غرضها الحقيقي ، حتى إذا أضاءت نمت نفسها في لحظة
ورفعت النور عاليا . وهناك تكون يقظتها وحريتها ..

وكتب تاجور كثيراً في شعره وفي « سادها نا » عن الحب فرأى الحب نهاية في نفسه ورأى
كل شيء سواه يسأل فيه عن سببه ، ولكن حينما يقول أحد « أحب » فليس هناك مجال للسؤال
عن السبب .. لأن في ذلك الجواب النهائي ..

وقال أننا لا يمكننا أن نرى إنساناً بصورة الحقيقة إلا إذا كنا نحبه . ويجب ألا تقاس المدنية
بمقدار القوة التي تطورت فيها بل بمقدار ما وصلت اليه من حب البشرية ..

أننا نجد في الحب الكامل حرية نفوسنا . والحب هو المعنى النهائي لسكل ما حولنا ، وهو ليس
بمجرد عاطفة بل هو حقيقة وهو الفرح الذي هو أساس كل الخليقة . هو النور الأبيض للشعور
النقي الصادر عن براهما ..

ثم رأى الغاعر أن العبودية والحرية ليسا تقيضين في الحب لأن الحب يحور كما يستعبد وليس
ما نؤغه نحن هي الحرية وحدها إذ نحن في حاجة إلى العبودية أيضاً وأن وظيفة الحب هي الترحيب بكل
القيود والتغلب عليها وأن العبودية في الحب مجد كما في الحرية ..



ساعات مع هوراس

يدفع المرء حب الاستطلاع إلى تصفح ديوان هوراس ، لأن العشرين قرناً التي سرت عليه قد اكتسبته شيئاً من حرمة الآثار وهيبة القدم ، وخلفته تصفة ثمينة من بقايا التاريخ الروماني في أزهى عصوره . .

وسرعان ما تعود بنا الذكري إلى ذلك العصر الدارس ، الذي مثلت فيه روما على هذا السكوكب أعجب الأدوار ، وإذا بك تواجه ذلك الشاعر الكبير الذي ولد قبل المسيح بخمسة وستين سنة ، ودرج وسط ذلك المهرجان في مدينة فينوزيا ، بين تلال الابنين على مقربة من روما ومن نهر أوفيدس الهابط من التلال إلى السهل العريض سائراً على مهل إلى بحر الأدرياتيك . .

وإذا بك تجول بين مائة وعشرين قصيدة يعقبها أربعون رسالة تكشف لك عن حياة الشاعر في مختلف مظاهرها إذ كان هوراس يموح بسره إلى شعره ويصور دخيلة نفسه في قريضه ، كما تكشف لك عن صراحته وسرعة خاطره وخفة روحه وصدق نظره في الرجال والأدب ، واعترافه بحبيل والده الذي عني بتربيته وتقويم خلقه وبعث به إلى أثينا لينهل من منابع حكمتها وفيض ثقافتها ، وحببه لأصدقائه الذين تغنى بصحبتهم وذكر أسماءهم وطو الوقوت التي قضاهم معهم ، ومقته للحروب والألعاب والمظاهر والتقاليد والطموح وهرج الحياة وصعبها . .

وكان بين أولئك الصحاب العديدين الذين ناجاهم في قصائده الشاعر فرجيل والعظيم مسيناس والقيصر أغسطس ، وقد أهدى إلى مسيناس كثيراً من نظمه ونثره فأقطعه هذا أرضاً بين التلال القريبة من التبر ، وراق للشاعر ما فيها من صف التلال التي يحترقها واد ظليل وتفرش أشعة الشمس في شروقها سفوحها اليمنى ، وفي غروبها سفوحها اليسرى ، وما فيها من الخوخ البري والكرز العقيق وشجر السنديان ، التي ترحح حولها الأغنام بقرب نبع يمد مجرى جيلاً من الماء . .

وكانت صحبته لأولئك العظماء تقيده بأواصر التقاليد والمظاهر فكان يحن دائماً إلى حياة الريف الهادئة الساذجة لينسى بينها المتاعب ، ويعمل النفس بالعيش الساكن ، في كوخ ريفي يتسامر فيه مع أصدقائه عن منبع السعادة الحقة وهل هي في الطيبة أم في الثراء . .

وفي وسط ذلك الحنين إلى معيشة الريف الهادئة ينشد هوراس وقد سئم الصخب والزحام قائلاً :

« سعيد هو ذلك الرجل الذي يشارك حياة الأقدمين بعيداً عن شؤن المدن فيعثر حقوله مع ثيرانه ولا يفكر في الربا ونتاجه . . »

وليس هو بجندى يستدعيه البوق الوحشى، ولا بملاح يفرع عند كل عاصفة، متجنباً مساحة المسكة وأبواب النبلاء العالية والأقوي من الدولة . .

عمله حول أشجار الحور الطويلة، يبرم ذوائب الكروم الناضجة الصغيرة أو في وادى هادى، يرقب عجوله وهى تسرح . .

وأونة يشذب الفصول بسكينة ويسقى النجاة أملاً فى محصول جيد . .

ويحفظ العسل الجديد فى آنية نقية . أو يخلق للأغنام الخجلة المترددة . .

وحينما يطل الخريف بوجهه فوق الحقول ويأتى بفيا كهته الناضجة الزاهية . .

تفرح الكثرى المطعمة والعنب ذو اللون الأحمر والأزرق . .

وكم يرتاح المرء حينما يتمدد تحت أشجار البلوط العتيقة الشهباء . .

أو فوق الأرض المحشوشة بينما تجرى مياه السواقي الفائضة « . .

وتنصت اليه وهو يتغزل بالربيع وقد ذابت ثلوج الشتاء وصقيعه، وبدت فينوس تحت القمر السابح، تتقدم فانياتها الراقصات، وقد بادرت الأرض بعد أن ذاب الثلج فأنبثت أزهارها وأخذ بلوتو يطرُق خصاص الفقراء وأبراج الطفلة . .

أو يصف الشتاء وقد غزت العواصف القاسية كل السماء، ودوت أصداء البحر والغابة، فينادى أصحابه لاغتنام الفرصة قبل نهاية اليوم ليزيلوا هموم الحياة من رؤوسهم بالنبيذ المعتق ويعطروا شعورهم ويشنفوا آذانهم بسماع الأوتار، فلربما انجملت ظلمات السماء عن نور . .

وتتبعه وهو يناجى المريح وفينوس وأبولون وكاليوبى وكليو عروس التاريخ ويستعيد مجده أبطال اليونان وهلاك باريس فى حروب ترواده، ويستفز العذارى لينشدن إلى ديانا المرححة بين سلاسل الجبال . ويحدثك عن الجمال الداوى وعن الحب والخروانة عثار كليوباترا، ويطرى البساطة، ونهر تير . ويحشد أنباء الميثولوجيا ويتغنى بأعجاد الآلهة وعرائس الفنون ويصعد معهم إلى مقراتهم الخفية ومطاراتهم المجهولة ويصف عجائبهم ومواكبهم . .

ويعود إلى التغنى بمجد رومة فيشيد بقوتها وعظمتها واسمها الذى يذعر لذكركه العالم، ويصف مجده الجنود الرومان وهنا تتجلى وطنيته وإيمانه بمصير رومة ويرى أنه بوساطة رومة يستقر الأمن والنظام والحق فى أنحاء الأرض ١ . ولعل صداقته للقيصر أغسطس والعظيم مسيناس قد دفعته إلى مجاملتهما بالاغراق فى وصف العظمة الرومانية . إلا أن هوراس النافذ البصيرة لا تقوته ما سئم تلك الحضارة التى تمثل حوله فينادى رومة قائلاً :

« ستدفعين دين جرائم آبائك أيتها الطفلة البريئة . .

حتى تجدد دين تلك المعابد والهيكل التي تنقلب الآن ظهراً على عقب ، وتلك التماثيل التي تلوثت بالدخان . .

ولن تكوني قوية حتى تنتهي أمام الآلهة وتسألهم المعرفة أولاً وأخيراً . .
فلقد أنكرتهم فأنزّلوا بإيطاليا الولايات الكثيرة . .

أن رومة بحروبها الأهلية التي عرقلتها قد أشرفت على الموت . .

وقد داهمها سدوان : المصريون بأسطولوجهم ، والدكيان بأقواسهم . .

بناتنا يتعلمن الطرق الإيونية والتحريرى على الفسق فى مدرسة الرقص . .

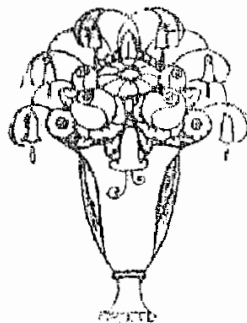
وقد امتلأت كل منهن بالحلل الشريرة حتى منذ أيامها القليلة الخيرة . .

والمتروجة منذ عهد قريب تبحث عن رفيق أصغر ينما يحتسى زوجها خمره . .

فتقاسم رفيقها المسرات المحرمة وتتمسقى أحباءها فى الظلام . . ١ «

ثم يشرب هوراس عصير باخوس فتخب الأصداقائه ونخب فرجيل ويدكرم بقرب النهاية ،
ويتهم على نقائص عصره ويتحدث عن حياته التى بلى العلو والفضمة والعز والذل والثراء والفقير
وهاينت ثورات رومانية وحروباً متتالية وأنظمة مختلفة وديانات متنافرة ومصادقت الفلاح الصغير
وقيصر رومة المسيطر على العالم . .

إن أثر الاغريق فى شعره وثقافته واضح فلقد سافر إلى أثينا فى شيخوختها ليتتقّف ، وظل
أثر الأدب الاغريقى جلياً فى شعره طول حياته لكنه لم يسم إلى سماء اساتذته الاغريق الذين أخذ
عنهم كما أنه لم يسم إلى مرتبة مواطنه فرجيل ولعله كان فى حاجة إلى الألم والبؤس يصقلان
نفسه ويكسبان شعره حرارة وعذوبة .



ساعة مع ملثونة

حياته القصيدة رائعة تبدأ بربيع الصبا الذي قضاه في الطور وانتدين والابتهاج والتخني بالجمال وتنتهي بشتاء مظلم قاس أفقسه نور البصر وبهجة المجتمع . ولعلك ذاكر منها ما لقبه به رفاقه التلاميذ في صباه يوم دعوه لطهره وجماله بـسيدة المسيح ! أو تلك الساعات التي قضاه في نظم وترجمة عدد من مزامير داود يوم كان يرى أن طمرحه إلى الملا موجه بعقيدة ثابتة أن لا يصدر أي عمل جليل إلا عن عقل نبيل وحياء نقية الصفحة . .

وأنة لا يسر لك أن شئت أن تضع شعره في كف النقد أن تقرأ ديوانه في نحو خمسمائة صفحة من أن تقف بين مئات الكتاب والنقادين الذين حللوا ذلك الشعر وخلفوك من بعدهم في حيرة لا تدري أي حكم تصل إليه ! .

فإذا ما تصفحت ذلك الديوان رأيت في خمسة كتب أولها وأعظمها « الفردوس المفقود » ، وثانيها « الفردوس المستراد » وثالثها قصة شمشون ورابعها « كوماس » وآخرها مجموعة القصائد القصيرة التي منها ما نظمه باليونانية ومنها ما نظمه باللاتينية ومنها ما ترجمه من الأدب القديم منظوماً إلى الانجليزية . .

أما ملحمة الفردوس المفقود التي أتمها عام ١٦٦٥ في أكثر من عشرة آلاف وخمسمائة بيت من الشعر والتي كان عليها وهو ضريح وحيد ، فتعد أعظم وأهم ما خلف ملثون ، وقد سماها إلى ذروة سامقة بين كبار الشعراء وأمسى بهذه القصيدة العظيمة أعظم شعراء الملاحم في العصور الحديثة وأكبر شعراء الانجليزية بعد شكسبير . ووضعت إلى جانب الملاحم القديمة الشهيرة مثل اليادة هوميروس واينيد فرجيل وشهنامة الفردوسي وشا كونتالة كاليداسا . .

وفيها يبدو ملثون تارة كالبحر الصاخب وأخرى كالعاصفة المزمجرة ويبدو تارة كالينبوع العذب تنحدر مياهه بخير لطيف وهدير شجي . وهنا نرى أن أعجب ما في هذا الشاعر تخيلته المبتدعة التي لا ترضى بغير اللانهاية مستقراً فتدفر في مجاهل كلها روعة تسرح فيها الملائكة والشياطين . .

وهالك نوعاً من مظاهرات السماء التي ابتكرتها تخيلة ملثون العجيبة في فردوسه المفقود : « . . وأنه ليصدر ذلك الأمر فوراً لدى أصوات الأبواق العالية ، كأنها أصوات الحرب . ثم يرفع لواءه القوي فيستدعي بهذا للفخر الشامخ ، ازازيل الملائكة الطويل الذي وقف عن يمينه ، ونشر في الحال الصولجان ذا اللواء الماسكي المتلألئ الذي لمع عند اقترابه مثل شهاب يندلع نحو

الرياح بالألاء ورونق خلايين ، وظهرت أسلحة ملائكية وعلامات زهر !!
وبعد هذه الرموز وأمثالها من عبور المهرجان الغريب ، وبعد ضجيج سماوي يدوي بهرجة وصخبه
في رأس القاريء ، يعود ملتون فيترنم بهدوء قائلاً . —

حلاوة أنفاس الصباح في شروقه مع جمال الطيور المبكرة ، وسارة هي الشمس إذ نشرت في البدء
فوق هذه الأرض البهيجة أشعتها الشرقية ، فوق العشب والشجر والزهر والثمر ، المتلألئ بالندى .
ومتأرجة الأرض الخصبية غب الرذاذ ، وحاو إقبال المساء الشاكر الوديع ، ثم الليل الصامت مع طيره
المقدس وذاك القمر الوسيم ولا لىء السماء حاشيته الكوكبية . . . ولكن لأنفاس الصباح حينما يهبط
مع حسن الطيور المبكرة ، ولا الشمس المشرقة فوق هذه الأرض المفرحة ، ولا العشب والثمر
والزهر المتلألئ بالندى ولا العطر بمد الرذاذ ولا المساء الشاكر الوديع ، ولا الليل الصامت مع طيره
المقدس ولا مسير القمر وتلألؤ ضوء النجوم ، حلاوة بدوناك » .

وتصادفنا في « الفردوس المفقود » جنات عجيبة ، وملائكة تنشد في عرض الفضاء ، وآدم
وحواء يتحدثان ! وصوت الله يدوي كالرعد ، وأرواح عفاريت !! إلا أن عفاريت ملتون تختلف
عن عفاريت تاسو مثلاً إذ هي ليست وحوشاً ولا مخلوقات شريرة قبيحة الوجوه ذات قرون وذبول !
بل هي مخلوقات بشرية بولغ في تصويرها حتى خفى على الرأى مظهرها ومخبرها ! ولم تنل أرواح
ملتون رضاء « جونسون » ! رغم تسامحه فجاء في سياق مقاله عن حياة ملتون قوله :

« كان من الضروري أن يلبس الروح صورة مادية إلا أن الشاعر قد حجب المادية عن الأنظار
ثم أغرى القاريء أن يبعدها عن فكره » .

ومن تلك الوجهة الخيالية الغربية نرى شبها بين « الفردوس المفقود » وبين ملحمة
دانتي المعروفة « بالكوميديا السماوية » إذ أن الموضوعين متشابهان من بعض الوجوه حتى
قال ما كولى في ذلك :

« إن شعر ملتون يختلف عن شعر دانتي كما يختلف هيروغليفية مصر عن صور المكسيك !
غير أن الصور التي أتى بها دانتي تفسر نفسها بنفسها وتعلن عن سرها بينما صور ملتون رموز
لا يحملها غير أخصائي » !

ولكن رغم أن هاتين الملحمتين متشابهتان بعض الشبه في الجوهر إذ أن كليهما يصور لنا شطراً
من عجائب السماء ذات الملائكة والشياطين والجنة ذات النعيم والجحيم ذات السعير ، فإن بينهما
تبايناً متسع المدى . فهما متنافران في الأسلوب والتعقيد . والفردوس المفقود صورة مكبرة
للاسطورة المذكورة في التوراة أعني سقوط آدم وحواء في خطيئة العصيان وطردهما من جنة

عدن . وما كان من ملتون بعد أن استعار الهيكل العظمى من سنن انتكوين إلا أن كساه وألبسه الحلل البراقة . أما الكوميديا السماوية فرحلة مخترعة يرويها دانتى كأنه رأى وقائعها بعينه وسمع أصواتها بأذنه وليس لها أصل في غير تخيلة الشاعر . .

ويفرغ ملتون من ملحة الفردوس المفقود وهو يقص علينا كيف ضل الروح عن صراط الحق دون أن يهيد ذلك الضلال إلى نور الهدى . ولكنه سرعان ما يتدارك ذلك النقص فيعقب قصيدة الفردوس المفقود بقصيدة « الفردوس المسترد » وهي فكرة يحمدها عليها بعض الحمدلا كله ! لأنه لم يوفق في « الفردوس المسترد » إلى ما وفق إليه في الفردوس المفقود . لا لأن قصيدة الفردوس المسترد التي تصف مجيء السيد المسيح أقل جمالا في موضوعها من قصة آدم وحواء . بل لأن قصة المسيح جميلة ببساطتها وسذاجتها وليست في حاجة إلى زخرف النظم وأخيلة الشعر . غير أن قصيدة الفردوس المسترد رغم ذلك الاختناق جميلة من الوجهة الاخوية فأسلوبها كله بديع وبيان لأنها صورة رسمتها ريشة ملتون النارية . .

* * *

ونظم ملتون قصتي « شمشون » و « كوماس » على نمط القصص المسرحية ، فإن كان ملتون قد قصد إلى تمثيلهما على المسرح فإن عالم التمثيل لا يقره على ذلك الرأي لأنهما أغنيتان في قالب قصتين مسرحيتين لا يمكن أن تظهر على المسرح أكثر مما تصلح تراجيدات بيرون أو السبب في ذلك هو حاجتهما إلى تلك الصفات التي تؤهل القصة المسرحية للظهور أمام الجمهور مثل تنازل المؤلف عن شخصيته وتصويره لشخصيات قد تتنافر مع طباعه كما تتنافر مع بعضها ، إلى غير ذلك . .

كتب ملتون « شمشون » على النموذج الاغريقي التراجيدي لا سيما تراجيدات « يوريبيديز » الذي كان ملتون يقتنى أثره لشدة إعجابه به ، ذلك الإعجاب الذي أفسد عليه قصة « شمشون » هذه ، لأنه تقيد فيها بالنمط الذي ابتدعه يوريبيديز ، ولو كان ملتون قد اتخذ « اسكيلوس » مثلا نموذجا له لتفرغ إلى الشعر الغنائي بدلا من التورط في المسرحيات التي لم يخلق لها . أما « الكوماس » فانها على نمط روايات التنكر الايطالية ، فهي بضيعة من تلك الوجهة ، وهي في مذهب ما كولى قد تفوقت على روايات « الراهية الامينة » و « أمينتا » و « الراعى فيدو » وذلك لأن ملتون لم يقتف في تأليف الكوماس أثر يوريبيديز ، ولو أنه لم يشعر بنفس التبجيل للادب الايطالي كما شعر به نحو الادب اليوناني والروماني . .

أما الشعر الاخير من ديوان ملتون فهو القصائد القصيرة ، تلك القصائد التي تضع ملتون في عداد أكبر شعراء الاناشيد لأنها من الشعر الحى الرقيق . .

وقد أصاب ملتون بقوله : « ومن يكره أن يفشل في قرص الشعر فليكن هو نفسه شعراً قبل أن يكون بيتاً واحداً » . .

وقد سمعت غياض « هورتون » إلى أناشيده الأولى يوم أفرغ قلبه إلى ربة الشعر ، وعاش بضع سنين متنقلاً بين أحضان الطبيعة والجمال والموسيقى . هناك في تلك البقاع الجميلة التي قضى فيها الشاعر أسعد سني حياته ، كتب قصيدتي « المنكر » و « المنهج » اللتين بلغتا من البلاغة والاعجاز حداً قاما تصل اللغة إلى مثله . كما كتب أيضاً مراثية « ليسيداس » الخالدة التي يرثي فيها صديقاً عزيزاً . وفي هذه المراثية مزج ملتون الميثولوجيا الوثنية بالميثولوجيا المسيحية ونسج في نظمها وقوافيها على منوال النماذج الإيطالية ، وأن هذه المراثية لتعد في مقدمة أبلغ المراثي الأربع في اللغة الانجليزية مع مراثية جراي ، و « أدونيس » شللي و « للذكرى » لتيسون . .

وتعثر بين تلك القصائد على أنشودة عيد الميلاد أولى قصائده التي كتبها في الحادية والعشرين من عمره . وفيها تري أن وحى الشعر قد هبط عليه منذ حداثة كما تصادفك قصيدته الصغيرة الرنانة التي يحفظها الانجليز أغنى قصيدة « مذبحه يدموننت » التي يبدأها بقوله :

« انتقم يارب لقدسيك المذبوحين الذين تقبعر عظامهم فوق جبال الالب الباردة ، الذين حفظوا منذ القديم حقك طاهراً بينما كان آباؤنا يعبدون السلع والأحجار . »

ولا بد أنك بعد أن طالعت في ديوانه بعض تلك القصائد قد ذهبت مع النقاد في اعترافهم أن جل قصائد ملتون القصيرة من الشعر الخالد ، رغم قولهم أن ملتون لم يمنح هبة النشيد الصادر عن القلب فوراً ، تلك الهبة التي ميزت الشعراء قبله لأنه كان كثيراً ما يقيد نفسه بنماذج من الأدباء اليوناني واللاتيني يحذو حذوها . . . وذهب بعض الناقدين إلى أن قصائد ملتون التي يقفوفها أثر القدماء لا يمكن أن تعتبر أصلية بالمعنى الصحيح ، غير أنه إذا ما خرج عن دائرة التقليد أبدع وأجاد في التفنن ، وهذا ما نراه في قصائد « مذبحه يدموننت » و « شكسبير » و « الزمان » و « في موت طفل جميل » وغيرها من القصائد الجميلة الانسجام ، الرائعة الخيال ، المتينة البناء ، وهي مما دفع الشاعر تيسون إلى مناجاة ملتون بقوله :

« ياذا القم القوى ، المبدع الألحان المنسجمة ، أيها الماهر في الغناء للزمان والأبدية ، الذي منحك الله صوت الأروغن لينشد به لانجلترا . ملتون انك لاسم يدوي مدى العصور » .

وتنحصر خواص شعر ملتون في سبع صفات هي : أبهة الخيال ، وروعة الاسلوب والوصف ، والتشبع بالكلاسيزم ، وسعة الاطلاع ، والتدين ، وندرة النكتة ، ثم حاجته إلى الملكة التمثيلية . . أما أبهة الخيال فهي أولى وأقوى ميزات شعره ، وانك اذا قرأت شكسبير تعلمت قوة الملاحظة

وتخرج من ورد سورث با راء فلسفية ، ومن كيتز بحسب الجمال ، ومن تاجور بالروحانية . ولكنك اذا ما طالعت ملتون شعرت كأنما تفيق من حلم خلايب الشاهد غريب الوقائع ! ذلك لأن خيال ملتون تيار جارف يكتسح أمامه كل عقبة كيؤود ، حتى إنه ليتغلغل إلى مسبح السدم ومطار الآلهة فلا تسكاد تدركه العيون ١ .

يمكن للقارئ العادي الخيلة أن يسير مع هوميروس ويلحق بدانتي دون أن يقع في الحيرة ، إلا ربالك ، لأن هوميروس ودانتي ينيران للقارئ السبيل ويأخذان على عاتقهما ارشاده . أما ملتون فيفتح له الباب ويدعه يابح وحده مجاهل السماء والأرض حيث لا يمكنه متابعة المسير حتى تذوده الآلهة بالخيالة السامية وبالعارم وبالتجارب ..

من تلك الوجهة الخيالية والفكرية حاول الأستاذ د . روس أن يوازن بين ملتون وهوميروس وفرجيل إذ أن الثلاثة من أقطاب الملاحم في العالم بقوله :

« إن شعر ملتون لاسيما « الفردوس المفقود » هو كون يحركه العقل إذ هو ينتج التأثير ذاته الذي تسببه القوة الفائضة التي لا تقاوم كالكون نفسه . وأن أفكاره لتملأ الخيال وتسمو فوقه . ومنظوماته تملأ الأذان مثل صوت البحر ، حتى تقعم بها الحواس والادراك . وانا نشعر بمثل هذا الاكتفاء التام والامتلاء في شعر هوميروس ولكننا نحس مع ملتون فوق ذلك بنوع من الرهبة . إن هوميروس شاعر الانسانية الذي بوساطته تنشأ كل احساسات البشرية وتأثراتها بركة متناهية ويصبح الانسان دغم نقائصه إلهاً أو يبدى على الأقل مقدرته على التأله . أما فرجين شاعر الرفعة الملكية والطموح الوطنى فانه يصور لنا الضعف البشرى وأشجانه ويكشف عن مأساة نفس وديعة اختارها القدر لتركب أعمالاً غير وديعة . والمسألة الالهية في نظر هوميروس وفرجيل شيء لا ينسر بل يجب احتماله وطاعته ..

« وقد يئأس هوميروس من أى إيضاح تقليدي للكون فيمس آلهة بشيء من التهمك ، ولو أنه يبحث على مبدأ خلقى يطيعه خير الناس ولو جهلوا لماذا هم يطيعونه . . هذا بينما لملتون الجرأة على التمسك بالمسألة العظمى مبرراً طرق الله في نظر الانسان فاذا لم يكن قد نجح في تأدية ذلك فلأن ذلك الشيء لا يمكن تأديته بالادراك البشرى . أنه من واجب الايمان الاعتقاد بأن الله عادل وحق وقد أيدت ذلك أعظم الأذهان مثل أفلاطون وملتون ولو لم يمكن انباته . وملتون في محاولته تأييد ذلك خلق نمطا جديدا مختلفا في الهيئة ولكن ليس أقل في الصواب من نمط اسكيلوس وصوفوقايز وشكسبير ..

أما أسلوب ملتون فحبيه بالرعد القاصف أو بالبحر المصطخب إلا أن هذا الأسلوب كثيرا

ما يشوبه تعقيد لفظي وتقديم وتأخير . ولكنك إذا حاولت التبديل والتعديل في ذلك الأسلوب فانك تشوه حسنه وتنقص من شعره " وقد نلتبس للشاعر عنراً في ذلك التعقيد وتلك العنطنة إذا تذكرنا أنه كان يعيش في عصر فلاسفة ولاهوتيين وعلماء ، وكان هو بينهم عالماً مثقفاً وأديباً كبيراً ، فكان يكتب لأولئك الجهابذة بالأسلوب الذي يروق لهم ويسمو في أعينهم ١ .

وأسلوب ملتون الشعري من أبلغ أساليب الانجليزية وأرقاها ، نقول أساوبه الشعري لأن ملتون كتب نثراً كثيراً ، لكنه لم يشتهر بنثره كما سعى بشعره ، لأن نثره تضاعف وتلاشى أمام قوة شعره وجماله بعكس والتر سكوت مثلاً الذي تضاعف شعره أمام نثره ، أو جوفسون الذي فنى نثره ونظمه أمام قوة شخصيته وأجادته ..

أما الخاصية الثالثة لشعر ملتون وهي التشبع بالكلاسيكزم أو الأساوب المدرسي التقليدي فسببها أن الشاعر عاش في القرن السابع عشر عصر التمسك بالأدب القديمة والتشيع لمذاهبها ولم يدرك عصر الرومانتزم الذي شبت ثورته في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على أيدي روسو وبيرون وشللي ولامرتين وغيرهم وكان لتلك الثورة الأدبية أكبر أثر في تلاشي ظل الكلاسيكزم منذ ذاك الوقت حتى اليوم ..

وقد أخذ ملتون منذ صباه ينهل من ينابيع الأدب القديم وهياه تعليمه الطهرى «البيوريتانى» إلى التعلق بتقليد هذا الأدب والتقييد به حتى أنه بدأ ينظم منذ أول عهده باللاتينية بتلك اللغة الدارسة قصائد بلغت من الابداع حداً دعا الكثيرين إلى حشر ملتون في زمرة كبار شعراء اللاتينية ويمكننا أن نعثر في تصفحنا ديوانه على خمس وعشرين قصيدة لاتينية وتسع يونانية وعشرين مزموراً ومقطوعة مترجمة عن هاتين اللغتين ! لقد كان النظم باليونانية واللاتينية فخراً لشعراء ذلك العصر كما كان السمو عن مدارك العامة من مميزات أهل الثقافة يومذاك !

إلا أن خيال ملتون الناري الجروح كان كثيراً ما يخلق لنا رغم تشبعه بالكلاسيكزم شعراً ليس « بالكلاسيكى » ولا بالتوتونى بل هو نخط خاص لاشبيه له ..

أما ميزة الاطلاع فاننا نكشفها جلياً إذا ماقرأنا قليلاً من السطور اذ أن ديوان ملتون شبيه بقاموس محشو بالمعلومات ! فننقائع ميتولوجية إلى حوادث تاريخية إلى أساطير دينية إلى أسماء جغرافية ! تلك المعلومات التي تكسبها رأسه منذ الطفولة حتى نال درجة الاستاذية من الجامعة وحتى موته وكانت تلك المعلومات الوفيرة عائقاً يقف أمام ذهن القارئ القليل الاطلاع ..

أما التدين فصفة تميز شعر ملتون عن شعر ألاف الشعراء لاسيما الباحثين منهم والبيقوريين وكان ملتون منتسباً الى مذهب الطهرين ، أكثر مذاهب البروتستانتية تمسكاً بالدين ، وكان منذ

الصغير محباً للتقوي متمسكاً بتعاليم الدين ، وقد اقتبس موضوع « الفردوس المفقود » من التوراة وموضوع الفردوس المفقود من الانجيل وله قصيدة في ميلاد المسيح ، كما ترجم كثيراً من سزاير داود وبدأ في كثير من قصائده مقتبسات من الكتاب المقدس . .

وخلى شعر ملتون من النكتة فكان بذلك شاعراً مبهجاً أكثر منه شاعراً محبوباً . فلسنا نرى فيه تلك الدعابة التي اشتهر بها كثير من كتاب الانجليز وشعرائهم لاسيما شكسبير وجولدميث ومئات المؤلفين المسرحيات . ذلك لأن ملتون كان رجل عواطف متقدة وكان سياسياً ومتديناً وحساساً ومتألماً ونزلت به عدة خطوط وأزمات نفسانية فنقد أمه في ربيع حياته ، وفارقت زوجته ثم ماتت ، وفقد بصره في الرابعة والأربعين من عمره ، وقضى بقية حياته ضريراً فقيراً كئيماً يؤلف « الفردوس المفقود » ليبيعه ببضعة جنيهات لا تغني من جوع ، وظهر له أعداء سياسيون أقوياء اضطروا إلى الاختفاء عن أعينهم ، أضف إلى ذلك دراسته للتراجيديات القديمة والأساطير الدينية ذات المأسى . أما حاجة شعره إلى روح التأليف المسرحي فقد تقدم الإشارة عنها في قصتيه « شمشون » و« كوماس » وراينا كيف فشل في محاولة إخراجها على نمط تمثيلي . والحق أنه لم تبد ملتون أية مقدرة على هذا التأليف . وقيل أنه لو تربى في جو المسارح كما تربى شكسبير لأخرج لنا ما قد يضارع قصص « مارلو » التي هي دون قصص شكسبير أجادة . .

نعم إن ملتون لم يخلق للمسرح ولكن هذا لا ينقص من عبقريته شيئاً وكفاه فخراً بخياله ، ومجداً بملحمته ، ولئن فاق شكسبير ملتون بمسرحياته السبع والثلاثين فإن ملتون قد خلف ملحمة لم يخلف مثلها شكسبير . ولئن اعتبرنا شكسبير أعظم شعراء الانجليزية فإن ملتون يليه في المكانة مباشرة . . تلك ميزات شعر ملتون ولعلنا رجحنا كفة المديح ولكن الحال أن هناك كثيرين ممن حملوا على ذلك الشعر ، ويمكننا أن نحصر تلك الانتقادات التي وجهت إلى شعر ملتون فيما يلي :

أولاً : تعقيد اللفظي وتقديمه وتأخير في التراكيب . .

ثانياً : علوه على عقلية القارئ العادي حتى أنه لا يقرؤه غير ذوي الثقافة العالية . .

ثالثاً . حشده للالفاظ التاريخية والعلمية والميثولوجية والسياسية حتى في مواضع غير ضرورية . . رابعاً . رجوعه إلى نماذج الادب القديم حتى قيل إن الفضل في خالق عبقريته الشعرية راجع إلى تلك النماذج التي أخذ عنها فهو بذلك في نظارهم ابن التقليد بعكس أولئك الشعراء الذين خلقوا أنفسهم مثل هو ميروس وصفوقليز والذين لم يتبعوا نماذج بل كانوا هم نماذج للآخرين . .

إلا أن جميع الناقدين رغم ذلك النقد قد اعترفوا لملتون بالعبقرية والتفوق ووضعوا شعره بين أعظم مخلفات العقل البشري . .

ساعة مع أوليفر جولدسميث

وسط حياة ماضية ، يكتنفها الفقر والتشرد والجوع ، كان يناضل الأديب جولدسميث منذ قرنين ، وقد جردته تلك الحياة من كل نعمها ، فسلبته الجمال والمال وخلقت له وحيداً يحمل وقاضاً غاويًا ، وروحاً حائراً ، ووجهاً دميماً مشوهاً ، تركه مسخرة تشير السخرية ، وشخصية ضعيفة مستسامة ، ولساناً متلعثماً ذا عجمة إيرلندية ! !

ذلك كان فصيبي جولدسميث الوديع ، الواسع الصدر ، اللين الجانب ، الذي قابل البرؤس بالابتسامة ، والخطوب بالرضى ، ولم ير حل من هذا العالم الذي أذاقه الأسرين حتى خلف بعده قلوباً تتعسر على فراقه وتعطف على جده العاثر ، وتتحدث ببراءه الساحر ، حتى بات أقرب الناس إلى قلوب عشاق الأدب . وأمست حياته عزاء لأولئك الأدباء البائسين الذي يقضون حياتهم في شقاء وألم فاذا ماتوا أقيمت لهم التماثيل تخليداً لذكراهم !

وقد مات شريداً معدماً عليه من الديون الفان من الجنيهات ، إلا أنه ترك للعالم ثروة معنوية تشمل قصة « اسقف وكفيلد » وروايتي « تمسكنت فتمسكنت » و « الرجل الرضى الخلق » المسرحيتين وكتاب « مواطن العالم » وكتاب « المقالات » و « الدرس الدمث » وثلاثين قصيدة في مقدمتها قصيدتا « السائح » و « القرية المهجورة » وأربعة كتب في حياة أربعة من العظماء . هذا غير ما نشره في صحيفه النحلة من مقالات وما ألفه من كتب تاريخية صغيرة . . . وكلها كتب وأشعار محبوبة لا يعل المرء قراءتها لما فيها من خفة الروح وبراعة النكتة وسلاسة الأسلوب ورشاقة اللفظ وانسجام المعنى وسحر الخيال غير المتكلف . . .

قال الدكتور جونسون الأديب المنقذ الضخم ، الذي عاش جولدسميث ردها من الزمن وساعده « ليس ثمة نوع من الكتابة لم يطرقه جولدسميث وما مس شيئاً بريشته إلا زينه » والحق إن مؤلفات هذا الكاتب الخفيف الروح هي كتب الرياضة الذهنية التي يأمن اليها كل متعب ضجر ليسترشح فيها نسيات الحياة المنعشة . . .

نشأ جولدسميث صعب المراس غريب الأطوار ، حار أهله ومعلموه في شأن تعليمه حتى يؤسوا منه فازدروه ونعتوه بالبلاهة والقبح والخلجل ! وما كان لأحدهم وقتئذ أن يكتشف في الصبي ذلك الذكاء الكامن الذي اندلع لهيبه فيما بعد . وما هي إلا أن نزلت به نازلة من فوادم حياته إذ افتقرت أسرته فألحقته بكلية « ترينتي » بدبلن مجاناً فنال فيها من الاهتقار والاضطهاد ما دفعه إلى التفكير في الهروب منها غير مرة حتى هجرها . فأراد أهله تعليمه الحقوق ووهبه قريب له نفقة التعليم ، ولكنه قامر بالمال وعاد مفلساً ! فأرأوا تعليمه الطب ، لكنه لم يبار عليه ! فهموا بالحقاقه بالكنيسة

ليصبح قسيساً كوالده ولكن مالبث أن طرده القسيس ! وما هي إلا أن ذهبت كل مساعيهم في تربيته
أدراج الرياح ! لأن جولد سميت الصبي مثل جولد سميت الكبير طبع على الجرح والانطلاق في قضاء
الحرية الواسع مثل عاصفة هو جاء ! .

في فوضى تلك الحياة البوهيمية التي مثل على مسرحها ذلك الفنان دوره الشاذ ، يروون عنه
كثيراً من النوادر التي لا تستغرب من ذلك . تلك النوادر والتجارب التي استمد منها صاحبها روحياً
أملاته قصصه وقصائده . منها أنه كان في السابعة عشرة من عمره وقد تقضت عطلة الصيف
فرحل عن بلدته ميما شطر مدينة « ادجورث » وقد امتطى حصاناً استعاره من صديق . وتجمعت
في جيبه ثروة لم تقع مثلها في يده من قبل هي جنيه واحد ، فامتألت نفسه زهواً ، وعزم على قضاء
رحلته في البذخ والاسراف ! وبدلاً من أن تؤدي به خاتمة المطاف إلى دار الصديق الذي يقصده
فاجأه الليل وهو على بعد منها . إلا أن صاحب الجنيه المحتمل لم يبال بالأمر بل بادر أحد المارة ،
وكان من أعيان القرية الذين يحبون المزاح ، بالسؤال عن أقرب فندق تتوفر فيه أسباب الراحة .
فأشار عليه بالذهاب إلى بناء كبير مؤكداً له بأنه أجمل فنادق القرية ! ولم يكن ذلك الفندق الموهوم
غير قصر عمدة البلد وصديق قديم لوالد الصبي ! فاتجه جولد سميت نحو باب القصر ، وناول زمام
حصانه إلا أحد الخدم الذين ظنوه غنياً كبيراً على أهل القصر وأدخلوه في بهو العمدة وسرعان ما
فطن هذا إلى خطأ الغلام ، لكنه أراد المزاح فمثل دور صاحب الفندق وإذا بجولد سميت يصدر
أوامره بأعداد العشاء ، وراق له الطعام فأمر بزجاجة من الخمر ودعا إليه صاحب الفندق وزوجه
وابنته ليشربوا معه ، وقبل أن يذهب إلى النوم أمر بأعداد فطيرة ساخنة لطعام الفطور ! ولما بدأ
ينظر إلى جنيهه نظرة الوداع أفضى إليه المضيف بحقيقة الأمر ! .

ولما شب جولد سميت بنى على هذه القصة الصغيرة حوادث مسرحيته الهزلية « تمسكنت فتمكنت »
التي ما برحت تمثل حتى اليوم على مسارح إنجلترا وتدرس بمدارسها . ولما فرغ منها قدمها إلى صاحب
مسرح « حديقة كوفنت » يومذاك فحفظها هذا عنده عدة شهور ، وأخذ يماطل المؤلف حتى شتم
فأرسل إليه يقول : « إنني كما تعلم في حاجة إلى مبلغ من المال فإذا قبلت روايتي أمكنني إرضاء دائتي
فبحق الله إلا قبلتها وعاملتها بمثل ماعاملت أمثالها من الروايات الرديئة » ! فكان جواب صاحب
المسرح أن رد له روايته مشفوعة بعبارات التشجيع ، وزاد الاعتقاد بفشلها أن بعض الممثلين رفضوا
الاشتراك في تمثيلها ! فوسط جولد سميت كبير اصدقاؤه الدكتور جونسون في السعي لدى صاحب
ذلك المسرح ليقبلها ، وبعد أخذ ورد تقرر تمثيلها وقد توقع الجميع فشلها . ولكن ما كان أكبر
دهشتهم حينما نجحت الرواية نجاحاً باهراً ! وأثبتت مقدرة جولد سميت على التأليف المسرحي ، وأعيد

تمثيلها ألوف المرات منذ تلك الليلة حتى الساعة ، وما مثلت حتى لمصبت الألسنة بالحديث عنها وعن اشخاصها ولما طبعت للمرة الأولى بيع منها ستة آلاف في بضعة أشهر ! أما نحن الذين نقرأها اليوم فليس لنا إلا أن نتمسك لها بالسبق على مسرحيات القرن الثامن عشر . وليس لنا ، بعد أن تلاحظ قلوبنا مروراً بمواقفها ومفاجأتها وعباراتها ، إلا أن نحمد مؤلفها البائس صنعها ..

وكان جولد سميت قد كتب قبلها كوميدية الشهيرة « الرجل الدمث الخلق » التي نالت نجاحاً وكسب الثواب من وراء تمثيلها وطبعها خمسمائة جنيه بددها في أمد قصير ! .

وتدور الأيام دورتها فنرى صورة أخرى لحياة هذا الأديب فاذا به شريداً بأثماً ، ضارباً في الأرض ، متبولاً على قدميه في سبع ممالك أوروبية . متسولاً على مزار لا يحسن العزف عليه ! متغللاً بين جماعات السعداء والأشقياء ، يميزا بين الحسنات والسيئات ، متأملاً في محاسن الطبيعة ومشاهد السكون . ويعود إلى لندن مفلساً ، لا صديق له ولا مهنة فيكافح في سبيل العيش ويجرب عدة مهن ، فيشتغل في التمثيل والتدريس والبيع والطب والتصحيح في المطابع والصحافة والتأليف والنظم ! ولا يفلح في غير التأليف الذي اشتهر به في أواخر أيامه ونال شيئاً من المال كان ينفقه في كل وجه ، وقد قال يومئذ : « لم استطع التماق لرأس الشعر لأنهم يتركني أموت جوعاً ولكني من مؤلفاتي الأخرى يمكنني أن أربح ما أتبلغ به وأشتري كساء وطعاماً وشرباً » !

أما وصف هذه الرحلة الطويلة فنرى مجملها في قصيدة « السائح » التي تعد من أبدع ما كتب ولا يضارع وصف هذه الرحلة غير وصف ييزون لسفرته في قصيدته المشهورة « تشايلد هارولد » . وقد صور فيها جولد سميت المناظر الطبيعية والاجتماعية التي مر بها في هولنده وفرنسا وإيطاليا وسويسره ، فدح الحياة الريفية الساذجة البعيدة عن غطرسه العظماء وملاذ الاغنياء ..

وبعد خمس سنوات أعقب قصيدة « السائح » بقصيدة « القرية المهجورة » التي تصور الحياة الريفية ومعيشة الفلاحين الهادئة المطمئنة بما فيها من قناعة وسذاجة ومسرات بريئة ، وألعاب خاوية . وتصف واعظ القرية الطيب القلب الذي يعظ رعيته باخلاص وحنان ويقضى سرحلته سعيداً راضياً لا يرد سائلاً ولا طارقاً ، وتصف معلم القرية الذي يعجب بعلمه أهل القرية السذج ، ويتساءلون كيف تحمل مثل رأسه الصغير كل ذاك العلم الوفير ! ..

ويصف جولد سميت أحد أمساء الصيف في قرية أوبرن السعيدة « اوبرن الحلو أجمل قرى السهل » قائلاً :

« كان الصوت دائماً حلوا حينما يقبل المساء ، ففتصاعد أهاريج القرية فوق التل . حيث كنت أسير بخطى متثاقلة بطيئة إذ كانت الاصوات المختلطة تقبل ناعمة من الأسفل . وكانت
(١٧)

الفلاح يردد صدي غناء بائعة اللبن ، والقطيع اليقظ يشغور مستقبلاً منساره ، والاوز المرح ينقنق فوق البركة ، والأطفال اللاهون وقد انسبوا نوا من المدرسة ، وهوت الكلب الحارس يرد على الريح الهامسة ، والضحكة العالية التي تحدث عن قلب خال ، كلها كانت تبث عن ظل في حيرة حلوة ، بينما كان البلبل يعلل كل سكونة بالغناء .. »

ظل المؤرخون انه مظهرت قصيدة القرية المهجورة يومذاك حتى قابلها القوم بالترحيب فشغفوا بقراءتها ، وحفظوا أبياتها وجرت عباراتها مجرى الأمثال .. وما برحت حتى اليوم عالقة بمخيلات الجميع محبوبه بين عشاق الأدب ..

ويمكننا أن نعد جولد سميث بهاتين القصيدتين شاعراً أو على الأقل شاعري المزاج . ولو أن جل ما كتبه نثر ، وليس له ديوان من الشعر إلا أن قصيدة واحدة تكفي للحكم على نفسية الشاعر ، وقد خلف اسم توماس جراي بين الشعراء بحرثته الشهيرة ، وعدد دي كونسى شاعراً رقيقاً بمؤلفاته النثرية . وجولد سميث في نثره وفي حياته الشاذة المضطربة ذات الأطوار الغريبة والتزعات الهوجاء يثبت أن في أعماق تلك الشخصية شاعرية متمردة غير مهقولة ..

وجولد سميث كما سلف ثلاثون قصيدة منظومة منها أنشودة « ادوين وانجلينا » و « في موت كلب » و « مسز ماري بليز » وجلها مزيج من خفة الروح والفكاهة والوصف البديع ..

وفي تلك الفترة من حياة جولد سميث في لندن يروي الدكتور جونسون أنه في يوم طرقة رسول من قبل جولد سميث ، يستدعيه إليه ليخلصه من مأزق أخرجته إذ سجنته صاحبة الدار في غرفته حتى يدفع لها أجر السكن ! فبعث إليه جونسون بحنيه ريثما يحضر إليه ، ولما حضر وجده قد اشترى بالجنبة خمرًا وطعاماً ، وجلس في معمله يحتفل بوليمته ! فأقبل جونسون زجاجة الخمر وسأل جولد سميث عن الوسيلة التي يفكر بها ذلك الحصار ، فأجاب جولد سميث بأنه لا يملك ما يبيعه غير قصة فرغ منها قريباً واسمها « اسقف وكفيلد » فتصفحهها جونسون ورأي فيها كثيراً من المحاسن وخرج بها لبييعها له بماله من نفوذ عند تجار الكتب ، وعاد إليه ومعه ستون جنيهًا سدد بها الصدين دينه وأولم بالبقية ١ .

وقد اشترى هذه القصة الشهيرة عام ١٧٦٢ أحد ناشري الكتب الذي لم يكن له أمل في الربح من قصة لمؤلف مجهول فألقى بها بين أوراقه أربع سنوات ثم طبعها على مضض ، فقابلها الانجليز بالترحيب وصرت السنون فأعيد طبعها ألوف المرات ١ وسارت عباراتها تجري الأمثال ١ وعد بها جولد سميث من كبار القصصيين ، وتحدث الناس بأسرة برصروز التي صور جولد سميث حياتها ، ثم ترجمت إلى اللغات الأوربية والآسيوية وقرأها جوتة في صباه وذكر تأثيرها في قلبه وتخيلته حتى

انه تحدث في أوج عظمته عن شجنته لهذه القصة الطويلة وقال إنها أثرت فيه قائرا روحيا مباركا في سماعه من تاريخه الذهني ..

وتصف هذه القصة حياة امرة انجليزية آمنة مطمئنة تعيش بين أعضان الريف في سعادة وسلام يرطها قسيس طيب القلب، ولكن الدهر فاجأها بمعنه فسلبها مالها وأحرق دارها وسلط عليها صاحب المزرعة الفنى الفاسق، فأغرى فتاتها واعتدى على عفتها وزج بالقسيس الذي لم يستطع سداد دينه في السجن. ثم يعود الدهر فيرجع المياه إلى مجاريها بعد تلك التجارب القاسية وتسترد الامرة عنهاها وسلامها ..

ويقدم جولد سميت قصته إلى القراء بقوله « ثمة مائة غلطة في هذا الشيء كما يوجد مائة شيء يمكن أن يقال عنها أنها جميلة ولكن الكتاب يمكن أن يكون مشوقا بأخطاء عديدة ، بل هو يكون ثقيل الظل اذا خلى من سخافة صغيرة . ان بطل هذه القصة يجمع في ذاته الثلاث شخصيات الكبرى فهو قسيس وزوج ورب أسرة وهو مستعد أن يعلم وأن يطيع وهو قليل المال وعظيم في شقائه وفي مثل هذا العصر المترف: من ذا الذي تعجبه مثل هذه الشخصية ؟ طوئلك المهرمون بالحياة الراقية سيديرون ظهورهم لمجلسه البسيط بجوار المدفئة ، والذين يرون في النكته قحة ان يجردوا في حديثه البريء ذكاء ، والذين شبوا على السخرية بالدين سيضحكون ممن يرى عزاءه في حياة مستقبله »

فؤلفات جولد سميت مثل قصة حياته كلها محبة إلى النفس تثير العطف لأنها صوره من حياة بشرية فيها الضعف والوداعة وفيها الرضى بكل ما تأتى به الأيام وكلنا يحب صوره الحياة ذات النقائص لأنها تمثل حياة كل منا وليس الكمال من خواص الحياة البشرية ..

إن الكثيرين من الأدباء لاسيما الذين يرتزقون من قلمهم سيمعزون ولاشك بهذه الصورة التي أجهلنا فيها حياة جولد سميت وآثاره . فان الناس في كل زمان ومكان كثيراً ما يخطئون فهم الفنان ويبخسون حقه بل كثيراً ما يتركونه يموت جوعا وعرياً إلا أن الزمن دائماً يشار

الفن والأدب ..

فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .



ساعة مع شللي

كان للشورة الفرنسية أثر جلي في أدب القرن التاسع عشر . وكثيرا ما صادفت مبادئ الثورة هوي في قلوب الأدباء لاسيما الشعراء الذين استهوهم تلك اللفاظ الفاتنة التي دوت يومئذ في الفضاء مع صليل السيوف ، وهل ثمة أرق على مسامع الأديب من كلمات الاخاء والحرية والمساواة ، وسحق الطغيان وتحقيق ما للإنسان من حقوق طبيعية ؟ تلك الكلمات الشعرية التي يتغنى بها البشر في كل حين نون أن يعمل أحد على تحقيقها .

ورأى الأدباء أن هذه الثورة الفرنسية انما جاءت لتحقيق آمال البشرية في الاخاء العام والحرية المنشودة ولكنهم ما لبثوا أن تفرقوا ازاء حوادثها الدموية شيعا ومذاهب ، فمنهم مثل وردسورث وكولردج وسوئي واندرية شنيه ، من اشمازوا من فظائعها وضاقوا ذرعا بأهوالها فارتدوا الى القديم ينشدون فيه الهدوء وحسن الدماء ، ومنهم مثل شللي من رأي في خيبة فرنسا خيبة لتلك المبادئ الجميلة فتحمس للثورة وأخذ ينادي بعبادتها في قصائده وأغانيه وتحمس لاصلاح العالم وظن وهو في ذلك الشباب الحالم والخيال الشعري أنه يستطيع هدم الجبال وتغيير العقائد والقيام بالاصلاح الاجتماعي والديني والسياسي ! بينما كان يبرون مهاجم بدوره السلطات القديمة ويحاول هدم أسسها دون أن يكلف نفسه مشقة بناء أسس جديدة ١ .

إلا أن أوضح آثار تلك الثورة في الأدب الانجليزي عامة وفي شعر شللي خاصة هو ذلك الفيضان الذي غمره بالعواطف المضطربة والافكار الجديدة النائرة ، فأخذ شعراء القرن التاسع عشر يستمدون من تلك الانفعالات التي اجتاحت المجتمع يومذاك ما جعل شعرهم يفيض حماسة وقوة وشعورا .

وكان من نتائج ذلك الانقلاب عودة الشعر الى أحضان الطبيعة ليندمج فيها الروح البشري ويلقى فيها الشعراء أما يستوحونها الهامهم ويصورون محاسنها ويتأملون في عجائبها ويلقون عندها العزاء والسلام النفساني . كما كان من نتائجها أيضا أن رزف الشعر في فضاء الحرية الواسع فتحذرت أساليبه وآراؤه من كل القيود . .

وهكذا صدر شعر شللي وسط تلك المؤثرات فكان شللي بذلك ابنا للثورة وكان شعره صورة لتلك العصر النائر فلا عجب أن رأيناه طوال حياته يتمرّد ويثور في صباه يأبى أن يخضع لأنظمة الدراسة أو أن يسير وفق المنهج الذي وضعه أساتذته يلقيهم بالطغاة وهب ينساوي سنن التعليم وعلوم المدرسة ويثور على الدين وتعاليمه وينشر ككتيبا في ضرورة الاتحاد فيطرد من المدرسة

ويخرج ليثار على مهاجمة المجتمع بأرائه المتطرفة التي ينظمها بين آونة وأخرى مكسوة بأساليب الشعر والخيال . .

وتعرد شللي أيضاً على الماضي وتعاليدِه وأنظمتِه ولم تهزِه تلك العصور الشعرية المزخرفة التي نقلها سكوت عن مشاهد العصور ، ولا تلك الأحلام الذهبية التي رآها كيتز وراء أطلال الماضي السحيق . بل تناسى ذلك الماضي وما فيه من خير وشر وعقد آماله على مستقبل سعيد يتطور فيه الانسان حتى يبلغ قمة الكمال . وقد رأى أن هناك أفراداً يتميزون بالنبل والكمال في كل عصر من عصور التاريخ فيقول « لماذا يوجد هذا الانسان النبيل بمفرده بين الألوف ولم لا تكون كل البشرية هذا الواحد ؟ » بهذا التعليل الشعري بنى شللي عقيدته في كمال البشرية المستقبل يوم تصبح الأرض فردوساً سعيداً . إلا أن هذا الكمال المنشود لا يأتي في رأيه عن طريق الحكومة أو الدين ، إذ هو لا يثق بنظام الحكومة لأنه بدعة من صنع الفرد ، وهو لا يثق بالدين لأنه يرى بين أعمال الدين وجوهره تناقضاً ، والكنيسة في رأيه قد بشرت بذلك العصر الذهبي الذي يحلم به لكنها كرمست قواها للتمتع بسلطانها . وهو يرى في الدين وفي الحكومة قيوداً واغلالاً اخترعتها الأقلية لأخضاع الأ كثرية فهما بذلك عقبتان في طريق التقدم البشري والواجب زوالهما ورغم سخرية شللي بالاديان والعقائد والأنظمة فإنه لم يكن في أعماق نفسه ملحداً وإنما كان يطمح في الواقع إلى تطهير العقائد من شوائب الفساد والاثرة وقد غلبته طبيعته الروحية وأثار تمرده روحه القلق المتطير في أجواء بعيدة عن الأرض وماديتها ، كأنه شعلة تائهة لا تستقر في مكان . .

وأجمل مافي شللي غرامه بالحرية وندائه بها وتبشيره بالآخاء والمساواة وهو في قصيدته الكبيرة « برومسيوس » أجمل منظوماته التي قصدها أن تكون بشاره جديدة تحمل محل الدين ! يبسط شللي عقائده في الدين والسياسة ، ويعلمن سخطه على القانون وقيوده ، متجاهلاً أن القانون والمادة انما قاما أثناء تطور العالم ليفيا بحاجة الانسان . وظن شللي أنه بندائه في شعره بالآخاء العام يضع دينا جديداً وما كان الاخاء العام يوماً بدين جديد فهو عقيدة كل الاديان ومبدأ كل المفكرين بل هو نداء الثورات . ولا نخال شللي قد آتى في كل مبادئه وتورته بما لم يأت به روسو من قبل ويبسطه في مؤلفاته بجلاء ووضوح وحماسة . .

ومظهر آخر في شعر شللي نراه أيضاً في شعر ورد سورث وكتب روسو هو الاشتراك في العراطف والاحساسات بين الطبيعة الصامتة وروح الانسان ، وقد كان هذا الاشتراك كائناً بين الطبيعة والانسان القديم إلا أن انسان اليوم قد أهمله . على الرغم من أن في ذلك الاندماج خيراً كبيراً مادام روح الحب في الانسان يقتزن روح الحب في الطبيعة . وهكذا آمن شللي بطبيعة حية لمحبة وكان

من جراء ذلك الايمان مانظمه من غرر القصائد في وصف الطبيعة والهيام بها ..
 ويلاحظ في شعر شلي أنه تموزة الدابة والروح النسكة مثل شعر ورد سورت وملتون. وأن
 في كثيره تناقضاً وتقطعاً سببه الازمالات في مراجعة المنظوم كما كان دأب يرون . إلا أن اسلوب شلي
 رقيق سهل يعبر بجلاء عن مواهبه ونبوغه وأن كان شعر يرون أمواج مزبدة فإن شعر شلي في
 الجملة نسات وموسيقى ..

وقد انقسم الناقدون في تحديد مركز شلي الشعري كما ذهبوا في شعر يرون فدعاه سوينبرن
 بالسماوي بينما دعاه متى ارنولد بالموسيقيار الذي تنقصه القوة الذهنية . وقد قال أحد الناقدين « أنه
 يكفي المرء أن يقرأ لشلي أغنيته « إلى الريح الغربية » فيصبح من المعجبين به . والحق إن شلي
 شاعر الشباب الذي تنفخر له كل خطيئة وليس في شعره إلا كل جمال وخير فلقد كرس حياته
 القصيرة في التبشير بالأخاء العظام ، وبالمساواة بين الانسان وأخيه الانسان وبين الرجل والمرأة ،
 وبالعطف على الفقراء والضعفاء ، وبالحرية الفكرية ، وبممارسة الفضيلة والاخلاص ، وظل يحلم بطوبى
 للبشرية يسودها الحق والكمال والأخاء ، يتغنى بالمثل العليا في الجمال وينظم غرر القصائد في
 وصف الطبيعة فمن مناجاة قنبرة إلى مناجاة الريح الغربية إلى الاشارة بجمال الوحدة إلى التحدث إلى
 القمر قائلا : « أمن تعبك وكلالك قد علتك تلك الصفرة وأنت تتسلق السموات وتنظر إلى الأرض
 طائفاً وحيداً وسائحاً فريداً بين جماعة النجوم الغرباء عنك ، وأنت دائم التبدل ككعين الساخط
 المحزون التي لا تصادف حسنة ولا تقرر على مستقر ؟ »

ويخلص وحيداً عند عرش آله الشعر ويقول : « الشعر صورة الحياة معربة عن حقيقتها الأزلية
 وهو المرأة التي تري المشوه جميلاً . . ان المنظومة الكبيرة هي نبع يفيض أبداً بهجة وحكمة . .
 الهمر ينيط النقاب عن وجوه الجمال المستترة ويترك المؤلف العادي كأنه غير المؤلف لما يخلعه عليه
 من بيانه حلة ساحرة . الشعر امم الأبواق التي تنفخ بها إلى القتال وهم المشترون الذين لم يعترف الناس بهم . »
 ويلجأ شلي إلى إيطالي يستظل بسماها الصافية ويستلهم صورها الطبيعية وهناك تحت تلك السماء
 فظم خير ما جادت به قريحته من شعر فمن قصيدة « جوليان وما دالو » التي يذكر فيها حديثاً بينه
 وبين صديقه بيرون في تلك الربوع ، إلى درامة « بروميشوس » التي ينشد فيها الجن وتتحرك
 الأشباح وتغنى الأرواح وفي تلك الاسطورة التي نسج فيها شلي على ميثولوجية اسكيلوس القديمة
 يرمز الشاعر إلى البشرية التي يعذبها الطغيان ويعزبها الأمل والايمان ويقويها الحب . . إلى مرتبة
 « ادونيس » الشهيرة التي تعد بين أعظم مراثي الانجليزية مثل ليسانيداس ملتون ومرثية جراي
 ولانكري لتيسون ونيرسيس لمي ارنولد . وهي تلك المراثية التي بكى فيها شلي صديقه الشاعر

كيتز الذي مات مصدوراً في ريمان العمر، إلى فاجعة « سنسي » المفزعة ، إلى قصائد : ساحرة اطلس ،
وأنهودة إلى المريخ ، وإلى السحاب ، إلى غيرها . . .

أما قصيدته « الاستور » وهو اسم اغريقي للشيطان منتقم يجر فريسته إلى الأماكن القفراء ،
فإنها تصف الأرواح الوسيطة . . . وتقول زوجة شلي أن زوجها كتبها في انتظار موت عاجل وفي
حرقة الخيبة التي سببها سوء حفظه في حياته الأولى ، وهي مثل قصيدته « ايبسشيدون » تكشف
عن سريرة ناظمها وهو يحاول عبثاً تصوير المثل الأعلى للعحسن الكامل ، وقد رأى شلي فيما بعد أنه
من العبث البحث وراء هذا الضال ! كما تكشف قصيدته « ثورة الاسلام » عن عقيدته في الصداقة
ومبدؤه في مساواة الجنسين ورغبته في ثورة غير دموية وثقته في أثر الفصاحة والحجة في إثارة الأمم
ومذهبه النبائي ومقته للطغيان والجبروت لاسيما الديني . . .

ويرينا مقاله « الدافع عن الشعر » آراءه الحماسية في الشعر والمفاضلة بينه وبين سائر فنون
الكتابة من قصة ودرامة وفلسفة . والشعر في رأيه شيء آلهي إذ هو مركز ومحيط دائرة المعرفة . .
هو الذي يمنح الخلود لأجمل وأحسن ما في العالم . . . والذي يسمو بجمال أحسن الأشياء
ويهب الجمال لأحقرها . . . هو في رائحة ولون الورد في صياغة العناصر التي تتألف منها . . .
هو في مظهر الجمال الحلي لافي الوقوف على دنائله وأسرار . . . هو ملكة لا يمكن اجهادها نزولاً
على رغبة الارادة . . . هو ابن الغريزة والفطرة . . . هو السجل الذي دونت فيه خير وأسعد سمات
العقول السعيدة الحسنة . . . هو يحطم القيد الذي يرغمنا على الخضوع للمؤثرات المحيطة بنا . . .
ويخلق وجوداً داخل وجودنا . . . وليس الشعراء خاضعين لقوانين لانهم أرواح سامية ولو كانت
خطاياهم حمراء كالقرمز فإنها قد غسلت في دم الزمن القادي الغفور وأصبحت بيضاء كالثلج . . .
وقليل هم الشعراء الممتازون الذين عبروا عن جمال أخيلتهم في صدق وجلاء بارزين . . .

ومات برسي بيش شلي غريقاً بإيطاليا عام ١٨٢٢ في الثلاثين من عمره . .

لقد كانوا ثلاثة من الشعراء الانجليز ، هم بيرون وكيتز وشلي ، ظهروا في عصر واحد وماتوا
جميعاً في فورة الشباب وكانت حياة كل منهم مثل شعلة أضواء الفضاء فجأة ثم خبا نورها سريعاً ،
ولكن على الرغم من حياتهم القصيرة فقد خلف كل منهم ديواناً من الشعر الحلي الملهب كان له أثره
في تجديد أدب القرن التاسع عشر . .

ساعة مع تينيسون

ساعة تقضيها في هدوء مع تينيسون الوديع كالحمامة ، الشادي كالعندليب ، الجليل كالبحر ، فتمر أمام المسيلة أشباح تلك الأيام التي قضاهما الشاعر في طفولة ذات سراج وأحلام ، وشباب يفيض بالبسات والدموع ، وشيخوخة هادئة متوجة بالمجد والكرامة . .
فتراه في طفولته راقعا في ريف « لنكولنشير » ذي الحدائق والحقول ، في بقعة خلج عليها الجمال حلة فضفاضة منمقة يشيد الشاعر بذكرها قائلا :

« واحداها نهر ممتليء ملتو يسير على سهل بين مراعي وفوق سهل لانهائي
حيث تتمخض حوامشي الرعد الخشنة عن خطوط المطر ذات الظلال
والاخرى دار انجليزية ، حيث يصب الشفق الأشهب فوق مروج وأشجار مبللة بالندى
الناعم كالنوم

وكل شيء قد رتب بنظام كأنه مأوى للسلام القديم . . »
هناك نرى تينيسون الصغير يقضي حياته الأولى لاهيا بجوار النهر ، منفردا بين المروج مع دواوين الشعراء ناظما شعرا لم يكتبه طفل من قبل . ذلك الشعر الذي يجمعه وينشره على الملأ في ديوانه الأول وهو حدث في الثامنة عشرة

وتمر تلك الصورة فإذا بتينيسون الشاب الذي مع حبه للعزلة بين أحضان الطبيعة لا ينفر من المجتمع الراق ، بل يتخذ له صحبة من صفوة الأدباء في مدرسته ، وقد امتاز بينهم بالشاعرية ودمائة الخلق وحلاوة المعشر ، ولكننا نسمعه في وحدته ينشد قائلا :

« قد هطل المطر فنهض الشاعر وصرا بالمدينة

وكانت تهب خارج الطريق ربيع عالية من بوابات الشمس
وتسير أمواج الظل فوق القمم

وقد جلس في مكان منعزل وأخذ ينشد أغنية حلوة عالية جعلت التم البري يقف في سحابه
والقنبرة تحط عند قدميه ، والسنونو يقرب وثان يطارد النحلة

والحية تنسل تحت العسلوج ، والصقر البري يحمق على منقاره الزغب وقدمه فوق الفريسة

وفكر البلبل قائلا : لقد أنشدت أغان كثيرة ، ولكني لم أغن مثل هذه التريمة البهية

لأنه يغني عما سيكون عليه العالم عندما تتلاشي السنون وتزول ا

وإذا به يخرج وهو في الحادية والعشرين ديوانا صغيرا ثانيا أرق من الأول ، وفيه تلك

الأناسيد العذبة مثل « أنشودة أوريانا » و « ذكريات الف ليلة وليلة » . ولا ينقضى هلمان حتى يتبعه بديوان ثالث من الشعر الثنائي الرقيق المتين بركة الغزل وأبهة الوصف ..
وتنصت إليه وهو ينشد في شعره الغزل قائلا :

« أنها ابنة الطحطان وقد شبت غريرة ، محبوبة .. فليتني كنت الجوهرة التي ترتعش عند أذنها ..
إذ كنت أختفي في غداثر شعرها نهارا وليلا .. وألصق رقبتها الدافئة البيضاء .. وليتني كنت الزنار
الذي يطوق وسطها الأنيق الظريف .. إذ كان قلبها يفيض بجوارى في الأسى والراحة .. وكنت
عند ضرباته أطوقه بشدة وأحكام .. وليتني كنت العقد فأهبط طول النهار وأعلو على صدرها الماطر
في ضحكها وتنهداتها ، فأرقد بخفة ولطف ، وفي الليل لا أخسر عناقها .. »
وينشد ثانية :

« تكسر واصعب أيها البحر على الصغور الشهباء الباردة
فليت للسانى قدرة على النطق بالافكار التي تنبث في نفسي
جميل أنت للغلام الصياد الذي يصبح مع أخته في اللعب
وللعصي الملاح الذي يغنى في قاربه على الخليج
وللسفن الفخمة التي تسير إلى مراسيها تهت التل
ولكن ما أنت للمس اليد الثمانية ولصدي الصوت الصامت !
تكسر وتكسر وتكسر أيها البحر عند أقدامكم
فهيهات لجمال يوم تقضى أن يعود إلى ثانية .. »
وينشد : —

« تعالى إلى الحديقة يا « مود »

فلقد ولّى الليل كخفافاش أسود

هلمى إلى الحديقة يا مود

فأنا وحيد هاهنا عند البوابة

وأزهار العسل تتموج خارجا

وقد تضرع مسك الورد

لأن نسيم الصبح يتحرك

ونجمة الحب في الأعالى أخذت تضنى وتبهت في الضوء الذي تحبه

في أديم السماء النرجسى أخذت تبهر في ضوء الشمس الذي تحبه

وفي نورها قضى وتموت . . »

ولكن تنيسون لا يترجم ، لأنه شاعر «اليريك» الذي تسمع في قريضة الفسحام النخمة ، وحلاوة الموسيقى ، وطلاوة اللفظ ، الذي يأخذك ما فيه من هبة في التوفيق بين نغمة الشعر ، وبين الحواس وفي اختيار الكلمات ذات الرقة والموسيقى المتفقة مع المعنى الجليل . وكل ترجمة لذلك الشعر لا بد أن تقضى على ما فيه من تلك الميزات .

وليس هذا كل ما عند تنيسون إذ ليس في شعراء الانجليزية من يفوقه في تصوير مناظر الكون ومشاهد الطبيعة ، بألوان واضحة ودقة عجيبة . واليك قصائده « قصر الن » و « النسر » و « مصاء سنت أجنيس » ووصف جزيرة شالوت وجزيرة الفاكهة في ميلديون . هو شاعر هائم بالطبيعة حتى حجب إلى الانجليز بلادهم ، له قوة في ملاحظة ألوان الكون ودقائق المحاولات كأنه عالم طبيعي . .

وهو شاعر يقدر الصفات البشرية النبيلة والسجيا الفائضة بالكرم والنخوة والدمائة . . وهو شاعر التفنن في الأوزان وموسيقاها . وإذا كان الشعر كما قال شلي ، هو « صورة الحياة معربة عن حقيقتها الأزلية والمرآة التي ترى المشوه جميلا وهو الذي يزيح النقاب عن كل جمال خفي للعالم » ، فإن شعر تنيسون هو متعصف فني لصور الحياة الطريفة ومشاهدها البديعة . . ويموت أعز صديق لديه فيحزن عليه سنوات طوالا ، ويحج العزاء في الوحدة وفي نظم قصيدته الطويلة « للذكري » التي تعد أرق مرثي الانجليزية ، وهي مرثية هادئة مزج فيها الحزن بالتأمل ، والالوعة بالتفكير ، فلم تخرج صرخة حارة ، مثل مرثية شلي لصديقه كيتز المسماة « ادونيس » أو مرثية ملتون « ليسيداس » بل هي تأملات عميقة في سنين عديدة في سر الموت وفي الصداقة التي لا يفصل الموت بينها ، وفيها كشف تنيسون عن خفايا قلبه ودخائل حياته ، وعن أفكاره وما يراه في مسائل البشرية والحب والأسى والايان والشك والندم والاستسلام . .

وهناك في دار ريفية منفردة على ساحل جزيرة وايت ، يعيش بعيدا عن المجتمع تسير به السنون إلى الشيخوخة والشهرة التي تجاوزت ذكرها الآفاق . وما مرعاه إلا وخطات تنيسون نحو المجد خطوات واسعات ، فهبت أمته محترفة بفضلها وقدمت له لقب اللوردية . وفي ذلك المجد وفي تلك الشيخوخة لم تذبل أزاهير الشعر في قلبه بل ظل ينثر على رؤوس العالمين ورد الحكمة وأزهار الشعر ، ويأتيه الموت كملك وديع وهو شيخ في الثالثة والثمانين فتفيض روحه مخلقا وراءه ديوانه الرشيق ذا الصور الرائعة والقصص الشائقة والمرثي الأليمة والغزليات الشهيرة — غزليات تنيسون التي يفشدها الكبير والصغير . .

شاعره مع انديده حبيب

لانسكاد ننفرده مع ديوان هذا الشاعر وننصفحه قصائده حتى تعود إلى مخيلاتنا ذكرى الخاتمة
الاليمية التي كافأ بها الفرنسيين شاعرهم الصادح !
وإذا نحن في يوم من أيام صيف سنة ١٧٩٤ من تلك السنوات التي انقلبت فيها فرنسا إلى أتون
متأجج ينفث الشرر في كل الربوع ، وإذا بجلالدي الثورة المتعطشين إلى الدماء يتسهبون شطوط حبيجة
من كهوف سجن سان لازار ، الممتلئة بضحايا ذلك الوباء السياسي يومذاك ، حيث جلس شاب في
الحادية والثلاثين من العمر ، وسيم الهيا ، عظيم النفس ، ممتلئ الروح بالشاعرية والجرأة ،
ينظم سرثيته المؤثرة . ويفتظر الموت بجهنم ثابت ، متمسكا بأبيات نظمها في وحدته الأخيرة
وفيها يقول :

« أنى اليوم على أهبة الانحدار إلى القبر
فيا صاحبي أستودع رمادي بين أيديكم
إذ لا رغبة لي في التمربل بكفان محزنة
ولا في كهنة قديسين يصابون بلهجة متوانية مكفهرة مثل طنين النحاس
وبغناء رثائي يصحبون ظلي
وتحت جدران مباركة يدفنون حياتي وغنيمي وكل ذكرياتي
.....

أموت . وقبل المساء تنتهي مرحلتى
وهند انبلاج الصبح تذوي وردتى
لقد كانت الحياة لدى حلاوة متقلبة
وما كدت أذوقها حتى وصلت إلى الموت
لكن . سيبقى رمادي ناعما

فان قادم مرة منحدر متصلف نحو قبراضطجع فيه
هلا تفكر عيونكم في رؤية صديقها .. »
ثم يتخيل الشاعر نهايته عند المقصلة فيقول :

« مثل آخر أشعة وكآخر نسيم ينعش نهاية يوم جميل . هكذا أبحث عند قدم المقصلة
من قيثارتى

فعما قليل يأتي دوري ..

إن نروم القبر يذلل جنفي . وهذه الأشعار التي أبدوها هي الأخيرة ...
ويقوده الجلادون إلى الموت فيقول لهم :
« لم أترك شيئاً للخلف » !

ثم يصمت ويقول : « ومع ذلك فلدي شيء هناك » !

وما هي إلا أن فصلت المقصلة التي استشهد عليها دانتون وشارلوت كورداي وغيرها من
آلوف الشهداء والمظلومين رأس الشاعر أندريه شنييه فسالت دماؤه على الأرض التي نهلت من دم
هايل وارتوت بدم الناصري من قبل ..

هكذا أهلكوا الشاعر لكنهم عجزوا عن هلاك اسمه وذكره ..
وما كان شنييه عدواً لتلك الحرية التي لا كتبها السنة الثورة الموجهة إذ كان بين أنصارها يوم
رأي في تلك الثورة عهداً للحرية الشخصية ، حتى إذا ما رأي ما جلبته تلك الزوبعة على بني وطنه من
ويل وثبور انقلاب معضداً للويس السادس عشر طامساً أن ذلك إنما يكلفه رأسه ..
هكذا تعود إلى مخيلاتنا تلك الذكرى ، كما تحضرنا أيضاً ذكرى مولده عام ١٧٦٢ على ضفة
البنفسور من أم يونانية حسناء لقنته لغة بلادها وحببت إليه آدابها ، فشب يعجد آلهتها ويمشق
قصصها ويترنم في شعره بأسماء أبطالها وبلادها ..

ويرينا شعره أنه قرأ الأدب الإغريقي مثل كل أديب أوروبي كبير ، فوجد في شعراء اليونان
أساندة يقفون أثرهم كما فعل ملتون وكيتز وشلي وجوته . لكنه ضمن كثيراً من أشعاره
« الكلاسيكية » أفكاراً قشبية ومواضيع جديدة مثل « فرساي » و « الأسيرة » . كما أنه وهب
شطراً كبيراً من قلبه إلى بلاد أبيه فأحب فرنسا وشاركها في ثورتها وسفك دمه فداء عن
سلامتها ، بعد أن فظم غرر القصائد في الوطنية مثل « إلى فرنسا » و « إلى شارلوت كورداي »
و « لعبة الكف » ..

وقد أدى به إعجابه بالميثولوجيا الإغريقية أن يكثر من ذكر أسمائها كما فعل هوراس من
قبل ، ومن مناجاة الآلهة والتغافل في مطاراتها ، وقليل من القراء من يعرف تلك الأسماء
وأساطيرها ، فلتأخذ له قمة سامقة ترمقها العيون من بعيد حتى ارتد عنه البعض عاذلين . ولا لوم على
شاعر ملتهب الخلية مثله في ذلك ، وهو المتعطش إلى المثل العليا ، والطارف في ملكوت الآلهة ..
والحق إن ذكر الأسماء الميثولوجية — في الشعر — مما يعين الشاعر على تصوير الجمال

وأبهة الالهة ، ويسيد إلى منغيلة القاريء تلك الصور القديمة الرائعة صدور العصور الشعرية الالامعة التي رقصت فيها عرائس الفنون عاريات ، وبدت فيها الأشباح العجيبة ، كأنها أحلام الروح الحائم في هدوء اللانهاية والمرغرف في ضياء القمر مع نبات الامواج وحور الغاب ، ولكنها ليست ضرورة قاسرة في الشعر . ولا هي مستساعة في عصرنا الحاضر الذي تطورت فيه مقاييس الأدب وأغراضه فجميل أن نسمع أندريه شنييه في قصيدة المريض ينادي ربه الشعرى بلسان أم حزينة قائلاً . « أي أبو لاني الآله المتخلص ، العالم القاهر ، بالأسرار آله الحياة والنبات الشافي ، اشفق على ولدي وابني الوحيد . اشفق على أمه الباكية التي تعيش من أجله فاذا مات باتت مهجورة ما كان ان تبقى لترى ولدها يموت . أيها الآله الشاب هلم وأعن شبابها ، وأطفئ في جوفه لهيب تلك الحما التي قفّلت زهرة حياته البريئة » . .

وجميل أن نسمع بقراءة تلك القصيدة التي يصف فيها الأعمى التائه هوميروس بوصف رائع وشعر خلّاب ويفتتحها بقوله :

« اصغ يا آله كلاروس ياذا القوس الفضى يا ابو للون »

وفيها ينعت أبا الميثولوجيا هومير بالنبي الفصيح شارب « النكتار » وتلميذ الآله المحبوب . . الذي رأى كورنث وارجوس وكريت والمدائن المائة ونهر مصر . .

ويناجي كروميس بلسان الحبيبة قائلاً :

« اسرع يا كروميس الفتى ، أنى أحبك . أنا جميلة ربيضاء وخفيفة مثل ديانا ومثلها عظيمة ومتباهية »

كما يناجي باخوس آله الخمر بقصيدة رشيقة يستدعيه ، كما يبدو في فيافي ناكسوس بعروته العاجية وبوجه كوجه العذارى . .

وهكذا عرف شنييه مثل أساتذته الاغريق سر الرشاقة الساذجة ، وأحبها مثلهم كما شابههم في عبادتهم الحواسية والترنم بألهتهم ، فأضحت الطبيعة الحسنة ، وما في الأرض والسماء من حوار ومواكب ميثولوجية هي عقيدته وديانته وانها لديانة الجمال والفن . .

ولكن ثمة كآبة تبدو آثارها في جل أشعاره ، هي كآبة الشعراء المبهمة التي ترجع الى الحنين الى ما وراء الوجود ، والشعور بالانفصال النفساني ، وهي نتيجة ما انتاب صمغته من ضعف فأوحت اليه تلك المرآة الفائضة بالدموع ، وتلك القصائد التي يصور فيها المريض والحزن والموت ويقول في إحداها . .

« يا أيام ريعي المتوجة بالورد »

كم ناوأت هروبك حسرة ملويلة !
 أيتها الأيام الجميلة لقد عرفت فيك كيف أنعم في أحضان الآلام !
 ولو أنك كثيراً ما حجبت بكائي بالظلام
 عما قليل ستذوي أزهارك فوق رأسي
 وآسفاً - عما قريب سيهدك غنى مر السنين المتعاقبة
 وتسلبك مني فلا تعودين . . . »
 ونسمعه يناجى الليل منشداً :
 « سلام أيها الليل الجميل ، المقيم البراق
 المقدم ذاته فداء عن الراحة . يا صمت الظلال
 الذى لا يستمع الى غير صوت أشعاري
 وغير صراخ الشاطئ ، الرمل حيث تتكسر « تيتيس »
 اعطنى قيثارتى أيتها العروس - عروس الليل
 أنك مثل شهاب متباه ، وفي هذيانك المحرق تخترقين الحيز
 وفي اجتيازك الهواء تتخذين أجنحة الرياح وأجنحة البروق
 وتبين كما يشب نجم مذنب ذو شعر طويل من هيب
 إن أشعاري القلقة تثب من روحى
 تريد أن تناجى الالهة وتطير حيث تضىء ابنة الليل الجميل كهامة تائهة
 يادرى أيتها الطبيعة العظمى يا ام العبقريّة
 أمرعى يامليكة العالم أي « اورانيا » الخالدة . »

أرى شبها وهمة بين أندريه شينيه الشاعر الفرنسى وبين جون كيتز الشاعر الانجليزى ، فالثانى
 ولد فى بحر سنة بعد موت الأول . وكلاهما مات فى ريعان الشباب ونفصرة الجمال . وكلاهما يعشق
 الأدب الاغريقى ومثولوجيته . ويظير مع خيال شعراء اليونان ويعبد معهم آلهتهم ويخضع أمام
 نماذج الجمال التى صوروها ، ويغذى شعره بفنهم . ولكليهما فصيحة شهيرة فى تمجيد هوميروس
 وتقديسه . ولكليهما روح هو شعلة مضطربة تنير أرجاء الفضاء وتحوم حول عرش الجمال ولا
 تجدد عزاء فى غير العصور الاغريقية المعجبة الألوان المتلائة الأضواء :
 روح جميل فى جسد جميل !

ساعة مع أوسكار وايلد

للأدب درجات في السمو والفضة والنفع والضرر ، والأدباء درجات أخرى فمنهم السماوي الموهوب برسالة عظيمة مثل ولز ورومان رولان ، ومنهم المنحط مثل أبي نواس والتر باتر وأوسكار وايلد ، ومنهم من يغير مجرى الحياة بقلبه ومنهم من يحبو على شاطئ الأدب يلهو بالأصداق والخصى ..

وأوسكار وايلد هو أحد الأدباء الملقبين بالمنحطين الذين ظهوروا بالبحر في القرن التاسع عشر متأثرين ببعض الأدباء الفرنسيين فثاروا على تقاليد هذا القرن التي دعت إلى التمسك بالعرف والعادات وكراهة البدع وسلطات الحواس ، لكنهم تغالوا في الثورة ..

وقد سبقه والتر باتر في الدعوة إلى الوثنية الأغريقية والعودة إلى الطبيعة وإطلاق الحرية لميول الإنسان ، وتبعه وايلد بفجر بمبادئ أدبية غريبة ، وأثار عليه مسلسل الشاذ انتقاد صحابه والشعب الانجليزى المشهور بمحافظته على العادات والأخلاق الموروثة ، ولكنه كان يأول سلوكه بأنه يطلب الفن من أجل الفن ، وينشد الجمال والتمتع به وبما يوحى به الفن إلى النفس من لذة في سبيل لذة التجربة والاختبار ، دون اعتبار العرف والأخلاق ، التي ما هي إلا عادات مصطلح عليها قابلة للتحويل والتغيير ..

وسلوك الفنان في حياته الخاصة مسألة ثانوية في نظر الناقد للأعمال الفنية التي يخلفها الفنان بعده ، لأن هذا السلوك يذهب بذهابه ، ولكن إذا كان لذلك السلوك أثر في تلك الأعمال ، كأن تبقى منها مسحة تشين تلك الآثار ، فانها تلصق بالفنان وتخلد معه اذا قدرت لأعماله الخلود ..

والاغريق كانوا يدعون الى الجمال والصراحة واللذة والحرية ، ولكنهم لم ينحطوا في أعمالهم الفنية إلى الدرك الذي يشين الخلق النبيل ، أو يمس الشهامة والنخوة والرجولة . وكانوا يقدرون الحياة الحسية ولكنها لم تسم في اعتبارهم على الحياة الذهنية ، التي يرقى بها أفلاطون الى أعلى سماء ، وكان منهم من يدهو إلى اللذة مثل ابيقور ولكنها اللذة السلبية لا الحيوانية كما يخطئ فهمها الكثيرون وبهذا لا نعثر بين فناني الاغريق بذلك الاباحى المستهتر ولا بالعرييد الفاقد الارادة والرجولة !

ويذهب البعض بأن أوسكار وايلد هو مبتدع فلسفة الفن الجميل . ولكن هذا الرأي مردود مادنا نعتقد كما يعتقد الكثيرون ، أن مبتدعيه هم اليونانيون القدماء الذين بعثوا الجمال وخلقوا الفن وفلسفته

كما ابتعدوا عن فلسفة الحياة والموت ، وما أوسكار وايلد إلا فنان اغريقي النعمة درس الاغريق وتعلموا في أغوار الوثنية الاغريقية وعشق شعركم ورموزكم وميثولوجيتهم ، فتشبعت نفسه بهمهم وخرج منه باكتشافات عمور فيها وبدل تبعا لزاوية الفاري وحواسه المضطربة ، وأخذ يقول :

« إن الفن عندنا من القمر وليس مع الاشباح الوهمية . أما الفن الاغريقي فن الشمس وليس مع المراتبات والشجعات » . « لشد ما أحسن إلى رؤية كل منظر طبيعي عظيم كالبحر وهو أبى كما أن الأرض أبى . يبدو لي أننا ننظر إلى الطبيعة صككياً ونشاهدها مراراً ولكننا لانعيش معها إلا نادراً وقليلاً . أتى لا رى عقلاً كبيراً راجحاً في الحالة الاغريقية ، فالأغريق لا يثرثرون في وصف غروب الشمس أو يتجادلون إذا كانت الظلال بلون أرجواني بديع أم بنيره . . »

وقد استعار في اسلوبه حياته وكتابته شيئاً من كنه الفلسفة الابيقورية القائلة بأن الاحساس هو مصدر المعرفة ، وأن آثاره تبقى في الذاكرة وأن الحواس لا تخطيء ، أما الرأي فعرضة للخطأ ، وأن الكلمة لاعلاقة لها بالعالم فلا يخشى منها شر أو يرجى منها نفع ، وأن الخير في اللذة . وهنا لا يفرق أوسكار وايلد ، كما فرق ابيقور بين اللذة الايجابية الجسدية التي لا يجب أن تكون في رأي ابيقور غاية وغرضاً في الحياة ، وبين اللذة السلبية المجردة التي تؤدي بالمرء إلى الخير والسعادة والتي يجب أن تدحض في سبيلها الرغائب البشرية السكالية التي لاتجلب غير الاضطراب الذهني . فهو يري اللذة سواء أكانت ايجابية أم سلبية وسيلة وغاية ، وهو لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة في الفن ، فهما معا في نظر الفنان مادتان للفن ، كما أن الفكر واللغة آلتا الفن للفنان . وعنده أنه لا يوجد ما يسمى بكتاب خلقي أو غير خلقي ! فالكتب أما مكتوبة جيداً أو رديئاً ، هذا كل شيء ، وأنه ليس هناك فنان ذو انعطاف خلقي ، فالليل الخلق في الفنان حالة في الاسلوب لا تغتفر . وليس هناك فنان معتل إذ يمكن للفنان أن يعبر عن أي شيء ، وأن حياة الرجل الاخلاقية تكون جزءاً من مادة الفنان ، ولكن الخلق في الفن يكون في استخدام وسيط غير كامل

أما فلسفة الحواس ووضع الحياة الحسية فوق الحياة الذهنية ، فتكون شطراً كبيراً من فلسفة وايلد الفنية . وقد أشار اليها في جل مؤلفاته ، لاسيما في روايته « دوريان جراي » و « الملك الصغير » . وقد عمور في الاولى شاباً ينافس ادونيس في الجمال ، يري الحياة أول وأعظم الفنون ، ولا أجها تبدو جميع الفنون تمهيداً لها ، وقد أراد هذا الشاب أن يخلق عوالم جديدة في الحياة ويكتشف جميع بواطن لذاتها ، ويستخر كل حواسه في استجلاء تراكيبها واختبار عناصرها وامتلاك جمالها ، حتى أنه أخذ يدرس العطور وأسرار صناعتها ، والموسيقى وخفايا نغماتها ، والجواهر وما قيل فيها من عجائب وأساطير ، واقتنى التحف والابسطة والملابس والأزهار والمطرزات ، كما أخذ يقرأ الكتب النفيسة

وَيَدققُ النظرو في رسوم الكورن المتباينة . وقد رأى دوريان جرائ أن الناس كثيراً ما ذموا عبادة
الحيواس بلا عدل، وشسروا بشريزة طبيعية بالرعب من الشهوات والاحساسات التي تبدو أقوى منهم،
ولكن دوريان يرى أن طبيعة الحيواس الحقيقية لم تفهم بعد، وأن الحيواس إنما بقيت في حالة وحشية
لأن السلام سبى في اخضاعها وجماعتها أو في قتلها بالألم، بدلاً من العمل على جعلها عناصر لروحانية
جديدة يسيطر عليها الجمال . وقد نظر دوريان جرائ في أعماق التاريخ فذعر لما رآه من تمهين
وتعذيب النفس بوحشية، ومن انكار الذات الذي نشأ عن الخوف، وكان من نتائجه سقوط أكثر
هولاً من التحقير الذي هربوا منه وطرح الرهبان في سبيله مع الوحوش كرفاق لهم في البرية . .
فكان أوسكار وايلد في جوهره قد استمد شيئاً من ابيقور لكنه حوره وحرفه كغيره ورام أن
يخرج شاعراً بآثار أمرار الحياة الفنية في حواسه وأعماق نفسه . وقال :

« لقد مللت اعتلاء الذروة ففتشت في الأعماق عن شعور جديد »

« أنى لا آسف على لحظة صغيرة قضيتها في المسرة لاني عشت مغتبطاً ولا يوجد نوع من
السرور لم أرشف من كأسه، ولم قذفت بلؤلؤة نفسي في كأس من الخمر الشهى وانحدرت في سبيل
الفرور والمذات لا تسمع صوت الناي . . »

ولعله أيضاً تشبع بشيء من تعاليم افلاطون في الجمال، المذكورة في محاورتي الوليمة وفيدروس
لكنه أيضاً شوه تلك التعاليم الروحانية وصبغها بمادية وحرارة حواسه، فبينما يرى افلاطون أن
بوجه الحكيم عشقه نحو العلويات بالتدريج فيجد شخصاً جميلاً يبت في روحه المعرفة والحكمة والخير
ثم يوجه التفاته إلى كل من تحلوا بالجمال فيهم بتنقيفهم وهدايتهم، ثم ينتقل إلى الجمال الخلقى وجمال
العلم والأعمال، ومن ذلك يتوجه إلى الجمال الالهى المجرد، اذا باوسكار وايلد يبحث في مخيلته عن
ذلك الجميل الذى يخلق منه فناً يأسر العالم بجماله وحواسه، ويسخر العناصر والجواهر في سبيل
لذته ومتعته، ويخرج منه ذلك الشهاب الاباحى دوريان جرائ الذى تملأ أعماله النفس بالارتباع
والدهشة وتؤدي به حياته إلى الانتحار بدلاً من التأله الافلاطونى ! وسرمان ما يحقق وايلد خياله
ويجد ضالته في شخص ابن اللورد دوجلاس، ولكنه بدلاً من أن يهديه بطريق الفن إلى الأعالى خلق
منه افعواناً مهلكاً سرعان ما انقلب عليه وبعث به إلى الخضم .

فالقنان، كما يصوره وايلد، شخصية شاذة متمردة غريبة الأطوار حرة لا تقيدتها اصطلاحات
ولا نماذج ولا يثبات، يستمد صاحبها الوحي من الهامه الخاص ويبلوره في أى عمل فنى من حلية
تافهة إلى أنشودة موسيقية إلى قصيدة شعرية، وكل ما يسعى وراءه هى الاكتشافات الجميلة في عوالم
الجمال، واستقصاء خفايا مجهولة وراء الفن، لا لغرض أو نفع يعود عليه أو على المجتمع، بل للمتعم
(١٨)

الذاتي المجرد بكل معاني الجمال وعناصر الحياة ، ولو كان في ذلك التمتع هلاكة . فالفن لديه عديم النفع كلية ! والافنان هو خالق الأشياء الجميلة « وأنه يمكننا ان نسامح رجلاً صنع شيئاً نافعاً ولو أنه لا يعجب به ، ولكننا نمتسح البذر لمن صنع شيئاً غير نافع مادام هو يعجب به كثيراً » !
ومن آرائه في الفن أيضاً قوله :

« ليس هنالك فنان يرغب في إثبات شيء ، حتى الأشياء الصادقة تحتاج الى إثبات ، و اظهار الفن والافناء الفنان هو مرمى الفن . . . والناقد هو من يقدر أن يترجم إلى حالة أخرى أو إلى مادة جديدة تأثره من أشياء جميلة . . . واولئك الذين يمجّدون معاني قبيحة في الأشياء الجميلة هم الفاسدون ، والذين يمجّدون معاني جميلة في الأشياء الجميلة هم المتقنون ، هم المختارون الذين تعني الأشياء الجميلة لهم الجمال فقط . . . وتشعب الرأي في عمل فني يرى أن ذلك العمل جديد ومعقد وحيوي . . . هو المشاهد لا الحياة الذي يعكسه الفن في الواقع حينما يختلف النقاد . فالفنان على وفاق مع نفسه . وأعلى مثل مثل أسفل شئنا للناقد وسيلة لترجمة حياة الناقد لنفسه . . »

وكل مؤلفات اوسكار وايلد تدور حول الجمال المودع في الفن وتحليله تحليلًا نفسانيًا بأسلوب براق وألفاظ منتقاة . نرى ذلك في كتابه النقدي « الناقد كفنان » وفي ديوان أشعاره ، كما نراه في كتاب « من الأعماق » الذي ألفه في سجنه ، وفي قصة « دوريان جراي » وفي قصصه الصغيرة المجموعة في كتابي الامير السعيد ودار الرمان ، كما في قصصه التمثيلية وغير التمثيلية ، مثل مهواة السيدة وندرمير ، وامرأة لا قيمة لها ، ولزوم الجدد ، وشالومه ، وجريدة اللورد ارثر سفيل ، وزوج خيالي ، والنيات ، وغيرها

ففي قصته الصغيرة « الملك الصغير » تراه يخلق من ذلك الصبي الراعي . الذي شاعت ظروف القصة أن يتزوج ملكاً ، له نفسية المؤلف الفنية العميقة التي تلتهم خفايا الفن وتتعطش إلى نماذج الجبال فيدعه يسير وحده في أرجاء القصر الكبير ويتجول رغم حدائته وسذاجته « كأنه يشعر بسايقه خاصة أن أسرار الفن لا تدرك إلا في الخفاء وأن الجمال كالحكمة يحجب عابده المنفرد . ويدعه يسجد بعبادة صادقة أمام صورة كبيرة أحضرت من البندقية ، وينظر طويلاً كمن به مس إلى جوهرة يونانية تمثل ادرنيس ، وبعض شفثيه حينما يشاهد جبين تمثال قديم من الرخام وجد في مجرى النهر . ويتركه ليلة كاملة يقضيها في مراقبة تأثير ضوء القمر اللازوردي في تمثال « اندييون » الفضى . ويدعه يبعث تجاراً كثيرين إلى أطصى العالم ليأتونه بالكهرمان من صيادي السمك في البحار الشمالية . ولينقبوا له في مصر عن الفبروزج الأخضر الذي لا يوجد في غير مقابر الملوك . وليجلبوا اليه الأبسطه الحريرية والخزف المزركش من بلاد الفرس . وبالديباج والسندس والعاج الملون ، وأحجار

التمر وأسوار اليشم وخشب الصندل، وسحجر الميناء الأزرق والشيلا المنسوجة من الصوف الهندي .
أما غرفة الملك الصغير فلا بد أن تشتمل على ما يشتهي أوسكار وأيلد نفسه فهي ذات جدران
مخططة بالألوان الموشاة التي تحدث عن انتصار الجمال ، وفي زاوية من الغرفة إناء كبير يحلى بالعقيق
واللازورد ، وأمام النافذة وزارة عجيبة الصنع لها فراوين مصبوغة بمحلول اللك المزين بالتسنيساء
المنهبة ، وقد صفت فوقها أقنوح جميلة من الزجاج الفينيقى ، وبينها كأس من الجوز يهز بهر البصر .
أما ملاة السرير فزينة الأطراف بالخشخاش كأنه سقط من قبضة النور التعبية . وإلى جانب من
الغرفة قامت أعمدة من العاج تحمل تمبريشة تخيلية تخرج منها باقات عظيمة من ريش النعام كأنه
الزبد الأبيض تتجه نحو الفضة الشاحبة في السقف المنقوش . ووقف في الغرفة تمثال لنارسياس
« الاله نرجس الجميل » من البرنز الأخضر يحمل فوق رأسه مرآة مصقولة ، وعلى المائدة طاس
من الجشت . .

وفي قصة « الجبار الأناني » يصور أوسكار الأطفال كأنهم طرف فنية محبوبة ، وأنهم حينما يلعبون
في حديقة الجبار يسيطر الربيع بحاله فوق الحديقة فتنبو فيها الأزهار والكلأ وتنبع أشجار
الخوخ ، وترنم الطيور على أغصانها . فلما يعود الجبار ويطرد الأطفال من الحديقة يهجرها الربيع
ويكسوها الثلج والصقيع .

وفي قصة « الأمير السعيد » يضع أوسكار تمثالا فنيا يحلى بالجواهر وسط المدينة ، وهو تمثال
الأمير السعيد ذو القلب الشفيق ، وكان الأمير يرسل العصفور بالجواهر وصفائح الذهب التي يتحلى
بها ليطير بها إلى الفقراء والمساكين فيرضى العصفور لركة قلبه ، ويضنيه التعب أخيراً فيموت
عند قدمي التمثال ، ويأتي أهل المدينة فيرون التمثال هارياً من الحلى والجواهر ويذنبونه في الآتون
ويطرحون قلبه الرصاصي فوق أكمة التراب ، وفي اليوم التالي يقول الله لأحمد ملائكتك « أحضر لي
أثنى شيئين في المدينة » فيحضر له الملاك : العصفور الميت وقلب التمثال !!

وفي قصة « البلبل والوردة » يصور أوسكار تضحية البلبلة بدمها وحياتها لتصنع وردة حمراء
أرادها الغلام ليقدّمها إلى محبوبته فلما تراها لا تقدر قيمتها وتلقى الوردة في الطريق .

وفي قصة « عيد الأميرة الصغيرة » تلك القصة الرمزية البديعة ، يصور المؤلف الغاية بصورة
فنية بها الأزهار الياقة ذات الشذا المتفوق . والخزامى تملأ بأرجوانها الأودية الضيقة ، والروابي
المعشوشبة والليلك الذهبي ، والسكستنا بمسلاتها البيضاء ، وزهر قفاز الثعلب بأوراقه الرقطاء المدلاة
لتنقل خلايا النحل عليها . أما القزم في تلك القصة فيبدو تمثالا فنانا يجيد الرقص ويصنع أقفاصا
صغيرة من البردي ويضع الجندب ليغنى فيها ويصنع من الخيزران صرماًواً حلو الصوت ويعرف

صراخ الطيور وأصواتها وبنادى العندليب من ذوائب الشجر ، ويتنغم أثر الأرنيب والخنزير البري ،
ويصنع مقعداً من الكرز الأحمر ، ويحضر كؤوس البلوغ وشقائق النعمان واليراع الصغير اللامع .
وحينما يرى صهودة القبيحة لأول مرة في المراة ينفطر قلبه ألماً ويموت .
وفي كتابه « من الأعماق » يضع أوسكار الميسيج في معصاف الشعراء مثل صفوقلاز وشلاي
ويرى في حياته أمثلة للفنان العظيم . .

كما أنه يرى في بواطن النسم مشابهاً في الحركة الخيالية ، فهي في حياة الميسيج كما في قصة روميو
وجوليت ، كما في قصة الشتاء وقصيدة البحار القديم وقصة الاحسان وبؤساء هوجو ، ونقوش
بورن جونس وزجاجة الملون وقماشه المزركش كما في زخارف موريس وبرج جيوتو ولانسوت
وصور ميخائيل انجيلو . .

ويرى أن حب الازهار والاطفال لم يكن لهما غير مكان صغير في عالم الفن الراقى ، لا يتسع لأن
ينمو فيه ويمرح . أما منذ القرن الثاني عشر إلى اليوم فقد بدا لهما ذلك المكان النفسيع في عالم الفن
من عدة وجوه . ويرى أن حياة الطفل لا تفرق عن يوم من أيام شهر أبريل حين يشبع النرجس
من المطر وحرارة الشمس .

أما في ديوان أشعاره فتتوزع نظرة الشاعر إلى جميع جزئيات الفن . ففيه يخاطب الحرية وملتون
وساره برنار ، ويناجى انديميون ، وقبر كيتز ولحدشلي ، وزهرة الحب ويصف وصوله إلى
بطلاليا قائلاً :

« قد وصلت إلى الالب والنفس في داخلي تحترق — ايطاليا يا ايطاليا — انه عند اسمك وحينما
أنيت من قلب الجبل ورأيت الارض التي تاقّت اليها حياتي ضحككت كمن ربح جائزة عظمى »
ومن ذلك نرى أن أوسكار وايلد يمثل في حياته ومؤلفاته الشاعر الهائم بالفن . وخير ما فيه تغنيه
بجمال الكون وبدائع الطبيعة ودقائق الأعمال الفنية وحبهُ للأزهار والأطفال والجمال البشرى
وقد ترك آثاراً أدبية كثيرة لا يخلو إحداها من مواضع جميلة . .

غير أنه كان كثير التأنق في الأسلوب وانتقاء الألفاظ كما كان معنياً بالامساء الطريفة الغريبة
والمواضيع الشاذة كما في اختياره موضوع شالومه التي طالبت برأس يوحنا موضوعاً لمسرحيته
الفرنسية . وشر ما فيه ثورته على الخلق والعادات وسلوكه الشاذ الذي يبرر تحرير الفرائز وعبادة
الذات الحواسية وارتضاء الميول بصراحة ودون التقييد بالعرف والخلق . .



خواطر في الطريق

... . ولكل امرئ أن يفكر في الطريق وفي غير الطريق ما شاء له تفكيره ، وأن يتخيل ما شاءت له خيالاته ، أو أن يسير فلا يفكر ولا يتخيل كأنه ذلك الإنسان الصناعي الذي ابتدعوه وأطلقوا عليه اسم رابوت وهو لا يكاد اليوم يفرق عنه كثيراً ! لكل امرئ أن يدع شقه الخواطر تجول وتصول في رأسه مادامت تلك الخواطر لا تنساب من عرينها وتمس السابليين أو تصطدم بالعابرين ! إذ هو « حر يفصل ما يشاء مادام لا يتعدى على حرية غيره » (١) . وقد شاء الله أن أكون من أولئك المصابين بتلك الخواطر تتوارد عليهم في كل زمان ومكان ، ولا أعلم إن كان هؤلاء كثيرين أم قليلين ، لكنني موقن أن تلك الخواطر تلحق بي حتى في الطريق وتلبغني كظلي مكتظة حول رأسي كما تكتظ جماعات الذهول حول خلاياها ، ولا تدع لي ساعة من ساعات اليقظة أو النوم إلا وتتخذ فيها من رأسي مقعراً ونادياً ! . ولقد تعثر بي في كثير من الأمساء منسلاً وسط الجموع ، متغلبلاً في الطرق كما كان يجول بعض الخلفاء والحكام الأول متفقدين شئون رعيتهم ! أو كما يطوف اليوم قتلة الوقت وأبناء الليل ، ولو أنني لا أقصد إلى شيء مما يرمى إليه هؤلاء المساكين ، لأنني لا أفرق عن أحد النظارة في ملهى كبير أو في ممرض وسيع ، فأسير في السبل الكبيرة الزاهية بأفئدائها ، المكتظة بجهاطاتها لأشاهد غريب المناظر وأتلمس جميل المشاهد فتقتلني قدامي من غريب إلى أغرب . « غير متقيد بخيل ولا بسائق ، ولا حاجة أن أبحث عن طرق معبدة وسبل هينة بل أمضي أينما يستطيع الرجل أن يسير وأنظر كل ما يمكن للمرء أن يراه غير معتمد إلا على نفسي متمتعاً بكل حرية يمكن لإنسان أن يتمتع بها . . » (٢) مستمتعاً بذلك الجحفل المبعثر والجيش المسرح ، وهو يسير هنا وهناك إلى غاية أو إلى غير مقصد ! ليس بين أفراد العديدين اثنين متشابهان في مظهر أو في مخبر ، فقد تفرق الجميع كأنهم على قول عالم نفسي لا أذكره : سفن تختر عباب المحيط ، تحبس بعضها بعضاً ولكنها مختلفة السبل والغايات . . هكذا ترى في طريقك ألوفاً من البشر تحركهم عقول مختلفة التركيب ، متباينة القوى ، تجمعهم انسانية واحدة وبيئة واحدة ، وقد تجمع بينهم عشر روابط أخرى ، لكنهم يسرون متناكرين لا يبالي أحدهم بالآخر أو يؤثره على نفسه أو يعيره في الطريق أكثر من نظرة وقتية مشوبة بالاستخفاف والاستهتار أو بالملق والاحتقار ! ولست أدري ماذا يكون نصيب من يقوم بين الناس ويقول لهم أتم اخوتي ! أو يسير في الطريق يحس كل من صادفه ! أيكتفون بارساله إلى مستشفى المجازيب ؟ لقد بقنا اليوم في عصر « الفردية » و « النفعية »

فلم يعد أحد يفكر في غير ذاته أو يهتم إلا بشأته ، عصر فيه يقتل الأخ أخاه والابن أباه من أجل بضعة دراهم ! عصر لا يحق فيه لأحد أن يبالي بشؤون أقرب الناس إليه ، بل أمسى المرء لا يأتقن أخاه على شيء لأنه يرى فيه عدوا ينازعه على البقاء وينافسه على المواعيد ويودلو اتخذ من رقبتة سلفاً يعملو به عليه ! لقد مضى ذلك الزمان حين كان لكل إنسان عشيرة أو عشيرة أو قبيلة تهمره بالحب والأيثار وتبادل الود والتضحية ! أما اليوم فلا تقوم علاقة إلا على أساس النفع المتبادل ولا تباع المحبة بلا مقابل ! هكذا تسير الجموع في الطريق : أخوة متنافرون متنابدون وصحبة متقاطعون متخاصمون . كل يحمل في نفسه من الآثرة ومقت الجماعة الإنسانية ما ينوء قلبه تحت أعبائه !

في قديم الزمان كان يسير في الطرق فيلسوف اسمه « هيرقليطس » وهو يبكي غيظاً على شرور الناس وحنقاً على ما يراه من هفواتهم ! وكان يسير فيلسوف آخر هو ديموقريطس وهو يفرق في الضحك من أفعالهم ! والثالث هو ديوجينيس وهو يحمل مصباحاً منيراً وقت الظهيرة ليبحث عن رجل ! ورابع هو اقراطيس وهو يلبس عباءة عليها جلود الغنم ويسب السفلة ليسبوه ويعتاد على الأذى ! كان ذلك في القديم وكان القوم يبجلون أولئك الشواذ ولا يرمونهم بالجنون ، لأنهم كانوا يعلمون أنهم يضررون لهم عطفًا وإخلاصاً ، وأنهم سيكونون أو يضحكون منهم ، رغبة في اصلاحهم ! أما اليوم فالكل يعتقد أن النصيح لا يوجب إلا ثمن ! والإخلاص لا يبدي إلا غرض ! فهم يجتمعون على مقاومة أولئك « المجانين » الذين يثقلون أسماعهم بضروب « الفاسفة » غير العصرية والتي لا تجديهم نفعا ولا تدرعهم رزقا !

ولكني ماسرت في الطريق لأجل نفسي ها وأثقلها « بالفلسفة التي لا بد منها لكل إنسان ليري الحوادث من خلالها » .. لأنني ماسرت إلا لأهل وأئسي العالم وما فيه مثل أولئك السعداء المخرورين الذين أختفى بين صفوفهم ، واندمج في كتلتهم كما تندمج قطرة الماء في منحدر النهر ليقذف بها إلى المحيط ويعود فيأتي بغيرها ! وأسير مع أولئك الذين « مروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد » (١) فما أغرب ما تشاهد وأنت تسير بين تلك الجموع البشرية : إنك لتري : « إن الرجل في الجماعة ليس هو الرجل في الفرد لاختفاء ذاتيته واندماجها في ذاتية الكل . فإذا ما اجتمع القوم تولد فيهم روح مغاير كل المغايرة لروح كل فرد منهم . وإن روح الجماعات خاضع لمعقول خاص غير تنبهي هو معقول الجمع » (٢) ..

رواعجباً أين استقرت الغرائز والميول وأين كنت الخلق والسرائر؟ فلا نرى في الطرق إلا مظاهر

مستكفئة ووقاراً معطناً ، وخصائصاً معتبرة ، وطقوساً متبعة ، وأساليب مخفوفة أو واعدة جداً كيف يسهل التفريق وسط هذه المظاهر التزيينية المقلدة بين فاضل وسافل وعالم وجاهل وعامل ومأفون ، ورفيع ووخيس ، بل وغنى وفقير ، وكلهم يسبغون مستقرين ببهاء التشكف ومتعطين بالشمويه وممثلين الكمال ، تأتهم كتب مغلقة لا يعرف إن كانت تحوى اللؤلؤ أو الأصداف ، رحم الله المنفلوطى القائل « أكثر الناس يعيشون فى نفوس الناس أكثر مما يعيشون فى نفوس أنفسهم أى أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ، ولا يأخذون ولا يدعون إلا لأن الناس هكذا يريدون » !

إن الحياة كلها نقل وتقليد ومحاكاة إلا أنه من الواجب أن يكون لكل انسان شخصية مستقلة وذوق يميز بين ما يصلح للواحد وما يلائم الآخرين ، والواجب أن نميز بين الصراحة وبين النفاق فى مظاهرها الاجتماعية . انظر إلى ذلك الصموك الذى يقلد العظيم فى أساليبه ، والفقير الذى يحاكي الغنى فى ملابسه وإسرافه ، والمغرور الذى يتشبه بالتمنان فى تنسيق شعره وردائه ، والدجال الذى يقف أثر العالم فى لحيته ، والمشعوذ الذى ينهج منهج التقى فى سببته وعمامته ، والعجوز الشمطاء التى تتمشى مع الفتيات فى دلائن وتبرجهن ! ألا يثير رباؤهم فى النفوس كراهية واشمئزاً ؟ وغير أن تكون تلك المظاهر التى يتداولها الناس فى الطريق ويتناقونها بعضهم عن البعض ، منسجمة مع الذوق السليم والحياء والصراحة . فيكون لها أثمد تأثير فى الناس ووقع فى القلوب ، كما يكون لها أثر فى الخلق الذاتية ، لأنها تتحول بلا وعى منا إلى عادات وطباع

وأهم المظاهر التى تعرض على الأنظار فى الطريق هى الأزياء الخارجية ، وهنا نتساءل هل لكل انسان أن يلبس ما يشاء فيكون حراً فى انتقاء وتكييف ردائه ، كما يكون حراً فى اختيار مأكله ومشربه ؟ فتخرج لنا تلك الحرية فوضى الأزياء وقبيح النماذج ومستهجن الألوان ! وتثير فى نفوس السابلة نشورا وغضاظة . ليست الملابس حقاً فردياً متوقفاً على الذوق الشخصى بل هى حق مشاع مقيد بأساليب وقواعد مثل سائر الفنون الجميلة ، إذ لاحق لأنسان أن يخرج فى الطريق بزي قذر مستهجن ، أو أن يسير الرجل برداء متأنث ، أو أن تهبط علينا المرأة نصف عارية أو مرتدية بأثواب الرجال أو يفاجئنا مريض الذوق بثياب تمثل بألوانها العديدة قوس قزح ! إن المرء لا يلبس لنفسه فقط بل هو منذ الأزل لا يتأنق فى ثيابه إلا للظهور أمام الناس بمظهر يجذب أنظارهم ويحلب اعجابهم . فيكسب من وراء ذلك احترام الجميع . ويخال البعض أن التأنق فى الملابس ضرب من الخفة والخلاعة والحقيقة أنه ضرب من الفنون الجميلة المربطة بسلامة الذوق وحب الجمال ، والمرء أن يحكم على ذوق الشخص من منظر ملابسه وكيفية اختيار ألوانها وكيفية تنسيقها ، أما ما يراه البعض من قلة اهتمام بعض العلماء والفلاسفة بأزيائهم ومنظرهم فلا أن العلم والفن الجميل سبيلان مختلفا الاتجاه . . . وكم من عالم أو فيلسوف تعوزه رقة الذوق . . . وليس مفروضاً على المرء أن ينفق وقتاً

طويلاً أو مالا وفيراً على التأنق في المظهر لأن ذلك يخرج من حيز الاعتماد المنشود إلى الأعراف والتبذير اللذين يسلبانه سلامة الذوق . . أما الجنس اللطيف فليتناق ما شاء وليظهر أبهى من الزهر وأرشق من الطير فهو حلية الطرق وزينة المجتمع وبهجة الأنظار ١ .

لماذا لا نعمل على توحيد الأزياء بدلاً من هذا « الكرنفال » الذي يجعل منا سخرية في عيون المتعدين ؟ ولماذا لا نلبس جميعاً كما تلبس الشعوب المتحضرة أروية أوروبية وقبعات بسيطة ومعلقة القيمة بالوطنية أو القومية ؟

أما الطريق فيجب أن يكون متحفظاً فنياً يسير فيه الإنسان ناشداً الجمال ، مكتسباً من حسن البيئة جمالا في النفس وتأنقا في المظهر ، لا كما نراه في طرقنا من فوضى وقبح . فالدور مختلفة الأشكال والألوان ، متباينة الواجهات والترتيب ، متفاوتة في الارتفاع والانخفاض ، والأضواء في الليل ضئيلة شاحبة ، والسبل ملوثة بالأقذار مكشوفة بالفضلات ، والهواء مشبع بالغبار ، والثرام القبيح المنظر الكثير الجلبة يشوه الطرق بأسلاكه ودمامته وضوضائه والخيول والحير مازالت تهجس في كل مكان تضايق الناس بنهيقها وروثها ، والباعة والمتسولون والمشردون يزاحمون السابلة في روحاتهم وغدواتهم ويجعلون السير في الطرق مبعثاً إلى النفوس . وتلك المقاهي التي تستظلمها أفاريز الطرق عندنا مشحونة بقتلة الوقت والماطلين ، تزيد في قبح الطرق ودمامتها . .

فهل يأتي الوقت الذي تصبح فيه الطرق المصرية متاحف فنية مزدانة بالأشجار الزاهرة والتمائيل الفاخرة والنافورات المتلاطمة والأضواء المتألقة ، والدور المتماثلة الفنية ، والوجوه النضرة ، والأفاريز الهندسية ؟

إن تجميل المدن مبدأ عصري يستمد من علم النفس القائل بأثر الأيحاء في النفوس ، فالوسط الجميل والمناظر البديعة توحى إلينا حب الجمال والنظافة والترتيب والنظام . كما أنه أمر حيوي يتعلق بصحة الجمهور التي تضر بها الفارق القذرة والمنازل المهتمة . .

وعلينا أن نجعل من « تجميل المدن » علماً عصرياً يستمد مادته من الفن الجميل والهندسة والطب ، وأن نؤلف فيه الكتب المصورة ونضعها بين أيدي أبنائها يدرسونها ويشبون على مبادئها وأن نجعل فيها باباً له خطورته ويدرسونه اليوم في المدارس الأوربية هو « حركة المرور » وكيفية المسير في الطرق المزدحمة اتقاء حوادث الطريق التي لا تخلو منها ساعة . .

خروج الطير في شهر ربيع

... وإذا بالصيف قد آتب بقيته وسعير رمضان ، وإذا بالنسبات الجافة الراكدة تكتنف المرء من كل صوب ، وللعجوة أثر في النفوس والأمزجة يضارع أثره في تباين الشعوب ومسير الاسم . وإذا بي في هذه الساعة الصائفة الصافية ، من صباح يوم من هذه الأيام الشامسة ، في حديقة أنيقة لم أطررها منذ سنة . لا أدري لم حلتني إليها قدمي ولا أي شيطان وسوس إلى أن اتفرد متفياً ظلال أشجارها . وأن أكتب هذه السطور التي لا تضر قراءها ولا تنفعهم ! .

وقديماً كتب الناس من الكتب وسودوا من القراطيس ، ما يصلح لأن يكون قنطرة فصل بيننا وبين قمار القمر ! ألم يصنع التتار من كتب بغداد وحدها قنطرة عبروا عليها دجلة ! أليس في دار الكتب البريطانية وحدها اليوم من صنوف الكتب ما يزيد طوله على خمسين ميلاً ! فإن لم يهتد البشر ونهتدي معهم بتلك الأكوام المقدسة من الكتب أيهتدون وينتفعون بما فطع عليهم به بين فترة وأخرى من مقال أو شبه مقال ! إنما الكتابة عندي في بعض الأحيان الراكدة والفترات العابسة ضرب من « المكيفات » ! لا أرى فرقاً بين الجلوس إليها وبين الجلوس للتلهي بتدخين الغليون أو بلعب الشطرنج ! لكنه « كيف » شيطاني متقطع التمرات غريب ، الأطوار قد يهجر أربابه ، وهم فئة شاذة من الناس ، شهراً أو عدة شهور ثم يغشاهم نلى غرة في ساعة لا يحسبون لها حساباً كأنها يوم القدر الذي يشبهه المسيح بقوله « إنما لم نعلم لنعرف اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها السارق » . وأحسب أننا معشر هذه الفئة لو جلسنا للكتابة في وقت لا يحدد لنا « الشيطان » أو العقل الباطن وعصرنا أدمغتنا ما خرجنا بنم ولا بسمين . فلا غرابة إن سمعنا حافظ إبراهيم يقول « أنا أو من بأن لكل شاعر شيطاناً لاني أكاد أسمع بهمهس في أذني الممعي وأحياناً يضرب فيغلق عليّ » وأنا أقيد همساته بميت أكتبه في القهوة وآخر أكتبه وأنا بالقطار وآخر وأنا أحدث الأصحاب » ! ولا غرابة إن كان معظم ما نظمته شوقي بعد منتصف الليل وما ينظمه مطران في الصباح وما كان يكتبه المنفلوطي في الفراش ! .

عدت إلى هذه الحديقة بعد سنة أتمت فيها الأرض دورة كاملة من دوراتها السرمدية حول الشمس ، غير شاعرة ببلدون ونصف بليون من بشر يحدشون ظهرها ويبنون عليه صروحهم ومدائنهم زاعمين أنها لم تخلق إلا لهم ولم تدر حول الشمس إلا لأجلهم ! وما مناهم معها غير مثل الذبابة التي وقفت مختالة على قرن الثور وقالت له يا هذا إن استقلتني فلا تخش الافضاء إلى ذلك فأجابها يا هذا ما شعرت بوجودك حتى يهمني أمر فراقك . . .

وعدت إلى الحديقة فألفيتها كما كانت ، جميلة زاهرة ، ولم تزل طرقها الهندسية موشية البرود ، وما فتئت مساحاتها السندسية معجبة بأزاهيرها ورياحينها . وهذي أشجارها الباسقة ما رحت تزهر بمحلو قوامها ورشاقة قدمها . وهذا البستاني الهرم ما انفك يمشي العشب بفروطومه . والغربان تنصب كما عهدتها في الفضاء الناحس بصوت لا تلتذ له المسامع . وجهات النحل واليعاسيب تطن وتدمدم لتسرى عن نفوسها مشقة العمل المتواصل ، والنملات النشيطات تسعى في كل ناحية بعزيمة لا تخلق جادتها . كل شيء كما كان لم يتغير كما يتغير الإنسان ! . « . ووجه المياه وجهات الجبال عليها غصون ولصكنها غير مسنة والغابات دائمة الاخضرار وستعود الى شبابها ، وكذا النهر في الخلوات سيعود بلا انقطاع إلى الجبال مع الموجة التي وهبها للبحار . ولكني أنا ، قد خنى رأسي تحت ثقل الايام وسأذهب وأفنى تحت هذه الشمس الضاحكة ولن أرجع بعد حين إلى العبد ولا تؤثر عودتي في جموع الناس الفقيرة »

وحيداً أجلس الآن بجوار لهة من الزهر تكاد تخفيني عن العيون . إذ لم أصحب معي إنساناً ولا كتاباً ، ذلك لأن النفس كثيراً ما تشعر بالحاجة إلى الانفراد وتحن إلى الخلوة . وليس ثمة أجهل من الانفراد في حديقة أو الاختلاء على شاطئ البحر . كلاهما له روعته وجماله . ولا أحسب أن النفس تكسب من مخالطة الناس واقتحام غمار المجتمع قدر ما تكسب من مثل تلك الوحدة التي تقضيها في التفكير الهادي ، والتأمل الفلسفي وفي محاسبة النفس عما فعلت وعما ستفعل . وكلنا في حاجة الى ساعة من تلك الساعات الشعرية الصافية التي نناجى فيها أنفسنا وخالقنا بعيداً عن المصعقة البشرية المتطاحنة . تلك الساعات الروحية التي استمدت منها أكبر العقول وحياً وإلهاماً واستعانت بها على توسيع مداركها وسبر أغوارها . واتخذت منها مرصداً ترقب منه عجائب الكون وأعمال الانسان . والعزلة كما قيل فيها بحق « جبل عال تريناقته الناس صفاراً » ! أجل وترينا أن هذا المسرح سيتبدل وتتغير معالمه وأن حياة أولئك الممثلين الداهلين الذين يخوضون في يم مادي سرمد الآذي ، ستنقشع عما قريب لأنها « ظل زائل لا كظل برج أو شجرة يدوم برهة بل كظل عصفر طائر يطير فلا عصفر ولا ظل » !

في مثل تلك العزلات بين أحضان الطبيعة لا نرى ثمة حاجة إلى الكتب لأنها كثيراً ما تعكر صفاء تلك الخلوة الهادئة وتقطع تيار التأملات ، بما توحيه إلينا من آراء الآخرين وعقائدهم . وما تثيره فينا من عواطف وميول قد لا تتجاوب مع عواطفنا وميولنا . لقراءة الكتب وقوت لا تنسجم مع تلك الاوقات التي نتخذ فيها الطبيعة كتاباً مقدساً نطالع به عين التأمل والفكر . ولنا من الطبيعة « دائرة معارف » مشهونة بالعلم والهمم واللاهوت والدين والفن ، وكل حق يسمى بالنفس

إلى أمالي الآلهة وينحدر بها إلى أعماق التصوف والرضى والتواضع . فتخرج الروح صافية والنفس نقية والعقل فسيح الجنابات . . .

ذكر أحد الهنود عن تاجور شاعر الهند : « رأيتُه يجلس في الحديقة بلا حراك غائماً في تأملاته ولا يستطيع من تخیلاته في طبيعة الآله حتى تنقضي ساعتان في كل يوم . وقد كان أبوه المهاريشي كثيراً ما يجلس هناك حتى مطلع اليوم التالي ، وفي مرة كان في قارب نهري فخاص في تأملاته أمام جمال الطبيعة ولبت الملاحون ينتظرون ثماني ساعات قبل أن يستأنف رحلته » .

وتاجور من عشاق الحقائق يكثر من ذكرها وذكر أزهارها ، وله ديوان اسمه « البستاني » وهو القائل : « إن المرء ليغفل إليه عند مشاهدة حديقة أنه يرى آنية الجمال وقد صب ما فيها على الأرض وقوله : « إنك حينما تنسق الحديقة التي تعجبك بشاشتها ، إنما تلمح جمال نفسك قبل أن تلمح جمال الحديقة » . يذكرنا ذلك بقول شاتوبريان من قبل : « إن محاسن الطبيعة إنما تكون في قلب المرء ونفسه وأن هو يرى إلا ما يحس ويشعر به »

فهل نجد في الكتب والدواوين صوراً للجهال وتخیلاً للمحاسن ما يفوق بروعته وأبهته تلك الحقائق الجميلة المموسة معروضة في متحف طبيعي فني ، لكل امرئ أن يمتع نفسه بعجائبه وبلذاته؟ إن الطبيعة أعظم الفنانين وسيدتهم . عنها ينقل الشعراء والمصورون والموسيقيون والحكماء والأنباء . . .

وكل شيء طبيعي كما يرى روسو حسن لكنه حينما تتداوله أيدي الناس يفسد ! والطبيعة على رأي مدام ده سفينيه تكلمنا تريد أن تعلمنا ولا نزال لجللنا نحسب الجميل قبيحاً والقبيح جميلاً والخير شراً والشر خيراً . . . أنك كما يقول جفريس ، حين تجلس في ظلال الأشجار في الليل أو في النهار وفي الصيف أو في الشتاء لا يلبث أن يحس قلبك بلذة الاقتراب من سر الحياة العميق الذي يشير إليه هذا الفضاء ببعده ولا نهايته . . .

فأي حاجة لك بالكتاب ما دمت تقرأ في مثل هذا الديوان السماوي . لقد قضيت خمسة عشر عاماً وأنا أسبح في أوقيانوس من كتب شتى وكانت أمواجه تسمو بي تارة إلى السماء وتهبط بي تارة أخرى إلى الخفيض أمواج من عقائد شتى وآراء متنافرة ومذاهب متباينة ونظريات مختلفة حتى حنت نفسي إلى بر السلامة ، حتى إذا بلغت رأيتني أقول مع ذلك الفيلسوف « الآن عرفت أنني لا أعرف شيئاً » وخرجت من ذلك الخضم الفسيح لا أحمل في جعبتي غير ذكريات مردهته وهو اصفه وأمواجه وغير قليل من الاصداف . . .

وقد زحمت أني طلقت الكتب إلى حين بعد تلك العشرة الطويلة ، وكان مني مثل الرجل

الذي طلق امرأته بعد ألفة عشرين سنة قضياها معا في صفاء فأقبلت عليه تعاتبه وتقول : أبعد عشرين عشرين سنة يا أبا فلان تفعل ما فعلت ولم آت ذنباً ؟ فأجابها وهل ذنب أكبر من عشرين سنة تقضيها في حياة لا تتغير ؟

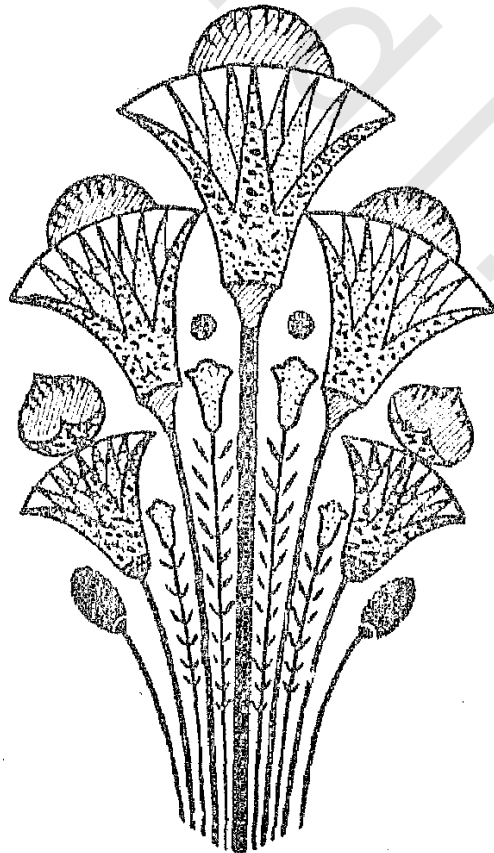
ولنعد ثانية إلى الحديقة لتلايخرجنا منها تداعي المعاني وشجون الحديث ، وكلنا يحب الحداثق أو على الأقل لا أعرف من يكرهها . ولعل هذا الحب غريزة وصلت إلينا بالوراثة عن أسلافنا الأول من بشر أو قرود إذ كانوا يعيشون في عالم كله حداثق وأدغال وبساتين وأحراش . أما في الكتب السماوية فتبدأ الحياة الانسانية في حديقة وتنتهي في حديقة أو في جحيم « ففي البدء غرس الله الجنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم وأنبت من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة » للأكل وفي تلك الحديقة الجميلة التي لقبتم لها بالثردوس عاش جدنا آدم مع زوجته حواء حتى عصيا أمر الله فطردهما من الحديقة ، لكنه وعدهما وأولادهما بحديقة أخرى في الآخرة إن هم عملوا الصالحات . فلا غرو إن شعر بنو آدم حتى الساعة بخنين إلى الحداثق فغرسوها في الطرق وحول المنازل وقضوا فيها أعيادهم وأقاموا فيها الولائم ، ولا عجب أن رأينا الحداثق العامة مهبطاً للعزائي والمكشبيين والشعراء والمعلمين والفلاسفة وذوي النفوس الحساسة ففيها يلقى الجميع راحة وعزاء وهمدوءاً وفيها يلقي الأطفال مسرحاً للعبث والمراح وصيد الحشرات ومطاردة القراش وتسلق الشجر ، فيكونون كالطيور البشرية الجميلة المتنقلة على السندس . وأما ذرات الأجنتة فلها في الحداثق آمن الأوكار وخير المراتع والمنابر . فالحديقة كما قال فيها يكون بحق : « أظهر المسرات البشرية وأعظم المنعشات للروح وبدونها تصبح المباني والقصور أعمالاً يندوية ضخمة ، وسيعرف الانسان ذلك حينما تسير الأجيال نحو الرقي والرفعة . وقد بات الانسان يبني البناء الفخم في مدة أقل مما ينشئ حديقة جميلة كأن فن الحداثق هو السكال الأعظم » ولبيكون تصميم جميل للحديقة يتخيلها وفي خياله هذا صورة لأمنية شعرية بديعة ، فأخذ يسرد أسماء الأزهار التي تنمو في الربيع وتلك التي تنمو في الصيف وفي الشتاء والخريف ، رأبها عبق الرائحة . وذكر كيف تسير طرقها وممراتها وكرومها العارشة ولم ينس قفصاً للعصافير وبضع نافورات للماء ولا غرس أزهار الربيع والبنفسج هنا وهناك ولا أكرات مزينة بالزعر البري والقرنفل والكرز والاقحوان والورد الأحمر وعشرات غيرها . . . وكذلك لاوسكار وايلد رسوم للحداثق تدلنا على شغف الشعراء بها ، ولا تخلو قصة من قصص أوسكار وايلد من وصف حديقة أو زهرة بل إن له عدة قصص مسرحها الحداثق . .

ولولم يكن في الحديقة غير الأزهار لكفها رونقاً وجمالاً ، أليست الأزهار أشعاراً منشورة على وجه الأرض لكي تبعث في الخليقة الرقة والحنو والدمائة ، وأن باقية من الأزهار لا تبلغ قصيدة

من الشعر الفلسفي العلوى تترجم بها البسيطة ، إذ الأزهار عنصر سماوى ورمز عجيب وزينة
تتحلى بها الحياة وتقيه بها دلالة ، فتارة تنشق بها ثوبها الهندسى المضاف ، وأخرى تضفر منها
أكاليل المجد وباقات الذكريات ، أو قل هى موسيقى العيون الحاملة فى تموجاتها الاثيرة عبيراً مسكراً
تقرب له النفوس . .

وانظر إلى ما تستره الأزهار وراءها من معنى وما تشير إليه من رمز ! انظر إلى الزنبق وكيف
يرمزون به إلى العنقة والكبرياء والخزائى الى التصريح والبنفسج إلى التواضع وزهرة الليلك إلى
السعادة ، والرنجم إلى العطف والقرنفل إلى الوفاء ، والياسمين إلى الرقة واللطافة ، والإشروور إلى الأمل
وشاب الليل إلى الحياء ، والورد الابيض إلى نار القلوب والورد الصوفى إلى الظرف والكيامة والقرنفل
الأصفر إلى الازدراء ، والورد الأصفر إلى الغدر وعود الند إلى المراجعة . ؟

أن الانسان وهو أعجب المخلوقات لا ينفق عن زهرة فهما ينبتان معاً فى تربة واحدة
ويتغذيان بجسد الأرض ، ويفرحان بالنور والهواء وسرحان ما يذويان ويتحوران إلى رماد تدوسه
الاقدام ..



فؤاظرى مقبرة

من منا لم تحمله المصادفة مرة على المثلول أمام المقابر ولم تخاطر له فكرة أو عدة أفكار ، وهو واقف ، فى مملكة الموت ، مكتنفاً بالرهبة والصمت أو منصتاً لفرات المودعين ؟ والقبر أصم لا يسمع لأهات المشيعين ولا لشكايات المحبين ، وخمر لا يرى الدموع السخينة ولا خطوط الأسى المرسومة على الجباه . ، تلك الخواطر والأفكار التى لا تخلق جدتها ، لأن موضوع الموت أبداً قشيب رائع ، لم يكتشف العقل مجاهله ولم تسبر الحكمة أغواره .. « فأخر ما وصلت اليه الفلسفة أن لا قدرة للعقل حتى الآن على فهم أسرار العالم . . إن البون شاسع بين طاقتنا ونظام الكون فلا أمل لنا باكتناه سره »

ولكن بالرغم مما تحف مسألة الموت من جددة ومهابة ، فإن كل ما يشير اليه انقبر كربه تعافه النفس ، لأنه يذكرها بالظلام والوحشة والافتصال عن مسرات الحياة الحسية والذهنية . وفراق الأحباء والخلان ، كما يذكرها أن الساعة لا بد آتية عاجلاً ، أو آجلاً فيذكرها بدورها ذلك الجبار « ولو كانت فى بروج مشيدة » . . لكنها حقيقة لا مفر منها لو ذكرتها النفس فى بعض الأحياء وهى تخوض عباب الحياة ناسية كل شىء ما خلا المتعة المادية الوقتية ، خلفت من غلوائها وكبحت جراح غرورها وكبريائها .

وما مثبات الآن بين أيدي تلك الرموس والاحود لا تعظ وأتعلم ، إذ كنت ممن قدر لهم أن يتلقوا تلك الحكم الماثورة من الخطوب الواقعة ! يوم كنت أشيع أحبابى إلى تلك الديار الموحشة ، يوم خلفوا إلى هذه الحياة من بعدهم فقراً يباباً ، وتركونى وسط العاصفة فريداً فألصق فى يمين التأملات ، أفكر فى معنى الموت والبقاء ..

ولم أنظرها قائلاً مع سليمان الحكيم « إن الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت أوليمة لأن ذاك نهاية كل افسان ... » لأن للشباب أحكام ونزعات وكنىرا ما تدفع فلسفة الشباب إلى امتصاص عصارة الحياة وتذوق ثمارها فى أقصر وقت لأن اليوم معلوم والغد مبهم مجهول ، للشباب فلسفة ابيقورية لا تستمىغ مرآي المقابر والنواويس ، له أن ينشد مع الخيام :

« وعيشنا طيف خيال نخذ قسطك قبل فوت الشباب »

انما هى الحياة ترغماً على تشيع أولئك الصحاب الذين سبقونا ، وتسألوا فرادى إلى عالم الصمت والهدوء والسلام ، لتذكرنا بما تناساه ونفر من ذكره افتبعث بنا مرغمين إلى حيث يرقد الراحلون وقد غلبهم الموت ، ذلك القوي القهار الذى لا تقف فى وجه ارادته صعاب ولا عقبات ، الذى

لا يعجز ولا ينقد ولا يختار من الجواهر جيداً ولا زائفاً . « هو الموت وحده الذي يرغم الانسان أن يعرف نفسه ، الذي يري المتكبر والمتعجب حقارتها فيذلها ويحملها على البكاء والشكوى والندم بل وعلى كره سماتها الخالية ، هو الذي يجرد الغنى من ثرائه ويجعل منه شحاذاً ، الذي يضع مرآة أمام عيوب أهل الجمال ويربهم فيهما تشويهم ودمامتهم وهم بكل ذلك يعترفون . . »
 هنا يتساوى الرفيع والوضيع ، القيصر والصالح ، السعيد والشقي ، المثرى والمعدم ، هنا يخضع الملوك تيجانهم ويلقون بصمولجانهم ليطأها الموت بنعليه هنا في مقر المساواة والاخاء تسحق العظيمة وتتخطم الكبرياء وتحترق العزة بالأحساب والأنساب ، هنا يتبدد الفخر بالمناصب وفي ظلمة القبر حيث تسعى الحشرات يلتقي التمايز والجبروت كما تلتقي حفنة من رغام .

لا تغنى عن المرء شهرته ومجده ، ولا تنفعه قصوره وفضياه ، وأنت يأيتها الغرور ياوباء البشرية وهفسد النفوس ، وأنت أيتها الكبرياء التي طالما جعلت من الضمادع فيلة وسرت مختلفاً فوق مبادئ العدل والاخاء . وأنت يأيتها السطوة التي طالما سبغت في الدماء البشرية ولم تشبع من لحوم الشهداء . كيف رضيت لنفسك تلك الحفر الضيقة يفشاها برد وظلام وتطأها نعال وأقدام ! وأنت أيتها القدرة والسلطان والجبروت كيف عجزت فلم تحم نفسك من ضائلة القضاء . وأمام صولة المنون استسلمت مطأطئة الرأس مثل أسرى أذلاء ؟

ها هنا فقط يتساوى الملوك والسوقة ، هنا تختلط الجاهل . ويضطجع الحكام والساسة مع ضحاياهم الذين دفعوا بهم إلى اتون الحرب . كلهم تقيدوا بأصفاد القبر ليحرروا أرواحهم . هجروا هذه الأرض ولن يعودوا اليها . . . « السحاب يضمحل ويزول هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد ، لا يرجع إلى بيته ولا يعرفه مكانه »

إذن فلتجمع ما شئت من معادن الأرض ، لتملأ كهوفك ذهباً وفضة وأحجاراً كريمة ، لتشيد شامخ الصروح ولتبني سامق البروج ، لتفرض الجنات والفراديس . ولتره على بني البشر بما أعطيت . فستعود إلى هذا المكان وحيداً . وستأني خاوي الوفاض لا تملك فتيلاً . .

لتسلب الجائع من خبزه ولتنزع اللقمة من فم اليتيم ، لتسد أذنيك عن أنات المتوجعين وصرخات البائسين ، لتلوث الأرض والسماء بأفامك وخطاياك . فهنا سيرقد الظالم بجوار المظلوم والعبد بجانب السيد ، هنا نهايتك وقد كتبت على نفسك الشقوة وماخرجت من هذا العالم بنصيب .

هنا يرقد الجميع مستظلين بضمون السروح حيث ينعب البوم وينوح الياحوت وتتطاير الخفافيش تحت أستار الظلام . هنا يرقدون تحت جناحي السلام . لا نزعجهم أحلام ولا هواجس ولا تنلقهم رؤي ولا وساوس ! لتزلزل الأرض زلزالها ولتخرج أثقالها ، لترجع العاصفات ولتنثر اللجج ولتعصف الروعود

ولتومض البروق . . لتهطل السيول ولتتمسح الأرض عن ثورة وثبور . فلا قفقة السماء ولا ثوران البراكين ولا دوى الأنواء لتوقظهم من ذلك السبات العميق . .

« لن يرقظهم من رقبتهم الوضعية هذه نداء الصباح المتأرجح الأنفاس مقبلاً كالنسيم . ولا تغريد السنونو من وكره المبنى بالقش . ولا صياح الديك الحاد ولا صوت البوق يتجاوب صدهاء في الفضاء » . .

لقد خمد ثوران تلك القلوب التي كم خفقت للحب وهدمت نار تلك الصدور التي كم قلظت بالشوق .
لله كم ابتلع القبر آمالاً كباراً وكم بدد على أعتابه أحلاماً . .

هنا البرية الخرساء التي لا تحتل الأزهار سمير رمضائها فتذوي مطأطأة الرؤوس . هنا تجف الينابيع ، ولا يسمع غير عويل الخراب ونذير الشؤم . .

أجساد جميلة طالما فتنت الأنظار ، وعيون ساحرة طالما خلبت الأبواب ، ورشاقة طالما أخذت بمجامع القلوب ، شباب غض عيسى في حمل الربيع ، وطفولة بريئة لم تنفتح أكامها بعد ، وشيخوخة حنت قناتها التجاريب . . لقد دفن الجميع تحت التراب وذووا بين أنقاض الموتى السابقين وما « أديم الأرض إلا من هذه الأجساد » . .

لقد استراحوا من مرأى الأوجاع والبؤس وبعثوا عن الشر والظلم . لن يتذوقوا صاب العلل ولن يجرعوا كأس الخطوب . لقد فرغوا من دورهم العجيب على هذا المسرح الواسع . هنيئاً لهم مضجعتهم تحت جناحي السلام والطمأنينة . .

وكيف لا نغبط الموتى الذين خلعوا أجسادهم وتجردوا من شهواتهم وتحرروا من أغلالهم ورتعوا في الحيز اللانهائي ، أرواحاً مفكرة تعرف ما لا نعرف وتقدر أن تتصل بنا وتود مساعدتنا وسط مفازة الحياة الملامى بالشوك التي نجمازها . . إن الموت غير مكروه كما قال سقراط لأنه في رأيه إما أن يكون عدماً وفقد شعور وأما أن يكون انتقالاً إلى عالم آخر . وكلاهما حالة يشترق إليها وتشترقه وحقاً إن هذا الجسم كما قال ابيكتاتوس هو المظهر الفاني لذلك المظهر الخالد . .
و « من يدري أن الحياة ليست موتاً وإن الموت ليس حياة » ؟ على قول يوربيدس . .

غرائب طقس العام الجديد

هي سنة « والبنام غير السنة عند علماء اللغة » قد انفصلت من عمر الزمن وطويت في عمق الماضي . وما كان لازمن عمر إذ ليس للأزل بداية ولا نهاية . إنما هي أوضاع اضطر الناس إلى ابتداعها لضبط أعمالهم ، وهي وسيلة شعرنا بالحاجة إليها لقياس أوقاتنا فأتخذنا من دورة أرضنا حول شمسها ومن دوران ثرنا حول الأرض أقيسة تقدر بها حسابنا . . . ولو كنا من سكان كوكب عطارد ، وكانت سنتنا كما هي على الأرض ، دورة كاملة حول الشمس تتوالى فيها الفصول الأربعة لاحتفلنا برأس السنة كل ثلاثة شهور تقريباً . ولو كنا في المريخ لكانت سنتنا ثلاثة وعشرين شهراً أما أن كنا من أهل زحل فلا بد لنا أن ننتظر ثلاثين سنة حتى يهل العام الجديد ! ولأدرى أحدنا الشيخوخة وهو ابن سنتين زحليتين ! . أما أورانوس فإنه يتم دورته حول الشمس في ١٨٤ سنة ! .

وبينما نحن نستقبل العام الجديد في زمهرير الشتاء وتحت وابل المطر ، متوجين رأس السنة ببياض الثلوج وأوراق الشجر الداوية ، إذا بسكان نصف أرضنا الجنوبي يستقبلون أول يناير وهم عرايا على شاطئ البحر وقد لفحهم الحر بقيظه . هناك يحسد الاستراليون اخوتهم بأوروبا لما حولهم من ثلج ومطر !

ولم يصل الناس إلى تحديد السنة على ما هي عليه اليوم إلا بعد عصور طويلة ، وقد كان لكل شعب في القديم سنة تختلف في طولها وحسابها عن سنة الآخرين ، بل لقد اختلف بدؤ السنة وطولها عند الأقدمين حتى كان الشهر الواحد يقع تارة في الصيف وأخرى في الشتاء وكانت هناك وإلى اليوم سنة شمسية وأخرى قريية وثالثة نجمية ، وكان طول السنة العبرية اثنتي عشر شهراً تارة وثلاثة عشر شهراً تارة أخرى !

وقيل ان قدماء المصريين هم أول من حسب طول السنة على وجه التقريب ، وقيل إن الرومان كانوا يقسمون السنة إلى عشرة أشهر حتى جاء أحد ملوكهم واسمه « نومابومبياوس » فأمر بإضافة شهرى يناير وفبراير . أما يناير أو جانوس فهو اسم إله نسبت إليه الأقاصيص الرومانية العلم بالغيب ، وما كادت السنة تفتتح بجانوس حتى تقابل الناس باسمه وأخذوا يتهادون في أول السنة بأقراص العسل والتين والبالح ليكون عامهم حلوا كهديائهم !

وجاء البابا جريجورى الثالث عشر منذ نحو أربعة قرون فأمر بإصلاح التقويم على صورته التي نحتفل بها اليوم ولكن انجلترا لم تنفذ أمر البابا بهذا الإصلاح إلا بعد مائة وسبعين سنة . بينما أطاعته اسكتلنده بعد ثمانى عشرة سنة لما للجديد من كراهة !

والآن ها نحن في مستهل سنة جديدة مبهمة لا نعلم ما تضر لنا في صدرها . إنما هو الأمل الذي لا حياة لنا بدون ما يدفعنا إلى استقبالتها بالتهليل والتبريك والتهادي والتزاور وكل منا يشتري ورقة نصيبه في مبدأ العام ويلبث طيلة السنة مترقباً لحظه فاذا بهذا قد ربح ونال ، وذلك قد باء بالخسران والفشل . .

وانصرام العام يثير في نفوسنا الذكريات التي حملها معه طالسنة تنقضي وتتلشى كالسحاب أما الذكريات فباقية يتوارثها في قلوبنا عام بعد عام . .

كذلك تتلاقف وجودنا المتجدد سنة بعد أخرى ، حتى يحملنا من السنين من هذا البهر المضطرب إلى الشاطئ المجهول وهناك كما يقال يبدأ وجودنا الروحي يقطع ربوات من أعوام أخرى غير محدودة في التدرج واكتشاف الأسرار وحل الرموز . .

ولذا فنحن هنا على هذا الكوكب نضع الأساس الذي سيثيد عليه صرح مستقبلنا الروحي ، وكان علينا في ختام كل سنة أن نحاسب أنفسنا عما كسبناه من فضائل وما أدرناه من علوم وتجارب . .

فالسنة تقو إلى ونحن مسوقون أمامها في حياة متطورة متجددة فهل كنا نتطور معها ونرتقي أم نسير متخلفين عن سنة الوجود ؟

الحق أن أغلبيتنا تقضى سنى حياتها في ركود روحي حاملة على ظهرها أعباء الدنيا مهمومة بسفاسف العيش . وكثيرون هم الذين يرحلون العالم ويخسرون نفوسهم .

في هذا العصر المادي الرهيب الذي يتكالب فيه الناس على جمع المال وعبادة الذهب ، وانتهاج فرص اللذات بأثرة وجشع ، يجب أن نستقبل عاما جديداً سرنمين أناشيد الأخوة العامة ، كرسل للسلام والمحبة والتسامح ، آملي أن يكون عاما تتذوق فيه البشرية الهدوء والسلام في أخوة ومحبة وتعاون . .

إن البشرية تستقبل الأعوام الجديدة وهي تتعاقب وتكر ثم تطوي في سجل التاريخ دون أن تلقى ذلك السلام المنشود والنظام المستتب والحياة الهادئة السعيدة وكان علينا أن نتسكاتف في تعبيد طريق سعادتنا باعتماد المبادئ الحققة والعمل على تحقيقها كل في الناحية التي تؤهلها إليها كفايته فنجدد حياتنا على أسس صالحة ، ونمقت الحروب والتسلح ، ونكره دعاة الحرب والاستعمار ، ونقاوم الظلم والاستبداد ، وندعو إلى التعاون العالمي وإخاء الشعوب واتحاد الأديان والأجناس ونضع الأنظمة الاقتصادية النابتة ونقبل على دراسة العلوم العصرية ونتمتع بثمار المكتشفات والمخترعات . .

تاهرت على شاطئ البحر

« أنتودة كتبت على الشاطئ في سبتمبر ١٩٢٩ »

اليوم لا بد لي أن أفارقك أيها البحر ، إذ لكل لذة انصرام ، ولكل ملهاة نهائية ، وما تلك الفترات التي نسمد فيها بنى البشر إلا لحظات مختلسة في غفلة الزمن لا بد أن ندفع لها الثمن غاليا ، وما حياة كل منا غير ذرة تسبح في يم الزمان ثم تبتلعها الأعماق فلا ندري من أين أقبلت ، ولا أين ذهبت !

فهاأنذا أودعك كارها إذ ليس فراقك عندي بالأمر الهين المستساغ ، وأنت وحدك من استأثر بقلبي بين مصور الكون . أنت الصنم المكتنف بالامرار الذي أقف في هيسكه بخشوع لأستمد منه الوحي وأرتل أمامه التسابيح ، أنت ما أجد فيك صورة الله في خلوده وعظمته ، والقدر في هيئته وصورته ، والفن في أبهته وقداسته ، والحياة في تلوينها وجمالها ، والنفس في عمقها وأسرارها ، والحرية في روعتها وجلالها . .

* * *

لقد أذنت ساعمة الرحيل ولا بد لي أن أبتعد عنك مرغماً ، فتنأى الدار ويشط المزار . . إذن لأستودعك ذكرياتي فأنت ، خزانة الأسرار . .

إن هذه الذكريات تكتظ حول رأسي وتطن كجماعات النحل حول خليتها ، وإنها لتمر أمام عيني في مواكب حزينة مسربة بالظلام . تلك هي الرؤي التي نهال لها نحن أطفال الحياة ، الرؤي الوهمية التي يعرضها الخيال ليلهمنا عن مشاق الرحيل . فنؤمن أن هذا الخيال أعظم منة جادت بها الآلهة على بنى البشر ، وأن الحياة لولاه كانت لحنة ونقمة . .

إنها سنوات طوال قضيتها عند قدميك ، طفلا يلهو على شاطئ الوجرد ، ويافعاً يسبح في لجج الأحلام والأوهام ، وشابا شائب القلب يتلقفه مد الحياة وجزرها . .

* * *

إذن وداعا يا مملكة « بوسيدون » يامهبط « السيرنز » وحارس الجزر المسحورة ، والقصور البلورية ، الساخر بالمدينيات تضيء مناراتها ويخبر ضيائها عند أقدامك ، الهازيء بالمداين والأمصار تشيد وتدول على حافاتك . .

هكذا تلاشت ظلال المدينيات ، ودرست معالم المدن ، وتقوضت آثار الشعوب ، وعفت آثام القياصرة ، وأنت باق تهدر كالتنين ، وتنافس الأبدية ، وتضحك في وجه الزمن . .

وداعاً أيها المتهكم على قوة البشر ، الساخر من الحروب تشب فوق عبابك الزجاج ، وتلوث
صفتك بالماء ، وتشوه نقاءك بنتن الجحيم والأشلاء . تبتلع بصخب آذيك الهدار قصف المدافع
ودوى الاساطيل وأنشيد الملاحين والصيادين ، وهجمات العشاق والشعراء . وأنت جبار لا تلين .
وشيخ رأيت الحياة الاولى تذب عند أقدامك وتطور على رمالك . .

* * *

هو ذا الطفل الذي شيد على ساحلك قصور الرمال وأنت تطمسها بكراتك المتدحرجة .
ما افتك يبنى قصوراً في الهواء . هو ذا اليافع الممتلىء الرأس بالاحلام قد غلبته تخيلاته
واستهوته أناشيد « السيرنز » فألقى بنفسه في أحضانها المسمومة غير عابئ بمساورها من
هاويات الموت . .

هو ذا الشاب المتسلل من بين الجموع ليرقب الشمس وهي تنحدر إلى خدرها لتستحم في
مياه الأفق قد أدركه الظلام فجلبه بحمل السواد وأخفاه في طيات عباءته حتى عن
عيون السكوا كب . .

* * *

إذن فالى اللقاء بعد عام ان طال بعثله الاجل . عام طويل تتعاقب فيه الفصول وتتم به الارض
دورة حول الشمس . عام يري فيه الملايين نور الشمس لأول مرة ويودع الملايين هذا النور
لآخر مرة . .

الى اللقاء يا شقيق النفس القلقة المتوثبة . التي تنور لججها حيناً ، وتهبأ أخري كالمرأة المجلية . لا بد
أن أنأى عن محياك الصبوح لأرى الكثير من الوجوه الكالحة وقد ارتسنت عليها الاثرة والبغضاء .

* * *

وأنت أيها الانسان الذي عشقت الحرية منذ رأيت النور ، لم رضيت لنفسك هذه الاصفاذ
الثقيلة وفي مقدورك أن تهشمها . لم اخترت لنفسك هذا القفص الذهبي الضيق وأمامك فضاء الله
الوسيع ؟ هكذا شئت أن تضع هذه النفس التي خلقت لتحوم على وجه الموج وفوق أجنحة
السحاب العوبة في أيدي صغار الاحلام . هكذا شئت لنفسك أن تسمعها عويل البوم بدلا من
تراتيل الطيور . وترهبها خفافيش الخراب تحت أستار الظلام ، بدلا من مشهد الشفق ساعة الشروق .
ما لهذا خلقت نفسك ولا هكذا شاء لك نصيبك . أنت الذي هجرت منازل الآلهة لتقضى بقية
إيامك في قبور البشر . اذن فانظر وراءك الى هذا الصياد السعيد وهو يشيعك بابتسامة السخرية .
أنه لا يرضى بأسماله وفاقته بدلا من حملك المقلدة وجاهك المزيف . تطاع هناك الى هذا الراعى الرخى

البال ، إنه لا يبيعك أناشيده الساذجة بترانيمك الكثيرة . ولا جهله الهنيء بعلمك القليل المحدود

* * *

إني لأراك تجوب في هذا الشاطئ كأنك موكل بفضام الله تذرعه ! تأثها تضرب في يساب
النهائي من الحيرة والرغبة في المعرفة ! قارة تنظر إلى البحر المتلاطم المزبد ، وقارة تملك في رمال
الشاطئ المرصوفة بالصدف والحصى ، تتطلع طوراً إلى الآفاق النازحة بعينين رجائيتين ، وأخرى
إلى أغوار نفسك فلا تلتقي لها قراراً ..

عم تبصت وعم تستقصي ؟

أتبصت عن نفسك المغمورة وسط هذا السكون الفسيح ، ذرة حية متصلة بهذا الوجود الشامل
غير المحدود ، لعلك تدرك بما وهبت من عقل واحساس كنه تلك العلة ؟

أم تذهب في طلب السعادة وراء ضبابية التصوف فلا ترى غير شبحها المبهم الغوار ؟ وما كانت
السعادة فيك ولا سفرت أمامك مادامت في الله وحده !

أم تنقب عن الحقيقة المطلقة ، المقنعة الوجهة ، فلا يصل اليها عقلك المحصور وقدرتك
البشرية العاجزة ؟

أم تفتش عن مثل أعلى للفضيلة يصبو اليه خيالك وهيئات أن يعثر به ! ؟

ما لكل هذا يتسع عقلك ولا هذا يتناول هذا العقل البشري الطامع ! ترمي كأخوتك إلى لقاء

السعادة وفاتك أن سراها لا يرى في الحجر المفاقة ولا يوصل اليه بأقدام أثقلتها القيود !

* * *

ها هو ذا الجمال معروضاً أمامك ميسوراً ، يمثل صور الآله كما يمثل صور الحرية . يرحب بالروح
الصوفي يندمج فيه بخشوع وهيبة ، ويتعري أمام الفنانين ليستمدوا الوحي من محاسنه . هذا الذي
تلقى فيه النفوس الحساسة فيضا تطفئ به منله العذب ظمأها الروحي ، وحرية تفرح في فضائها منطلقة
من أسرها تتفنى وتحلم ، وتسعد بالألم والغبطة ، والحنين والتعطش ..

* * *

ها أنت مائل أمام هذه العظمة ، عظيمة البحر الواسع الرجراج . ذى العباب والآذني
والأمواج . تراه ولا يراك . وتسمعه ولا يسمعك وتحس بوجوده ولا يشعر لك بوجود . وان
هو أحس بوجودك فما زدت في عينه عن سمكة صغيرة تفضل في متائمه ، لا عن قيطس يسبح كجبل
الثلج في أعماقه ..

ها أنت تحس بالعجز والضعف أمام جبروته . فقليل من مائه يوردك الخنف ، وأنت أعجب منه

شأننا وأعمق غورا وأغرب سرا . أنت بتلك النفس الآلهية التي وهبتها فعميت بها ولو ثبتها بالوحد
والرفام تقف على حافته فتطوقه بالفكر وتخضعه بالإرادة وتمتلكه بالخيال .
كل هذا البحر الواسع بل كل هذا الكون الفسيح لا يساوي فكرة بشرية أو فضيلة إنسانية .
فها ذا ذكرت هنا من وهبك تلك النفس الحية العجيبة وقدست اسم من دفعك إلى هذا الوجود
لترى عجائبه وتسعد بروائع آياته ١٩

أجل أنت أي صانع هذا البحر العظيم أيها المشرف على أطفالك العائين على شاطئ الحياة يبنون
بيوتاً من الرمال ويحفرون حفراً في التراب ويلعبون بالقشور والأصداف ، كم تكون عظمتك وأنت
خالق هذه العظمة كم تكون روعتك وأنت جابل هذه الروعة !
لقد خلقت لنا هذه الحياة ذات السعادة والشقاء . والجمال والقبح ، واللذة والألم ، تلك الحياة
التي تبدو لنا حيناً كهزلة وتارة كحأساة . تسلبنا باليمين ما تعطيه باليسار . تداعبنا مرة وتؤدبنا
آخري لسكننا نحبها ثم نحبها

هذه الحياة ! ما أعجب أمنا الحياة . إننا في عينها سواء . أنها تبسم للصرصور المنشد كما تبسم
للإنسان الصاحب . أنها تعطف على النملة وهي تدخر قوتها تحت التراب كما تحنو على ولدها الإنسان
الطائر بمنطاده فوق السحاب . أنها ترى عدوها الموت يحصد أبناءها حصاد السنابل ، ويقفز راقصها
فوق الجماجم فلا تهتز ولا تتألم لأنها تهب الحياة من النهاية بدلا مما مات في البداية ، فلا تطلع شمس
الصباح على جحفلها اللجب الجرار وقد نقص منه فرد واحد .

ايه أيها البحر أفي مقدور أمواجك وأمواه لجحك وعبابك أن تغسل ما علق بهذه النفس من
خطايا ، وتطهر هذا الجسد المهدود من أدرانته وميوله .

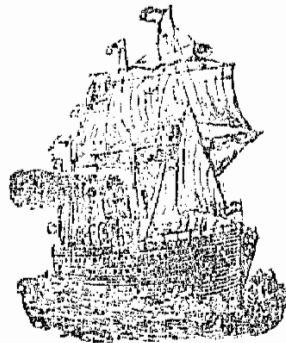
إذن لألقيت بنفسي في أحضانك ، واستودعت جسدي أعماقك ولجملت مشواي الأبدى قرارك
واتخذت من أمواجك موكباً . لجنازتي ، ومن صخب آذيك وزفيف رياحك موسيقى لما أتمنى . .
أذن لسان لي في مملكتك الصامتة الرهيبة أقدم قبر تحف به هاجم الغرقى ، وتزينه لآلئ قاعك
وأصدافه . فمت كما عشت مغموراً قائماً ، وأعدت روحي إلى صاحبها طاهرة الذيل نقية الصفحة . .

لقد رأيت من حنوك على ألوف الملايين من الأحياء التي فرشت لها خوان صدرك ، فأخذت
تمرح عليه وترتع . شاهدت من حبك الوالدي لصغارك السعداء ما جعلني أحب كل شيء . فأحببت

كل اخوتي البشر صغيرهم وكبيرهم ، جميلهم وقبيحهم ، فاضلهم وشريرهم ، وأحببت كل مخلوقات الله ، صادحها وباعثها ، حيها ومجهدا ، حتى تراب الأرض أحببت . .

أني أحس بهذا القلب الصغير ، المسجور ، يمتد ويتسع ويضم اليه كل هذا الكون بما فيه من كواكب وشمس . أحس به يحن إلى معانقة الفضاء وتقبيل الماء والهواء ، ويشتاق إلى الاندماج في هذا الروح الكلي الشامل ، الناصر جناحيه المتلائين في جنبات الزمان والمكان . .

لقد جعل مني هذا الحب الشامل عصفوراً معذباً سعيداً بآلامه ، له جناحان من نار ونور ، عصفوراً حراً منشداً لا يبالى بهذا العالم ، ولا يبالى به العالم ، يرى في هذا الكون كله وطناً رحباً مكتظاً بصور الحب والجمال ، فيطير إلى الأعالى مبتهجاً بضياء الشمس وأريج الحدايق والأدغال ، لا يعجب إلا لأولئك المتخصصين المتنازعين الذين تفيض حياتهم بالمرارة والمقت والأثرة ، والذين جعلوا من هذه الأرض الجميلة جحماً تتصاعد منه أصوات العويل والشكوى ، وترى فيه ألص رؤى النفاق والشر !!



في المصمل

جالس العالم الباحث على مقعد في معمله المزدهم بالأجهزة العلمية والآلات الدقيقة والزجاجات وأنابيب الاختبار ، وكان المحيط حوله هادئاً ساكناً . وقد أحس بالتعب من فرط البحث وطول التنقيب والاستقصاء ..

وعلت جبينه سحابة من السكابة والغضجر لأن « المكروسكوب » الذي كان يستعين به في تكبير الجراثيم والذرات قد تعطل في هذه اللحظة ، فانقطعت أبحاثه فجأة ..

وأخذ يفكر في عجزه البشري عن إدراك أسرار الكون ، حتى حواسه القوية السليمة لم تسعفه صرة في حل المعميات ، فلا بد لعينه في كل لحظة من تسخير « المكروسكوب » يكبر به تلك الصغائر الخفية في طيات الفضاء ، ولا بد له في كل آن من « تلسكوب » يستعين به في تقريب الأجرام البعيدة والبحث في أغوار السماء . وأذناه اللتان يسمع بهما الهمسات لا تبهديانه نقماً في سماع الأصوات الخفية الضئيلة وطالما استعان « بالمكرفون » يعظم الصوت ويبينه . وحاسة اللمس لا تفيد شياً في التفريق بين النعومة والخشونة في أجسام يريها له المنظار المكبر مليئة بالتضاريس ، والوقت الذي يستخدمه في حياته اليومية ويحصى به الثواني والدقائق ضعيف بطلء لا يسعفه في الدلالة على سرعة الضوء والصوت ، ولا بد له من أقيسة أخرى كالسنة الضوئية التي يقيس بها أبعاد ضوء النجوم وسرعته ..

وأخذ يتمم ضجراً وبلا وعى : يا لالإنسان من مخلوق ضعيف عاجز لا مفر له في كل ساعة من الاستعانة بالمجهر والآلات والأجهزة لتمين حواسه العاجزة.

وأخذت خواطره تنساب متلاحقة سريعة ، ثم علت شفقيه ابتسامة السخرية إذ تذكر غطرسة الإنسان واعتقاده بأنه سيد المخلوقات وقاهر الطبيعة ، مع أن العصفور الضعيف أحد منه بصراً ، والكلب أقوى منه شماً ، والققط أبعد منه سمماً ، والبومة ترى في الظلام ، والذبابة تحس بالطعام من مسافة بعيدة ، والحدأة تطير الى السحاب بلا آلات ..

لو كانت له حواس قوية هائلة تغنيه عن الاستعانة بالآلات والأجهزة لاقتصد كثيراً من وقته الضائع وقواه المتلاشية ولاكتشف كثيراً من أسرار الوجود وغوامض الحياة بسرعة تزيد كثيراً في ثروة العلم ..

وقد تملكته الحماسة في تلك اللحظة فلم يترو في أفكاره وخطر في رأسه أن يخرج على ركبته ويتضرع الى الخالق الذي صنع له هذه الحواس ، أن يزيد لها قوة وسطوها وحادثة ، فيرى ويشم ويسمع

ويحس أكثر مما يقدر الناس ، فيستطيع بذلك أن يخدم العلم ويكشف عن عجائب صنع الله
وفي تلك اللحظة وصلت طلبته الى مسامع الله فابتسم الله وأجابته الى ما يطلب . .

وسرعان ما شعر بسطوع عجيب في حواسه ، وأحس بأنه تبدل انسانا آخر ، وخافوا جديدا .

وأحدق بعينه في أرجاء العمل فإذا به يتسع أمامه ويسكب ويمتلئ بالفرائب حتى حسب نفسه في
غابة كبيرة . وإذا بالنضاء قد كسته ضبابه من طيور ذات أجنحة وبغير أجنحة ، فالجرائم التي لم يكن
يراهها إلا بالمسكبرات كانت تسبح أمامه وسط ذرات البخار والغبار بذيولها وأفواهها وأجنحتها
والرائحة ، وكانت ترقص وتتلوي أمام وجهه ، وتدخل وتخرج في شه وأنفه وعينه وملابسه .

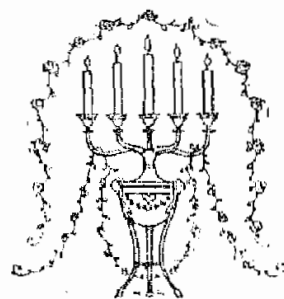
ونظر فإذا بطير يشع المنظر يصفق بأجنحة وينظر اليه بعشرات العيون اللامعة ويمد نحوه قرونا
كالسهم ولشد مراعه أن هذا الطير قد حط فوق أنفه ، ولم يكن غير ذبابة !

وحانت منه التفاتة نحو المقعد الذي يجلس عليه ذاهلا ، فإذا بالمقعد تتحرك ذراته والكترونااته
وتسبح مسامه . ونظر فإذا بوحش مستطيل الجسم يزحف على ذراع المقعد نحوه بسوق طويلة رفيعة
ولم يكن هذا الوحش غير نملة . .

فأغمض عينيه وإذا بأذنيه تفتتحان وإذا بعمله الهادي الصامت يمتليء بالضجيج واللجب فاختلطت
فيه أصوات مبهمه وطنين وهمس ودمدمة ، فالهواء يصفر والأجنحة تتحقق وتسمع أصوات تموجات
وخشخشة ، فسكاد يحزن وسد أذنيه بأصبعيه

ثم تصاعدت في أنفه روائح قوية مبهمه كادت تخنقه وتكتم أنفاسه والآجسام تنبعث منها روائح
مختلطة ، فهمم بالنهوض من مكانه وتلمس المقعد فإذا بنعومته تنقلب تحت أصابعه إلى مرتفعات
ومنخفضات كسطح الصخرة الخشنة ، وجري نحو كوب من الماء ليشرب فإذا بالكوب حوض من
الماء تسبح في أمواجه حيوانات وأسماك

فوقف برهة لا يعرف مداها ، لأن الوقت تبدل والثانية أصبحت ساعة والساعة شهراً ، وأخذ
يصيح . اني جئت أو انني مريض ! ونسى في إدهشته طلبته الأولى ، فعاد يطلب من الله ان يشفيه !
فابتسم الله وأعاد إليه حواسه البشرية العاجزة !



الليشمير

حملني الخيال إلى فلاة فسيحة لا ترى العين لها نهاية ولا حداً . . .
فوقعت متأملاً في هذه المساحة المترامية الأطراف حتى غلبني السكال فنمت . . .
ولما عدت إلى نقي وجدت تلك الفلاة الوسيمة قد اكتظت بمجمهور عظيم من بني الانسان
سائرين في جمحفل لجب جرار لا يلوى على شيء . . .

ونظرت فاذا بهذا الجيش قد ضم بين حاشيتيه كل أجناس البشر ، وجميع النحل والملل ،
والأشكال واللغات . . .
فرايت فيه الهنود الحمر ، والزنوج السود ، والمغول الصفر ، والشماليون البيض . . .
ورأيت فيه الطيب والخبث ، الجميل والقيبح ، الرفيع والوضيع ، الضاحك والباكى ،
والمتفائل والمتشائم . . .

وكذا رأيت فيه الرجال والنساء ، الفتيان والفتيات ، والشيوخ والأطفال . . .
ولكنهم كانوا جميعاً مقبلين من مكان واحد ، وإلى ناحية واحدة كانوا سائرين !

فولجت غابة الجمع لأقف على سر الأمر . . .
وتقدمت نحو شيخ حنت قناته الأيام ، وسألته قائلاً : « إلى أين أنتم ذاهبون ؟ »
فأجاب : « لا أدري » اقلت : « ومن أين أنتم مقبلون ؟ » أجاب : « ومن يدري » !
فعجبت لأمره وسرت أسأل القوم كبيرهم وصغيرهم قائلاً : « من أين أنتم مقبلون وإلى أين أنتم
سائرون » . . .

فكان جوابهم واحداً هو « لا ندري » !

ونظرت فاذا على رأس كل منهم طائر بديع المنظر ، حلو الصوت ، يغنى لهم طول المسير فينسيهم
مشاق الرحيل ، ويلهمهم عن وعناء الطريق ، ويفرج أوجاع قلوبهم ، وأتراح نفوسهم !
ورأيت كلا يحمل على كتفيه عبئاً غريب المنظر قد أثقل ظهره وحال بينه وبين المسير في راحة !
ولشد ما عجبت له أنه لا يود أن يطرح عنه هذا الوقر الثقيل الذي ناء بحمله !
ورأيتهم قد علقوا وراءهم أذيالاً ملونة يتيهون بها عجباً وخيلاء ، فيزيدهم هذا التيه حياة وهمة !

ولكن ما كان أغرب تلك الديول ! لقد تراءت لي كذيول حير الوحوش !
 والتفتت ورأى فإذا بي أرى شبح جبار رأسه في السماء وله عينان مثل عيون الكواكب ،
 وجناحان يشبه كل منهما قوس قزح ! ولحية تتدلى على الأرض مثل ضيابة كثيفة !
 ورأيت في يمينه سوطاً هائلًا يسوق به أمامه هذا الجحفل المرمر الذي لا يلتفت فيري ما وراءه !
 وشاهدته يرفع هذا السوط فوق السحاب ، ويهوى به على الأحياء اللاهين فيسحق به بعض
 الألوف ، ثم يقهقه في الفضاء كما تقصف الرعود في جوف الغيوم !

* * *

وهكذا سار الجيش نحو الأفق النازح ، والجبار يسوقهم كما يسوق قطيعاً من النماج !
 فوقفت متسائلاً كيف لا يري القوم سائقهم ولا يحسون بضربات سوطه ، فهم يسرون لاهين
 ويرون الموتى يتساقطون أمامهم مثل أوراق الغصون فيتعلمون ! وبغير أنفسهم لا يفكرون
 ولا يعرفون إلى أين هم ذاهبون !
 وغصت في لمح الحيرة والارتباك حتى تملكني يأس عميق وتهاؤم قتال ، وإذا بي أرى الجبار
 العجيب يسوقني معهم ، وإذا بي أسير كما يسرون إلى حيث لا أعلم ولا يعلمون !

* * *

فكدت أصعق من الوحل لولا أن عنفريتاً من الجن بدا أمامي فجأة وأخذ يليني بالحديث قائلاً:
 لا ترتع فهذا جيش البشرية الجرار لا يدرى من أين أقبل ولا إلى أين يسير !
 أما هذا الجبار فهو القدر الذي يسحق منكم في كل لحظة مئات وألوفاً وهو سائر بكم إلى
 حيث تتلاشون !

قللت : إن كان هذا جحفل الانسانية فما لهذا الطائر الغريد يقف فوق الرؤوس مغنياً ؟
 قال : هذا طير الأمل الذي لولاه ما قدرتم على متابعة المسير نحو الأفق النازح !
 قلت : وما هذا العبء الفارغ الذي أثقل الكواهل ؟
 قال : هذا عبء سفايف الحياة الذي تنوءون تحت أثقاله ولا تلقونه عنكم !
 قلت : وما هذا الذنب الملون الغريب ؟

قال . هذا ذيل الغرور الذي يفرح قلوبكم ويمأؤها بالزهو والاحتمال والخديعة في سيركم إلى النهاية
 ثم قهقه طويلاً واختفى في الهواء تاركاً في الفضاء صدى قهقهة السخرية والتهمك !
 أما أنا فسرت مع السائرين حتى يقع على بدوري سوط القدر !

المرأة

أريت فيما يرى النائم مخاوفة عارية منتعشة فوق رابية مزدانة بالأزهار والرياحين . .
وما دنوت منها حتى تبين لي أن محياها وضياء الشمس ، وعينيها خلابتان كالنجوم ، وشفتيها
جذابتان كالورد القرمزي ، وجسدها فتان كجسد هاتور ١ .
ولما أضعنت فيها النظر رأيت أشعة رقيقة مثل ضياء القمر تحيط بجسدها الأملس ، وسمعت
نغمات شجية تنبثق من الفضاء بقربها ١ .
فاقتربت منها متغرساً فيها وفي ماحولها ، فرأيت في يمينها جمعة سهام عجبية ، وفي يسارها
تفاحة جميلة ، وعلى رأسها تمثال ذهبي وثعبان ملقو منقوش برموز سحرية ١ .
ورأيت لها جناحين كالبلور مختلفيان تارة فيبدو لها بدلاً منهما ذيل كالأفعى ، وقرنان كقترني
التميس ، ويظهران أخرى فيتلاشي الذيل والقرنان ١ .
ونظرت فإذا بجوارها طاووس عجيب ، وقلب بشري في كأس من المر ، وباقة من الزنبق الداوي ،
وفيشاره من ذهب ، ووردة نضرة تلمطر أرجاء الفضاء ، ومائدة عليها ذهب ولبان ومر ١ !



فوقفت أتأمل في ما أرى صامتاً ، ثم تقدمت وسألتها عن تكون ١
فنزلت إليّ بدعشة وقالت : يا لا حجب ألا تعرف أمك حواء ؟ أنا أم البشرية ١
أنا المرأة ! .

قلت : لقد أضلّنتني عن معرفتك تلك الغرائب التي حولك ١ :

قالت : لا أري حولي شيئاً غريباً ١ .

قلت : فما هذه الأشعة السماوية التي تسكتنفك ؟ .

قالت : في البدء لما صنعني مهندس الكون ، وخطرت تحت خمائل الطيب وكروم الجنة ، هبط
الملائكة والآلهة ليروني ، وسرعان ما استغربوا منظري وفرحوا بي وقدموا لي ثمين الهدايا . .
فمنحتني الآلهة « ديانا » هذه الأشعة العجيبة التي تسربلني بالروعة والبهاء حتى أغمر
بها القلوب فتصبح ثملة في لازورد ضيائها ، وترفرف مستسامة إلى قوة سحرها . فيحيا مواتها
وينتعش وهنها . .

قلت : وما تعني هذه النغمات الملائكية التي تنبثق حولك ولا يعلم مصدرها ؟

قالت : أما هذه فهبة الرب « ابولون » لا ملأ بها غرائغ النفوس بحسب الوجود والاقتراب من معزى الحياة ا .

تسمعها الآذان عند اقترابي فتطرب في جو ناعس ترن في أنفقه أناشيد الأمل ا .
بله أن في تلك الذببات ما يرمز للمرأة التي هي أغنية عذبة تأمة بين ضجيج الوجود . .
قالت : فما هذه الجعبة الملاكي بالسهم ؟
قالت . هذه هدية « كيويدي » اله الحب ذو الجناحين الصغيرين قدمها إلى لا رشقها ق القلوب ا
ذلك هو سيني المساول في رجه العقبات . به عدت في مصاف الجبابرة على الرغم من
ضعفى وعجزى ا

ذلك هو موضع ظلمى . ولكن وراء هذا العسف لذتى وملهاتى .
تلك هى سهامى فاذا تكسرت فان لى من سهام الالحظ ما يغنينى عنها . .
قلت : وما تعنى هذه التفاحة التى ببسارلك ؟
قالت : إن هذه إلا ذكرى المعصية .
هذا أثر من الفردوس المفقود ، وتذكر شجرة معرفة الخير والشر
هذه رمز الخروج من نعيم الجهالة إلى شقاء المعرفة . .
هذه تفاحة الاغراء !!
أحماها لتذكرنى بالزلة الأولى ، ولأرى فى حسنها خيالات الجنة .
وبها أحيأ فى مملكة الوهم والخيال .
هى التى تجلب إلى كشف غوامض الحياة ، وأمرار الكون ، فأقتحم فى سبيلها الخوف
والأخطار .

بها أغرى الرجل فيرضخ لمشيئتى ويأتمر بأمرى . .
بها أغرانى الشيطان فعصيت الله ، وبها أغريت آدم فوق فى المحذور . .
وهكذا سترتها المرأة لتكون فى يدها سلاحاً للاغراء مدى الحياة .
قلت : فما هذا التمثال الجميل وما معزى هذا الثعبان المنقوش بالطلاسم ؟
قالت : هذان من هدايا « افروديت » ربة الجمال والحب .
أما التمثال فهو رمزها المقدس الذى يزيدنى جمالا فى العيون وفتنة للناظرين .
إن المرأة الجميلة الحكيمة هى تمثال « افروديت » الحى ، ورسولها المبشر أهل الأرض
بدينها القويم .

أما الثعبان فهو الرمز المسحور المكسو بالطلاسم الذى أخضع بقوته الأفتدة الصلبة وأذيب بسحره القسوة والعناد .

بله أن مثل المرأة فى قلبها ولينها وخداها وغدرها وحكمتها مثل الثعبان الغريب الأطوار . . . قلت : فما هذان الجناحان وما هذا الذيل وهذان الثمران ؟

قالت : بهذين الجناحين يمكن للمرأة أن تتشبه بالملائكة فتتنقل فى العالم معلنة مجد الروح . . . وعجيب صنع يديه . . .

وبذلك الذيل والقرنين يمكنها أن تشاطر الأبالسة تمردهم ، وتقاسم الشياطين سيئاتهم فتسير فى الأرض منادية بالبشر والعصيان

وأن المرأة للملاك فى ثوب شيطان وأنها لشيطان سرق حلل الملائكة

قلت : وما هذا الطاووس المتخطرس ؟

قالت : لقد قدمته لى الالهة « هيرا » ورمزت به إلى الالهة والفخار الذين ترى فيهما المرأة شرفا فآه . كم تعبد المرأة كاذب المظاهر وزائل الابطال !

كم للغرور من سلطان على قلبها الضعيف

إنها تنظر إلى الحياة نظرة غريبة فى بابها قلما يفهمها أحد سواها

قلت : فما هذا القلب البشرى المنقوع فى كأس المر ؟

قالت : هذا قلب الرجل الذى قدمه لى آدم عربون حبه وولائه

لقد صنته فى المر ليعيش أبداً نابضاً بهواى حافظاً لمهدي وذكراى

ان المرأة لتحب أن تمتع ناظرها برؤية القلوب المعذبة فى نار هواها ؟

قلت : وما باقة الزنبق هذه الملقاة عند قدميك ؟

قالت : هذه مقدمة « زيوس » رأس الالهة المغرم بنساء البشر

ولكن ما كانت المرأة لتهوى خليلاً يستعبد لها أو خليلاً يراها أحقر منه شأنًا وأصغر من أن

تتخذ لنفسها لقب الحاكمة بأمرها

قلت : فما هذه القيثارة الذهبية

قالت : هذه مقدمة عرائس الفنون

فالمرأة قيثارة الحياة ونغمة الامل ولحن العزاء

هى قيثارة الوجدان الرقيقة الاوتار المائلة الفضاء بالألحان والضحكات والبكاء ، يسمعها الشعراء

غيملاً ون الأرض بالقصائد والدواوين

قلت : وما هذه الوردة النضرة ؟

قالت : هذه هبة « غون » اله المروج قدمها إلى قائلا :

أنت وردة الحياة النضرة ذات الاربيع المتضوع في أنحاء الارض . .
خداك مشربان بحمرة أوراقها . وأنفاسك معطرة بمحلو شذاها . .
أنت وردة الانسانية ذات الشوك . .

لك رونقها وبهاؤها . لك لطفها وغضارتها . ولكن شوكتك يدهى البنان ! .
قلت : وما هذه المائدة ذات الذهب واللبن والمر ؟ .

قالت : هذه مقدمة معبودي « ادونيس » أرسلها إلى يقول :

أنت مليكة الحياة المسرولة بالذهب . أنت كنز لا ينفد معدنه . .
عند قدميك ينثر الذهب ويفرش طريقك بالتبر الوهاج . .
أنت كاهن هيكل الحب ومعبد الجمال . .

لك يقدم لبنان المباخر المقدس لأنك الوسيط بين الحب والناس .
أنت رسول عشقوت المبشر بدينها وتعاليمها الذهبية .
أنت نبي الجمال الصارخ في البرية قائلا : أعدوا طريق الفن .

عندئذ يصلبك وحوش الانس على خشبة الاستعباد ويقدمون لك قصبة ملؤها المر فتشربين
وتتعذبين ! . .

في حياتك ستذرفين الدموع وتتوجعين ، وعند أفول نجمك ستدينين وحدك الى ظلمة النسيان
في ربيع أيامك ستتوجين بالغار ، وفي شتاء حياتك تذودين تحت الأقدام . .
لك يقدم الذهب واللبن والمر . .

لأنك قصيدة الآلهة الشعرية ذات المعاني والرموز . .
لأنك أم البشر - دوحة الأرض المثمرة . .

* * *

واذا بسحابة قد هبطت من السماء واختلطت كل ما كان أسمى وصعدت به إلى الأعلى

فتلاشى كل شيء !!

في مساكن المجانين

يبدو لي أحياناً هذا العالم في صورة مستشفى كبير للعجائب . فيه يقضى بنو البشر فترة العلاج والاستشفاء حتى يريحهم الموت ويريح غيرهم منهم ، وقد شاء الله أن يرفعهم بعضهم فوق بعض درجات وله في ذلك حكمة وهو العاقل وحده ، فكان منهم كبار المجانين والصابغين وصغارهم ، وثائريهم وهادئهم كما ظهر فيهم البلاء والخرفون والطائشون والمعتوهون وأشباههم . وكثيراً ما شاءت عارضة القدر أن ترفع بعض خول المجانين إلى عروش القياصرة كما فعلت بنين وأجريكولا ، أو تقلد مناصب الحكم والقيادة والتحكم في مصير الشعوب كما فعلت مع الحاكم بأمر الله و نابليون وجنكيزخان ومئات غيرهم ولو كان القدر إنساناً لتخيلته شيخاً تسيل دموعه من فرط الضحك وتتلوى أعضاؤه من شدة الطرب .

وقد انتفع الكثير من الناس بما وهب من كمية الجنون ، فطلع علينا التوابغ والعابرة والشعراء والفنانون والفلاسفة ، وذهب كل يتامس ما يخفف عنه مصابه ويخدر أعصابه ، فسخر البعض المتع المادية والملذات الجسدية . وعمد البعض إلى المسرات الروحية والفنون الجميلة يتسامون بها أو يروحون بها عن أنفسهم . ووجد البعض في التقوي والخوف أو في الشر والأجرام وسفك الدماء ضالته . ورأى الآخرون في الهدوء والخلوة أو في الضجيج والزحام مسكناً لثوران نفسه وجوح عواطفه . . وقد قصد الله بهذا التوزيع في الدرجات والتباين في الأشكال إلى عمران الأرض وحفظ التوازن فيها . إذ لو كانت البشرية مجموعة من العقلاء الكاملين لاختل نظام الحياة وشلت حركة المجتمع ودبت السآمة في النفوس أو عاد الجنون فتسرب إلى العقول ، هنا يصدق القائل :

وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى يختلف الجنون !

تلك نظرة شاملة ورأى لا تؤمن به كبرياء الناس . ولست هنا أجرح كبرياءهم مادمت أخص الجنون الاصطلاحي بهذا الحديث . والمجنون في عرف الناس من اختلت إحدى مراكن قواه العقلية أو كلها أكثر من غيره ، فشذ عن القوم في أساليبهم أو أحاديثهم ، فله دينه ولهم دينهم ، فهو مريض وهو أحق بالشفقة والعطف منه بالسخرية والنبد . .

والمجانين في رأي الفيلسوف مالبرانش هم أصحاب رؤيا حسية باطلة لأنهم يتخيلون الأشياء على غير ما هي عليه ، ويرون ما ليس موجوداً ، فهم يخلقون ما ليس بكائن ولو كان ما يرونه أوهاما موجودة في مخيلاتهم . . ويقول مالبرانش أيضاً : « كون الإنسان ذا أفكار باطلة لا ثقة بالمجانين لا يكفي أن يعتبر مجنوناً ، بل لابد مع هذا أن يعتبر الناس الآخرون أفكاره رؤيا باطلة وجنوناً

لأن المجانين انما يمتبرون مجانين إذا وجدوا بين العقلاء لا بين أمثالهم ، كما أن الحكماء لا يعتبرون حكماء بين المجانين .

أما كتب الطب فلها في الجنون جولات واسماء تخص لك فيها عشرات الأنواع من الجنون ، وتمييز لك عن أسبابها ونتائجها ، وقد كرر لك بينها « المونومانيا » وهو شذوذ العقل في نقطة معينة ، وانومانيا أو جنون الأثرة والأنانية ، والجنون الآلى وهو الشذوذ في الحركة شذوذاً نظامياً مرتباً و« جنون » دمنشيا . روروكس » أو تخريف الشبان ، ثم العته الفطرى وعته الشيوخ وتخريف الزهري وغيرها مما يعرض بعضه في مستشفيات المجاذيب ويعرض بعضه الآخر في كل مكان . .

ولعل المجنون شاعر ينظر إلى الدنيا نظرة جزئية تفصيلية ، وقد تراه مشغولاً بموضوع خاص يستأثر بذهنيته ويستعوز على مشاعره فلا يفتأ يذكره في روحاته وغدواته ، ولا لوم عليه في ذلك . وقد يوجه كل تفكيره إلى قطعة من الخيط أو الحجر ولكنه لا يبالي بقطعة من الملمس تخصها ضمن العقلاء برعايتنا واهتمامنا . وقد يحرق نفسه من التقاليد الموضوعة ويتخذ لنفسه طاملاً خاصاً به يمرح فيه بخياله ونظراته ، فنهزأ به وقد نكون أجدر منه بالسخرية . .

وأنا ممن يحبون المجانين لا سيما الهادئين منهم ويرتاحون إلى عشرتهم الشعاعية البريئة وسذاجتهم التي تشبه حلاوة الطفولة ، ومن يرون في الجنون موضوعاً عميقاً لا يربط بعلم النفس له فلسفة خاصة به ذات أصول وفروع ، وهو فن لا يحلوا من روعة إذ هو يستمد الوحي من ملكوت سحري غريب مملوء بالشذوذ والأخيلة والألوان المبهمة والحرية النائرة على أنظمة الناس وتقاليدهم وعاداتهم . .

ولست أخالك تعاسبنى على ما أذهب اليه ، فلست أطالبك بأن ترى ما يراه غيرك أو تقرأ كل ما يكتب ، فانك لن تظفر بمعنى كبير من مثل هذه الكتابة الرياضية التي يروح بها أحياناً عن أنفسهم أولئك العائشين في منطقة أخيلتهم يتطلعون إلى هذا الوجود العجيب بمنظار ملون يريهم العالم مكتظاً بأقواس قزح وقصور بلورية . .

وكأن الله جلت قدرته ، اكتشف في نفسى ذلك الحب وذلك العطف على تلك الفئة المنبوذة من عباده ، فكان يرزقنى بين فترة وأخرى بمجنون أكتشف فيه شيئاً من عجائب الكون وأسرار النفس ، بل كان يدر على الرزق أحياناً فيهدى إلى تارة رئيساً مجنوناً لا مفر من مجاراته في بدعه وتقنناته وأخيلته وآرائه . ولكن لأن يكون المرء مرؤوساً لمجنون خير من أن يكون رئيساً لمجانين . لأنه يكون أمام صنف واحد يمكنه أن يدرسه ويجاريه لا أمام كشكول يمار في أرضائه وتدليله ! ويرزقنى تارة أخرى بزميل مصاب بهذا الفن ولا مفر من مشاطرته نصيبه . بل لقد قدر

لى أن أستمع لأحد المدرسين بمدارس الحكومة وهو يقنعنا بأنه المهدي المنتظر وأن سلاح مصر وخيرها لن يتم الا على يديه ، ثم وزع علينا نشرة وضع لها عنوان «الكنز الأعظم» فيها ينسب على الأمة وعلى الحكومة باللوم على اهل مواهبه وانكار دعوته ، إذ أن عبقريته ستكتسح العقبات وتغير معالم البلاد وتصلح كل شؤونها !

فأظن بهذه الهدايا متصلاً بالحياة كما شط بي الخيال عن منطقتها ، حتى أدت بي هذه الحال أن بت اشك في كل من يصادفني أو يجالسني وأري فيه شذوذاً فأسئ به الظن وأخاله مجنوناً جديداً بعث الى وقد تدفعني هذه الفكرة الى الضحك في وجهه فيتهمني بدوره بالجنون .

وكانت أولى معرفتي بفئة المجانين بمدينة حيث قضيت فترة الصبا ، وفي مثل هذه المدن الصغيرة يسهل التفريق بين العقلاء والمجانين ، بعكس المدن الكبيرة حيث يختلط الحساب بالنابل ويتلصق الزحام كل صور العقول فلا يسهل التمييز بينها . وكان «العم مرجان» في مقدمة تلك الآرزاق التي انتهالت على فيما بعد . كان ذلك الرجل نجاراً عاقلاً حسن الكلام والملبس ، ففاجأه الجنون لسبب أجهله فسلبه عقله وماله ، وإذا بي أراه متحلياً «بفستان» من الخيش يسير به في الخلوات والطرق عاري الذراعين والساقين ، حاملاً على ظهره قفة فارغة من الخوص وعصا قصيرة ربطت في نهايتها مسماراً ، وكان هذا كل حطامه في الحياة . وكنت أرى الأطفال يتقربون منه ولا يخشونه فيفرق عليهم كل مامعه من الملاليم التي يتصدق بها عليه بعض المحسنين ، وهو لا يسألهم قط احساناً بل هو لا يتطلع إلى أحد ولا يبالي بالإنسان . اذ هو مشغول عن الدنيا وما فيها بأحاديثه عن نفسه وبأفكاره وأحلامه وكنت في ذلك العهد أتبعه ولو صادفته اليوم لتبعته أيضاً ، فكنت أسمع لا ينقطع عن الحديث مع القضاء وكان يصغى برهة إلى حديث لا يسمعه أحد غيره ، ثم يرد ويناقش أو يضحك ويعبس . وكثيراً ما رأيته يتحدث في المناظرة مع نفسه ويشير بيده مؤكداً أو ساخراً وهو يسير مسرعاً مطرقاً برأسه إلى الأرض لا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى تزدى به خاتمة المطاف إلى مجلسه اليومي على شاطئ النيل في مكان هادئ بعيد غير مطروق ، وثمة يجلس بجوار قفته ويمد عصاه ذات المسمار في الماء لصيد السمك . وفي ذلك المكان الشعري الجميل يبتى وحده سباحاً في أحلامه وخيالاته ، لا يكف عن الحديث مع نفسه بصوت منخفض جميل حتى تغرب الشمس فينهض مسرعاً ولم يصد سمكة واحدة بمساره ، ثم يثوب الى اسطبل مهجور ويقضي فيه ليلته آمناً مطمئناً . وهكذا تسير الأيام بالعم مرجان وهو لا يمل من صيد السمك بالمسار ولم يصد يوماً سمكة واحدة . أليس بين العقلاء كثيرون مثل هذا الصياد الشاعر ؟ أليس لدى كل منا أمل لا يفارقنا ولا نفارقه ، أمل هو أشبه بذلك المسمار ناتي به في بحر الحياة لنصيد مغناطيش سهمنا ونعاود السكرة كل يوم حتى يوقظنا

الموت من ذلك المبتدئ النابض ، ويومئذ تفيق من جنوننا ، وتنتحرر من قيودنا ، وترتفع في فضاء الله أرواحنا أثيرية مطمئنة تحت جناحي الله الشفيق .

في ذلك الزمان عرفت مجنوننا آخرنا ، ولست أدري باليقين تاريخ جنته ، لكنني رأيته قد انقلب الى فيلسوف قانع فأرخصي لحية سوداء كثرة وأسدل شعره على أذنيه وتزين بأخشن الملابس الغريبة النمط المصنوعة من صوف الابل ولم ينس التحلي « بينطلون » قصير من الخيش . وقد أطلقنا عليه معشر الصبية اسم « العموم » ولهذا الاسم سبب ، فان هذا الفيلسوف المتكشف كان شديد الاهتمام بنقل الماء من مستنقع كبير مجاور لل منازل الى قناة صغيرة حفرها بنفسه فسكننا نراه كل يوم يقضى ساعات عدة في نقل الماء بكوز صغير والمستنقع يزداد بدلا من أن ينقص . ولعله كان يقصد الى خدمة المجتمع من حيث أساءوا بعقله الظن . واجتمعنا حوله شرذمة من الصغار وسألناه عما يفعل . فأجاب بأنه ينقل الماء الى العموم ، وكان يقصد الى المصرف العمومي . فأنهلنا عليه بالأسئلة فأساء بنا الظن وجرى وراءنا في الطرقات ونحن نصيح به « يا عموم » . وما كان أحب الى قلوبنا من مثل هذه المشاكسة فكنا نأتيه كل يوم ونقف على مسافة تقينا أذاه ونصيح بصوت واحد « يا عموم » فياتي بكوزه ويمرر وراءنا ونحن نحاوره من طريق الى آخر . وهو لا يكف عن الجري وراءنا حتى يقطع التعب أنفاسه فيقف مهدداً ويقول « أولاد مجانين » ! ومضت الأيام وعدت الى البلد بعد عشر سنين فالتقيت به سائرا في طريقه وقد تغيرت الدنيا وما فيها وهو لم يتغير ، وإذا بي أسمع أطفالا لم يولدوا في أيامنا ينادونه من بعيد صائحين : « يا عموم » ؟

ودارت الايام دورتها خملتني الى دور الشباب ولم أقطع عن التفكير في بعض الفترات في شأن جماعة المجانين فكنت أقرأ عنهم أو ألتقي بهم وأدعهم في نعيمهم يسرحون . . . وكنت جالسا في إحدى حدائق القاهرة في يوم من أيام الربيع الوديع على مقعد خشبي من مقاعد ذلك المتزه وإذا برجل نحيف الجسم قصير القامة يرتدى معطفاً ثقيلا في ذلك اليوم الصائف وفي يمينه مظلة ، يجلس بمحاورى شامخ الأنف يتطلع الى ما حوله بكبرياء وعظمة فلم أعره التفاتا ، لكنه استغرب مني هذا الاعراض وأخذ ينظر الى طويلا نظرة الدهشة والاحتقار . ومررت فترة ونحن صامتان ، وإذا به يسألني بلهجة العظيمة والخيلاء قائلا « ألا تعرف من أنا » ؟ قلت لا ، لسوء الحظ . قال . أنا البرنس غ . . . حفيد الملك مينا ووارث المتحف المصري والاهرام . فأدركت أنه رزق جديد هبط على من ذلك الملكوت وأجبتة : عفواً يا صاحب السمو ، لقد كنت مشغولا عنك بهذا الكتاب . فانبسطت أساريه وقال لا بأس ان الطقس اليوم جميل . ثم أخذ يحدثني عن شئون مختلفة بلهجة رتيبة وكلام لا يشتم منه رائحة الخبل . فألفت أنه خرج عن الموضوع وعدت أقول له . « يبدو لي أن معظم

الناس لا يعرفون سموكم » فأجاب مقتعماً : « سيصرفون ذلك يوم أرغم والذي على اظهار الوثائق الرسمية التي تثبت أنني حفيد الملك مينا والفراعنة ، وسأدرس الحقوق لأدافع عن حقى بنفسى ، وسأعقد مؤتمراً عالمياً بأسيوط (وهنا أخذ يسرد لى عشرات الأسماء من مشاهير الرجال الذى سيعقد منهم المؤتمر) وسأسترد مفاتيح المتحف الذى يحوي آثار أجدادي ، وسأعيد باقى آثارهم من أنحاء الأرض ، وسأستولى على الأهرام وأشيد بجوارها مقبرة عظيمة أدفن فيها موميات آبائى . ثم أخذ يلقي مواد برناجه نحو ساعة لم يتعلم فيها أو يتوقف لأنه يحفظها عن ظهر قلب بعد أن رتبها فى عشرات الصفحات . ثم قال « وسأطالب انجلترا بمحاكمة مكهاون . » وهنا احتد وصاح قائلاً « والا اضطررت لأن أجعل مصر مستعمرة فرنسية . »

بعدئذ علمت منه أنه كان طالباً وأتم دراسته الثانوية ، ثم أصيب طبعاً فى عقله فانقطعت صلاته بالعلم وأخذ يقضى أيامه حتى الساعة متجولاً فى طرق العاصمة أو الاختلاء فى حديقة ليطلع فى الصحف أبناء العالم التى تمس قضيته . وهياً له جنون « المونومانيا » أنه حفيد الفراعنة وأنه أمير مهبوم الحق ، فتارت تأثيرته وأخذ يعرض مظاهراته على الناس فلم يلق منهم عضداً فسار الى مكهاون ، وكان خارجاً فى يوم ما من الكنيسة ، وأفضى اليه بشكايته فأوصى به الرجل أحد الشرطة خيراً ، واذا به يقضى ثلاث سنين فى مستشفى المجاذيب حيث وضع برناجه المستفيض وفيه يطالب بمحاكمة مكهاون .

فهل من أحد ينصف هذا المسكين ويرد اليه مفاتيح المتحف والاهرام ؟ .



فن التفكير

أصبح التفكير فناً له قواعده وفيه توضع المؤلفات . وهو فن يرتبط بعلم النفس من ناحية ،
وعلم المنطق من ناحية أخرى ، ويمس الفلسفة من جهة وتشرح الدماغ من جهة أخرى . أما علم
النفس فيرينا أن التفكير هو ادراك المعاني السكينة للوقوف على الحقائق المجردة وربطها ببعضها ببعض
ويقول علم النفس : « ان القوة الفكرية انما تنشأ بالمدرجات الأولية الحسية والوجدانية ، ثم تتدرج
هذه الى المعقولات المعنوية وتنتهي الى المعرفة السامية التي لا فاية وراءها »

وهو يرشدنا إلى التمييز بين القوة الفكرية وقوة التمييز الارادية وقوة الاحساس بالادراك .
إذ كثيراً ماتخبط آهـار هذه القوى النفسانية ولا يفصل بينها سوى دقة التحقيق .

وهو يرشدنا أيضاً الى التمييز بين العقل والفكر . ولو أن جميع الوظائف الفكرية لا يمكن
أداؤها بفكر العقل . إذ أن التفكير هو العين التي يتطلع بها العقل إلى العالم . « والعقل هو قوة إدراك
المعاني والعمل بها بينما الفكر هو قوة توجه النفس إلى تلك المعاني لادراكها »

كذلك يجب التفريق بين الفكر وأعماله الفرعية المستقلة كالخيال والحفظ والتذكر ونحوها .
وكذا يجب التمييز بين التفكير والتأمل ولو كان الفكر لا يثمر بلا تأمل . إذ أن التأمل هو حصر
الفكر بالارادة حتى يتجه إلى أمر معين يراد الاطلاع على حقيقته وكشف سره ، بشرط أن يكون
هناك ميل ورغبة تحثه على العمل وقوة تلم أشتات القوى الفكرية للعمل مرة واحدة ، وأن يكون
موضوع التأمل محدود الأطراف حتى يسهل تحليله ويمكن للفكر أن يحوط به ويفند مسائله متنقلا
من فرض لآخر ومن جزء إلى جزء .

أما علم المنطق فهو الذي يربط التفكير بالقواعد العلمية لئلا يتخبط ويضل عن الغاية التي يقصد
اليها ، ومن هذه القواعد ما يسمى بالاستدلال المباشر والقياس والاستنتاج أو الحكم والاستقراء
وفروعه من استنباط وتمثيل . . وغيرها من القواعد .

ويحذرنا المنطق من مفسدة الالتباس اللفظي والمفسدة الاستقرائية التي تؤدي بالكثيرين من
المفكرين الذين يعتمدون على المنطق البديهي غير المبني على القواعد العلمية إلى الوقوع في الاستنتاج
الخطيء والتفكير المضطرب ..

فن أراد الانتفاع بفن التفكير فلا مفر له من الامام بقضايا المنطق وأقيسته وكل القوانين المنطقية
العامّة التي تسير بهذا الفن إلى الناحية الصحيحة .

ولما كان المنطق ينقف الفكر ويروضه فهو يساعد المادي على التفكير في شئون العيش وكسب المال

وتحقيق الجرائم وتذليل الصعاب واكتشاف المعادن وما شابه . كما انه يعين المشتغل بالعلم على اختراع الأجهزة وكشف النجوم وحل المعضلات الفلسفية ونحوها . كذلك هو يعبد الطريق للفكر الراجح في فهم معنى الوجود واكتشاف معنياته . إذ كثيراً ما يستخدم الاستنتاج المنطقي في انتقال العقل من الأمثلة والمقدمات إلى نتيجة معينة أو إلى حكم عام . .

وهناك أيضاً ما يجب توافره في التفكير وذلك هو الفراغ الذي لولاه لا يتأتى للفكر أن يحول بسعة ويصوب بحرية . وهذا الفراغ اذا توفر عند السليمي العقول والحواس خلق منهم فلاسفة وعابرة وأدباء . واذا توفر لدى الأمم تمخض عن ثورات وانقلابات إذ أن الفراغ يولد التفكير والتفكير يولد الثورة وحب التجديد والاصلاح .

ولكن أكثر الناس ، لسوء حظ البشرية ، قلما يفكرون في النافع المجدي . فهم يضيعون أيام حياتهم في التفكير في المسائل التسافهة وسفاسف الحياة وفي جمع المال وفي الطعام والملبس والملاهي ، ومن الناس من ينفق حياته في التفكير في الأمور الجنسية . والحقيقة أن مثل هذه السفاسف التي يظنها الماديون أول وأهم ما يجب التفكير فيه ، إنما هي تبذير في القوى الفكرية ومقاومة للارتقاء الذهني ، وجدير بالمرء أن ينظر إليها نظرة سطحية وديعة لا داعي الى الاهتمام الكلي بها . إذ هناك ما هو أهم من جمع الذهب والتفرغ لمتعة الجسد . هناك من المسائل الجدية التي تسمو بنفوسنا وبما حولها شيء كثير . .

وكثيراً ما تختلف وجهات التفكير الراقى ، فالبعض يحصر دائرة تفكيره في تهذيب النفس وحشها على الفضائل ، وآخرون يفكرون في الله وما وراء الطبيعة ، والبعض يفكر في خير البشرية وتطورها واصلاحها ، وآخرون يفكرون في خير نخط يقضون به هذه الحياة ، وغيرهم يفكر فيشاك في كل شيء . .

وعلينا أن نتعلم كيف نفكر ، وكيف نحصر انتباهنا الارادي في الموضوع الذي نفكر فيه فلا ندع خواطرنا تنساب ، وتشط هنا وهناك بتداعى المعاني ، إلى نواح يلد للعقل الباطن أن يحول فيها ويحوم . .

وحصر الفكر في نقطة معينة يحتاج في مبدأ الأمر الى تمرين وممارسة تنتهي في الغالب الى عادة ذات فوائد عظيمة . وهو بهذا الحصر يوفر أوقاتاً كثيراً ما تنفق في خواطر فارغة تملأ الرأس وهو يستطيع بذلك أن يفكر في كل مكان وفي اى وقت يشاء مادام يملك تلك القدرة على حصر تفكيره في موضوع معين مفيد . .

ولز والعصر الجديد

أن دراسة مؤلفات هيرت جورج ولز تقتضي من كل أديب أن يكرس بضعة أشهر يجول فيها بين نحو الحسين من كتب وقصص هذا الكاتب الموهوب ، وهو بهذه التضحية سيربح كثيراً بل له أنه يتبدل إنساناً جديداً !

فهو الأديب الذي يمثل روح العصر الجديد ومبادئه ، وهو مصور آماله المستقبلية ، والذي يدالج في كل مؤلف أو قصة موضوعاً اجتماعياً أو مبدأً حيويًا له خطورته في هذا الزمن . فهو بذلك مؤسس مدرسة من الأدب الجديد ظهرت بعض آثارها في العالم وسوف يكون لها آثار أخرى في الأدب العالمي في المستقبل القريب . .

وهو الأديب الذي كون نفسه وشيد صرح عظمته بجهوده ، فقد ولد عام ١٨٦٦ ، فهو اليوم شيخ في السبعين إلا أن حيويته لم تنضب ونشاطه لم يفتر ، إذ هو ما زال حتى الساعة يؤلف الكتب والقصص والمقالات وقد رأينا أنه يؤلف في هذه السنين الأخيرة روايات علمية للسينما ، وكان أبواه فقيرين لم يستطيعا تعليمه وأرسلاه في الثالثة عشرة من عمره ليعمل في محل صانع أقمشة ثم ليعمل في صيدلية ولكن نفسه لم تنفع بالجهل والفقر ، فأخذ يدرس ويقرأ ، والتحق بكلية العلوم بجامعة لندن وكان العالم هكسلي بين الأساتذة الذين تتلمذ لهم ثم حاز من الجامعة على بكالوريوس في العلوم ، واحترف مهنة التدريس ولكنه أصيب بنزيف رئوي هدد حياته فاضطر حفظاً لمهنته أن يسكن إلى مهنة الكتابة ، فأخذ يكتب في الصحف ويؤلف الكتب وكان التأليف هو الصناعة التي هيأها له القدر ليظهر مواهبه ونبوغه . فأخذت مؤلفاته تتوالى حتى أربت اليوم على الحسين وكان بين تلك المؤلفات كتاب ضخيم وضعه أخيراً عن تاريخ حياته ذكر فيه كل ما لاقاه من صعاب وصعور فيه نفسه أحسن تصوير . .

وهو بذلك قد نشأ نشأة علمية لازمتها في كل كتاباته حتى الأدبية منها ، وكان أول كتاب ألفه عن التشريح ، ووضع كتاباً عن المعارف العلمية الحديثة ، وكتاب علم الحياة ، وكان في كل قصصه يستلهم علوم النفس الحديثة ويؤمن بالتطور وينتفع ببقية العلوم من نباتية وحيوانية وميكانيكية

على الرغم من تلك الصبغة العلمية الواضحة في كل مؤلفاته مما يرى أنه عالم مزود بالعلوم العصرية ، فإن كتابته كتابة فنان رقيق الأسلوب موسيقى العبارة لا يخلو من أوصاف شعرية رقيقة . .

وأدبه يتصل بالحياة ينقدها ويرمى إلى إصلاحها ، فهو بذلك مصلح مجدد ، يحمل رسالة سامية إلى العالم ، ولا يخلو مؤلف له أو قصة من غاية في الإصلاح أو نقد للحياة العصرية يعرضه بنكر حر

وصراحة ونزاهة ، فهو في الواقع من قوى القرن العشرين التي تمين المجتمع في فوضى حياته الحاضرة على التطور الاجتماعى ، واصلاحه فسيح المدى يسرى على العالم كله « قريتنا الكبرى » وهو صادر عن عطف إنسانى عميق ، يحتضن هذا الكون كوطن واحد لإنسان واحد ، يجب أن يعيش سعيداً آمناً ، يستفطر العلم ومكتشفاته والفكر وتتأججه في سبيل رقيه ورفاهيته . وهو يرى أن النجاح في التطور البشرى يجب أن يعتمد على تفوق الآلات في أيدي طراز خاص من الانسان ، ذلك الطراز الذى تحتاج أية امة إلى السنين العديدة لتصل اليه ، وليس ثمة اليوم امة على الأرض يمكن أن يقال فيها أنها تسعى جهدها لخلق هذا النمط الراقى من الانسان . .

وهو مع اتصاله الوثيق بالحياة الحاضرة فإنه يفتح الماضى ويكتب كثيراً عن المستقبل ، ويتنبأ بنبؤات مبنية على نظريات العلم ، فالتقدماء كانوا كالعلميان قانعين بحاجات يومهم في حياة تسير على وقيرة بطيئة ، أما اليوم فنحن في سيل جارف من القوات الهائلة وعلينا أن نصحو ونتطلع إلى الأمام . ان المستقبل يجب أن يكون موضع الاهتمام لأن نمو العمران السريع يزداد ويتسع والحضارة الآلية تتقدم ، و ثمة أخطار كامنة تتجمع وتزداد بتقدم الحضارة وعلينا أن نكون بهيئى النظر . . وأخذ ولز على عاتقه التنبؤ بهذه الأخطار والحوادث الآتية لاسيما في قصصه الخيالية ، ووضع عدداً من المؤلفات التي تصور المستقبل مثل كتاب « النبوءات » الذى وضعه عام ١٩٠١ وكتاب المستقبل فى أميركا وكتاب حرب الطيارات ، وكتاب الحرب والمستقبل ، وكتاب الطريق التي تسير فيها الدنيا . .

ففى كتاب النبوءات يبحث ولز في مستقبل علم الميكانيكيات وطرق المواصلات ، ويتنبأ فيه عن ذلك التقدم الذي تصل اليه طرق النقل وازدياد السرعة ، وبذلك تصبح الكرة الأرضية فى القرن العشرين أصغر مما كان عليه قطر واحد كالهند فى الماضى ، ومع أنه كتبه عام ١٩٠١ إلا أنه تنبأ عن الطيران ومستقبله نبوءات صادقة ، ثم استنتج من ذلك النشاط القادم ماستؤول اليه حال المدن الصناعية من اتساع عظيم يصل إلى تغطية مساحات بأجمعها ، وما سيؤول اليه نظام الطبقات الاجتماعية من آراء أصحاب المصانع وفقير العمال وغلاء المعيشة فى المدن . .

وفى كتابه « الحرب فى القرن العشرين » الذى وضعه قبل الحرب بسنوات ، والذي حققت الحوادث جل نبوءاته ، رأى أن الحرب فى القرن العشرين ستتقدم تبعاً للتقدم الميكانيكى ، حتى تصبح حروب نابليون بالنسبة لها ألعيب قروية ، وستكون الطيارات عين الحرب الباحثة ويدها الضاربة . وقد وضع ولز كتابين هما « حرب الطيارات » و « الحرب والمستقبل » بحث فيهما فى الحرب وما تجره على الحضارة والمجتمع من أخطار وأن الحروب القادمة تتصل بحياة كل شخص فى العالم مهما كان وطنه أو عمره أو عمله . .

وهذه النظرة الناحضة المتغلظة في المستقبل تربية العالم سائراً نحو الاتحاد العالمي ، وأنه مهما استطاع البشر في حروب ومهما مر من أزمان ، فليس ذلك سوى عقبات في طريق البشر السائرين نحو حكومة عالمية هي « الجمهورية العالمية لولايات الأرض المتحدة » . ورز اليوم في طليعة المنادين بالوحدة العالمية واتحاد الشعوب ، التي دعا إليها منذ قرن بهاء الله وعباس عبد البهاء ، لكنه جعل منها دعاية تقوم على دطامة العلم . .

وهو يكره الوطنية المتطرفة والتعصب القومي ويكره لذلك الفاشية ، ويكره أمثال نابليون والاسكندر لأنهما من رجال الحرب وفي كتابه « مؤامرة مكشوفة » يكتب في هدم الوطنية وتكوين حكومة مركزية والنشاء نقد عالمي ومزاج ديني لكل الأمم واتفاق الآراء السياسية فلا يكون ثمة تعصب يسبب الحروب ..

كما أنه يكره الأباطوريات حتى الامبراطورية البريطانية ، بل هو يدعو إلى الجمهورية حتى في إنجلترا فهو بعكس كبلننج الذي يشيد بمجد الأباطورية والاستعمار الانجليزى ويحتقر الهند . . وألف وز تاريخها للعالم أسماء « التاريخ العام » وذلك منذ ستة عشر عاماً ، لخص فيه تاريخ العالم منذ أقدم عصوره الجيولوجية الى الآن . إذ أن الانسانية يجب أن يكون لها تاريخ عام وليس لكل أمة تاريخ على حده . فاعتبر فيه الأرض أمة واحدة ذات تاريخ واحد تسير إلى الامام في ظل العلم . ويذهب وز إلى أن السلام والسعادة والرخاء لا تعم الأرض إلا إذا اشترك سكان الأرض في الآراء التاريخية فاجتمع شملهم ، ونبذوا وراءهم النزعة الوطنية والاثرة القومية اللتين تسببان الحروب والمصائب . فالاتحاد الأمم هو مقياس تقدمها لا مقدار ما وصلت اليه من علم وصناعة . وهو يمدح الأديان لأنها تنشر مبادئ الأخاء والمساواة وتساعد على اتحاد الشعوب ، ويثنى على الاسلام لخلوه من التعقيدات اللاهوتية التي كثيراً ما سببت الفساق ، ويدافع عن الاشتراكية ، ولو أنه يكره الشيوعية الروسية ويدعو في هذا السبيل إلى اتحاد عمال العالم كلهم . .

ويرى وز أن الحياة الاجتماعية والسياسية ستبقى في القوضى والتعرض لمصائب الحروب والقلق والفقر حتى يظهر نظام عالمي يشبه النظام الاشتراكي وهذا النظام في حاجة إلى جهود كبيرة وسنين عديدة حتى يستتب وينتشر في كل الأرض . .

وفي كتابه « اتجاه العالم » : يبدو وز المتفائل بمصير البشرية الذي يرى الفجر يقترب ، ويرى البشائر في الأفق ، وهنا يبحث في مستقبل الفرد بحثاً مبنياً على قواعد علمية ويرى أن حياة الفرد اليوم مع ما في العالم من أزمات وضيق ، أسعد منها في أي عصر من العصور الماضية ، ويندد بالذين يدعون الانسان للرجوع إلى الوراء وإلى الطبيعة الأولى . ويرى أن متوسط حياة الانسان قد

زاد في الربع قرن الأخير نحو اثنتي عشر عاماً وأن الوفيات قلت ، وأن الطفل يمكنه في المستقبل أن يبلغ المراهقة بسلام في البيئات المتقدمة ولا يتعرض للوفاة ، والرق قد زال والسحرة القديمة قد ذهبت ، وتحسنت الصحة العامة . ثم يبين أن الإنسان يتطور في هذه السنين الأخيرة تطوراً بيولوجياً . وبينما كانت حياة الإنسان في القديم حياة تناسلية محضة ليلد الأبناء ويكون الأسرة ، إذا بانسان اليوم يفكر في ضبط النسل ولم تعد الأسرة هي كل شيء للرجل ، إذ اتسعت أمامه الدائرة وأصبح ينظر إلى الحياة الانسانية نظرة شاملة . .

وفي كتابه «عولم جديدة بدل القديمة» يبحث في الاشتراكية من ناحية العمال فهم فقراء مجموع أولادهم وتنحط قواهم العقلية والجسدية مع أن العامل قوة يعتمد عليها في ثراء الأمة ، ويجب على الحكومة أن تهتم بتعليمه وإعطائه في عطائه ، كما يبحث في الخسارة التي تحل بالمجتمع من النظام الفردي الحالي ، فهناك من أرباب المصانع من لا يبالون بجودة البضاعة في سبيل الربح ، ولو أدى بهم الحال إلى غش الطعام والشراب والملبس . .

وفي كتاب « ما كيافالى الجديد » يصور لنا كفاهاً بين المحبة والواجب ، ويفسر الأحوال السياسية في هذا العصر ويشكو من النفاق الجوهرى للنظرة العصرية ، ويرى دفع السياسيات إلى جور أوضح وأجمل . ولقد قرأنا كتاب الأمير الذي كتبه ما كيافالى فرأى فيه نقائص لا تليق بهذا العصر الجديد ، ورأه لا يعترف بالمرأة التي أخرجها من نظام حكومته وطردها من مخيلته كآلة للولادة ومضيعة لوقت الأمير . ولكن العصر الحديث يمتاز باكتشاف نفسه الآخر النسوي فأخذوا على عاتقه تأليف ما كيافالى جديد في قالب روائى شيق تندمج المرأة في نظام حكومته ، واعترفوا له فيه بجمال وقوة الحب بين المرأة والرجل وأثروا في نظام الحياة . .

وبينما يقدم ما كيافالى كتابه إلى أمير فإننا نرى يقدمه إلى التزعة الاجتماعية الإصلاحية في أي انسان . فلقد بات عصرنا لا يصلح لحكم فردى كما تخيل أفلاطون وكنفوشيوس ثم ما كيافالى . لقد كان عصر ما كيافالى في حاجة إلى عمل انسان مفرد ، ولكن تلك الايام التي كان الأمير فيها يشترع وينفذ ، وكان فيها منبعاً ومركزاً للقوة قد ذهبت وانقشع أوانها . فنحن اليوم في حال أكثر من من سابقها تعقيداً ، حال يبدو فيها الأمير أو السياسى كخادم والمخلوق البشرى الذكى كأمير ، عصر اختفت فيه القوة لأنها زادت وشملت ، فلم تصبح قوة سالبة بل موجبة وهذا العصر يفوق كل العصور السالفة في كثرة رجاله الأقوياء ، عصر مختلط النظام يحتاج إلى حكومة عادلة منظمة . .

وفي كتابه « آلة الوقت » الذي ظهر عام ١٨٩٥ وولز في التاسعة والعشرين من عمره ، وهو قصة علمية شائقة في قالب كتاب يصف لنا رحلة خيالية تخرق الزمن وتصل إلى المستقبل وتتخيل حال العالم بعد ثمانمائة ألف سنة ، وهنا يصف بأسلوب روائى شيق عالماً من علماء الآلات يتوصل

الى آلة تقطع الزمن وتسير في أعماق المستقبل ، بسرعة سنة في الدقيقة ، ثم تزداد السرعة فتتوالى القفول بسرعة ، وتقبل معالم الأرض وإذا بالمسافر يلتقي نفسه مخلوقاً غريباً في أرض عجيبة ، وإذا بالبشرية منقسمة إلى طائفتين عملت فيهما يد التطور : طائفة المترفين الذين يعيشون على سطح الأرض وليس لهم غير الغناء والرقص وقد ضعفت أجسامهم وزاد جمالهم وتراخى بهم وأصبحتوا أشبه بالأطفال ، والآخرى طائفة العمال الذين يعيشون تحت الأرض مع آلاتهم ولا يبصرون في النور ، وقد انحطوا حتى صاروا كالوحوش يتصيدون المترفين في الظلام ليأكلوهم . ويرمز ولز بهذه القصة الخيالية إلى مغالاتنا في الاعتماد على الآلات وانتفاع طبقة الأغنياء بثمارها مما يؤدي إلى خمولهم وتراخىهم بينما تشتد قوة الطبقة العاملة وتنحط إلى أن تصبح في مرتبة الضواري . .

وفي كتابه « المستقبل في اميركا » يري ولز أن الأمريكى لا يفكر إلا في جمع الثروة ، وظهر من الأمريكيين من أصحاب الملايين كثيرون بينما الكثيرون غيرهم يموتون جوعاً وليس السبب في ثروة روكفلر ومورجان هي المواهب والمقدرة بل لأن النظام الاقتصادي فاسد في حاجة الى اصلاح ، وهذا الكتاب الذى ألفه حوالى سنة ١٩٠٢ يخالف الحاضر في بعض الوجوه لأنه من الكتب المؤقتة التى يعالج فيها ولز حالة خاصة قد تتغير بعد سنين . .

وفي قصة « تونو بنجاي » التى ظهرت عام ١٩٠٩ يبدو ولز في ثوب المصلح الاشتراكى النافر من أخطاء المجتمع المصرى وارتباك أنظمته ، فيتهمك بمرارة على مبادئ التجارة العصرية ويهاجم تلك الطرق المزيفة التى تجمع بها الثروة ، ولو كان من ذلك خسارة تحمل بالجمهور ، ويضرب مثلاً باحتكار تجارة الأدوية والعقاقير وخداعها للجمهور الساذج بطريق الاعلان والتدجيل . فهنا يصور ولز صيدليا خامل الشأن يقوم بعمل التجارب العلمية ليكسب عيشه فيفلس ويشغل عاملاً في احدى الصيدليات حيث يخطر له أن يتدع نوماً جديداً من الأدوية الرائقة ذات الاسم ، الرنان ويطلق عليه « تونو بنجاي » وهو اسم طراً عليه فجأة فهمس به الى ابن خاله وليس فيه غير اللون والرائحة ثم يعتمد على مال ابن أخيه فى الاعلان عنه فى الصحف وغيرها بشتى الطرق والوسائل الجذابة فيقبل الناس على شرائه وتتسع دائرة المشروع وتكبر الشركة ويتفرع من ذلك الدواء الموهوم مساحيق وصابون وقطرة ويصبح ذلك الصيدلى الفقير مثيراً مشهوراً ووجيهاً يشار اليه بالبنان وتحدث عنه الصحف فهذا المثل من الاثراء ضرب من السرقة ولا يجوز لنا أن نرى ما يحل بالجمهور من وراء ذلك الدجل والنجاح الاجوف من خسارة وخداع ونسكت على ذلك . فولز يختم قصته بأن يدع الحكومة تحلل تلك الأدوية المزيفة وينكشف الخداع ويهرب الصيدلى وابن أخيه إلى حيث الافلاس وانهار الآمال . وهنا تبدو مهارة ولز فى التحليل النفسانى لأشخاص قصة ويرغمنا على العطف على تلك الطبيعة البشرية الضعيفة التى تقاسى انهيار الأمل . .

وفي رواية « فيرونيكا » يذكر ولز وجوب مساواة النساء بالرجال في الحقوق ، ولماذا تطالب بالجمال وتحرم من الوظائف وعضوية البرلمان ، ولماذا تعامل كطفلة في الحديث معها . وقد أصبحت مثل هذه القصة من الطراز القديم لأن المساواة التي كان ينشدها ولز تحققت . وهذا مما يجعل بعض مؤلفات ولز ذات صبغة صحفية وقتية تتغير مع تغير الزمن . .

وفي قصة « حرب العوالم » التي تدور حول تطور الاختراعات البشرية في قالب خيالي يتصور ولز حرباً ، لا بين أمة وأخرى من أمم الأرض ، بل بين أهل الأرض وأهل كوكب آخر كالمريخ مثلاً ، فيستعرض كل من أهل الكوكبين آخر ما وصل إليه من مخترعات وآلات للقضاء على الآخر ، إلا أن المريخ أقدم من الأرض عهداً ومخلوقاته تفوق سكان الأرض تقدماً ، لكنها مخلوقات خارقة للعادة وتخرج عن حد البشرية ، ففي يوم سقط المريخ في الفضاء وراه أهل الأرض قريباً منهم فعرفوا فيه كوكباً عادياً سقط من مكانه وكانوا يدرون أن في مثل تلك الكواكب خطراً على أهل الأرض . وفي صباح اليوم التالي هبط المريخ على الأرض وغرس في رمالها وظهر نصفه الأعلى بشكل أسطوانى . وسرعان ما خرجت منه مخلوقات غريبة لها عيون كبيرة كأنها أقراص لامعة في وجوه صرعية ثم تبعها مخلوقات أخرى جبارة كأنها الأبراج تصير على شبه سيقان حديدية منيفة ولها أجسام مثل الآلات الضخمة المملآى بالعدد والحركات ، وكان في كل منها ما يشبه المرأة تشع حرارة قوية تذيب الحديد وتبخر البحار وتحرق الناس والدور فتقهقر أمامهم سكان الأرض بعد أن جربوا كل ما لديهم من حيل حربية ، ولكن أهل المريخ تفشى بينهم مرض البكتريا الذي نشأ عن التعفن وكانوا لا يعرفونه فيتقونه فماتوا عن آخرهم . لأن الأرض لأهل الأرض وحدهم ، وقد ابتاعوا حقهم في الحياة عليها بملايين الملايين من الموتى ، ومنظّل الأرض لساكنيها مهما بلغ أهل المريخ من القوة لأن الناس لا يعيشون ويموتون عبثاً ! .

إن المقام لا يتسع للتحديث عن الحسين كتاباً وقصة التي ألفها ولز ، وهذه الصفحات القلائل لا يمكن أن تفي به حقه لما صنعه للعالم من جميل . ولكن كان من الصعب أن يختم كتاب عن الحياة الجديدة بغير الحديث عن ولز رسول الحياة الجديدة . .



الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
في الخيال	١٢٥	تمهيد	٣
جنود الخلاص	١٢٢		
الباب الثاني		الباب الاول	
شؤون مصرية		محويت عالمية	
نشر التعليم وإصلاحه	١٢٨	مبادئ جديدة لعصر جديد	٨
في الأدب المصري	١٣٤	الخوف من الجديد وكرهه للمجددين	١٧
الأدب المصري والوصف	١٤٥	فن الحياة	٢٣
الكاتب المصري بين البيئة والعصر	١٤٥	الانسانية بين الحرب والسلام	٢٨
ركود الأدب بمصر	١٤٧	بين الحق والقوة	٣٦
الأدب المصري القديم وأثره	١٥٥	في الوحدة العالمية	٤٥
كتاب الموتى	١٥٧	عدة النجاح في العصر الجديد	٤٩
المؤلفات العالمية لم تترجم إلى العربية	١٦٤	مستقبل العالم في نظر العلم	٥٧
في مصر بعد خمسة قرون	١٦٧	طوبى عصرية	٦٢
جولة في متحف القرن العشرين	١٧٣	فلسفة التشاؤم	٧٠
تجديد الموسيقى المصرية	١٧٧	القوة الخالقة	٧٨
نشر الموسيقى في مدارسنا	١٨٢	في خلود الروح	٨٢
تجديد فن التمثيل بمصر	١٨٥	في التقليد والابحاء	٨٨
مصر تكتظ بسكانها	١٩١	في الادب الجديد	٩١
احتضار الحجاب	١٩٥	يونان الجديدة	٩٦
شعر ونظم	١٩٨	تركيا الجديدة	١٠٣
مصريون يؤلفون كتباً بلغات أجنبية	٢٠١	بين العرب واليهود بفلسطين	١٠٦
تجديد الأدب العربي بأميركا	٢٠٤	فن الكلام	١١٤
الفلاح وتجديد القرية	٢٠٧		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
ساعة مع تيمسون	٢٦٤	الباب الثالث	
» » اندريه شنييه	٢٦٧	دراسات أدبية وفنية	
» » باوسكار وايلد	٢٧١		
خواطر في الطريق	٢٧٧	في الفن الاغريقي	٢١٠
» » حديقة	٢٨١	شعراء الارستقراطية	٢١٧
» » مقبرة	٢٨٦	في الأدب النسوي	٢٢٠
» الامام الجديد	٢٨٩	في الأدب الهندي	٢٢٦
تأملات على شاطئ البحر	٢٩١	ساعة مع بوذا	٢٢٩
في المعمل	٢٩٦	» » كاليداسا	٢٣٥
البشرية	٢٩٨	» » تاجور	٢٣٩
المسرة	٣٠٠	» » هوراس	٢٤٥
في ملكوت المجانين	٣٠٤	» » ملتون	٢٤٨
فن التفكير	٣٠٩	» » أوليفر جولدسمت	٢٥٥
ولز والمصر الجديد	٣١١	» » شللي	٢٦٠

